

الإسلام في السودان

المجلس
الأعلى
للثقافة

تأليف

ج. سبنسر تريمينجهام



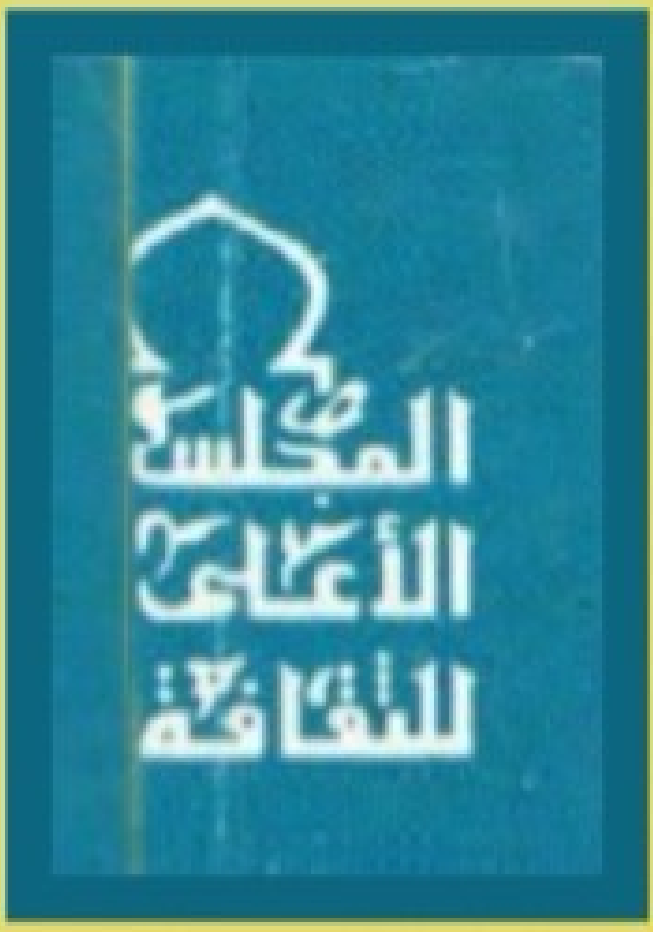
المشروع القومي للترجمة



ترجمة

فؤاد محمد عكود

Dr. Binibrahim Archive



ISLAM IN THE SUDAN

J. Spencer Trimingham

يقدم هذا الكتاب سرداً قيماً للممارسات والخرافات التي ما تزال باقية من عهود ما قبل الإسلام ، كالسحر الأسود والأرواح المسيطرة للمخلوقات النيلية الخرافية وحوريات الماء ، بالإضافة إلى الآثار الباقية من النظام الأمومي واستئزال المطر والطقوس الخاصة بحلب اللبن ، كذلك تطور وظهور الطرق الصوفية في السودان وتكويناتها المعاصرة وممارسات وتعاليم هذه الطرق .

ويقول المؤلف إن هدفه هو محاولة تزويد القارئ بخلفية يبني عليها فهماً صادقاً للسودانيين ويمهد الطريق لاتصال حي وقوى ، ويجب أن يكون مفهوماً ، بشكل جلي ، أنه لا يصف الإسلام النظري ، ولكن يصف الدين الحي لمنطقة بعينها . ويضيف : إنه إذا ما حاول أن يصف المسيحية في إنجلترا اليوم فإنه لن يهتم في ماذا يقول رجال اللاهوت عن ما هي المسيحية ، ولكن الأحوال الاجتماعية التي كانت فيها المسيحية عبر القرون عاملاً مؤثراً ، وكيف أنها شكلت الإنسان ، وكيف أن سلوك الناس وبينتهم قد صاغت بدورها شكل مسيحيتهم . هذا ما حاول المؤلف أن يقوم به بالنسبة للسودان الشمالي .

كما يتعرض الكتاب - في فصوله الأخيرة - لعلاقة القبائل الوثنية بالإسلام في الوقت الحاضر ومظاهر أثر التغريب على السودان .

المشروع القومي للترجمة

الإسلام فى السودان

تأليف
ج . سبنسر تريمنجهام

ترجمة
فؤاد محمد عكود



محتويات الكتاب

٧	مقدمة
٩	مدخل
١١	١- الأرض والسكان
١١	١- الأرض
١١	أ- حدود وطبيعة البلاد
١١	ب- المعالم الطبيعية
١٢	ج- المناخ
١٣	٢- السكان
١٦	أ- القبائل المتحدثة بالنوبية
١٩	ب- قبائل البجة
٢٤	ج- القبائل المتحدثة بالعربية
٢٨	د- القبائل المسلمة شبه الزنجية
٤٢	هـ- القبائل الوثنية فى جنوب السودان
٤٢	و- اللغات
٤٧	٢- موجز تاريخى : من الممالك المسيحية حتى قدوم العرب
٤٧	١- التاريخ المبكر
٥٧	٢- اعتناق النوبيين المسيحية
٦٧	٣- تاريخ مقرة
٧٤	٤- التغلغل العربى ونهاية مملكة مقرة
٧٩	٥- مملكة علوة
٨٢	٦- أسباب اضمحلال وأفول المسيحية فى السودان
٨٧	٣- السودان تحت الحكم الإسلامى
٨٧	١- توسع القبائل العربية وتعريب السودان
٩٠	٢- النوبة ودنقلا

٩١	٣- كوندراالية سنار
٩٥	٤- دارفور ودخولها فى الإسلام
٩٧	٥- التركية
٩٩	٦- المهديّة
١٠١	٧- السودان الإنجليزى - المصرى
١٠٣	٨- انتشار الإسلام فى السودان
١٠٩	٤- الإسلام القويم
١٠٩	١- تمهيد : خصائص الإسلام السودانى
١١٦	٢- الدولة الدينية الإسلامية
١١٨	٣- النظام التقليدى فى السودان
١٢٣	٤- التنظيم الحديث للعلماء
١٢٥	٥- المساجد: موظفوها وجماعات المعلمين
١٢٩	٥- معتقدات وممارسات شعبية فى الإسلام
١٢٩	أ- تأليه الأولياء
١٢٩	١- الأولياء فى الإسلام : فكرة المسلم عن الإنسان التقى
١٣١	٢- غرائب تقديس الولى فى السودان
١٤٢	٣- الأضرحة والممارسات المرتبطة بها
١٤٧	ب- العوامل الإيمانية بالبعث والحساب
١٤٧	١- الاعتقاد فى المهدي
١٤٩	٢- المهديّة فى السودان
١٥٥	٣- استمرار الاعتقاد بالمهدي والمهديّة
١٦١	ج- التأثيرات الأرواحية فى الإسلام السودانى
١٦١	١- الإسلام والأرواحية
١٦٣	٢- الخرافات غير الإسلامية والممارسات الوثنية
١٧٤	٣- التأثيرات الوثنية على الحياة الاجتماعية والأسرية

١٨٣	٦- الطرق الدينية
١٨٣	١- تطور الصوفية فى الإسلام
١٨٧	٢- نشأة الطرق الدينية
١٩٠	٣- دخول الطرق السودان
١٩٧	٤- منهج التنظيم
٢٠٠	٥- المذاهب
٢٠٥	٦- الشعيرة والممارسة
٢١٠	٧- القادرية
٢١٤	٨- الشاذلية
٢١٦	٩- المجذوبية
٢١٨	١٠- السمانية
٢١٩	١١- الإدريسية (الأحمدية) والرشيدية
٢٢٢	١٢- الميرغنية أو الختمية
٢٢٥	١٣- الإسماعيلية
٢٢٦	١٤- التيجانية
٢٢٩	١٥- طرق ثانوية (السنوسية والزبالعة والعزمية والطرق المصرية الأخرى)
٢٣٣	٧- الإسلام والسودان الوثنى
٢٣٣	١- الإسلام واتصاله بالسودان الوثنى
٢٣٣	أ- قبائل شرقى النيل
٢٣٤	ب- النوبا والتغلغل الإسلامى
٢٣٧	ج- القبائل النيلية الوثنية
٢٤٣	٨- تأثير الاستغراب على السودان
٢٤٣	١- أثر الاحتلال البريطانى
٢٤٤	٢- تطور التعليم
٢٤٧	٣- التحول الفكرى والاجتماعى

٢٥٣	٤- التحول الاقتصادي
٢٥٦	٥- المرأة والتحول الاجتماعي
٢٥٧	٦- الصحافة
٢٥٩	فهرس بأسماء الأعلام والأماكن والبلدان والقبائل والخرائط

مقدمة

الغرض من هذه النظرة هو مساعدة كل الذين لهم اهتمام بالسودانيين ، وذلك لفهم دلالة الإسلام فى حياتهم ، وبينما هو حقيقى أن الفهم الحقيقى للتأثير الذى شكل - وما زال يشكل - الفكر الدينى ، والممارسة الروحية لأى شعب إسلامى يمكن التماسه فى الحياة الفعلية المتصلة بحياتهم الثقافية والروحية ، وآلآن وقبل أن نقوم بذلك يجب أن تكون لدينا معرفة بالإسلام كأساس للتفسير، زيادة على ذلك فإن الدين الحى لأى شعب يعيش فى منطقة بعينها ميزه ذلك الانحراف والاختلاط الذى تسلم به القادمون الجدد : كتاب مدرسى عام حول الإسلام أعد ليلائم بالكاد صورة الدين الفعلى . لقد كان هدفى محاولة تزويد القارئ بخلفية يرتكز عليها لفهم السودانين بشكل حقيقى وصادق ، وتمهيد الطريق للاتصال المباشر الحى ، ويجب أن يكون واضحاً تماماً أننى لا أصور الإسلام النظرى ، ولكن الدين الحى لمنطقة بعينها، فلو كنت أصف المسيحية فى إنجلترا اليوم فلن أهتم بما يقوله المنظرون عما هى المسيحية ، ولكن سأهتم بالأحوال الاجتماعية التى كانت فيها المسيحية العامل الاجتماعى المؤثر على مر القرون ، موضحاً كيف شكلت المسيحية الناس ، وكيف أن صفة وبيئة الشعب قد صاغت بدورها شكل مسيحيتهم ، هذا ما حاولته فيما يتعلق بالسودان الشمالى ، أملاً ألا تكون الحاجة للمنهجية والتنظيم قد أفستت الغاية والهدف ، وعلى أية حال لقد حاولت أن تكون مقدمتى اجتماعية بالإضافة إلى كونها إسلامية أو - بكلمة أخرى - تركيبية بالإضافة إلى كونها تخصيصية .

ولا يمكن تجنب مسألة « الاقتراب » من الإسلام إذا كنا سنحدد معناه بالنسبة لنا وللآخرين اليوم ، ولكن عند التعامل مع دين إنسان آخر فإننا نحتاج إلى اقتراب خاص، إذ إننا كما تقول الأبيات الشعرية :

لقد نثرت أحلامى تحت قدميك

فسر عليها برفق لأنك تدوس على أحلامى

أعرض فقط تقدمتى على أمل أن تكون حقيقية بما فيها الكفاية للإسلام الحى فى السودان ، وذلك لتمكين القارئ ليكون لنفسه اقتراباً حقيقياً .

لقد تمت كتابة هذا الكتاب أثناء سنوات الحرب ، وبينما أقوم بتنفيذ المهام الإدارية التى كانت لها الأولوية ، وبالطبع فقد تأثر تأليفه بهذه الأحوال ، بالإضافة الى صعوبة تحمل فترات الدراسة والحصول على المكتبات، كل ذلك أدى لأن يكون الكتاب الذى كتبته تنقصه الدراسة المثلى التى كنت أرغب فى كتابتها ، وإن كان على أن أذكر بالاسم كلاً من أصدقائى السودانين والمسؤولين الحكوميين والإرساليات الذين ساعدونى بطرق عدة ، فإن هذه المقدمة ستتم قراءتها كما لو كانت قاموساً ، ولكن

بالرغم من أنني لم أذكرهم بالاسم فإنني مدين لهم جميعا ، إذ لولا مساعدتهم لما كتبت هذا الكتاب ، كما أدين للكتاب الآخرين الذين أظهرت بجلاء مصادرهم في الهوامش ، كما أنني ممتن لمصلحة المساحة في حكومة السودان للسماح لي بنشر الخريطة المرفقة في آخر الكتاب .

ج.س. تريمينجهام

يونيو ١٩٤٦

مدخل

السودانى الشمالى هو موضوع هذا الكتاب ، والسودانى مظهره الدينى بصفة خاصة ، وسنقوم أولاً برسم « إسكتش » بخلفية دراستنا - الشعب وبيئته .

فلدينا من جهة البيئة تقسيماتها من جبل ووادى ونهر وسهل ومناخ وأمطار ورياح قوية وخفيفة ورمال وتربة. ومن جهة أخرى الإنسان المزارع المحصور في قريته في مجال حراثتها وحياته الاجتماعية ، ولكنه معزول في مجتمعه ، ثم البدوى المنعزل ، القلق ، المستقل ، ولكنه ليس حراً ، المدفون في واقع الأمر مع جملة في الصحراء . إن الإنسان في الحياة الاجتماعية التي تعرفها محكوم ببيئته - الجغرافية والبشرية - التي تقرر طريقه ببيئته في الحياة وتشكيله النفسى . إن الأرض ، وليست العوامل الإثنية هي التي تساعدنا لشرح هذا الإنسان - المستقر والبدوى - فيما يتعلق بظروفه النفسية والاجتماعية ، ونجد هنا التكافل الأساسى بين الروح والطبيعة التي شكلت وامتصت النفوذ الأجنبى على مر العصور .

ولامجال للحقيقة المطلقة ، فالإنسان له فعل ورد فعل ، فالأرض لم تعد هي التي تتخذ القرار بالنسبة للإنسان ، إذ هي سلبية ، ولكن الإنسان هو الذي يقرر. إن أي إنسان هو الذي يضحي بنفسه في سبيل بيئته ، وهكذا فقد حول البقارة أسلوب حياتهم من الجمل إلى البقر؛ وتأتى الجهود وكلها من الإنسان . إن الطبيعة محتملة حتى في السودان ، وتقدم إمكانيات لانهائية بقدرات الإرادة الإنسانية - أى السيد وليس المزارع - أن تفاضل أيأ من الأساليب تختار ، وهكذا فالقطن يأخذ اليوم مكان الصدارة بالنسبة للمنتجات الأخرى .

ومع ذلك فقد أصبح واضحاً تماماً أن كلاً من نصفى وجه الحياة يخضع - في الغالب - للآخر بشكل مفرط . ولكن هناك تفاعلاً مستمراً بين الروح والمادة ، والإنسان والطبيعة . وبينما تحدد الأرض جزئياً صفة وقدر الشعب ، نظراً لأن الإنسان عليه أن يغير من نفسه ليعيش عليها ، فإنه تغلب أيضاً على الأرض وانتزع نفسه منها بالآلم والمعاناة وحدد موقع إقليمه من العالم .

ويبقى مع ذلك التأثير العميق للبيئة الجغرافية على البشر الذين يعيشون عليها ، خاصة في أرض صعبة جداً مثل أرض السودان التي تجعل قهر الإنسان للطبيعة يبدو ضئيلاً جداً ، وعندما أضاف الشعب الأصلى إلى البيئة الجغرافية ذلك التأثير المشترك الذي أصبح في الغالب التعديل الكامل الذى مكن المهاجرين - مثل العرب في السودان - من الاندماج في الشعب الأصلى .

وكانت رتابة حياة المزارع والبدوى هي ردهما على رتابة ووحدة الأرض ، سواء التربة الطينية أو الرملية . فالسواقي والشواذيف على ضفاف النيل ، والجزو في

البطانة والتربة لطينية فى الجزيرة ، ومراعى البقارة ، كلها تفسر بشكل كبير حياة المزارع أو البدوى ، وتنقل له أيضا سماتها وعيوبها ، ولأن الرمال مجسدة فى البدوى فهو مستقل تماما ، ولكنه راكد أيضا ، ولأن التربة مجسدة فى المزارع فإنه متين جدا ، ولكنه ساكن أيضا . لقد أدى الاضطراب العنيف فى المجتمع الذى سببته المهدية إلى إفساد مغزى الحياة البدوية والمستقرة ، وبدأت الآن القبائل البدوية فى استرداد تماسكها السابق ، كما بدأ المزارع يعد لزراعته .

وما زال حتى هذا التكيف المتبادل بين الطبيعة والشعب غير كاف لتوضيح الشعب والوحدة الثقافية للإقليم الذى أصبح يسهم الآن فى المصير المشترك ، وهناك عامل داخلى كبير جداً أصبح يشكل قبل كل شئ حياة السودانى الشمالى ، إنه التأثير المتواصل لتلك الرقعة الكبيرة التى تقع شرقى البحر الأحمر ، إنها الجزيرة العربية . لقد أرسلت الجزيرة العربية شعبها ولغتهم ودينهم ، وفوق كل شئ ذلك النظام الثقافى «الإسلام» الذى كان له أعظم الأثر - بعد البيئة - على سيكولوجية الشعب ، ومهد دينهم وأفكارهم الاجتماعية فى وحدة تثير تعجبنا وإعجابنا .

لقد تلقى السودانيون الإسلام بصدق وإخلاص ، ولكن من خلال مقدرتهم الفذة على الاستيعاب ، شكلوه فى عقليتهم الخاصة ، منفلتين من صيغة علماء الدين . غنوا فيه ورقصوا فيه وبكوا فيه وأدخلوا فيه عاداتهم الخاصة وأعيادهم الخاصة ، وأدخلوا فيه قدرا كبيرا من الوثنية، ولكنهم حافظوا دائما على الحقيقة الحية لوحدة تراثه تحت حكم إله واحد .

ولإدراك فهم حى للسودانيين علينا أن نضع فى الاعتبار حركتين، إحداهما مرجعها عملية حياة الشعب فى اتصاله المباشر مع بيئته الجغرافية، بينما الأخرى هى الدين العالمى - الإسلام - والثقافة والنظام الاجتماعى المشترك لأعداد مختلفة من الشعوب ، والذى ينتج من التفاعل والتركيب العقلية والبدنية ، ويمكن أن نفهم هذا الشعب إذا ما وضعنا فى الاعتبار هذين الاتجاهين ، إن دراستنا الخاصة ستكون الإسلام كما هو موجود اليوم فى السودان ، والذى قبله وألفه السودانيون مع عاداتهم النفسية والفطرية .

الأرض والسكان

١- الأرض

أ- حدود وطبيعة البلاد

بالرغم من أن التعبير العربي « بلاد السودان » يشمل معظم إفريقيا جنوب الصحراء ، إلا أن اسم السودان أصبح يطلق على تلك المنطقة الإفريقية شبه الصحراوية التي تمتد من الأطلنطي حتى البحر الأحمر ، والتي تمت أسلمتها ، وهي ليست في حقيقة الأمر موطن الزنوج ، ولكنها المنطقة المتوسطة والتي تقع بين المجموعة الحامية لشمال إفريقيا ، والمجموعة الزنجية لوسط إفريقيا ، ومع ذلك فقد استخدم البريطانيون كلمة السودان في معنى أكثر دقة لتعني المنطقة الإدارية الشرقية التي تسمى السودان الإنجليزي - المصري .

وهذا الاستعمال هو مادة هذه النظرة العامة بالتحديد ، وسنحتاج في بعض الأحيان للتحدث عن « السودان الغربي » : المنطقة التي تشمل حوض السنغال وجامبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط ، و« السودان العام » الذي يضم حوض بحيرة تشاد ، و« السودان الشرقي » الذي سيقصد به السودان الإنجليزي - المصري الشمالي .

إن السودان الإنجليزي - المصري بلد شاسع مساحته حوالي مليون ميل مربع ، يحده في الشمال مصر ، وفي الشرق البحر الأحمر وإرتريا والحبشة وفي الجنوب أوغندا والكنغو البلجيكي ، وفي الغرب أفريقيا الاستوائية الفرنسية ، ولا توجد حدود طبيعية لهذه المساحة الشاسعة فيما عدا التلال الحبشية في الشرق ومستجمعات أمطار النيل الكنفو في الغرب .

ب- المعالم الطبيعية

أهم الملامح في السودان هو النيل وروافده ؛ إذ يجري النيل الأبيض من بحيرة فكتوريا ويدخل السودان فوق شلالات ، وبعد أن يجري خلال إقليم الساقانا المسطح يسير لعدة مئات من الأميال خلال مستنقعات السدود ، ويظهر أخيرا في إقليم تكثر فيه الأدغال ما بين ملكال وكوستي ، ثم في سهل شبه صحراوي ، إلى أن يلتقي مع النيل الأزرق عند الخرطوم ، ويجمع في مجراه مياه النيل الأعلى ، بحر الغزال وبحر الزراف والسوبات ليوفر المياه المنتظمة طوال العام ، ويجمع النيل الأزرق وعطبرة معا مياههما من هضبة الحبشة ، وبسبب الظاهرة المعروفة بفيضان النيل الذي يوفر ٨٠٪ من مياههما النيل ، كما يجلبان معهما أيضا الطمي الذي يشكل الأراضي الزراعية على ضفاف النيل ، ويبدأ النيل الأزرق في الارتفاع في يونيو ، ويصل ذروته في أغسطس ثم يبدأ في الهبوط في سبتمبر .

ومع ذلك فلم يكن النيل أبدا طريقا عاما للهجرة والمدنية ، ويعترض النيل خمس سلاسل من الشلالات والانحناءات الطويلة مما يجعل الطرق الصحراوية أسرع وأرخص ؛ لذا فقد كان النقل يشمل كلا الطريقين .

وتشكل المنطقة التي يجري فيها النيل سهلاً واحداً واسعاً وهي منطقة واضحة المعالم سياسياً وليست جغرافياً أو إثنولوجياً ، وستقوم برسم صورة مبسطة للملامح .

تقع الصحراء النوبية بين الساحل والنيل، وفي الغرب الجزء الجنوبي من الصحراء الليبية وصحراء بيوضة، وجزء كبير من هذه المناطق خال تماماً من أى نبات، وتتكون من سهول صخرية وتلال متفرقة والعديد من الخيران وألوديان ، ويمتد هذا السهل الصحراوي جنوباً حتى الخرطوم ، ويمتد شريط زراعى ضيق على طول ضفتي النيل حيث يقطنه النوبيون .

أما جبال البحر الأحمر التي تميز الجانب الشرقي لوادي الصدع الكبير فهو إقليم واضح المعالم ، وتقع فيه الوديان التي توجد بها الحياة النباتية ، كما أن السهل البحري يتميز أيضاً عن الجبال وتسقط الأمطار فيه أيضاً في فصل الشتاء . وبعد الأمطار تتوفر المراعى للقطعان ، وتتم زراعة المحاصيل في قيعان الوديان .

وتقع إلى الجنوب من الصحراء منطقة السهب ، وهي الموطن البدوي النموذجي الذي يوفر المرعى الوفير للإبل والأغنام في أوقات معينة من العام طبقاً لسقوط الأمطار المنتظمة ، أما المنطقة التي يطوقها النيل ونهر عطبرة والنيل الأزرق ، وخط المغازه - القصارف - والمعروف بالبطانة فهو سهل مستو من التربة الطينية وتتخلله الوديان والخيران . إنه موطن رعوى نموذجي ، ويتوفر في موسم الأمطار المرعى الجيد رغم وجود قبائل الشكرية والبطاحين الرعوية .

كما يقع جنوبي الخرطوم - في كردفان والغرب - حزام سهل السقانا الذي تنمو فيه الشجيرات الشوكية ، كما ينمو العشب هنا بشكل وفير خلال موسم الأمطار، وتزين الأرض بالشجيرات الشوكية الصغيرة ، وتزدهر أشجار الصمغ العربي على هذه التربة الرملية ، وتهطل الأمطار بغزارة تكفي لزراعة الذرة بشكل مستمر وتسمح بالرعى لأعداد كبيرة من القطعان. ويعيش هنا العرب المستقرون في كردفان : البقارة الذين يربون البقر والشك الرعاة والنوبا الوثنيون في الجبال ، كما أن دارفور في أقصى الغرب هي منطقة سهول بها الشجيرات أيضاً ، بالإضافة إلى مساحة من الأرض الخصبة يتوسطها جبل مرة .

وشبه الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق والتي تعرف بالجزيرة هي أرض واسعة يزرع فيها القطن ، وهي أكثر أجزاء السودان كثافة سكانية . ويقع جنوب الساقانا الشوكية سهول التربة السوداء « البادوب » (أو التربة القطنية) منطقة الساقانا العشبية المفتوحة ، والتي تحدها منطقة مستنقعات السدود حيث يعيش الدينكا والنوبه الرعاة ، وإلى الجنوب والغرب من هذه السهول العشبية تقع غابة الساقانا حيث توجد ممالك الزاندي جنوبي بحر الغزال ، وهناك انتقال تدريجي نحو إقليم التربة الحمراء حيث الغابة الاستوائية أقصى الجنوب على طول ضفاف الأنهار الصغيرة .

ج - المناخ

نجد التفسير في عدم وحدة هذا الإقليم في فقدان التشابه المناخي الذي يتراوح ما بين الجفاف التام في الامتداد الشمالي للصحراء وبين هطول الأمطار الشديدة في

الغابات الاستوائية في الجنوب، كما أن للمناخ تأثيراً على البشر بشكل كبير أكثر من التأثير الجغرافي ، ويحدد المناخ الحياة النباتية والحيوانية في الإقليم ، وخصوبته وطبيعة محاصيله، ومن ثم طريقة حياة الناس .

إن أهم عامل مميز في مناخ السودان هو توزيع هطول الأمطار ، ويسبب تنوعه فإن أحزمة المزارع التي تؤثر بشكل حيوي على حياة الإنسان والحيوان تمتد غرباً - جنوباً - غرباً وشرقاً - شمالاً - شرقاً ، ولا تهطل الأمطار أبداً شمال أبو حمد ، ويتدرج سقوط الأمطار جنوباً داخل الإقليم الأوسط حيث تكون كافية للرعي والزراعة حتى أقصى الجنوب حيث الأمطار التي تسقط بكثافة ولفترات طويلة .

وفي السودان الشمالي والأوسط - حيث مجال اهتمامنا - هناك ثلاثة مواسم: الصيف من مارس إلى يونيو أو يوليو، وهو موسم الانتظام الرتيب ، فالحرارة شديدة تصل ذروتها في مايو ، ويتذبذب معه الهواء في النهار ويجف كل شيء أخضر ، وتصبح الحياة في منتصف النهار ساكنة ، ويبحث الإنسان والحيوان عن البرودة النسبية في المنازل وتحت ظلال الأشجار القليلة ، وهناك أيام تهب فيها الرياح الصحراوية الجافة خاصة العواصف الترابية (الهبوب) التي تحول السماء إلى اللون الأحمر البني ، ويبتلى بها النبات والإنسان والحيوان على حد سواء ، وفي مثل هذه الأوقات فإن المساء يجلب بعض الراحة ، وفي الأمسيات خلال الصيف تهبط درجة الحرارة جالبة النسيم البارد وتمتلئ السماء بالنجوم ويضيئ الأرض نور القمر السحري ، وتبدأ الحياة في التنفس مرة أخرى .

وفي يونيو تتحول الرياح إلى الجنوب ، وتتجمع السحب الكثيفة ، وتخمد الرياح والهبوب ، ثم تأتي الأمطار العاصفة . إنها بداية موسم الأمطار (الخريف) ، وتظهر هذه العواصف في كردفان كل ثلاثة أو أربعة أيام ، إنها (الرشاش) موسم الزرع. ومع نهاية يوليو - عندما تبدأ الأمطار الغزيرة - تصبح الأرض الزراعية مغطاة بالمزروعات الخضراء ، ويلى ذلك في سبتمبر الفترة المعروفة « بالدرة » ، وهي موسم الحصاد ما بين نهاية موسم الأمطار وبداية الرياح التجارية الشتوية الجافة ، عندما يصير الطقس حاراً ورطباً، وتصبح الحياة مرهقة . ومع مجئ الرياح الشمالية الجافة في أكتوبر يعد الشتاء قادماً ، ويكون الحصاد قد انتهى ، وتتحدر الشمس ويصبح النسيم منعشاً ، وتجف النباتات الحولية ويستمر هذا الموسم حتى مارس .

٢- السكان

السكان دائماً قليلون بطبيعة الحال في المنطقة الصحراوية ومنطقة السهب ، وتزداد الكثافة السكانية في الأرض النهرية الخصبة وفي المناطق الشمالية ، برغم أنها لم تكن أبداً كثيفة جداً ، وقد قدر عدد السكان قبل حكم الخليفة بحوالي ٨,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ،

وفى عام ١٩٠٥ هبط العدد إلى ١.٨٥٢.٠٠٠ نسمة فقط ؛ وذلك بسبب المجازر والمجاعات تحت حكم الخليفة ، ومنذ ذلك الحين وتحت الحكم المستقر زاد عدد السكان بشكل مطرد ، ووصل العدد فى عام ١٩٤٤م إلى حوالى ستة ملايين ونصف نسمة .^(١)

ويندرج سكان السودان بالطبع فى طائفتين كبيرتين : منطقة الشمال المسلم ومنطقة الجنوب الوثنى ، أو ما يسمى بمنطقتى العرب والزنوج ، ولا تتحدد المنطقتان بأى معالم طبيعية ، ولكنهما مميزتان بجلاء إثنيا (عرقيا) وثقافيا ، وتشمل المنطقة المسلمة شعوب الإقليم الصحراوى والسهب الشمالية ، وهم المسلمون الذين يتحدثون العربية . ويوجد فى الإقليم بعض اختلاط للدم العربى مع السكان الأصليين ، ونتج عن تبنى الإسلام انصهار السكان لدرجة أنهم أصبحوا متجانسين ثقافيا ، أما فى الغرب فإن هذه المنطقة الإثنولوجية تمتد جنوبا حتى منطقة بحر الغزال وسط الزنوج ، وفى الشرق حتى النيل الأزرق مع منطقة جبال النوبة جنوبى كردفان وهى زنجية إثنيا وثقافيا .

أما السودان الجنوبى الذى لا يمكن تحديده بأى خط عرض (سوى وجود تغير على النيل عند خط عرض ١٢ شمالاً) ، ومن جهة أخرى فهو مختلف إثنيا وثقافيا ، ويضم كل شعوب الجنوب سوداء البشرة ذات الأعراق المختلفة . إننا سنتعامل بشكل جوهري فى هذه الدراسة مع المنطقة المسلمة الواقعة شمال خط العرض ١٢ شمالاً ، والتي تمتد حتى الحدود المصرية ، وسنقوم بدراسة السودان الجنوبى فقط بقدر ما تأثر بالإسلام .

ومن النادر أن نجد أى نمط سلالى خالص وسط أى من شعوب السودان ؛ إذ عانت هذه البلاد من العديد من منافذ التشتت السلالى ، فكل سكانها تشكيلة ما بين السلالة القوقازية الخالصة والزنجية الخالصة ؛ لذا فأبناء الشعوب سوداء البشرة فى الجنوب عادة ما يعدون زنوجا . أما مصطلح « عرب » فهو ذو دلالة لغوية وثقافية أكثر من كونه مصطلحاً سلالياً ، ويستخدم فيما يتعلق بمحصلة الامتزاج الحالى للسكان الأصليين والقبائل العربية التى استقرت فى العصور الوسطى فى الأقاليم الشمالية والوسطى . لقد جلب العرب معهم لغتهم ودينهم التى حلت محل اللغات الأصلية (فيما عدا بعض القبائل النوبية وقبائل البجة) والمسيحية أو الوثنية .

(١) يجب ترك هامش كبير للخطأ فيما يتعلق بكل الأرقام الرسمية الخاصة بالسكان ، فالأرقام الأولى مجرد تخمين من قبل السير ويخت ، أما الأرقام الأخيرة فهى منتقاة من التقديرات التقريبية لفتشى المراكز . إن ثلاثة أرباع القرن المضطرب وفر للحكومة الحالية الكثير من المخاطر المتعلقة بالزيادة السكانية . إن عزوف الحكومة عن البدء فى إجراء إحصاء سكاني لهو أمر مؤسف ، ويجعل إجراء المسح الاجتماعى أمراً مستحيلاً .

السودان الشمالى

عندما غزت العرب النوبة التقت بشعب هجين مكون من سلالة قوقازية وزنجية ، وهذه السمة موجودة فى الكنوز والمحس والسكوت والدناقلة ، تلك المجموعات التى تسكن على ضفاف النيل من جنوب دنقلا العجوز حتى أسوان ، وتتحدث مختلف لهجات اللغة التى لا تنتمى إلى هذه المنطقة ، والتى من المحتمل أن يكون قد أدخلها الزنوج فى بداية العصر المسيحى . فهؤلاء النوبيون برغم تبنيهم الإسلام حافظوا على أنفسهم ككيان مستقل ، وامتصوا العرب والعناصر الأخرى وحافظوا على لغتهم ، وإلى الجنوب من النوبيين توجد مجموعات حامية زنجية أخرى عانت تحولات أكثر بتعريبهم عن طريق التزاوج الاجتماعى والهيبة الدينية .

والتقى العرب فى الصحراء الشرقية بقبائل البجة البدوية ، وهى طبقا لسليمان^(١) سلالة ذات أصل مصرى بدائى تعدل أكثر فى الشمال بالتأثير الزنجى أكثر من الجنوب، وهم أقرباء الشعوب النوبية النيلية . ونجد اليوم أن الكثير من البجة ذوو دم عربى ممزوج ، ويبرزون شجرة نسب عربية مزيفة ، وبالرغم من إسلامهم حافظوا على لغتهم ومميزاتهم السلالية .

ومنذ الفتح العربى كان هناك امتصاص تدريجى للعرب من قبل النوبيين فى الشمال والسود فى وسط السودان ، ويسمى العنصر الناتج نفسه الآن « عربيا » ، إلا أن ادعاءهم باللقب يتفاوت بشكل كبير، ويقول كاتب من أبناء البلد : إن سكان السودان الأصليين هم النوبة والحيش والزنوج ، وكل « قبيلة » نشأت من الهمج تنتمى إلى المجموعة الزنجية ، وكل « قبيلة » نشأت من النوبة فهى تنتمى للمجموعة النوبية . إن القبائل العربية التى فى السودان عدا هؤلاء (أى النوبة والحيش والزنوج) يعنون أجانب ، وقد اختلطوا فقط مع القبائل أنفة الذكر وتناسلوا معها ، والبعض احتفظ بالصفات العربية ، وتبنت الصفات النوبية والزنج التى انتشرت هنا وهناك وسطهم بالصفات العربية . وبالقبائل كان هناك بعض العرب الذين انصهروا فى النوبة والزنج وتبنوا صفاتهم ، ولكن فى كل الأحوال فهم يعرفون أصولهم .

قد تكون هذه الإفادة صحيحة ، فهى قد ميزت العنصر الوطنى ، ولكنها مختصرة وتعترف بالعرب فقط . ومن السهل جدا أيضا أن يلتبس الأمر بين الحامى والسامى فيما يتعلق بالخصائص الجسمانية ، خاصة عندما يكون الأمر راجعا إلى السكان أنفسهم الذين أصبحوا مسلمين ، وهم يتوقون بلا دعاء بالانتساب إلى العرب ، وهم ٥٠٪ ساميون ثقافة .

(1) C.G. Seljman: „Some Aspects of the Hamilice proplem in the A.E Sudan,, F.R.A. 1.xliii,1913,pp . 595-610

لقد تعرض سكان السودان - على مدى التاريخ - لتغيرات عميقة ، ولكنه بقانون ما غامض حول المهاجرين بطبعهم بطابعه الخاص ، ويمكن مشاهدة العملية وهي تجري الآن في السودان ، ففلاته ميللى فى كسلا قد تأثروا بشكل كبير ببيئتهم لدرجة لا يمكن تمييزهم من البجة في آخر الأمر ، فقد تحولوا من حالة شبه البداوة إلى حالة البداوة الكاملة، وربوا شعرهم مثل البجة « التفة » ، وأصبحت أكوأخهم تشبه أكوأخ الهدندوة^(١). ثم إن القادمين الجدد إلى السودان تم امتصاصهم بالتدريج ، وانصهروا فى السكان الذين استقروا وسطهم ، بينما يعانى من بعض التعديل فى الشكل الجسمانى الذى تفاوت طبقا لخط العرض وهطول الأمطار الذى أثر على نوع التربة، ومن ثم على مزروعاته ونوع الحيوان الذى يربيه ، كان دائما يتجه نحو إعادة تأكيد ذاته ، ومع ذلك فإن العرب فرضوا لغتهم وثقافتهم الدينية على كل هذه الشعوب لدرجة أنهم صهروا سكان السودان الشمالى فى شعب واحد ، إن لم يكن فى جنس واحد ، وكان تأثيرهم أقوى من أى تأثير آخر ، وكان هناك فى الوقت نفسه تقدم ضئيل فى الثقافة : لأن حاجة الطبقات المسيطرة وحاجة الجماهير كانت متشابهة .

وسنقوم بدراسة سكان السودان الشمالى تحت العناوين اللغوية للنوبة ، فالبجة ثم المتحدثين بالعربية ، ونتبعه بمسح مختصر للمسلمين الزنوج .

أ- القبائل المتحدثه بالنوبية

يعيش النوبيون على طول النيل فى الحدود المصرية من أسوان حتى حلفا، وفى السودان فى منطقة حلفا ودنقلا جنوبا حتى الدبة حيث ينحرف النهر شمالاً، وكان السكان الأوائل لهذا الإقليم هم نفس سلالة المصريين لما قبل الأسرات ، ولكن من خلال امتصاصهم لموجات الزنجية المتتالية وهم يتحدثون لغة زنجية وأصبحوا عنصرا زنجيا حامياً متجانساً يمثلهم النوبيون الحاليون^(٢).

وهناك أربع مجموعات قبلية رئيسية تختلف - داخل حدود المجموعة - فى اللهجة والعادات ، بما فى ذلك بناء المنازل والملابس وتصفيف شعر المرأة :

١- الكتوز (٤٢.٠٠٠) فى الحدود المصرية بين أسوان والمضيق ، وقد حصلوا على اسمهم من بنى كنز الذين كانوا ذوى نفوذ قوى خلال الأيام الأخيرة لمملكة دنقلا المسيحية ، وإلى الجنوب من المضيق على مسافة قصيرة يوجد ٥٠٠٠ نوبى يتحدثون العربية .

(١) H.A.MacMichael, His . Arabs in Sudan , 1922, Ms . D.Ivol. ii,p.197

(٢) ينظر SNR .Ix(z),pp.85-6

٢- الفديجا (١) (٢٠.٠٠٠) يقطنون القرى الواقعة بين كورسكو ووادي حلفا، وتنتشر في وسطهم قبيلة المتوكية ذات الأصل الزنجى .

٣- المحس : فى الأراضى السودانية من وادى حلفا إلى القرب من دنقلا ، وقد احتفظوا برطانتهم المحلية (المريس) ، ويذهبون إلى مصر فى الأساس بحثاً عن الرزق ، وهناك الكثير من الشرائح تقطن فى مستعمرات قرى حول الخرطوم وعلى النيلين الأبيض والأزرق ، وقد هاجروا جنوباً منذ القرن السادس عشر ، وهم يتحدثون العربية الآن ويدعون شجرة نسب عربية ، وهم مزارعون فى الأساس ، ولكن أصبحت لهم سمعة كبيرة كفقرا ، ويعتمد اقتصاد القرية كلها فى الغالب على تجارة الفكى .

٤- الدناقلة (٢) وهم يعيشون على طول النيل من المنطقة المجاورة لدنقلا وحتى الدربة، وهم ذوو سمات حامية قوية فى الوجه، وهم شعب قوى متينو البنية وذوو ملامح جميلة بصفة عامة بالرغم من أنه فى بعض الأحيان يمكن مشاهدة الأنف الأفطس والشفافة الزنجية الغليظة، وهم ذوو أصالة جديرة بالاعتبار وسريعو تعلم اللغات. وفى وطنهم فإن معظم الرجال يتكلمون لغتين ، ويتحدثون عربية لا قواعد لها ، ولكن القليل من النساء يعرفن العربية .

وبصفة عامة فإن السمة النوبية تعكس كلا الصفتين الحامية والزنجية . وقد يتنوع المظهر العام من اللون البنى الفامق إلى اللون الأسود بشفافة غليظة وجمجمة مستطيلة، والشعر صوفى مجعد فى الغالب واللحية خفيفة . والشعب النوبى شعب زراعى فى الأساس يعتمد على النيل فى معيشتة ، البعض منهم صيادو سمك ومراكبية ، وهناك طريقتان أساسيتان لرى الأرض : إما بطريقة الغمر بعد هبوط النيل حيث يتم زراعة الجزر وضفتى النيل ، أو صناعيا بالساقية التى تديرها الثيران أو الشادوف الذى يرفعه الانسان . ومع ذلك فإن زراعة الشريط النيلى الضيق لا ينتج ما يكفى لمواجهة النمو الطبيعى لسكانه ، لذا فإن أغلبية الرجال يقضون جزءاً لا بأس به من حياتهم يعملون فى المدن المصرية والسودانية طبّاخين وسفرجية وبوابين وجلاية وكتبة . وكل مجموعة مهنية منظمة فى طائفة لها شيخ ، وتفرض ضريبة على أعضائها، ويفترض أن يكون الشيخ مسئولاً عن سلوك أعضاء الطائفة أمام مخدميهـم ، ويعد تكوين ثروة يقنع معظمهم بالعودة إلى وطنه مزارعا ، ويعيش سعيداً بقية حياته على خبز الذرة .

وبينما يحب النوبيون المغامرة والاستعداد للسفر ، فهم فى الوقت نفسه عاطفيون نحو العشيرة ويعشقون وطنهم وأرضهم ، وبرغم وجود عداوات شديدة بين الأسر فى معظم القرى بسبب بعض المنازعات حول ملكية الأرض الضئيلة ، فإن المشاعية

(١) يدعى الفديجا أنهم من أصول شمالية (أى تركية أو جركسية أبوسينة

(٢) هناك مجموعة الدناقلة - الجعليين التى تعيش على طول النيل ، والتى تبنت العربية وشجرة أنساب عربية لا يمكن تمييزهم من بقية الدناقلة - وسيسجلون ضمن القبائل التى تتحدث العربية .

هى التى تحكم حياة سكان القرية ؛ إذ كلهم يشتركون فى الأفراح والأحزان والأعياد. إنها روح المشاعية نقيض الروح الفردية العربية ، وهى التى مكنت وشجعت وسهلت للحكومة الحالية توفير التسهيلات المشتركة مثل مشاريع الطمبات والمستوصفات التى تعنى بها المجموعة ، ومن المعتاد ربط الأطفال ببعضهم وذلك بالزواج المبكر الذى يتم أثناء البحث عن لقمة العيش فى « الخارج » .

ويشكل الدناقلة القسم الأكبر والمزدهر اقتصادياً فى كل المدن فى السودان، وهم الذين فتحوا مع أقاربهم الجعليين منطقة أعالي النيل وبحر الغزال فى القرن الماضى ، وكان معظم سكان هذه المدن قد فقدوا لغتهم ، ولكن بقى الآن عنصر واضح من السكان بدأ فى استعادة كل عاداتهم القديمة وأسلوب حياتهم .

إن وضع المرأة النوبية سيئ ، ورموز العريس هى السيف والسكين والكرباج ، وبالتأكيد فالكرباج لا يبقى بلا استخدام . يمارس عادة الختان الفرعرنى بالنسبة للفتيات ، ويعد الطلاق أحد أكبر مخاوف المرأة النوبية ، تعود المطلقة الى أسرتها حيث تصبح أمة تركل وتلطم إلى أن تجد من يأخذها ، ولا يؤخذ بحكم الشريعة التى تنص على أن الرجل مسئول عن التدبير التام نحو أطفاله وعليه مسئولية إعادة زوجته المطلقة . وتبلى المرأة النوبية سريعاً إذتعمل منذ طفولتها المبكرة ، ويقع علي كاهلها العناية بكل شئون البيت : الأطفال والحيوانات ، حتى فى بعض الأحيان بناء المساكن عندما يكون الرجال بعيدين ، وكانت النوبية منذ خمسين عاماً مضت ترتدى ثوباً نسائياً قصيراً يصل حتى الركبة ، ولكنها ترتدى الآن ثوباً موحد القياس (الثوب المألوف) .

وبرغم أن النوبيين كانوا مسيحيين فى وقت ما ، ومازالت بعض عاداتهم ذات أصل مسيحى ، فقد تلاشت كل ذكرى عن دينهم السابق .

إنهم مسلمون متعصبون ، ولكن إسلامهم تنقصه القوة ما لم يثار بمسحات دينية أخرى مثل الحركة المهدية ، وينتمى معظمهم إلى الطائفة الميرغنية والإدرسية .

لقد كانت ثقافتهم فى المملكة المسيحية – تلك الثقافة التى ورثوها من بقايا الثقافة المصرية والتى تم تنشيطها من الخارج ، ثقافة جد متطورة ، لقد استخدموا الفخار الملون وبنوا مساكنهم ذات السقوف المقوسة بالطوب المجفف بالشمس ، أما مساكنهم الآن فذات سقوف مسطحة ، ويستخدمون قليلاً من المصنوعات اليدوية التى لا تعيش طويلاً من الأطباق المصنوعة من السعف والفخار ، كما لا تساعدهم الأدوات الرخيصة الصنع المستوردة على الازدهار والنشاط من جديد .

ب- قبائل البجة البجة هو الاسم الذي أطلقه الكتاب العرب ^(١) على مجموعة القبائل البدوية الحامية الحقيقية ، والتي تعيش في المنطقة الشرقية بين النيل وعطبرة والبحر الأحمر ، وتعاين السهل الأوسط وجبال البحر الأحمر والمنطقة الشرقية والجبال جنوب طوكر . وبالرغم من أنه كان هناك اختلاط بالدم الأجنبي فقد شكلت هذه القبائل وحدة في كل من مميزاتهم الجسمانية واللغوية . وأشار سلجمان ^(٢) إلى أن هناك شبهة جسمانية واضحة بين بجة اليوم والمجموعة المصرية لما قبل الأسرات ، وهناك بعض من الدم العربي ؛ إذ إن ربيعة استقرت بينهم في القرن التاسع الميلادي ، ولكنها لم تغير من صفاتهم الجسمانية والاجتماعية ^(٣) ، وكان بجة الشمال أكثر تحولاً بالدماء الزنجية من أولئك الذين يقنطون الجنوب . وقد اعتنق البجة الإسلام واتخذوا النسب العربي ، ولكنهم حافظوا على لغاتهم الأصلية وصفاتهم السلالية وعاداتهم ، لدرجة أنهم لا يختلفون إلا قليلاً عن البجة الذين وصفهم ابن سليم قبل ألف عام .

إن الرواية التي ذكرها ابن سليم ^(٤) بأن البجة شعب بدوي وثني صحيحه ، وما زال ينطبق عليهم حتى اليوم ، ولكن دخولهم في الإسلام أدى إلى حشد أقصى درجات التعصب في بعض المجموعات ، ومع ذلك فالأرضية المشتركة لأسلوب حياتهم وعاداتهم لم تتغير فيما عدا ما يتعلق بالنسب الأمومي . إن عاداتهم - خاصة المتعلقة باللبن - تصنفهم مع معظم القبائل الحامية الموجودة في شرق إفريقيا . والملاحح الطبيعية للبجة هي :

قصار القامة في اعتدال ، الرجال أقوياء إلى حد ما ، نوى بشرة بنية ضاربة إلى الحمرة أو بنية ، مع وجود مسحة متقاربة من اللون الأسود ، والوجه عادة طويل وبيضاوي أو يقترب من البيضاوي في الشكل ، والفك قوى إلى حد ما ، والذي يجعل - مع وجود النفن البارزة - الجزء الأعلى من الوجه يبدو أعرض عما هو عليه في الواقع ، والأنف جميل وقوقازي الشكل عدا في بعض الأفراد - عندهم قليل نسبياً - النين أثرت فيهم الزنجية ، والشعر عادة محمر ^(٥) .

(١) اسمهم الجماعي هو « بداوى » ، وهو أيضا اسم لغتهم ، وقد ورد ذكرهم

Beya في نقوش Adulis (القرن الثاني الميلادي) و BovyaelAwa في نقوش ملك اكسوم .

(٢) Journ, Anthr. inst, 1913,xliii . 595-610

(٣) يشير المسعودي في مروج الذهب (Les prairies d'or,iii.33) أنه في عام ٩٤٢ م كانت تحت قيادة بشر بن مروان ٢٠.٠٠٠ من البجة الذين يسكنون الشاطئ واعتنقوا الإسلام ، ويوضح هذا كيف أن المهاجرين من العرب سيتم امتصاصهم بسرعة داخل القبائل الأصلية ، وكيف أن الأخيرة ستحرز مظهرا ثقافياً إسلامياً زائفاً . إن قوتهم في استيعاب العناصر البدوية الأخرى يظهر حقيقة أن ابن بطوطة (حوالي عام ١٣٤٠ م) وجد مجموعة من البجة وتفهم لغتهم (تحفة النظار القاهرة ١٩٢٩ المجلد الأول ص ١٨٨) ، ويبدو أن هؤلاء العرب لم يكونوا هناك لفترة طويلة .

(٤) المقرئى . الخطط (القاهرة ١٣٢٤ هـ) المجلد الأول ص ٢١٣ - ٢١٩

Handbook of the Anglo-Egyptian Sudan,1922,p.206.

(٥)

والبشارين والهندوة - نتيجة للحياة في الجبال لقرون - شعب رجولى ومستقل، أما المجموعات النائية فهي مشاكسة وقاسية وانتقامية . والبدو - خاصة النساء - خجولون جدا في الاتصال بالغرباء ، وبدأت في التحول صفات أولئك الذين سلكوا حياة الاستقرار الجديدة تحت إدارة النظام الحالى من خلال تطوير مشاريع القطن في القاش وبركة ، والأمراء والبنى عامر مسلمون وأكثر قابلية للتعليم من المجموعات الشمالية والجبالية .

وبينما هذه القبائل بدوية بدرجات مختلفة ، وتبدى نفس الصفات العامة ، فإن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية تختلف بشكل جوهري عن حياة البدو العرب ، وهذا مرجعه بشكل كبير للجذب الشديد لبعض الجبال من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى الخصوبة النسبية للجبال الأخرى . والسهل الواسع المرتفع الذى يشغلونه ، والتنظيم القبلى للبيعة فضفاض بشكل عام عما هو عليه عند العرب ، وهو يقدم صفات المجتمع الأمومى الذى تكون فيه الوحدة هي الأسرة ، وهم لا يقومون بتحركات كبيرة مشتركة كالقبائل العربية فى كردفان أو البطانة ، ولكنهم يتجولون فى مجموعات أسرية صغيرة بحثا عن الكلا ، وهو فى حالة البشارين بسبب قلة عددهم ، وبالنسبة للآخرين بسبب الكثرة النسبية للعدد الصغير للقطعان . وتنقسم القبائل الرئيسية إلى « بدئات » لكل منها وسمها الخاص للجمال ، والحدود الإقليمية وحقوق الآبار . وتسير عملية توحيد القبائل بشكل سريع تحت إدارة الحكومة الحالية .

وقد سمحت لهم أساليب التطور التى تبنتها الحكومة الحالية باستخدام أساليبهم الخاصة فى التعامل مع الجريمة ، وهى مبنية على صفة خاصة بالبيعة تفضل التسوية بدلاً من العقوبة ، والتعويض بدلاً من الانتقام ؛ لذا فالمحاكم الأهلية تطبق قوانينها العرفية (السوالف) ؛ ولم تمسهم الشريعة الإسلامية حتى فى مجال العلاقات الأسرية . فالبيعة مثلاً يؤمنون بشكل كبير فى قدسية الأرض ، وعدم قابلية تحويل ملكية الأرض ، وليس للنساء نصيب فى إرث الأرض^(١) ، وغالباً ما يرفض قضاة القبيلة تطبيق الشريعة الخاصة بالميراث عندما يكون الابن عديم الفائدة ، وفى هذه الحالة يبقى الميراث أمانة عند شخص ما ، كما أن عاداتهم مغايرة للقانون القبلى العربى بالرغم من أنهم يقتربون الآن أكثر نحو ذلك الاتجاه . ولم يكن البيعة يدفعون « الدية » أبداً حتى وقت قريب ، ويفضلون الانتقام الشخصى الأكثر وحشية ، ويفضل الآخرون

(١) يعتبر أصل الأرض أنه يخص القبيلة ، ولكن ملكية القبيلة معترف بها على أساسين فقط : احتلال الأرض العذراء أو الغزو ، ويجب مقارنة ذلك مع ما يقوله العرب بالعمارة أو الحقوق الدائمة التى تكتسب باحتلال الأرض بنية وضع اليد وتنمية أرض الغير . ويسمح البيعة دائماً باحتلال الأرض بغرض وضع اليد ، ولا يمنحون أبداً حقوقاً ، وإنما بسبب نظرية ملكية القبيلة للأرض.

التسوية بطريقة ما . أما بالنسبة للجروح فإذا لم يتم الثأر فى اللحظة والتوفلا إلحاح للطريقة العربية « العين بالعين » : فالذى يتسبب فى الجرح عليه رعاية ضحيته ومساندة أسرته حتى يشفى تماماً ، ثم يرسله بعيداً بعد أن يعطيه هدية مناسبة ؛ سيفاً مثلاً إذا كان الجرح قد حدث بتلك الوسيلة . وهناك أربع وحدات قبلية رئيسية هى البشاريين والأمراء والهندوة والبنى عامر .

البشاريين : (١٥.٠٠٠) ظهوروا أولاً كقبيلة متميزة فيما بين عامى ١٠٠٠ و ١٤٠٠م، ويرجعون بنسبهم إلى بشر بن مروان بن اسحق بن ربيعة الذى استقر فى منطقة المناجم فى القرن الرابع الهجرى ، ويمتد موطنهم اليوم من سهول البطانة ، وشمالاً حتى داخل الحدود المصرية ، وتغطى مساحة واسعة تبلغ ٥٠.٠٠٠ ميل مربع ، ويقطن فى الشمال العالياى والحمدادوراب الذين لهم ارتباطات مع مصر عن طريق التزاوج مع عبادة العشاباب ، وعن طريق التجارة مع أسوان ، وتتكون ثروتهم الرئيسية من الجمال ، ويقطن إلى الجنوب من هؤلاء الشانتيراب ، وهى مجموعة متوحشة وغبية تعيش منعزلة فى جبالها ، ثم يأتى العمراب وعتباى أم ناجى ، وتقطن الأخيرة فى السهول الواقعة بين الجبال والنهر ، وهم بدو خلص ، ولكنهم تعربوا أكثر من خلال اتصالهم بالنيل وهناك أيضاً مجموعات عمادية عطبرة التى تتحدث لغتين ، واختلطت مع الجعليين : البعض منهم مزارعون أشباه البدو ، والآخرى يملكون الحيوانات .

إن التنظيم القبلى للبشاريين - خاصة أولئك الذين فى الشمال - فضفاض جداً ، وهذا مرجعه تحركهم فى مجموعات صغيرة بحثاً عن الكلاً ، وعزلتهم وسط الجبال والصحارى القاحلة . ويتم الاعتراف بشيوخ البدنات فى حد ذاتهم ، إلا أن السلطة الحقيقية هى سلطة رؤساء القبائل .

أما الأمراء : (٤٥ .٠٠٠) فهى سلالة بجاوية نقية ، وقد قارنهم « ريزنر » بنويى المجموعة (س) ، وقد أصبحوا كيانا قبلياً فى حوالى عام ١٧٥٠ م ، ويسكنون الآن على منحدرات تلال البحر الأحمر والسهل الساحلى شمال بورتسودان ، وكانوا قبل مائة عام قبيلة غير مهمة، ولكن لامتلاكهم قطعاناً ضخمة من الضأن والإبل التى لا تنتج فى الجبال أمنوا لهم موطئ قدم فى السهول خاصة فى المنطقة الجنوبية بين خور عرب ونهر عطبرة . وتحمل تسللهم فى البداية الهندوة والبشاريون السكان الأصليون ولكن حدث خلافاً واحتكاكاً فيما بعد ، والبعض منهم مزارعون، خاصة الذين يسكنون حول سنكات فى أو حول الخيران، والبعض الآخر يزرع القطن فى طوكر والقاش، وقد أدى هذا التوسع للتزاوج الكبير مع القبائل الأخرى، وما زالت الأغلبية منهم فى واقع الأمر بدواً، وليست لهم مساكن دائمة، وهم مع ذلك يظهرون نزعة أقل من البجة الآخرين فيما

عن مميزاتهم العامة قائلا :

لغتهم خالية تماما من التعابير العربية ، وهم أفضل من ينطقون التبتاوية وهم يربون « التفة » بشكل أكبر مما هي عليه في أى مكان آخر ، وهم مرعبون جدا في القتال أكثر من القبائل الثلاث الأخرى ، ومن النادر أن يتحداهم الآخرون . إن طريقتهم العامة للحياة - كما هي الحال مع كل البجة - روضتهم على تحمل نقص الطعام والماء ، كما مكنتهم بنيتهم الجسدية القوية مع الطعام المناسب على العمل حمالين وتولى الأعمال اليدوية الشاقة أكثر من الآخرين ^(١) ... والأمرار رفقاء مبهجون وسريعو البديهة ، مع روح دعابة قوية ومغرمون عادة بالفوار ^(٢)

الهندوة : يعتبر الهندوة اليوم أكبر وأهم القبائل المتحدثة باللغة التبتاوية ، وقد تطوروا من مجموعة جبلية صغيرة إلى قبيلة كبيرة من عام ١٦٠٠ م ، واحتلت أو تزاوجت مع أو امتصت تلك القبائل التي صاهرتها . ويعد الشيخ موسى بن ابراهيم الذى كان ناظراً خلال الفترة المصرية (توفى عام ١٨٨٤م) هو المسئول بشكل كبير عن اندماج وتماسك القبيلة . وقد جذبت هيبتهم - تحت النظام الحالى - العديد من المجموعات غير الهندوية للانضمام تحت إدارة ناظر واحد ، ويصل تعداد الهندوة اليوم ٧٠,٠٠٠ نسمة .

ويعيش الهندوة بين نهر عطبرة والبحر الأحمر وجنوباً حتى حدود إريتريا والحبشة ، وهم مجموعات بدوية أو شبه بدوية ، يربون الإبل ويعملون أدلاء قوافل ، وبدأوا في عام ١٩٢٨م في زراعة القطن ، والآن فإن ٥٥٪ من حصص القاش و ٢٥٪ من حصص طوكر مخصصة للهندوة . وبالرغم من هذا التطور الاقتصادي الجديد فإن النظام العشائرى ما زال مُحْتَفَظاً به وبقوة كما كان . ويسبب عمل أفراد من كل « بدنة » في زراعة القطن فإن انتعاشهم الإقتصادى يؤثر على اقتصاد القبيلة كلها حتى في التلال البعيدة .

البنى عامر : يتحدث معظمهم التجرية ، وهى لغة سامية . وأصبحوا مسلمين منذ قرن تقريباً ^(٣) وعددهم في السودان ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ويعيش بعضهم في منطقة طوكر ، وبعضهم بالقرب من كسلا ، والبعض الآخر على طول الحدود الإريترية .

وتعيش أغلبية القبيلة (٦٠,٠٠٠) نسمة في إريتريا ، حيث تعترف معظم الأقسام بالرئيس « دقلال » الذى يعيش في أقوردات . ويعد البنى عامر أقل وحشية من الهندوة ، ويعمل الذين يعيشون في السودان بتربية الماشية بشكل أساسى ، بينما القليل منهم مزارعون ، ويملك أولئك الذين يعيشون في إريتريا الإبل بالرغم من أن العديد منهم قد امتنوا الزراعة .

(١) الحمالون الذين يشاهدهم المسافر من هذه القبيلة .

(٢) G.E.R. Sanders,,, the Amarar,,, SNR .xviii ,pp 214-15

(٣) بدأ محمد عثمان الميرغنى نشر دعوته في عام ١٨١٧ م .

إن التنظيم الاجتماعي للبنى عامر مع المجموعات المتحالفة من الهباب تشير الاهتمام ، فقد نشأت القبيلة من اتحاد العناصر البارزة بشكل مغاير للهندوة التي نشأت من اندماج المجموعات المتحالفة ، وبينما تحقق القبائل البجاوية الأخرى المساواة التامة لكل أعضاء القبيلة فإن التنظيم الاجتماعي للبنى عامر ارتكز على شكل من أشكال الطبقية التي نتجت من فرض الجعليين أنفسهم حكماً على خليط المجموعات الأصلية للتجري والبلو^(١) . والطبقة الارستقراطية تعرف بالنباتاب ، وهي منتشرة وسط مختلف الأقسام في إريتريا ، أما في السودان فهم يوجدون فقط وسط قسم الهسرى ولا يتزوج النباتاب من خارج طبقتهم ، وهم يتحدثون البداوية ، ويدعون الأصل الجعلي والانحدار من العباس ، بالرغم من أن مظهرهم لا يختلف عن بقية القبيلة . أما أعضاء القبيلة العاديون المنحدرون من البلو والعناصر الأخرى التي تم امتصاصها فيعرفون بالتجري - الموالي ، وربما العبيد . وربما جاء الاسم من أن معظم اللاجئين الذين أصبحوا « موالي » أتوا من محافظة تجرى في الحبشة . ويحدث الخلط والتشوش من حقيقة أنهم جميعاً يدعون بأنهم عرب بشكل مغاير مع النباتاب .

وما زالت العلاقات القديمة بين النباتاب والتجري قائمة ، برغم أن التقسيم القديم للعمل قد انتهى ، كما أنه لم يعد هناك وجود تحت إدارة الحكومة الحالية - للامتيازات التي كانت لدى النباتاب - كأن يقتل النباتابي التجري ولا يقتص منه . ويكمن أساس النبالة في الاحتفاظ بالإقطاع ، فالقطعان نظرياً هي ملك للنباتاب ، ولكنها تركت للتجري كما لو كانت ملكه ، وهي خاضعة لرسم محددة : مثلاً يأخذ النباتابي رأساً من كل قطع ، في العيد الكبير ، ويبقى لاستخدامه بقرة حلوباً نعجة حلوباً من كل قطع ، ويعيدها عندما لا تدر اللبن ، كما على التجري دفع رسوم محددة عند الزواج ، كما تبقى محرمات اللبن الخاصة بالبجة بالنسبة للنباتابي كما هي بالنسبة للنساء في البجة والنباتابي كالمرأة قد لا يحلب اللبن .

أما القبائل الأخرى الصغيرة فهي الحلنقة والأرتيقة والكمبالاب - (كسلا) والشاياب (منطقة طوكر) والعبادة . وكانت الحلنقة التي تعيش في منطقة كسلا قبيلة هامة ، ولكن نتيجة للانقسامات والخلافات وسنوات من النزاع مع الهندوة والأحباش والمهدين ضعفت ، وهي مستقرة الآن تقريباً ، ويفترض أنها جاءت أصلاً من « سراي » في شمالي الحبشة ، كما تحتوى البداوية التي يتحدثونها على الكثير من الكلمات الأمهرية والتجيرية والتبداوية . أما العبادة^(٢) فينتشرون أساساً في الحدود

(١) طبقاً للويو lobo كانت هناك مملكة البلو المسلمة في القرن السادس عشر قبالة سواكن

« كما أن قبيلة البلو المسلمة والتي سكنت تجرى (legrand, Relation historique d'Abyssinie, p.38) مذكورة في « فتوح الحبشة » (ed., R.Basset , p.39) وأدى هجوم البليين إلى ضعف القبيلة .

(٢) يدعى العبادة أنهم ينحدرون من جد يسمى عباد ، كما تعنى الكلمة أيضاً مسيحي نسطوري بنظرة ed., sprenger, 247, 951 والمسعودي 1838, II Journ Asidt.

المصرية بين النيل والبحر الأحمر ، ويسكن المليكاب الفرع الكبير من العباددة على طول الحافة الزراعية للنيل من كورسكو حتى بربر ، وهم فى الغالب يتحدثون لغتين ، ولكن البعض منهم يتحدث العربية فقط ؛ نتيجة لعملهم مدة طويلة مرشدين للقوافل فى بطن الحجر واستقرارهم فى وادى النيل ، كما أنهم ما زالوا محافظين على لهجتهم البداوية ، وقد اقترح اعتبارهم مثيلاً للبليمين الذين ذكرهم الكتاب الكلاسيكيون .

إن إسلام أغلبية البجة إسلام سطحى ، فلا أحد منهم يُعدُّ تقياً بشكل واضح ، ولو أنهم مثل معظم السودانيين يؤمنون بالخرافة ويصدقون بسرعة أى فكى ينال وسطهم سمعة بأنه يمتلك البركة . إن مثل هؤلاء الرجال - برغم أنهم قد يكونون غرباء - يتم الاعتراف بهم كوسطاء لحل الخلافات .^(١)

ولم تتعصب دينياً سوى أقسام من الهدندوة خلال فترة المهديّة ، بالرغم من أن الدين لا يلعب سوى دور صغير فى ولائهم . والقبائل الأخرى إما ابتعدت بنفسها أو - مثل البنى عامر - قاومت المهديّة أولاً ، ثم أعلنت ولائها للمهديّة درءاً للمشاكل .

ولا يهتم معظم البدو بالطوائف الدينية التى تلعب دوراً أساسياً فى الحياة الدينية للسكان المستقرين فى السودان ، ولم يتأثروا إلا قليلاً بفقراء فترة الفونج ، أما اليوم فإن كل من يدعى أنه ينتمى لأى طريقة يصبح عن طريق الدعاية ميرغنياً ، وسيقول الآخرون فى بعض الأحيان أن شيخهم هو عبد القادر الجيلانى ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن التعاليم ولا يقيمون الذكر . وبعض مجموعات الهدندوة (الترك والشرعاب والآخريين حول سواكن) مجاذيب . وللحنقة ولى يسمى الشيخ عبد الله تلميذ دفع الله العركى وضريحه فى الملكى .

وبعض نساء الهدندوة المستقرات غيورات على دينهم ، ويؤدين الصلوات والصوم بشكل صارم ، وكانت هناك خلاوى للنساء ، وتستخدم زاوية للنساء فى سواكن ، حيث ينشدن أناشيد الختمية بعد صلاة الجمعة .

ج - القبائل المتحدة بالعربية - دخلت معظم القبائل العربية السودان عن طريق مصر ، وستقوم بدراسة هجرتهم فى الفصل القادم . إن مصطلح « عرب » الذى يستخدم فى الوقت الحاضر فى السودان كمصطلح إثنى هو مصطلح غامض . إن العديد من القبائل النوبية والبجة الذين قمنا بدراستهم أعلاه ، بالإضافة إلى بعض القبائل الزنجية الخالصة مثل الفونج تدعى كلها السلالة العربية . ولا يمكن الوثوق فى

(١) هناك العديد من التقاليد التى تقول بقدم فقراء من الخارج ، وتزوجوا من القبيلة وكونوا عشيرة جديدة . وللحنقة العنصر الزيلعى الذى انحدر من الفكى أحمد الزيلعى (من زيلع فى أرض الصومال) الذى يتمتع بامتيازات خاصة فى المسائل الدينية ، وله مسجد يعرف بالابسنيا ، كما أن قسماً من الأشراف يدعى أنه منحدر من الفكى حامد بسى الذى قدم من الحجاز كى يدخلهم فى الإسلام .

شجرة الأنساب بالمرّة لأنها زائفة بشكل واضح ؛ لذا فإن « عربى » اليوم قد يكون فى الغالب إفريقياً صرفاً ، بلا أى أثر للأصل العربى .^(١)

لقد حدثت عملية التحلل العرقى ، وإعادة التوحيد عن طريق تحالف حركتين أكثر من كونها عن طريق الغزو : الأولى من خلال تسرب القبائل العربية واستقرارها وتزاوجها مع الشعوب المحلية^(٢) ، وأصبحت القبيلة المحلية تحت سيطرة زعيم عربى ، كما ألحقت قبائل أخرى نفسها بالعرب ، أخذت كلها اسم ذلك الزعيم . إن قبيلة حامد فى كردفان – المستقرة الآن – هى مثال على القبيلة المركبة^(٣) . والثانية من خلال نزوح القبائل الأصلية نتيجة التحول المفاجئ الذى سببه التسرب العربى وغزو الفونج . لذا نفهم تشتت القبائل الحالية – الجعليين – الدناقلة الذين عدلوا أنفسهم أو حجبت الدماء الزنجية عناصرها الحامية بالكامل – وكذلك مجموعات النوبا – الفونج الزنجية .

وأفضى هذا التشتت إلى الانصهار التدريجى بين السود والبيض – سكان البلاد الأصليين والمهاجرين – مع الاتجاه العام نحو إعادة إنتاج شكل جسمانى جديد ما عدا فى حالة الآبالة الذين حافظوا على أسلوب حياتهم القديم ، والذين ينتمون أكثر وبشكل قاطع للسلالة العربية عن أى سلالة أخرى . وحتى هؤلاء البدو فإن العنصر قد تحول بالتوالد من الإماء السود اللواتى تم امتلاكهن خلال فترات الحكم المصرى والمهدية . وبالرغم من أن هذه القبائل العربية جلبت معها الإسلام ، فإنها فى المقابل تبنت العادات والثقافة الإفريقية المميزة . فالكبابيش مثلاً القبيلة التى تعد مع بعض الحقيقة قبيلة عربية خالصة ، تدين بتكوينها الحالى إلى اندماج العديد من العناصر العربية والحامية خلال فترة طويلة خاصة بعد أن أدى الاضطراب العنيف للمهدية إلى تقطيع أوصال القبيلة إرباً ، وكان مرجع بعض هذه العناصر عدداً من الإماء اللاتى تم اقتناؤهن، وغيرت بشكل جوهري الدماء الزنجية . وقد تبنت العادات الحامية مثل جيرتق الزواج وممارسة ختان النساء .

وقسم السير هـ . ا . ماكمايكل عرب السودان إلى قسمين رئيسيين : المجموعة الجعلية – الدنقلاوية التى تضم معظم المستقرين حول النيل وفى كردفان ، وهذه القبائل الرئيسية هى الجوابرة والبديرية والشايقية والبطاحين والجموعية والجوامعة .

(١) أى فحص لأشجار النسب التى أوردها ما كما يكل فى Hist. of the Arabs in the Sudan يظهر كيف أن « أسلاف وهمين » قد تم إدراجهم لربط مجموعة جديدة تتحدث العربية مع قبيلة مميزة .

(٢) introd. to H. field, s Arabs of central iraq

(٣) ينظر . ما كما يكل . مصدر سابق الجزء الاول ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، ويجب ملاحظة أن أسماء القبائل التى تحت الجذر جم مثل جموعية ، جميعاب تشير إلى أنها خليط .

ولهذه القبائل نسبة ضئيلة جدا من الدم العربى ، ولا يمكن تمييزهم إثنيا وثقافياً عن الدناقلة الرطانة الذين من الأفضل أن نضيف إليهم تلك القبائل . أما بعض القبائل الأخرى مثل الدواليب والجوابرة والبديرية والجوامعة ، والشواهيت فى كردفان الذين تركوا النيل فى زمن الفونج واستقروا فى كردفان فقد امتصتهم العناصر الزنجية رغم أنهم ما زالوا يسمون أنفسهم جعليين . كما أن القوديات التى نزحت فى الوقت نفسه وتنتمى للمجموعة السلالية النوبا - الفونج تسمى نفسها جعليين . ثانيا : مجموعة جهينة ، وهى تدعى حقيقة الدم العربى ، وهى تضم معظم البدو الأباله فى كردفان (الكبابيش - دار حامد - الحمر) ، وكذلك القبائل الموجودة فى البطانة والجزيرة (شكرية - رفاعه) ، والبقارة ملاكى الماشية ^(١)

ولأغراض وصفية يمكن تصنيف العرب إلى مجموعتين مهنتين : المستقرين والبدو . وهذه المجموعات ليست ثابتة بشكل مطلق ، وهناك دائما انتقال من مجموعة إلى أخرى وذلك طبقا لطبيعة استقرار أو عدم استقرار البلد . وعندما تكون الحكومة المركزية قوية فإن بعض القبائل البدوية تتجه لأن تصبح شبه البدو ^(٢) ، مثلا قبائل البطاحين النهابة فى البطانة ، وهى تتاجر فى قطعان الغنم والماشية والإبل والماعز ، كما تزرع الذرة فى موسم الأمطار ، وأصبحت مهن أعضائها تتجه نحو التخصص . وتطورت قرية أبو دليق فى الوقت الحاضر لتصبح مركزاً دائماً لهم ، حيث يعيش شيخهم أو ناظرهم . كما أن الرباطاب حول أبو أحمد مزارعون وبدو ، وينتجون أفضل التمور فى السودان . كما حدثت العملية نفسها مع الشكرية والشايقية والحسانية والحمر ، وأجبرت بعض «الأقسام» فى كردفان لتصبح مستقرة بسبب تدمير قطعانهم خلال فترة المهدي . كما أن حفر الآبار العميقة للمساعدة فى توفير وتثبيت ضرورات الحياة قد أدت أيضا إلى الاستقرار ، ومع ذلك فالبيئة هى العامل الحاسم الحقيقى الذى يحدد حياة القبائل البدوية رعاة الإبل والمجموعات المستقرة .

(١) هناك مبالغة فى عدد العرب الذى جاءوا إلى السودان ، كما أن المورفولوجي السامى كان نادراً وسط الشعوب المستقرة ، وإذا كانت السامية قد جاءت فى البداية وكانت تمثل ٥-١٠ ٪ من السكان فإن مميزات السامية قد تقلصت إلى ١-٢ ٪ ، كما أن هيمنتهم ثقافياً قد عدلت بشكل كبير مميزات الشعوب التى استقروا بينهم . وثقافياً قد يكون هناك عامل سامى ما بين ٢٥-٥٠ ٪ ، وقد أدت هذه الهيمنة الثقافية إلى المبالغة فى العامل السلالي العربى (كما جاء فى ماكمايكل . Hist. of the Arabs ، وموقف المسئولين الحكوميين هو تصنيف أى مسلم إفريقى يتحدث العربية بأنه عربى متجاهلين بذلك العنصر الحامى القوى وهذا شبيه بالاستخدام الفرنسى لكلمة عربى . إذن فالكلمة « عربى » هى مصطلح ثقافى أكثر منه مصطلحاً إثنيا ويمكننا أن نصنف ببساطة السكان المستقرين على أنهم إما حاميون « تسيمو » ، أو زنوج - تسيمو (أى أصبحوا ساميين) ، ولكن الأكثر وضوحاً أنهم حاميون - زنوج - تسيمو (مثلاً الجعليين) أو زنوج - حاميون - تسيمو (مثلاً الجوامعة) - انظر ماكمايكل الجزء الأول ص ٢٢٢ .

(٢) تعنى عادة تسمية القبيلة بأنها شبه البدو ، إذ فى زمن الخريف يبقى جزء من القبيلة فى القرى للزراعة ، بينما ترحل بقية القبيلة مع القطعان ، أما أثناء بقية العام فلا يبقى إلا كبار السن فى القرى بينما تتحرك البقية باستمرار بحثاً عن الكلا .

ويعتمد البدو والمستقرون كل منهم على الآخر إلى حد ما . فالبدو يجلب الزبد والجن والحيوانات والجلود إلى المدن أو الأسواق ، ويستبدل بها الحبوب والسكر والبلح والملابس وأدوات الزينة والعطور . ولا يملك العربي إحساساً بالوحدة القومية ، ولم تتحد القبائل أبداً لأى غرض سوى فى مناسبة واحدة ، فليس هناك إحساس عميق بالتعاون مثل وطنى الأمة المستعدين للتكاتف من أجل ازدهار بلادهم . وقد فهمت الحكومة التركية - المصرية هذا الأمر جيداً ووضعته فى المحك العملى فى أساليب حكمها ، لذا فقد تسببت ظروف خاصة أحدثت تمرداً قومياً ناجحاً . وتوضح هذه الأمور حالة التخلف التى كان عليها السودانيون قبل إعادة الفتح ، وعاشت كل منطقة أو قبيلة من أجل حياتها ولها كلمة واحدة الثقافة مع جيرانها ، ولم تكن لها اهتمامات أو أنشطة مشتركة مع الآخرين . وهم مستقلون سواء المزارعين أو البدو ، منفصلون - فى الأساس - كل منهم عن الآخر ، ومستقلون ، وفى خصومة غالباً .

ويسود نظام طبقي قوى وسط الشعوب المتحدثة بالعربية ، ويحتقر ابن المدينة والمزارع عرب (بدو) الصحراء ^(١) الذين يدعون بحق الدماء العربية ، وكلهم يحتقرون الزنوج الجنوبيين بالرغم من أن العديد منهم لا يمكن تمييزهم من الزنوج .

وكانت أحوال السودان عندما دخل العرب - مع وضعنا فى الاعتبار زراعة المحاصيل وتربية القطعان - كما هى دائماً فى الفترة الحالية التى تم فيها إدخال نظم الري ، لذا فالعرب الذي استقروا فى المناطق النهرية تم امتصاصهم داخل المزارعين وتبنوا العادات النوبية التى تظهر الآن نفس المميزات الجسدية مثل الدناقلة الذين احتفظوا بلغتهم ، كما أن أولئك الذين استقروا جنوباً تم امتصاصهم داخل مختلف المجموعات الزنجية التى عدلتهم ثقافياً . كما احتفظ البدو - من جهة أخرى - على معظم مميزاتهم السلالية والحياتية وتنظيمهم القبلى .

المزارعون : وهم يعيشون فى الغالب على طول النيل والنيلين الأزرق والأبيض وفى الجزيرة وفى سهول كردفان . وتتميز المجموعتان بطريقة زراعة الحبوب . فالنيل بالنسبة للكثيرين من « أهل السواقي » هو مركز وجودهم كوسيلة لرى أراضيهم على طول ضفافه ، وللحفاظ على القطعان والأسراب ، ويمكن بصعوبة تمييز أسلوب حياتهم عن أسلوب حياة الدناقلة، ومع ذلك فالنيل ليس المصدر الوحيد للحياة فى السودان، وهناك الكثير من القرى حتى فى الشمال لديها أمطار كافية تمكنها من الحفاظ على الحياة الزراعية ، ويعتمد الناس بشكل أساسى جنوب الخرطوم - خاصة فى كردفان - على الزراعة المطرية .

(١) يستخدم مصطلح « مستقرون » لأى بدوى مقارناً مع الكلمة المصرية القديمة « عامو » لكل من بدو آسيا الساميين والبنجة الحاميين بين النيل والبحر الأحمر .

وبالرغم من أن القرويين يفتخرون بنسبهم الزائف أو نسبهم القبلى ، فإن التنظيم القبلى ضعيف أو معدوم وسطهم . وقد أضعفت الفترتان المصرية والمهدية ، أو دمرت بشكل كبير التجمع القبلى ، واليوم فإن معظم القرى تتكون من أعضاء عدة قبائل مختلفة ، ربما تكون موجات لمختلف المهاجرين أو من بقايا جنود المهدية ، ويجد المرء مثلاً - فى قرية من قرى مديرية النيل الأزرق - خليطاً من قبائل رفاعة والمحس والجعلين والديناقلة وآخرين ^(١) ، لذا فقد حل التنظيم المشاعى محل التنظيم القبلى واتجهت عملية انتقال السلطة ببطء عما هى عليه فى القبائل البدوية . وكانت البداية فى عام ١٩٢٥م بمجالس كبار السن للبت فى القضايا البسيطة . ومنذ ذلك الوقت تسارعت عملية تطور الحكومة المحلية والإدارة المحلية التى تعمل فى المناطق الريفية والمجالس البلدية ومجالس المدن والمناطق الحضرية ^(٢) ، ورغم وجود هذه الاختلافات العرقية والقبلية فإن النظام يسير بنجاح .

فى بعض الأحيان - عندما تكون القبيلة فى حالة تحول من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار - فإن سلطة ناظر القبيلة وعمدة مجموعة من القرى تبدو متشابكة ومتداخلة ، إلا أن المنازعات يتم حلها بواسطة السلطة المحلية . إذا حدث مثلاً أن سكنت مجموعة من الشكرية فى منطقة للهدندوة فيجب عليهم إخطار ناظر الهدندوة ، ويسير الاتجاه نحو دمج المجموعات القبلية المختلفة تمام الاختلاف مثلاً حدث بالنسبة للإدارة المحلية لنوبا تولى (المسلمين) مع الحوازمة البقارة البدو فى الجبال الشرقية فى عام ١٩٤٣م .

إن الحياة اليومية للمزارع هى الاشتغال بالزراعة سواء على النيل أو بالأمطار أو فى بطن الاودية ، ويتنظيف الأرض وعزقها وبذرها وحصاد المحصول . ويبدأ الخريف من يونيو حتى نوفمبر وهو أكثر شهور السنة ازدهاماً ، أو يعمل فى إعداد الأراضي المطرية فى ظروف مرهقة وصعبة تحت المطر فى الطين ، ولا يفعل المزارع شيئاً فى الصيف سوى الثرىة ، ويعمل مزارعو الأراضي النهرية عملاً أكثر عما يفعله أولئك العاملون فى الأراضي المطرية ، إذ يزرعون ثلاثة محاصيل ، فليهم الزراعة المطرية

(الضهرة) وكذلك الساقية أو زراعة الجرف بالسلوكه ، وسواء أكان المزارع يعمل فى الأرض النهرية أو المطرية ، فإن مقتضيات بيئته تستعبده وتصبح حياته حياة التابع . إن الالتحاق بالأرض مع ميل السكان الاصليين نحو زراعة كل ما يمكن زراعته بالأساليب القديمة هو نهاية المشوار الطويل المجهد اليومي من القرية ، ولا تهتم القرية سوى بالاشياء التى تدخل فى نطاق حياتها . وكل إنسان وحيوان يعرف من نظرة ، ويعرف كل منهم الدور الذى يلعبه فى حياة القرية ، أما ما عدا ذلك فهو

(١) ماكمايكل . مصدر - سابق الجزء ١ ص ٢٤ .

(٢) فى عام ١٩٢٥ كانت هناك ٥ مجالس ريفية و٤ مجالس مدن و٤ مجالس بلدية ذات سلطات تنفيذية وميزانيات مستقلة .

خارج أفقها. ولعلامات السماء أهميتها العملية. وتعد الصناعات الريفية بدائية لبلدكان له اتصال بالثقافات الأعلى ، وهي محدودة لتزويده بالوسائل الضرورية للزراعة وصناعة القوارب والدباغة وغزل الصوف للخيام والحبال ، والقطن لصنع الدمورية ، وضفر السعف لصناعة البروش والأطباق والمقاطف « والقفافة » وصناعة الأدوات والأواني البدائية والفخار والعناقريب والحجول الفضية والأسورة والمصنوعات الجلدية (السروج والأخراج وغمد السيوف والأحذية والحقائب) .

وكقاعدة عامة لا توجد دكاكين في القرية أو الفريق ، ولكن هناك ملمحاً مهماً في الحياة المحلية وهو أن لكل منطقة عدداً محدوداً من الأسواق تعقد بانتظام كل أسبوع أو شهر في مكان مفتوح ، وللسوق اسم اليوم الذي يعقد فيه ، وتقام هذه الأسواق في مكان تقليدي لا تحدده أى مبانى سوى توفر الأشياء الضرورية وموارد المياه ، ويبيع الريفيون والبدو في هذه الأسواق منتجاتهم ويشتررون كل شئ من الحجاب حتى الجمل ، ويسافر التجار من سوق إلى آخر ، وهم يحملون بضاعتهم على ظهور الحمير والجمال ، ويتواجد العمدة دائماً في السوق لتسوية القضايا الصغيرة التافهة ، ولا تعمل الأسواق كمراكز للحياة الاقتصادية الريفية البدوية فحسب ، وإنما كمصدر للأخبار أيضاً . ولدى كل المدن أسواقها الدائمة ، وأدى الانتعاش الاقتصادي الذي أحدثه الاحتلال البريطاني إلى تحول العديد من القرى المهمة إلى مدن تجارية ، كما تتركز في المدن النشاطات الصناعية ، وتشكل كل مهنة شكلاً من الأشكال النقابية لها شيخها الذي يحل المنازعات الصغيرة ويتفاوض مع السلطات. وتتجمع كل مهنة في شارع يحمل اسمها ، ويتم في هذا الشارع صناعة وبيع المواد ، وتباع المنتجات ذات الأوزان والأحجام الكبيرة مثل الحبوب والبطيخ والعلف والفحم والخشب في أماكن معينة تسمى « الملجة » . والعديد من السلع الأوربية مثل الشاي والسكر والمصنوعات القطنية أصبحت ذات أهمية قصوى لأبسط سودانى .

ومن المتيسر تحقيق أخطر الأشياء ، وإطلاق التعميمات بشأن صفة وخلق المزارع على حساب إغفال أهم العوامل ؛ لأن الحقيقة الحية معقدة جداً . إن العوامل المشتركة لأى مجموعة هي الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعرقية . ويجب ملاحظة أن أى اختيار قد يكون محدداً ومقيداً برؤية واهتمام الكاتب أو المؤلف . إن هؤلاء الناس – مع النوبيين المغامرين – هم أهم شعوب السودان ، طالما كان التخطيط يتعلق بالمستقبل ، ولكن يجب ان نتذكر أن مصطلح « عرب » كما أطلق عليهم هو أكثر قليلاً من مجرد مصطلح لغوى ، لأنهم في الحقيقة شعوب ذات أصول قديمة في البلاد .

هناك عامل خلود فى حياة هؤلاء الناس ، إن احتياجاتهم بسيطة جدا (١) والحياة معهم انسجام طبيعى لدرجة يشعر معه الانسان أن هذا الاحتفاظ البسيط بالإيقاع الطبيعى هو الذى يوجه حياتهم لتبلغ غاياتها . إن نبل وكياسة كل الذين لم تفسدهم حياة المدينة هى مضرب الأمثال ، وذكاء السودانى المستقر هو بالتأكيد ذكاء ساكن عن كونه ذكاء ديناميكياً ، وقد ظهر ذلك فى الطريقة التى بها تبلورت خبرة أسلافه فى الأمثال المحكمة البليغة التى ظهرت بإصرار فى حديثه عن متغيرات أحوال حياته المحدودة، وتنزع نحو تحرير اهتماماته الشخصية ، وهو يستطيع أن يصون ويكرر ولا يمكنه أن يخلق .

إن التضامن الصريح بين الروح والطبيعة المترسبة فى روح المزارع سببه عبوديته للأرض لقرون ، والتى يمكن فصم عراها فقط بتحطيم القيد بين الانسان والطبيعة، وهذا يفسر فقد روحه الفنية وعدم وجود أى فن حى وقوى، وهو يعبر بشدة عن أى قوة خيالية يملكها فى إسلامه الذى تحرر روحيا من الجسد . والسودانى غير مصقول بسبب أميته ، وقد نتج جمود الشخصية هذا من بيئته الطبيعية وتدينه ، والآن وبكل هذا الجمود فإن حبه للإيقاع والغناء للأرض والحياة يُظهر أن أنه إذا ما تم تحرره من إرثه الدينى فإن تطور فكره وخياله وحبه للجمال سيكون سهلاً .

إن فهم المزارعين البالغين بطئاً بشكل مروع ، برغم أن ذاكرتهم قادرة على التذكر ، ويجد المرء أن الأطفال سريعو الحركة ونشطون وأذكاء كالأطفال الانجليز الذين فى نفس السن ، إلى أن يصلوا سن البلوغ وعندها يحدث تغير مفاجئ ، وهذا التغير مرجعه سيبان : النضج البدنى المبكر والطقس ، كما ينمو النبات أيضاً بسرعة فائقة ، بالإضافة الى بدء الخبرة الجنسية المبكرة ، والسبب الثانى انضمامهم إلى بيئة عقلية راكدة . وهم يبدأون الحياة بإمكانيات لانهاية ، ولكن البيئة التى يجدون أنفسهم فيها تثبط هممتهم ، وإذا ما تم أخذهم بعيداً عن بيئة قريتهم بشكل كاف فإنهم يصبحون اذكاء وقادرين على العمل كإداريين ومهندسين وأطباء وكتبة وتجار، كأنما إهدار الطاقة الجنسية يؤدى الى إبطاء النشاط العقلى . وليس الطقس وحده - رغم تثبيطه للهمم - هو المسئول عن تبدل شخصية الشاب السودانى المفعم بالحياة والنشاط ، وإنما البيئة الدينية الاجتماعية التى تحجمه أيضاً ، وبمعنى آخر إنه الجهل التام والبلاهة والخرافة والإفلاس الدينى الذى يطوقه عندما - بعد الختان فى حوالى العاشرة من العمر - يدخل مجتمع الرجال ويفرق فى عبودية الزراعة مع تكراره الرتيب لنفس

(١) عادات الأكل بسيطة جدا ، ويتم شرب الشاي عند الاستيقاظ من النوم ، ويأتى « الغداء » بين الساعة ١٢ و٢ ظهراً ويتكون من كسرة تقطع وتغمس فى صحن به ملاح . أما الوجبة الأخيرة فهى « العشاء » وهى كالغداء تماماً . كما تصنع المريسة التى يشربون منها كميات كبيرة . ويتناولون اللحوم فى مناسبات محدودة عند قنوم ضيف أو فى « الكرامة » .

العمليات يوماً بعد يوم ، إذ إن الذكاء يتطور وينمو بالمكتسبات الجديدة ، ويظهر هذا بشكل خاص مع الفتيات . إن الفتاة الواعدة في سن المدرسة تخضع لصدمة الخفاض الفرعوني في حوالى الثامنة من عمرها ، وحتى إذ ما كانت حياتها العقلية والشخصية تبقى حية بعد ذلك فإنها تتزوج صغيرة وتسجن في الحوش . وأساس الحياة هي الأسرة ، ولكن ليست الأسرة بالمعنى الذى نعرفه ، إذ إن الحياة الاجتماعية للمسلم تجعل ذلك مستحيلاً . إن تعدد الزوجات وسهولة الطلاق والاحتفاظ بالسريات وإنتاج أسراب من الأطفال ذلك كله يؤدي لأن تصبح النساء والأطفال مجرد قطع . إنه قطع أكثر من كونه مجرد أسرة يولد فيها السودانى ، وهذا يفسر العديد من الأشياء في شخصيته . وتتجمع الأسرة في الحوش الذى يتكون - عند سكان الأراضى النيلية وسكان المدن - من منازل من « الجالوص » مكونة من غرفة أو اثنتين أو أكثر، وعند مزارعى الجزيرة وكردفان من « تَكُلُّ » من القش يحيط به سور من الشوك (١) . ويتم المشاركة في الحوش على النمط الأبوى مع الأبناء وزوجاتهم وخدمهم ، وربما عبيدهم، وبرغم إلغاء الرق فإنه ما زال موجوداً في واقع الأمر بدرجة ما (٢)، والكل تحت سيطرة الحبوية التى تحكم النساء والأطفال بالقهر ، وتحافظ على التقاليد وتقاوم كل فكرة أو طريقة أو أداة جديدة ، وهى مصدر الرعب لكل أسرة وليست كل النساء منعزلات إلى حد كبير بين الأسر الموسرة ؛ إذ تحجز الفتاة - بعد سن الثانية عشرة - في حوش الأم ، إلى أن تنتقل إلى عزلة أخرى في حوش زوجها ، وليس من الاحتشام أن تخرج

(١) يجب أن نلاحظ تأثير الجغرافيا على المساكن ، إذ تسود المنازل الطينية علي طوال شواطئ النيل . إن المسكن المعتاد في مناطق السافانا هو القطية المستديرة (تسمى التَكُلُّ)، وهى مصنوعة من إطار مستدير من الأعمدة ومسقوف بالقش ، وقد تبنى السكان العرب هذا البناء من السكان السود . ويحيط بالقطية سور من الشوك ، كما تحبس ليلاً قطعان وأسراب الحيوانات في حظائر داخل هذا السور ، كما يستخدمون أيضاً «الراكوية» وهى مأوى مصنوع من الأعمدة الخشبية والقش ، وهى جيدة في الطقس الحار لأنها تسمح للهواء بالمرور فيها إلا أنها عديمة النفع في الأمطار . ويمتلك البجة كوخاً مصنوعاً من بروش منسوجة من سعف الدوم مفروشة فوق عصى طويلة معقوفة . كما أن العرب ملاك الإبل يحتفظون بخيامهم المصنوعة من وبر الجمال أو صوف الماعز (الشقاق - الشباكا) والبروش في شرقى النيل . أما بيوت البقارة (الشكايا) فهى ذات شكل دائرى مصنوعة من حصير مشدودة بالحبال يمكن طيها بسرعة عند التحرك، كما يشيرون أيضاً مأوى خشبياً من لحاء السنط ، ويشيد الكثير من أشباه البدو أكواخاً خشنة من قصب الدخن .

(٢) ما زالت مذكرة اللورد كيتشنر Memorandum to Mudirs تحكم الموقف الرسمى بالنسبة للرق : لا يعترف بالرق في السودان ، ولكن طالما يخدم الخدم سادتهم عن طيب خاطر، فليس من الضرورى التدخل في الشروط الموجودة بينهما ، ومع ذلك عندما يتعرض الأفراد للمعاملة القاسية ، ولكن إن تعرضت حرية أو حريتها قد تعرضت للتدخل ، ففي هذه الحالة يمكن محاكمة المتهم عن هذه الاتهامات التى يجرمها القانون، ويجب تطبيق أقصى العقوبة في حالات القسوة الشديدة . وتم في عام ١٩٢٨م تسجيل ٦٠٠٠ عبد بقارى مؤلّد . ولم يقبل إلا ثلثهم صكوك الحرية ، وفضلوا أمان العبودية عن القيام بالمبادرة للقتال من أجل وجودهم ... وهذا ليس حجة بشأن العبودية المنزلية ولكنه مجرد توضيح لحقيقة المثل اليونانى القديم « إن يوم الخلاص يجرّد الإنسان من نصف رجولته » . (odyssey, vii, 11. 322).

وهناك مثل سودانى يقول « عبداً بن سيده ولا حراً مجهجه » المترجم «

النساء وحدهن أو غير محجبات ، إذ إن ترك الرأس مكشوفاً هو علامة الرق أو الأصل الاسترقاقى، ويختلف وضع المرأة فى الأسرة طبقاً لمجموعة الطبقة السلالية التى تنتمى إليها، فقد تكون بذلك سيدة المنزل أو خادمتها . إن لعنة حياة الأسرة الإسلامية ليس فى تعدد الزوجات ، ولكن فى سهولة الطلاق . ويعاملهن الرجال بشكل عام معاملة جيدة ضمن نطاق التعاليم التى فرضها الإسلام والتقاليد المحلية ، ويجب معاملة بنت العم - بسبب لقرباتها ونفوذها العائلى - معاملة حسنة ، ومن النادر تطليقها عدا سبب عدم الإنجاب . وإذا ما عاملها زوجها بقسوة فإنها تذهب إلى حوش أبويها وتفرض شروطاً لرجوعها ، ربما ثوباً جديداً أو زوجين من الأقراط . وعلى الزوجة التقيد بالاحترام الواجب لزوجها : المشى خلفه ولأكل بعدما ينتهى هو من الأكل ، ولا يناديها باسمها ، ولكن « يا مرة » أو « يا بت » ويشير إليها بأى أولادى أو « العيلة » ، ويجب أن يخدع نفسه بأنه السيد ويتظاهر باحتقارها ، ومن النادر أن يظهر لها أى تعبيرات حب وحنان ، وكلما كبر فى السن كلما أصبح كثير المطالب .

والنظام هو أن تبقى النساء فى المنزل فى جهل تام بأى شى سوى الحديث الضرورى والزواج التقليدى . وتشكل المسائل الجنسية الموضوع الرئيسى فى حديثهن ويعاقب بشدة على ارتكاب الآثام الجنسية التى قد تصل لدرجة القتل فى الأسر الكبيرة ، وهذا يفاير بشكل كبير اللين الموجود عند البقارة والبجة .

وتختلف النساء فى الصفات بشكل كبير بسبب اختلاط دمهن لدرجة يستحيل معها التعميم ، ففي السن المبكرة وبالرغم من محدودية محيطهن فهن ذكيات مشرقات ومحجبات وحنونات وذكيات بشكل مدهش ، ولكن سرعان ما يتوقف نموهن وتطورهن ويدفن فى رمال الحياة الإسلامية الإفريقية ، أو يظهرن بعد الزواج قوة عظيمة فى التحمل وعدم الشكوى ويرجعن كل الظلم والحرمان ويؤس حياتهن إلى إرادة الله . ويؤدى صبرهن الصامت وعبوديتهن للعادة إلى استعباد الرجال لهن ، ويتقبلن قيودهن بهدوء بسبب جمود السودان والإسلام . إنهن جزء من الحياة كما يعلمنها ويعلن بسرور بالغ « نحن بهائم » ، إن أقصى سعادة بالنسبة لأى امرأة هو الاستمتاع بالإنثارة أثناء شهور الإعداد لتزويج ابنتها . إن العاطفة السائدة فى خلفية حياتهن هى عبودية الخوف ، وخوفهن نوعان : المخاوف الحقيقية مثل الفشل فى الإنجاب أو أن تفقد جاذبيتها الجسدية لزوجها وعواقب الطلاق أو الزوجة الثانية أو الخوف من الألسنة الحاقدة خاصة الحبويات ، وثانياً المخاوف المجهولة من عوالم الجن والأرواح التى لا تعد ولا تحصى ، وأن تصيبها أو تصيب طفلها عين الشر ، وهى المخاوف التى لا يبدها دينها .

ويسود دينها العامل الاجتماعى : اللقاء يوم الجمعة فى المقابر وزيارة ضريح الولي فى المناسبات ، ولا يدخل فى حياتها اليومية الدين القويم . إن عقيدتها هى مجموعة من الخرافات والفلكلور ؛ لذا فهى عندما تصبح « حبوبة » تبدأ فى التسبيح وصوم رمضان والذهاب فى بعض الأحيان إلى الحج جالبة بذلك الحسنات لكل العائلة .

وتختلف القبائل البدوية اختلافاً بيناً عن المزارعين بسبب الاختلاف الجذري لتأثيرات الريف وحياة الاستقرار عن كونه اختلافاً في الدم ، إذ بالنسبة للعديد من المجموعات وبعض القبائل العربية البدوية (على سبيل المثال الكواهلة) ، فإن الغالب فيهم هو الدم الحامى . وللصحراء تأثير موحّد على السلالات الواضحة المعالم أصلاً ، واختلفت خصوصيتهم من خلال انتظام بيئتهم . وتنقسم القبائل البدوية إلى مجموعتين بارزتين يحددهما تأثير الأرض على الحياة ونوع الحيوان الذى يربونه ، وهما « أهل الإبل » (أو الأباله أو البادية) والبقارة (أهل البقر) ، وتتجول الأولى فوق أرض واسعة قليلة السكان ولا تختلف كثيراً عن سكان الجزيرة العربية ، وبقيت بعيدة عن التأثيرات الأجنبية ، حيث غيرتهم بشكل طفيف بيئتهم رغم تبنيهم الكثير من العادات المحلية ^(١) ، وتغيرت البقارة من جهة أخرى بشكل كبير فى صفاتها عن طريق التزاوج كما تغيرت فى أسلوب حياتها .

أ- ينقسم أهل الإبل إلى مجموعتين رئيسيتين ، تعيش كلها بين خطى عرض ١٨ و ١٢ شمالاً ، ومنهم من يجول غربى النيل ، كما يتحركون خلال موسم الصيف (موسم الجفاف) باتجاه الشمال والشمال الغربى نحو الكلا الطرى وبرك المياه ، وثانياً أولئك الذين يجولون شرق النيل الأزرق ليصبحوا فى موسم الجفاف قريبين من النيل ومراكز الآبار ، ويتحركون شرقاً وشمال شرق فى موسم الأمطار إلى البطانة أو مديرية النيل الأزرق .

إن الملمح الواضح لحياة العرب البدو هو خضوعهم الجامد للدورة السنوية لطقس السهب وأسلوب سيطرته . والوحدة هى القبيلة التى تتكون نظرياً من مجموعة من الأسر ترتبط بدرجات متفاوتة برابطة الدم ، ومع ذلك لا يوجد فى السودان قبيلة واحدة متجانسة التكوين ، وتتحد فى الغالب عدة قبائل تحت اسم واحد . إن العامل الحقيقي والدائم هو الأسرة أو العشيرة ، ويحكم القبيلة شيخ أو ناظر بلغة حكومة السودان ، وهو « البريمو » فى حقيقة الأمر ، ولا يتوارث منصبه من حيث المبدأ ، ولكنه يتوارث فى الواقع العملى ، وليس من الضرورى أن يرث المنصب الابن الأكبر ، إذ يرشح الأب فى بعض الأحيان الابن الأصغر إذا بدا أنه مناسب للمنصب أو إذا كانت أم الابن الأكبر أمة . وكثيراً تتدخل الحكومة المركزية فى اختيار الوريث أو خلع الشيخ الذى لا يحكم القبيلة بشكل جيد .

ويجمع شيخ القبيلة فى يده السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ^(٢) ، وهو غير مقيد سوى بالحكومة المركزية ، وتحت سلطته شيوخ « خشم البيوت » . والسياسة

(١) جاءت قبيلة الرشيدة التى تشغل مساحة واسعة فى منطقة كسلا من الجزيرة العربية فى عام ١٨٤٦م ، ولا يمكن تمييزها عن القبيلة العربية ، وتحفظ بلغتها وزبها العربى وترفض الخضوع لشيخ مشترك مما شكل مشكلة إدارية للحكومة الحالية ، وقد بدأت الآن فى التكيف مع الظروف الجديدة .

(٢) تطبق عقوبات محكمة الشيوخ طبقاً لقانون العرف غير المكتوب ، وليست الشريعة ، وتدار محاكم الشيوخ طبقاً للشكليات المحددة ، وتعقد الجلسات علنية ، وهى مفتوحة أمام كل من يرغب الحضور .

التفويضية التي تبنتها الحكومة الحالية منذ عام ١٩٢٢م هي دعم سلطة الشيوخ وتجنب أى تدخل ظاهر فى الحياة القبلية ، كان هذا معناه تقوية نفوذ شيخ القبيلة ، إذ إن السلطة التي منحت له كقاضٍ قد عززت من سلطته التنفيذية إلا أن استقلال بعض القبائل قد ضعف بالتأكيد تحت الحكم المركزى القوي للحكومة . إن وحدة أى قبيلة شئ غير مستقر ، إذ يتوقف هيبتها بشكل كبير على الشيخ ، ومن ثم كثيراً ما يحدث تبدل فى تحالف أجزاء القبيلة ، ومع ذلك فقد منحت الحكومة حياة جديدة لبعض القبائل وذلك بدمج العناصر المشتتة ، مثلاً الحمر فى كردفان ، وقد حافظت الكثير من القبائل على عاداتها القديمة مثل « النحاس » - الرمز المهم لسلطة الشيخ والذي ترتبط به الهيبة الخرافية والشعائرية المعقدة ^(١) والاحتفالات عند التحرك من معسكر إلى آخر .

ويولد البدوى ويتناسل فى ظروف قاسية ، ويعيش فى إيقاع حياة رتيبة تتكيف مع الأحوال الطبيعية التي يمكنها أن تدعم الحياة فقط : لأن الجمل والشاه ينتزعان سبل الحياة من أقاليم السهوب الجافة فى المناطق الواسعة جداً ، حيث تتجول بحثاً عن العلف النادر الوجود وإمكانية الوصول خلال أيام قليلة إلى المياه المحدودة ، وهو يتجول بقطعان قليلة من الإبل التي تشكل ألبانها ولحومها وجلودها ووبرها الأساس الاقتصادى لحياة البدوى . ولكل قبيلة دائرة رعى معترف بها ، إلى جانب امتلاكها للآبار وأماكن المياه ، ولا يمكن لقبيلة أخرى أن تسقى أو ترعى داخل هذه الدائرة دون أن تنتهك حقوق تلك القبيلة . ولم تحل سوى مؤخراً المنازعات الطويلة الأمد بين الكبابيش والكواهلة فيما يتعلق بحقوق الرعى . إن المحافظة الذاتية للتحركات القبلية يحكمها بشكل صارم التغيرات فى الفصول ، وبينما هم لا يزالون فى منتصف فصل الشتاء يتم اختيار الدمر للصيف القادم بالقرب من بعض أماكن السقى عند البئر أو النهر . ويبقون هناك حتى تظهر بوادر السحب المطيرة ، وعندها تتحرك القطعان جنوباً بحثاً عن العشب الطرى ويترك الخيام والنساء فى الدمر ، ولكن عندما تنتظم الأمطار تساق الجمال وتحمل الأمتعة ويتحرك المعسكر . ويسمى هذا التحرك بالنشوغ وهو أسعد أيام البدوى .

أما فيما يتعلق بالملاح حيث لا يوجد اختلاط بالدم الزنجى ، فإن ملامحهم ذات سمعة حامية مثل البجة أكثر من كونهم مثل العرب . فالوجه بيضاوى وهم يعلقون شعورهم ولا « يصففونه » مثل البجة ، ويتفاوت لونهم بشكل كبير ، إلا أن القليل منهم

(١) يتكون النحاس من مجموعة من ثلاث قطع أو أكثر تسمى « الثور » و« البقرة » و« العجل » ويبدو أنه تقليد محلى لم يأت به العرب ، يضرب النحاس فى ثلاث مناسبات : (١) الدعوة للحرب ، (٢) الاحتفالات القبلية ، (٣) عند موت الشيخ أو عضو مهم فى القبيلة . وتقدم الحكومة فى الغالب النحاس إلى القبائل التي تم إعادة تشكيلها أو تم اندماجها .

نوو بشرة بنية مثل البجة . وكيف الطقس والإقليم أسلوب الحياة ، وتفسر الفردية المطلقة والاستشراف الضيق الذى يشكل الصفة المميزة للبدو ، ولا يوجد فى الصحراء أو عند شعوبها اللون « الرمادى » ، فإما أبيض وإما أسود . لقد أجبر البدوى على العيش فى عزلة مع أسرته ، وفى حالة توتر مع جيرانه فيما يتعلق بضرورات الحياة ، أي المياه والمرعى ، وهو يملك كلاً من مميزات وعيوب الفردية ، وقد أجبرته العزلة والاعتماد على نفسه وتقوية صفاته الطبيعية : الواقعية والتصميم والكرامة ، وقادته ضالة وفقر الحياة إلى الكرم الزائد والجشع المفرط ، وهو من جهة أخرى ودى ومشاكس وشجاع ومرتاب . وهناك التفاخر والغيرة والتنافس بين رجال نفس القبائل والأسرة والتي غالباً ما تؤدي إلى جرائم الغيرة والعنف . ويوجد نظام الدية بين كل البدو سواء العرب أو البجة ، وغالباً ما تدفعها القبيلة كلها ، وقد حدث تطور غريب للوعى الأخلاقى والقدرة على تحويل معظم المواقف داخل عالمه المحدود إلى منفعة . إن النظام العشائرى وأسلوب حياته لم تمكن البدوى أبداً من تطوير سلطة منتظمة أو مجتمع مستقر ، كما يقول ابن خلدون « إن غاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ، وليس لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاصد ودفاع بعضهم عن بعض ، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامة » .^(١) إن ما يسمى بحرية البدوى هي مجرد أسطورة ، ومع ذلك فهو متحرر من مخاوف الظلام والأماكن الفسيحة الواسعة التي تجلب الحزن للريفى . لقد تكيف تماماً مع بيئته ، حتى برغم أن الحياة الاجتماعية قد غلت يده وقدمه واستعبدته الموانع الاجتماعية وعرضته للخطر ، وجعلته يخاف من رأى العام وقيد القانون العرفى .

والأبالة غير مباليين بدينهم ، مهملون للشعائر الدينية ؛ لذلك فهم أقل تعصباً من المزارعين ، ويظهرون روحاً أكثر تسامحاً وعقلاً متفتحاً ، وقد وجدت آثار من عبادة النجوم القديمة فى العديد من عاداتهم ، وما زال التقويم القمري يلعب دوره فى حياة الصحراء ، وما زالت كلمات «دوتى» تبقى صادقة بالنسبة لبدو السودان كما هي عليه بالنسبة لبدو الجزيرة العربية ، ، ، لهذه الإسماعيلية التزام طبيعى بما يمليه الضمير بالنسبة للخير والشر أكثر من الآخرين ، ولكن لا أحد يراها أقل مرتبة فى كل معاملاتهم البشرية،^(٢)

واقتضت الضرورة على البدوى ألا يتزوج إلا بواحدة ، ولكن الشيخ يتزوج حتى أربعة ، بالإضافة إلى العديد من السرارى ، لأن الزواج وسيلة لزيادة علاقاته وكذا نفوذه . والمرأة نفوذ قوى ، وتتمتع بحرية كبيرة . وبالرغم من أن الرجل يتزوج عادة بنت عمه

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة القاهرة) ص ١٤٩ - ١٥٠

Doughty : Arabia Deserta, i.264

(٢)

كزوجة أولى ، فعادة ما يكون الزواج نتيجة للرغبة الشخصية ، ولكن الأب لا يرضى إلا في النادر إعطاء ابنته لمن يعتبره أدنى منه درجة اجتماعية .

ب: البقارة ^(١) إصطلاح عام يطلق على تلك القبائل التي تربي البقر ، وقد تبنت قبائل جهينة هذه الممارسة من القبائل السوداء ، وكانت قبائل جهينة قد تغلغت حتى جنوب خط العرض ١٣ شمالاً إلى المناطق التي لا يمكن للإبل العيش فيها بسبب الذباب . وفي هذه البيئة الغربية ذات الأرض الرعوية التي قدموا إليها ، فكر أبناء الصحراء الضائعون أن يتخذوا لظروف حياتهم الجديدة أسلوب حياة السود ، ولأنهم كانوا أصحاب قطعان إبل فقد أصبحوا أصحاب قطعان بقر ، وبالضبط كما كانوا يغيرون على قطعان الإبل من جيرانهم العرب ، فإنهم أغاروا على قطعان الأبقار من جيرانهم الجدد (السود) ، وبدأوا برعي الأبقار ثانية في الأرض الرعوية التي استولوا عليها حديثاً حيث ماتت إبلهم، لم يكن هذا كل شيء ، لقد وجدوا أنه ما زالت هناك «مواشٍ» محلية أخرى ، وهم السكان السود المستقرون في تلك الأراضي والذين أغاروا عليهم أيضاً لأداء الأعمال الحقيمة في المنزل وفي الحقل والسهل ، كما وجدوا أيضاً أن نساءهم قد يصلحن في المحافظة على استعادة كياناتهم الاجتماعية الذي بدأ في النقصان .

وتحتل هذه القبائل شريطاً يمتد من الضفة الشمالية للنيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، وتغطي في السودان الإنجليزي المصري سهول كردفان ودارفور حتى بحر العرب ، وتعيش أغلبيتهم في السودان الفرنسي ، ويرتحلون بأبقارهم في موسم الجفاف إلى أراضي الرعي الجنوبية ، ويصطادون الفيل والزراف للحصول على اللحم والجلد والعاج ، وكانوا قديماً يصطادون الرقيق ^(٢) . وقد أدى منع تجارة الرقيق إلى اضطراب اقتصادهم وجعل حياتهم أكثر كآبة . وعندما تهطل الأمطار وتصبح الأرض الطينية سبخة ينقلون أبقارهم هرباً من الذبابة إلى الأرض الرملية الأعلى شمالاً على طول خط عرض ١٢ و ١٣ شمالاً ، وتقضي قبيلة الحوازمة العام كله في سهول منطقة جبال النوبا ولمعظم القبائل بعض الأقسام المستقرة ، ولاضطرارهم - خلال الفترة المهدية - القيام ببعض الزراعة بسبب هلاك قطعانهم ، ومن أجل البقاء والحصول على المال لشراء مزيد من الأبقار ، والبعض منهم - خاصة من المهاجرين والرقيق - بسبب هبوط أسعار الأبقار وفرض ضريبة الرؤوس عاشوا حياة الاستقرار في القرى . وبدأت بعض قبائل المنطقة الشرقية في زراعة القطن ، وحرفتهم الرئيسية الآن نقل التجارة

(١) فيما يتعلق بالبقارة ينظر :

G.D lampen in the Anglo-Egyptian Sudan from within ,pp.30ff., and SNR .xvi,97ff

(٢) ما زالوا يتوقون لممارسة التجارة ، وقد نم في عام ١٩٢٨م اكتشاف قافلة في برتا ، وهي تنقل رقيقاً من الحبشة .

يليه بيع الأبقار والضأن ، وبالرغم من أنهم يملكون العديد من الخيول فإن انتقالهم يتم بواسطة الثيران التى بإمكانها حمل حمولة أكبر تصل ما بين ٢٠٠ - ٢٠٠ رطل .

وهذه القبائل ضخمة ^(١) ولكنها تداخلت بشكل كبير ، وقد اتخذوا تعريفاتهم القبلية الحالية فى خلال المائة سنة الأخيرة ، ولكل قبيلة ناظر تحته عمَد أو رؤساء أقسام . وللناظر مناديب لهم فى بعض الأحيان سلطة فض المنازعات بين العمَد ، ويدعى البقارة كلهم أنهم من جهينة ولكنهم اختلطوا بدماء الزوج والفلاتة بشكل كبير ، كما تغيرت مميزات ثقافتهم العربية السابقة بسبب افتقارهم قابلية التحرك التى لدى الأباله ، بالإضافة الى التزاوج مع الزوج . وبعض القبائل مثل أولاد حامد كلهم تقريباً زوج بالرغم من أنهم اكتسبوا بعض العناصر الأخرى عن طريق الزواج من القبائل الأخرى خاصة ، ويوجد فى كردفان أفضل وآخر البقارة الذين تحولوا . والعديد من القبائل الأخرى خاصة فى دار فور يشبهون الزوج أكثر من العرب ، ويقول ح.د. لامبن للرجال عادة شفاة غليظة وأنوف فطساء والنساء قصيرات القامة وفى الغالب شعرهن قصير جداً ، واللون السائد فى أى مكان هو اللون الأسود ^(٢) ، ومن جهة أخرى

« لجمع jimí » النيل الأبيض أصل نوبى حامى ، وكانوا قد هاجروا إلى كردفان وأصبحوا من مربى الأبقار ، واكتسبوا عادات البقارة مثل نظام تصفيف الشعر والرقص، وللبقارة لهجة مميزة جداً وعاداتهم مختلفة بسبب انفصالهم عن القبائل العربية الأخرى وهم أكثر العرب ولعاً بالحرب فى السودان ويستخدمون تكتيكات حرب العصابات لأنهم فرسان مهرة ، وكذلك أكثر تعصباً للدين على عكس ملاك الإبل اللامبالين ، ومن المحتمل أن يكون هذا التعصب مرجعه دماؤهم الزنجية ؛ فالخليط العربى - الزنجى دائماً ما يكون متعصباً ، ومن السهل أن يحركهم الفقراء ويسيروا وراء أحدهم كقائدهم ، وقد حافظوا على روح الاستقلال والاعتزاز بالسلالة ، ولكنهم فقدوا بعضاً من صفة الفردية العربية ، وهم أميون تماماً ويتسمون بقلة التبصر عدا فى المسائل المتعلقة بالأبقار ، وحياتهم مختلفة عن حياة إخوانهم الشماليين ، وهى حياة سهلة تفتقر كل أنواع الإثارة ، لذا فهم كسولون ويتسمون بالبلادة العقلية ، والعديد منهم مرضى بسبب سكانهم بجوار المستنقعات ، ويقضون وقتهم فى الفريق فى تراخ وكسل وثرثرة ، بينما تقوم النساء والعبيد بأداء كل الأعمال ، والثرثرة فن جميل ولغتهم غنية فى تعبيراتها ، إلا أن موضوع النقاش تافه ويقتصر على الفضائح والقليل والقال مع التعرّيج على الذكريات والتاريخ القبلى ، وتتمتع نساؤهم بحرية أكبر حتى بالنسبة للبدو الشماليين ، ويلبسن الكثير من الحلى والكهرمان ، وتسليتهم الوحيدة هى الذهاب

(١) القبائل الرئيسية فى دارفور هى الرزيقات والمعاليا والتعايشة وبنى هلبه ، وفى كردفان أولاد حامد والحوازمة والمسيرية والحمر على النيل الأبيض . دار محارب والأحامدة والسنباب والسليم والتعايشة (الجبلىن)

(٢) لامبن . مصدر سابق ص ١٢١

الى السوق ، والرقص الذى اكتسبوه من السود والذى يؤدونه مع الغناء الذى ألفته شاعرة القبيلة (الحكامة) ، وهى شخصية مهمة جدا فى حياة القبيلة .

وهناك اختلاف كبير بين عادات الزواج عند البقارة وعند الأباله ، ولا ترتدى عروس البقارة زينة أو ملابس خاصة، بالرغم من أن بعض هذه العادات قد بدأت فى الانتشار .

د- القبائل المسلمة شبه الزنجية أصبح العديد من المجموعات الزنجية التى تقطن أساساً فى وسط وغرب السودان مسلمة ، وحافظ معظمهم على لغاتهم وعاداتهم الخاصة ، والعديد منهم عند الخط الفاصل بين الوثنية والإسلام ، ويتطلب هذا الأمر التعرض له باختصار :

١- الفلاتة وهم جماعات كبيرة من المهاجرين فى السودان الشرقى ، يستخدم هذا المصطلح فى السودان ليعنى أي شخص من سكان غرب إفريقيا ، وهم فى الدرجة الأولى هوسا وفولبي وكانورى وبرقو^(١) ، وهم فى الأصل حجاج استقروا بعد عودتهم من مكة خلال القرن التاسع عشر فى السودان بشكل دائم ، وأصبح العديد منهم يستخدم العربية الآن ، ويمكن تصنيفهم إلى ثلاث مجموعات (١) الحجاج المارين عبر السودان ويشمل العديد من الجماعات المهاجرة التى على طريق الحج ، والطريق الرئيسى هو عبر دارفور إلى الأبيض حيث يستقل منها الأغلبية القطار ، وبسبب اضطرارهم لكسب بعض المال ، وهم فى طريقهم فإن رحلة الحج تستغرق من أربعة الى سبعة أعوام . (٢) جماعات المهاجرين الكبيرة الدائمة خاصة فى منطقتى كسلا وسنار ، وقد نتج العديد منها من استقرار مجموعات كبيرة من أفارقة الغرب الذين تم تسريحهم من جيش الخليفة فى المناطق القليلة السكان بين سنار وسنجة ، وهناك جماعات كبيرة بالقرب من سنار تحت سلطة ماى يرنو ابن سلطان سوكونتو السابق ، والأخرى تحت ماى أحمد الأمير السابق لمساو ، وتوجد جماعات فى أم درمان أيضا وكذلك العديد من الحجاج - يعمل معظمهم بصورة متقطعة - وقد نمت مستعمراتهم هذه حول معظم المواقع الحكومية لاحتياجات العمل ، كما أن مشروع الجزيرة لا يمكن أن يعمل بدونهم . (٣) عشيرتان بدويتان من ملاك الإبل (إيك وإيبا) ، ولهم دار خاصة فى جنوب دارفور بوهم هناك منذ مائتى عام على الأقل ، وهم يتحدثون العربية الآن .

والفلاتة بشكل عام خمولون وشكاكون ومقتصدون وكادحون ومنافقون ومتعصبون ،

(١) كما يعرفون بالنسبة للسودانيين بالتكارير (جمع تكرورى وهو فى الحقيقة اسم القبيلة) أو ناس الغرب . ويطلق على الفولبي الفلاتة بالكانورى والفلاتى بالهوسا . وفى عام ١٩٢٥ قام المستر لاثام من الحكومة النيجيرية بإجراء مسح للنيجيريين فى السودان وقدر عددهم بـ ٨٠.٠٠٠ منهم ٤٠.٠٠٠ استقروا بشكل دائم و ١٥.٠٠٠ فى سبيلهم إلى الاستقرار و ٢٥.٠٠٠ ترانزيت ، ولا يوجد تقرير عن الغرابة الآخرين .

ويتأثرون بالفقر بسهولة ، ويحتقرهم العرب ولا يحبونهم ، ولكنهم يستخدمونهم في الأعمال اليدوية ، ويمارس الفقرا مهنة طرد الأرواح الشريرة بالرقى والتعاويذ ، ولهم في ذلك سمعة كبيرة ، وهناك أسطورة سارية في السودان لتعزيز قوتهم السحرية مفادها أنهم ينحدرون من الحرباء .

٢ - في دار فونج بمنطقة جنوب الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق ، وتسمى مجموعات الفونج ، وهم مجموعات زنجية شبه عربية ولا ينتمون الى وحدة إثنية محددة ، ويسمىهم العرب الهمج ، ولكنهم يطلقون على أنفسهم أسماء مختلف الجبال التي يسكنونها (جولى ، موي .. الخ) ، ومن المحتمل أنهم واحدة من السلالات التي قهرتها الفونج . ويحمل ناظر المنطقة لقب مانجل ويعتبر نفسه منحدرًا من ملوك همج سنار ، ويتحدث الأغلبية العربية وتدعى الإسلام ، ولكنهم يحتفظون بلغتهم الأصلية والتقاليد الوثنية ، ويعيشون بجوار المجموعات الزراعية المستقرة التي مازالت وثنية وهى البرتا الإنقسنا^(١) والجبلاوين مع البرون والخما إلى الجنوب .

٣- سكان دارفور غير العرب : ويمكن تصنيفهم إلى المجموعات التالية :

أ- التبو أو الحاميون الزنوج الشماليون في الصحراء الشرقية ، وهم الزغاوة شبه البدو ، وهم شعب عنيف يتحدث العربية الآن ويعش على الجبال (مثل جبل العطشان) شمالى دارفور ، ولهم علاقة وثيقة مع القرعان البدو والبديات في جبال عنيدي ، وينتمى معظمهم إلى إفريقيا الاستوائية الفرنسية ، ولكنهم يغيرون داخل غرب السودان ، وعددهم قليل ، ويتأثرون بالفقرا (يسميهم الزغاوة هوجى والبديات هيكى) ، ولكنهم يحافظون على الخرافات والعادات الفتيشية المتعارضة مع الإسلام .

ب- السلالات المحلية المستقرة : وتشمل الفور القاطنين في جبل مرة والإقليم الواقع غربيه ، والمساليات بين الفور ووداي والداجو في وسط دارفور ، وكلهم مستقرون في قري ويزرعون الدخن أو الذرة حسب نوعية التربة .

والفور مهمون تاريخياً ، وهم سلالة زنجية تقطن منطقة جبل مرة ويقول ه . أ . ماكمايكل عنهم :

الفور بصفة عامة - باستثناء فرع الكنجارة - أننى درجة اجتماعياً ودينياً وعقلياً عن المعدل المتوسط للقبائل التي تجاورهم في الشرق والشمال ، ولكن الكنجارة هي التي حافظت على تفوق السلالة التي اكتسبها أسلافهم منذ ثلاثة قرون مضت . وتفوق الكنجارة هذا مرجعه السلالة العربية التي اكتسبها ، وهم بصفة عامة شعب أفضل من ناحية التكوين الجسماني وأعلى نكاه ، وعاداتهم أكثر تهنيئاً عن الفور وأفضل إسلاماً^(١)

(١) الاسم العربي لسكان جبال تابى في دارفور ، وأصبح لشعب الكوكر (أحد هذه الجبال) علاقة منذ زمن بعيد مع العرب الرعاة الذين يتجولون بقطعانهم حول السهول ، وبخلت الأعياد الإسلامية لرمضان والأضحى في العادات الاحتفالية للكوكر .

وشكلت الإدارة الأهلية للفور صعوبة بسبب تنافس زعماء القبيلة ، إلى أن اعترفت الإدارة في عام ١٩٢٠ بالوضع الوراثي للمقاديم رؤساء للمحاكم القبيلة ، وتدار الزالنجي - إحدى وحدات الفور المتجانسة - عن طريق الشراتى مباشرة ، وهى قيادات فرعية وراثية ، ويليهم كبار رجال القبيلة (الدمالج) .

والفور مسلمون ، ولكن حفظ القرآن يعد من الشعائر السحرية ، وهم يحافظون على الممتلكات الكاملة للأرواح المحلية الضارة التى تسكن الحيات والأحجار والأشجار والتى يتم استرضائها بالطقوس السحرية^(٢)

وللمساليب الذين يسكنون الدار التى باسمهم فى أقصى الغرب سلطانهم الخاص ، وهو السلطان محمود بحر الدين أبو بكر ، ويعرف المسئول الحكومى بالمقيم^(٣) هو مثال كامل للإدارة الأهلية فى السودان . وللسلطة ميزانيتها ونظام موظفيها وقوة شرطتها ومحاكمها ، ويقول هـ.ا. ماكمايكل عن المساليب أنهم « أكثر من نصف زنوج مع خميرة عربية طفيفة جدا ، وهم شعب مولع بالحرب وذو تكوين جسمانى وذكاء جيد ، وتتنظر إليهم قبائل دارفور وكردفان بارتياح بسبب ذلك الاعتقاد الخاص بقوة التحول إلى صباغ تلك القوة التى يعتقد أنهم يملكونها »^(٤) ، وقد أصبحوا مسلمين اسماً منذ فترة قريبة ، وقمع وحشيتهم السلطان أبكر اسماعيل فى حوالى عام ١٨٩٠ ، وانتشرت المهديّة بشكل سريع وسط المساليب المتعصبين ، ويعنى الإسلام لهم الآن الإخلاص لشخص عبد الرحمن المهدي^(٥) ، وأصبح أولئك الذين فى الشمال متعربين بشكل سريع ، وتحتوى لغتهم على عدد كبير من الكلمات العربية .

والداجو واحدة من أقدم السلالات فى دارفور ، وهم يعيشون فى وسط الإقليم فى دار المسيرية وعلى الحدود الشمالية الغربية لمنطقة النوبا ، ويحكمهم سلطان ، ويعيشون على الزراعة وتربية الأبقار .

(١) مصدر سابق . ص ٩١

(٢) عن حياة الفور وعاداتهم ينظر ماكمايكل مصدر سابق ج ١ ص ٩١ - ١١٤ .

(٣) ظهرت هذه السلطنة إلى الوجود أثناء فترة المهديّة ، وحققت الاستقلال عن على دينار فى عام ١٩٠٥ بعد سلسلة من الحروب ، كما اشتبكت فى قتال مع الفرنسيين فى عام ١٩١٠ ، وحل السلام مع انفصال جزء من الإقليم ليتبع فرنسا ، أصبح لحكومة السودان السيادة على السلطنة فى عام ١٩٢٠ بعد توقيع المعاهدة الإنجليزية الفرنسية فى عام ١٩١٩ .

(٤) ماكمايكل . مصدر سابق ص ٨٧ - ويروى التونسى (Voyage au Dar four, PP.352-6) أن كل الفوراوية يعتقدون أن المساليب يمكنهم أن يحولوا أنفسهم إلى ضباغ وقطط وكلاب .

(٥) تخلى السلطان أندوكا (حوالى عام ١٩١٠) عن المهديّة وانضم الى التيجانية . ولكن إخوته وكل الفقراء فى الدار مهديون .

ج - المهاجرون مثل الميذوب شبه البدو في الجبل المعروف باسمهم في محيط دائرة تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ ميل ، ولهم قرى على سفوح التلال ، ولكنهم يقضون معظم الوقت بعيداً مع قطعان الأغنام والماعز وهم زنوج بأصل حامى ، ويدعون القرابة للنوبيين ويتحدثون لغة قريبة من لغتهم ، أما البرتى فهي قبيلة مستقرة ذات أصل مختلط وتعيش في جبال تقابو جنوب غرب جبل ميذوب والأرض الرملية شرقى الفاشر .
أما البرقد فهي قبيلة كبيرة نسبياً تعيش بين جبل الحراز ودار الرزيقات والبيغو والميما والفلاتة البدو مربى الأبقار .

٤- نوبيا جنوب كردفان : وهم رغم كونهم وثنيين فى الأساس ، فإنهم مهمون فى هذا المسح بسبب وضعهم الجغرافى ، والنوبيا مصطلح عام استخدم فى كردفان لأى وثنى أسود ، وهم قبائل بدائية تسكن فى الجبال المنعزلة وسلسلة سهول كردفان الجنوبية ، ويحيط بهم المسلمون ويتداخلون وسطهم ، وهم مجموعة متجانسة ، إذ هم خليط من العديد من القبائل الإفريقية التى بحثت عن ملجأ لها فى الجبال ؛ لذا فهم مختلفون بشكل عميق فى الشكل الجسمانى واللغة والثقافة ^(١) ، وبالرغم من أن عددهم أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ أو ٧٢٪ من سكان المنطقة (١٩٢١) ، فإن جولة سريعة داخل الإقليم تعطي الانطباع بأن النوبة عينة نادرة . وتبدو السهول مسكونة بالبقارة ذوى الملح الزنجى و« العرب » السود المستقرين ، وهم مجموعات زراعية تملك القليل من الأبقار ويعملون بجد لتوفير الدخن والسمسم والمحاصيل الأخرى لاحتياجاتهم السنوية ، وهم أقوياء جداً ومرحون وذوو استقلال عقلى كبير وتقاليد قبلية نشطة ويعيشون فى مجموعات مستقلة تحت سيطرة الكجور ولدى البعض منهم سلطة دنيوية وروحية ، وللقبائل الأخرى ملك يمارس سلطة دنيوية ويلعب دينهم - وهو عبادة أرواح الأسلاف - دوراً حيوياً فى حياتهم ، إذ إن كل بنيتهم الاجتماعية قائمة عليه ، وقد حافظت معظم مجموعات هذا الشعب على وثنيتها بالرغم من الضغط الإسلامى المستمر الذى أجبرهم على ترك السهول واللجوء إلى الجبال ، وأصبحوا الآن تحت التأثير الثقافى العربى السلمى أكثر فأكثر .

(١) فارن «Hilleson, SNR. xii, 144» يطلق العرب والأوروبيون اسم « نوبيا » على الزنوج سكان الجبال فى كردفان ، وأدى ذلك للأسف إلى تشوش ، وحتى الآن فإن الانطباع قد خلق أن الزنوج الذين صنفوا باسم عام هم تقريباً شعب متجانس . ويوحى الدليل اللغوى أن هناك ثلاث سلالات متميزة : (١) المتحدثون بنوبية الجبال . (٢) المتحدثون باللغات السودانية . (٣) المتحدثون بلغات محددة . ولا ينطبق اسم « نوبيا » إلا على المجموعة الأولى ، أما بالنسبة للمجموعتين الأخريين فهو اسم مغلوط .

هـ- القبائل الوثنية فى جنوب السودان

يعيش جنوب منحنى الشريط الذى يتجول فيه البقارة قبائل زنجية وثنية ضخمة ، وهى تعيش فى عالم بلا نظام ، وليست لديها لغة مشتركة ولا مفهوم سياسى أو وحدة ثقافية ، ويقسم البروفسور سلجمان ^(١) هذه القبائل الى أربع وحدات سلالية فرعية كبيرة :

١- الرعوس الطويلة التى بها عنصر حامى

أ- النيليون : الشلك والنوير والدينكا ، وهم طوال القامة طوال السيقان وذوو بشرة داكنة ويزدرون الملابس والثقافة الاسلامية أو الأوربية ، وكلهم رعاة يقضون نصف العام خارج قراهم مع أبقارهم .

ب- النيليون الحاميون : البارى الحقيقيون ومختلف اللاتوكا - الدونجا والقبائل المتحدثة بالتركانا وهم رعاة فى الاصل ، ولكنهم مزارعون جيدون ولهم ثقافة مختلفة جدا عن النيلين ، وهم الآن فى حالة الانتقال من حياة الرعى إلى حالة الزراعة نتيجة لفقدانهم معظم أبقارهم .

٢- الرعوس العريضة

أ- الفونج والنوبا : وقد سبق ذكرهم .

ب- المجموعة الجنوبية الغربية : الزاندى وقبائل هضبة حجر الجديد البنجو والمتو والمجموعات التى من نفس الأسرة ، وهم على النقيض من المجموعتين النيلية والحامية فى المظهر الجسمانى والمزاج والثقافة واللون النحاسى ، وهم مرحون واجتماعيون ، وأظهروا استعداداً للتحويل طبقاً لتبدل ظروف الحياة ، وهم زراعيون فى الأساس ولا يملكون أبقاراً ، وهم صيادون ممتازون .

و- اللغات

النوبية هى اللغة التى يتحدث بها النوبيون النمط الحامى القريب من الصومالى ، والذين يعيشون على ضفاف النيل بين الشلال الأول والرابع ، وهناك أربع لغات : الكنزية المتوكية والسكوتية والمحسية والدنقلاوية . فالكنزية والدنقلاوية رغم تباعدهما جغرافياً يبدو أن هناك ارتباطاً وثيقاً بينهما ، وتنتشر الكنزية من الشلال حتى كورسكو والسكوتية جنوبها والمحسية من وادى حلفا حتى حنك والدنقلاوية من كرمة حتى أمبكول.

(1) Pagan Tribes of the Sudan.

واللغات المشابهة لهذه اللغات موجودة على طول جبال النوبا الزنوج شمال منطقة جبال النوبا ^(١) وفي كردفان ^(٢) ، وهناك أمر واحد مؤكد هو أن النوبة لا يمكن أن يكونوا من السكان المتأصلين بوادي النيل ، وليست لها أى علاقة مع نقوش اللغة المروية لهذه المنطقة ، والتي استمرت حتى فترة الممالك المسيحية المبكرة في النوبة ، ولكننا لا نعرف بوضوح الأحداث التي أدت الى تغير هذه اللغة .

ويعتقد زهler ^(٣) أن النوبية دخلت وادي النيل من جنوب كردفان بواسطة النوبا في القرن الثالث ق.م، فإن كان الأمر كذلك إذاً يجب أن تكون النوبية والمروية قد بقيتا جنباً إلى جنب في جزيرة مروى ، ومن المحتمل أن النوبية كانت لغة الحديث بينما بقيت المروية لغة الكنيسة واللغة الرسمية حتى سقوط المملكة عام ٣٥٠ م . وهناك رأى آخر يقول إن المروية بقيت لغة البلاد إلى أن أدخل النوبا اللغة النوبية من كردفان أثناء غزو تم في القرن الرابع ق.م. ، وهذا الرأى هو الأكثر احتمالاً بالنظر إلى حقيقة أنه لا يوجد سوى القليل جداً من الكلمات المروية في النوبة .

وقد تطورت اللغة المكتوبة وحلت محل اليونانية مع اتحاد الممالك الشمالية ، وهناك نصوص من العصور الوسطى (القرنين الثامن والتاسع) مكتوبة بالحروف اليونانية مع إضافة علامات استعيرت من الديموطيقية ، واستخدام شكل من أشكال اللهجة تشبه المحسية الحديثة . وهذا يظهر أن اللغة تطورت قليلاً خلال هذه الفترة . كما أن اللغة العربية زودت المفردات النوبية الحديثة بـ ٣٠٪ من الكلمات ، ويفكر القليل من العلماء الذين درسوا النوبية بالطريقة نفسها فيما يتعلق بتصنيفها - أنها تتحد في أسس النحو والصرف مع الدينكا والشلك - وأدرجها وسترمان ^(٤) وما ينهوف ^(٥) ضمن أسرة اللغة السودانية . أما وجهة نظر ح.و موراى ^(٦) فهي أن أساس اللغة سودانى ، أثر فيها نفوذ الموجات التي ركبت فوقها ، ويعتبر رينش ^(٧) أن هناك علاقة

(١) الحجيرات - أبو جنوك - طبق - شقر - كاشا - كاركو - - كونتى (أو لجوريا) فاندنا - واللى - دالنج - غلفان - (مجموعتى جبال) ديرى - هبيلة - كاديرو - واير (عدا سيدرا) التى إليها فقط يتطابق اسم النوبا على مجموعة شعب جبال النوبا، وهذه اللغات النوباوية تختلف عن تلك الموجودة فى الشمال ، إلا أن هذا الشبه سمة مميزة جداً ، ولا يصبح هناك أى شك فى أن يكون أصلاً مشتركاً .

(٢) جبال ميدوب والبرقد - نمط نوبى ثالث سماه زهler النوبية الجنوبية الغربية .

(٣) Zur Srellung des Darfur - Nobischen W.Z.K.M.xxxv.1998

وينظر ايضا دراسة هلسون لورقة زهler فى SNR.xiii 137ff.

Die Sudansprachen (٤)

Eine studien fahrt nach Kordofan , Abhandlungen d.Hamdkolonidlinstituts,(٥) xxxv.1916

An-English-Nobian comprarive Dicionary,1962,intro (٦)

Die sprachliche sellung des Nuba, Vienna (٧)

ارتباط بين السودانية والحامية . ويدعى هامبورجر ^(١) أنها بالتأكيد حامية ، وتعرف وسط العرب والنوبيين بالרטانة .

ويتحدث التبدائية أغلبية البجة في تلال البحر الأحمر من مصر حتى كسلا ، وهناك خمس لهجات رئيسية : العباددة والحلقة والامرأ والبشاريين والهندوة ، والأخيرة هي اللهجة الرئيسية للغة ، وتعد التبدائية أوسع اللغات الحامية المتحدث بها ^(٢) وبسبب احتكاكها مع اللغة العربية دخلها عدد لا بأس به من جذور وقواعد اللغة العربية . والتجري لغة سامية ذات صلة بالتجريينا الإريتيرية ، وهي النموذج الحديث للجعر القديمة ، ولم تتأثر كثيراً باللغة الأمهرية مثل التجريينا ، والجعر ذات صلة وثيقة بالسايانية أكثر من العربية . وربما تعتبر التجربة نموذجاً للأصل السامي القديم أكثر من العربية ويتحدثها الكثير من مجموعات البنى عامر والهباب وتعرف محلياً بالى ساو وهو اسم أكبر فروع البنى عامر .

ويتم التحدث بالعربية في منطقة كبيرة في شمال السودان ، وهي النموذج والحافظ لوحدة المنطقة ثقافياً ، واللغة الأدبية هي الأصل لكل العالم الذي يتحدث العربية وتستخدم فقط في الكتابة والمحاضرات والمؤتمرات ، وليست لغة الحديث أبداً . إن مصطلح عربية السودان أطلقه الأوربيون على Kolvn التي يتم التحدث بها ومفهومة في كل المنطقة ، أو يمكن تمييز شخصيتها التي تميزها عن اللهجة السورية أو المصرية ، أو أية لغة أخرى ، ومع ذلك فهناك تنوع كبير لللهجات الفرعية التي تختلف بشكل كبير في المفردات والاستخدام الفردي ، ومن الصعب تصنيفها ، إذ لم تتم دراستها وتتداخل كل مجموعة مع الأخرى ، ويمكن تمييز مجموعات اللهجات الرئيسية الآتية والتي يتحدث بها السكان المستقرون : ١- الشمالية : المديرية الشمالية ٢- الوسطى : أم درمان والجزيرة وريفى شرق النيل الأزرق ٣- الغربية : النيل الأبيض وكردفان ودارفور ^(٣)

واللهجة الحضرية لأم درمان خالية من أية ملامح قبلية أو محلية ، وتتطور بسرعة وحساسة للتأثيرات الخارجية الأدبية والسياسية ، وفي طريقها تدريجياً لأن تصبح اللغة المعيارية للسودان العربى ووسيلة التخاطب المشتركة بين المتحدثين في المدن الذين تربوا تحت تأثير اللهجة المحلية ، وقد تشكلت من خلال تكتل الناس من كل أنحاء السودان ، وهناك شبه عائلة بينها وبين معظم اللهجات الأخرى ، ومن الطبيعى أن يتخلل القرويون الذين يشكلون أغلبية السكان عن لهجاتهم المحلية ، وسوف يتعدل ذلك

(١) L,Hamburger La Morphologie ubienne et L,egyptien,Journ. Asiat. 1931

(٢) S. Hillelson,s Sudan Arabic Texts (1935)

(٣) تختلف لهجة قبائل البقارة في دارفور وكردفان بشكل كبير في المفردات والعبارات وحتى في القواعد

(النحو والصرف) مع الكثير من الكلمات الخاصة بتسمية الأشياء أو الأفعال ، وربما مرجعه تأثير اللغات السودانية ، كما أن للقبائل البدوية الأخرى في السودان لهجاتها الخاصة بها والتي لم تدرس ، ومن ثم لا يمكن تصنيفها وتوجد حتى لهجات داخل بعض القبائل (الكبابيش مثلا) مرجعها اندماج مختلف العناصر .

بمرور الوقت ، وهناك تقدم الآن نحو الـ Kolvn التي بدأ يستخدمها زعماء القرى والآخرين الذين لهم اتصال بالعالم الخارجى ، ويرغم أنها محاطة باللغات الإفريقية ويرغم التزاوج الذي أدى إلى أن تصبح الأقلية هي التي تحمل الدم العربى النقى ، فمن المدهش أن تبقى لهجات السودان حرة من التحريف الخارجى ، لقد فرضت نفسها على النوبية التي لم تؤثر فيها إلا بشكل ضئيل ولم تستعر منها سوى القليل من مصطلحات الزراعة والرى ^(١) ، ومن الطبيعى أنها تعدلت من خلال احتكاك إحداها بالآخرى ، هذا بالإضافة إلى التأثيرات الأخرى ، وهناك لهجات داخل بعض مجموعات معينة من الأباله مثل الكبابيش لم يتم دراستها ، ومن ثم لا يمكن تصنيفها بسبب اندماج العوامل المختلفة .



(١) تم استعارة كلمات قليلة من البجة مثل : عنقريب ومرفعين : الضبيع وبعشوم : الثعلب.

موجز تاريخي : من الممالك المسيحية حتى قدوم العرب

١- التاريخ المبكر

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً عن التاريخ الداخلي للشعوب السودانية ، وكل ما وصلنا جاء من احتكاك السودانين بالأمم الأخرى خاصة المصريين والبيزنطيين والمسلمين، والتي تم حفظها في النقوش والكتابات بالإضافة إلى الكمية الكبيرة من الشواهد الأثرية الداخلية وتقاليد الشعب نفسه المهمة جداً بالنسبة للمنطقة الوسطى خلال الأربعمئة سنة الأخيرة ، وكخلفية تاريخية لمثل هذه الشواهد يجب أن نرسم صورة لبلد فسيح يسكنه وثنون متفرقون في عدد لا حصر له من القبائل التي تتحدث لغات مختلفة ، وهجرات وحروب وغارات للحصول على الماشية والنساء والرقيق والتي يلزمها تدمير المحاصيل وحرق الأكواخ واسترقاق القبائل ومخاوف الأوبئة والمجاعة .

وأقدم اسم معروف لنا هو المصطلح المصري الغامض « تانحسو » والذي يشبه الاسم العربي « بلاد السودان » ، وكان الاسم المصري المتأخر هو كاش والذي يشابه الاسم التقليدي « إثيوبيا » ، وقد تم إطلاق الاسم غير المعروف والمعرف بشكل غامض على الإقليم الواقع جنوب الشلال - والمتصل بالنيل - والذي يضم المنطقة الشرقية للبحر الأحمر ، كما أن اسم النوبة الذي يمثل الجزء الشمالي من هذا الإقليم لم يظهر حتى الفترة الرومانية ، وهكذا فسنحتاج إلى استخدام ذلك المصطلح لتمييز المنطقة الواقعة بين الشلال الأول (أسوان) والثالث (حنك) ، وستعود بنا الصورة المبكرة للسودان إلى خمسة آلاف سنة إلى ما وراء بدايات الأسرة الأولى المصرية ، تظهر لنا أن مصر جنوب الدلتا والنوبة قد سكنتها سلالة واحدة لها ثقافة محلية حامية ، وهي التي سميت شعب ما قبل الأسرات ، ويشبههم البجة الحاليون ، وكانت لهم فنونهم وصناعاتهم اليدوية الخاصة بهم ، وهم ذوو إمام بالنحاس والزراعة على طول النهر، ومن الطبيعي - بسبب كونها منطقة سهوب صحراوية مع اختلاف دورى في الطقس - أن تكون قد تأثرت بفترات من التششت السلالى ، وبعد ألف عام تحركت قبائل زنجية قصيرة القامة ذات رأس عريض - لم تكن موجودة في السودان - شمالاً داخل النوبة وأدخلت ثقافة ذات سمة إفريقية سرعان ما تضمنت العديد من الملامح الحامية ، وبدأ يستقر في الوقت ذاته الليبيون في النوبة ، حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م ، وانصهرت هذه العناصر الحامية والزنجية في هجين واحد يشبههم النوبيون الحاليون الذين يقطنون المنطقة ذاتها ، وتمت صياغة حضارة نوبية .

وبعد فترة وجيزة قدمت مجموعة زنجية أخرى ذات عناصر مختلفة ، وكانت هذه العناصر طويلة القامة رجالها أقوياء يشبههم نوباً جنوب كردفان الآن ، وتقدمت هذه العناصر شمالاً مكتسحة كل ما أمامها مدمرة الجيوش ومحطات الشرب التي شيدها الفراعنة في منطقة دنقلا، وشعر المصريون أن هذا الغزو يشكل تهديداً مباشراً لطرق تجارتهم وحتى للإمبراطورية التي شيدها والتي كان مركزها طيبة ، لذا فالأمر يجب أن يؤخذ بجديّة ، وأرسل الفراعنة إلى الجنوب سلسلة من الحملات استطاع سنوسرت الثالث في الحملة الثالثة (١٨٧٩ ق.م) أن يهزم أخيراً الزنوج السود ، ومن ثم قام بإعادة بناء القلاع وتنظيم الإقليم الجنوبي على أساس دائم ، وكانت سياسة الحملات التأديبية قد أثبتت عدم جدواها ، ولم يكن الفراعنة مطمئنين إلى الضم السياسي ولكنهم تبنوا سياسة استيعاب البلاد ثقافياً ، وتم تأسيس مستعمرة مصرية عند كرمة التي أصبحت المركز الإداري للمنطقة ، إلى أن دمرتها النيران حوالي عام ١٦٠٠ ق.م .

وكانت البلاد - في عهد أحمس الأول (الأسرة الثامنة عشرة) الذي طرد الهكسوس من مصر - مقسمة إلى منطقتين يحكمها نائبان للملك في ووات في الشمال وكاش (كوش في التوراة) ، وتشتمل على مقاطعتي دنقلا وحلفا وحدود جنوبية متفاوتة في الجنوب ، وتم إرسال بعثات عسكرية أو تجارية إلى كردفان وسنار ، وكانت الثقافة المصرية هي أهم مؤثر ثقافي خارجي على النوبة .

وأصبح المصريون عن طريق سلسلة من المراحل السياسية والاقتصادية مختلفين تماماً ثقافياً عن الجنوبيين في زمن تأسيس المملكة المتحدة (٢٤٠٠ ق.م) ، وتم ضم مساحة واسعة من النوبة لتعمل كحاجز برغم اندماجها الكامل في الدولة المصرية ، وكان موقف الفراعنة من النوبة هو اعتبارها إقليماً تابعاً يملك طرق تجارة مهمة تجلب لهم الرقيق والذهب ، ولكنهم مصروها بعد ذلك بشكل تام وملأوها بالمهاجرين المصريين الذي طوروها حضارة مدنيّة تماماً مبنية على الحضارة المصرية ، برغم تأثرها بالتقاليد المحلية والبيئة الطبيعية ، وبقي معظم النوبيين فلاحين غير متحضرين ورعاة ، ولكن بسبب الأحوال المستقرة فإن المنطقة النهرية من أسوان حتى سمنا أصبحت ذات كثافة سكانية لا بأس بها ، وتكونت العديد من المدن تحت حكم الإمبراطورية الجديدة وشيدت المعابد الجميلة التي كانت كل واحدة منها مركزاً للدعاية ومجمعاً للمؤلفين الذين درسوا في مصر الطب والقانون والدين ، وكذلك المهنيين الذين تدربوا على مختلف الحرف القديمة ^(١) وتمت جباية الضرائب ، كما نمت تجارة في العاج والرقيق والأبنوس والتوابل ، واشتغلت مناجم الصحراء الشرقية لاستخراج الذهب والزمرد .

وفى المنطقة الشرقية يجب ألا ننسى تأثير البجة البدوية - تلك السلالة التى تتحدث
الحامية - والتى تشبه مصرى مصر العليا قبل الأسرات والتى تسربت باستمرار
داخل المناطق المحيطة حيث تم امتصاصها ، وقد واصلت الحياة فى صحرائها
على مر القرون بلا تعديل تقريباً حتى اليوم^(١).

مملكة نبتة (٧٥٠ - ٢٠٠ ق م)

فى حوالى عام ٩٤٧ ق.م قامت أسرة ليبية كانت قد استقرت بمصر وتزاوجت
مع الأسرة الملكية فى طيبة بالاستيلاء على السلطة ، وأسست الأسرة الثانية
والعشرين تحت حكم شيشنق ، كما دخلت النوبة عناصر رعوية ليبية (التمحو)
(٢) وأسست مملكة عاصمتها نبتة بالقرب من جبل البركل ، وقد جلب كهنة آمون
احتراماً ونفوذاً كبيرين للمدينة ، وذلك بالانتقال مع آلهتهم من طيبة إلى نبتة مما
جعل الملك النوبى كاشتا (حوالى ٧٥٠ ق.م) والذى كان يحمل لقب ملك كاش ،
يحاول توحيد كل العالم المصرى سياسياً ، وقام بنفسه بغزو مصر حتى طيبة ،
وقام خليفته بعانخى (٧٤٤ - ٧١٠ ق.م) بإتمام التوحيد ووصل حتى الدلتا وهدم
بيوتها وفرض الجزية على كل مصر ، ونصب فرعاً للأسرة المالكة فى مروي
(بالقرب من كبوشيه) .

أما الحاكم التالى وهو شباكا (٧١٠ - ٧٠٠ ق.م) فلم يحكم فقط مصر كلها
بل أرسل حملة بقيادة تهارقا - ابن بعانخى - لمساعدة حزقيال ملك يهوذا ، وكون
معه حلفاً ضد الملك الآشورى سنحريب ، وبعد وفاته واصل تهارقا الحرب ضد
الآشوريين ، إلا أنه هزم فى عام ٦٧٠ ق.م ، وتم احتلال مصر وعندما مات تهارقا
خلفه الملك تانوت أمانى ، وقام بإعادة فتح مصر لفترة ، إلا أن آشور بانيبال قام
بطرده ، وعادت فى حوالى عام ٦٦١ - ٦٥٤ ق.م حدود نبتة إلى أسوان ، ومنذ ذلك

(١) Seligman, the Hamitic problem in the Anglo- Egyptian Sudan. J.R
A.I.xliii (1913) 593-705; G.W Murray the Northern Beja J.R.A.I.lvii(1927) 39-53

(٢) ويعتقد Eduard Meyes(Geschichte des Altertums,ii,52) أنهم ليسوا ليبين ، ولكنهم من سلالة
حرحور كبير كهنة آمون ، والذى أسس حكومة الكهنة فى طيبة حوالى عام ١٠٧٥ ق.م .

بحين حمت «سره اثيوبي» ، وإلى حانت حدودها ابدان جنوبا نحو منطفه السدود ^(١) ، وانتهت بذلك الفترة القصيرة للتوسع السياسى الإثيوبى ومشاركته فى أحداث العالم الكبير ، ولكن بينما أصبحت مصر خاضعة للغزاة الأجانب المتتاليين ، بقيت أثيوبيا قوة مستقلة ذات حضارة مصرية حتى قدوم النوبة فى القرن الثالث الميلادى .

وأدى التأثير المصرى إلى خلق ثقافة نوبية مستقلة ، وإن بقيت بقوة مصرية فى صفاتها ، وكان يحكمها فى عصرها المزدهر ملوك فراعنة مصريون أيضا جلبوا المهندسين المصريين المهرة ، وكذلك الحرفيين لبناء وتزيين معابدهم ومبانيهم العامة ، واستخدموا خطأ مستمداً من المصرية لكتابة لغتهم الوطنية ، وعبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الخاصة ودفنوا ملوكهم فى أهرامات ، وأصبحت نبتة - كما رأينا - مركزا مهماً لحكم كهنة آمون وثقافة طيبة ، وكانت الدولة ثيوقراطية ، وكان يتم إجبار الملك على التنازل عن العرش بأمر آمون الذى ينصب حاكماً جديداً ، وكانت السلطة المادية لنبتة قائمة على السيطرة على مناجم الذهب وطرق التجارة بين مصر والمراكز الجنوبية التى تزودهم بالرقيق والعاج ، وعندما انقطع الاتصال مع مصر - بعد عام ٦٦١ ق.م - تدهورت الثقافة الأجنبية أيضاً وأصبحت مقلدة تماماً مع بعض الصفات الأصلية القليلة ، وبقيت فى الوقت ذاته مخصصة للأفكار المصرية القديمة أكثر مما هى موجودة فى مصر ذاتها ، مكونة حاجزاً متيناً أولاً ضد المسيحية ثم - عندما اعتنقت المسيحية - ضد الإسلام .

مملكة مروي (٢٠٠ ق.م - ٢٥٠ ق.م) :

قلنا إنه فى الفترة التى كان فيها ملوك نبتة فراعنة مصريين كانت سلطتهم تمتد جنوباً وأنهم نصبوا فرعاً للأسرة الملكية الحاكمة فى مروي بالقرب من الشلال السادس - حاكماً لجزيرة مروي - المنطقة التى يحدها نهر عطبرة والنيلين الأزرق والأبيض ، واكتسبت مروي بمرور الزمن نفوذاً أكثر فأكثر، وأصبحت مركزاً تجارياً مهماً ليس فقط نتيجة لطريق الشمال والجنوب على طول النيل لوجود طريق ملاحى نهري طويل ، ولكن أيضاً نتيجة لطريق القوافل غرب - شرق إلى موانئ البحر الأحمر ، وهكذا احتلت المدينة موقعاً ذا أهمية استراتيجية ، وأصبحت أكثر نمواً وتطوراً ، وأفضل موقعاً من نبتة لإدارة البلاد والمحافظة على الحدود ، كما أنها كانت على علاقة وثيقة مع الجنوب الخصب المنتج ، زيادة على ذلك فعندما بدأت تنضب مناجم ذهب نبتة ، أصبحت تلك المدينة أكثر فأكثر - عاصمة دينية وإدارية إلا أن ادعى فى آخر الأمر - حوالى عام

(١) يقول ريزنر SNR,ii,62 أنه كانت هناك علاقات تجارية بين سكان جبل موي (فى منطقة سنار) ومملكة نبتة .

٢٠٠ ق.م - الملك في مروي السلطة العليا ، وأصبحت هناك لفترة مملكتان ، ولكن في عام ٢٢٥ ق.م حقق أرجموني ملك مروي السيادة وكون منذ ذلك الحين (عدا الفترة من سنة ١٠٠ إلى سنة ٢٥ ق.م) الحكم الأثيوبي الذي تمركز في مروي .

وكانت الأيام العظيمة لملكة مروي معاصرة للأسرة البطلمية في مصر (٢٢٢ - ٢٠ ق.م) ، وظهر نفوذ الثقافة الهيلينية والرومانية في مروي العاصمة ذات المدنية الراقية، وكانت نبته مثل طيبة بعد الإمبراطورية مركزاً كنسياً وثقافياً للملكة حتى عصر البطالمة عندما تم إحياء ثقافتهم في مروي ، وكما يكتب ريزنر :

بقيت معابد نبته مع هياكلها من الكهنة والحرقين الذين برعوا في معرفة مصر ،
المركز الثقافي للمملكة ، بينما استمرت مروي مركزاً للثروة المادية والسلطة
السياسية ... وبعد جيل أو نحوه من وفاة نستاسن قام حكام مروي بإبخال التعليم
والفن المتأثر بالبطلمية ، وجعلوا من عاصمتهم لأول مرة المركز الثقافي الأثيوبي^(١)

وتناقص الاتصال مع الشمال تدريجياً وانطفأ نور المعرفة واستخدام اللغة المصرية ،
وظهرت كتابة جديدة بأحرف متصلة هي المروية ، وكان اليونانيون والرومان لا يعرفون
المملكة إلا بشكل غامض ، وكانت الطبقة الحاكمة في مروي تشبه بلا شك الإثيوبيين
الشماليين الحاميين ذوي العنصر الزنجي القوي ، إلا أن معظم سكان جزيرة مروي -
بسبب الضغط المستمر من الغرب والجنوب - كان يغلب عليهم العنصر الزنجي ،
وكانوا شعباً بدائياً نصف مستقر نصف بدوي يعيش على زراعة الدخن والقطن
والصيد ، وظهر في هذه الفترة مصطلح « نوباي » لأول مرة ، وجاء ذكر هذا الشعب
لأول مرة في اراتوسيطين (٢٧٦ - ١٩٦ ق.م) واقتبسها استرابو

يقطن في ليبيا النوبيون (النوباي) على شمال نهر النيل ، بداية من مروي
وينتشرون حتى انحناات النيل ، وهم مستقلون ولا يخضعون للإثيوبيين وينقسمون
إلى عدة ممالك^(٢)

ونجد هنا أنه تم تمييز النوباي بوضوح عن الليبيين والإثيوبيين ، وأصبح يسكن في
هذا الوقت عنصر مخالف إلى جوار الشعب الأصلي .

وخلال القرن الأول الميلادي بدأ المؤرخون الرومان يتحدثون عن ملكات إثيوبيات
يسمون « كنداكة »^(٣) ، وأوضح البروفسور جريفت أن هذه الكلمة هي لقب معناه
ببساطة « ملكة » ، وأن الكنداكات قد حكمن كأوصياء على العرش أثناء حكم أبنائهن
القصر ، وعندما وصل الرومان إلى سين (أسوان) قامت أول كنداكة تاريخية بالهجوم

SNR.ii61

Strabo, Geography ,BK.xxii

Actsviii 27, strabo, Geography, BK, xxii

(١) ريزنر .

(٢)

(٣) قارن

على الحامية الرومانية واستولت عليها (٢٥ م) ، وقام بترونيوس - والى مصر - بالسير إلى داخل النوبة وهاجم ونهب نيبته ، وأرسل الآلاف من الرقيق إلى القصر في روما ، ويفترض أن تكون هذه الكنداكاة هي أمون - تادت - شريكة الفرعون نتك - أمون الذي ترك العديد من الآثار في النوبة حتى منطقة النقعة شمال شرق الخرطوم ، وبقيت مروي مملكة مستقلة ، وفكر نيرون في غزوها وأرسل في حوالي عام ٦٥ م حملة استكشافية صغيرة تغلغت - بمساعدة الحكام المحليين - على طول النيل حتى وصلت إلى منطقة السدود ، وأورد التقرير أن الكنداكاة تتولى الحكم في مروي وأن البلاد فقيرة جدا ولا تستحق الغزو . كما ذكرت الحملة أيضا أن الإقليم شمال مروي يحكم بشكل لا مركزي ، وأن هناك خمسة وأربعين أميراً ثانوياً يحكمون أسوان ومروي ، ومن عام ٥٤ م ترك الرومان النوبيون يسيطرون على البلاد من بريمس (أبريم) جنوباً ، ولم يبق هناك دليل ليبين لنا إن كانت هناك أي كنداكاة حكمت بعد القرن الأول الميلادي ، ولا تذكر المدونات سوى ملوك مروي فقط ، وتدهورت سلطة مملكة مروي من القرن الأول حتى القرن الرابع ، وكان مرجع ذلك أساساً - كما سنرى - قدوم النوبيا من الجنوب الغربي ، وتسببت أحوال مصر غير المستقرة ، واستيلاء الدوديكاشيونات على المنطقة الواقعة جنوب فيلة بواسطة الليبيين ^(١) إلى ركود التجارة مع مصر ، كما أدى تدهور الاقتصاد الذي تلى إلى إضعاف السلطة المركزية في مروي التي لم تستطع السيطرة بقوة على المناطق الحدودية للمملكة .

وفي حوالي عام ٢٥٠ م - في الوقت الذي كانت فيه مملكة أكسوم في أوج مجدها - قام عيزانا أول ملوكها المسيحيين بحملة نهب ضد النوبة في « جزير مروي » ، وهزمهم وسجل ذلك في النقش الاثيوبي ^(٢) في تقازة (عطبره) وأحرق مدنها تلك المبنية بالطوب وتلك المبنية بالقش ، كما أحرق مخازن الذرة والقطن ، ثم هاجم كاسو (مروي) ، ومن المحتمل أنها كانت كل ما تبقى من المملكة .. وكذلك علوة (بالقرب من الخرطوم الحالية)

(١) في عام ٢٥٢ - ٢٥٤ أقام الأمير البليمي باشمون - ابن ياسي - نقشاً في فيلة سمي نفسه فيه .. سفير روما العظيم ، (قارن Wolley and Mclver, karanag)

90, iii. ومنذ ذلك الوقت احتل الليبيون شمال النوبة ، وهاجموا الحدود الرومانية بانتظام ، وهزمهم الإمبراطور يوليوس امليانوس في عام ٢٦١ م ، لكنهم سرعان ما أغاروا على إقليم طيبة وطردتهم أورليان مرة أخرى في عام ٢٧٤ م ، ولكنهم قاموا مرة أخرى - بعد عامين بدعم عن نرسيس ، باحتلال طيبة - ودون بروكوبيوس أن دقلديان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) نصب بعض النبتيين من « مدينة الواحة (الخارجة ؟) حتى النيل » ، واعتقد أنهم بهذه الطريقة لن يتحرشوا بالبلاد الواقعة نحو الواحة ، كما أنه قرر للبليميين مقداراً محدداً من الذهب يمنح لهم سنوياً شريطة ألا ينهبوا أرض الرومان ، واستمروا في تلقي هذا الذهب حتى زماننا (٥٤٥ م) ، ومع ذلك فقد اجتاحت البلاد (Debello persico, loeb, ed., p.187)

(٢) Littmann Deutsche Aksum expedition, iv.33 translated by Budge, History of Ethiopia pp.255-8

وكان لهذا الغزو أثر بعيد المدى ، إذ أنهى حكم الأسرة المروية ، وسترتبط البلاد من الآن فصاعداً بالجنوب بدلاً من الشمال ، واختفى الخط المروى وكذلك الفخار المروى الملون وحلت اللغة النوبية محل اللغة المروية لغة للحديث .

ما الذى حدث فى مروى الضبط ؟ يقودنا الدليل اللغوي إلى نتيجة مؤداها أن اسم « نوباي » ينتمى فى الأصل إلى زنوج كردفان وأن نوباي الشمال هم مهاجرون من الجنوب الغربى غيروا من خلال الغزو الجزئى والاستيطان لغة الشعب ، وبعد انتهاء المملكة بقيت المروية لفترة قصيرة لغة كهنوتية ، ولكنها تدهورت كلغة حديث ، وأصبحت لغة المهاجرين النوبيين الجدد النشطين هى اللغة السائدة .

وفى نقش الملك الأكسومى الذى سجل فيه غزوة عام ٣٥٠م يظهر بجلاء التمييز بين النوبا والمرويين برغم أنهم يعيشون بوضوح جنباً إلى جنب ، ويقول إن مدن النوبا أكواخ من القصب ، وأنهم يملكون أيضاً مدناً مبنية بالطوب ، وقد تم الاستيلاء عليها .

ويبدو إذن أنه قبل عام ٣٥٠م قامت قبائل نوبية من كردفان والجزيرة ^(١) بغزو مروى ، واستولت على بعض المدن واستوطنت فى البداية كعنصر منفصل متميز عن السكان الموجودين فى المنطقة ، وتبنوا بعض الديانة المروية وتزاوجوا فى الوقت المناسب مع الإثيوبيين المرويين .

وقد يعود سقوط المملكة المروية أساساً إلى قدوم هؤلاء المهاجرين بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون هؤلاء القادمون الجدد - بصرف النظر عن الطبقة الحامية الحاكمة - أقرباء للسكان المرويين ، كما يرجع سبب تدهور التجارة مع مصر إلى الأزمات التى كان يعانيها الاقتصاد المصرى ، كما انتهز البليميون فرصة ضعف كل من الدولتين وكثفوا غاراتهم المستمرة إلى داخل مروى ومصر الرومانية معرضة بذلك طرق التجارة للخطر ، وأخيراً دمر غزو عيزانا الأسرة الحاكمة ووضع نهاية للملكة ، ويذكر عيزانا أن النوبيين الحمر يوجدون فى الشمال :

وأرسلت بعد ذلك جيش « هالن » وجيش « لائن » إلى سيدا (النيل شمال اتصاله
بنهر عطبرة) ضد مدن النوبا المصنوعة من القصب ووصل شعبى إلى حدود النوبا
الحمر وعانوا سالمين وأمنين ^(٢)

ويقودنا مصطلح « الحمر » إلى افتراض أنهم الشعب الحالى الأصلى أو جماعات من المهاجرين البليميين (مستعمرات) ، إذ إن نظام السكان النوبيين الأصليين فى الشمال كان ما يزال لم يتم إفساده نسبياً ، فى حين كان يعيش فى مروى شعبان جنباً إلى جنب ، ومن جهة أخرى فقد يكون النوباي هم الذين ذكرهم اراتوسيطنى بأنهم يقطنون النوبة العليا من مروى « حتى إنحناءات النيل » .

(١) S.Hillelson, Nubian Origins Zylinder , zur Stellung des Derfur-Nubischen W.Z.K.M. (١) xxxv. SNR.1930, pp.137.48.

Budge , History of Ethiopia, pp. 255.8

(٢)

من سقوط مروى حتى جوستنيان الأول

ذكرت النوبة في القرن الخامس بأنها على حدود مصر ، وذلك في الاستغاثة التي أرسلها أبيون أسقف سابن (أسوان) إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٢٥ - ٤٥٠ م) يناشده إصدار أوامره إلى السلطات العسكرية لحماية الكنائس في فيلة ، والتي يغير عليها البليميون والنوباد ، ويظهر هذا أن النوبا وقد كانوا موجودين في النوبة السفلى جنوب إبريم ، وقد سكن بعض البليميون على طول النيل من إبريم حتى فيله ^(١) وعبدوا العديد من الآلهة المصرية .

وبلت مناشدة أبيون حملة الجنرال ماكسيموس في عام ٤٥٠ م ضد التحالف البليمي النوبادي ، وهزمهم وأجبرهم على توقيع معاهدة تنص إحدى موادها على عقد هدنة مدتها مائة عام ، بينما تنص مادة أخرى على أن يسمح للبليميين والنوبيادين - طبقاً لتقاليدهم القديمة - بدخول جزيرة قليلة لزيارة معبد إيزيس ، وأن يأخذوا تمثالها لإجراء احتفالاتها الدينية لفترة محددة ^(٢) وحظر جوستنيان الأول (٥٢٥ - ٥٦٥ م)

في حوالي منتصف القرن السادس عبادة الأوثان في جزيرة فيلة . كما قام سلكو أول ملك نوبادي مسيحي بطرد البليميين من امتداد النيل الذي كانوا قد احتلوه ما بين بريمس وأسوان ، ويقول بروكوبيوس المتوفى حوالي عام ٥٦٥ :

تستغرق الرحلة بالنسبة لمسافر خفيف ثلاثين يوماً من مدينة أكسوميس حتى الحدود المصرية - المقاطعة الرومانية - حيث تقع المدينة المسماة الفنتين ، ويقطن العديد من الشعوب في تلك المنطقة ومن بينهم البليميون والنوباد وهم أمة كبيرة ، ويقطن البليميون في القسم الأوسط من البلاد ، بينما يمتلك النوباد الإقليم الواقع على نهر النيل ^(٣) ويعبد كل من هذين الشعبين - البليميون والنوباد - كل الآلهة التي يؤمن بها اليونانيون ، كما يبجلون إيزيس وأوزوريس وليس كل البريومس ، كما اعتاد البليميون أيضاً تقديم التضحية البشرية للشمس ، وقد احتفظ هؤلاء البرابرة بهذه المقدسات في فيله حتى وقتنا الحاضر، ولكن الإمبراطور جوستنيان قرر سحقهم وقام نرسيس بهدم المقدسات طبقاً لأمر الإمبراطور، ووضع الكهنة تحت الحراسة وأرسل التماثيل إلى بيزنطة ^(٤)

(١) يقول ماكما يكل (Hist,of the Arabs in the Sudan, 1,37) أن أولمبيودورس زار بالفعل بلادهم ما بين عامي ٤٠٧ و ٤٢٥ م ، وحدد بريمس (إبريم من ٦٠ إلى ٨٠ ميلاً أسفل وادي حلفا) بأنها آخر مدنها على النيل ، وعزز نص سلكو الذي حاربهم في القرن السادس هذا الأمر .

(٢) Priscus , Fragmenta , in Historic Graeci Minores , edit , L.Dindorfius , Lipsiae , 1810 , 332 .

(٣) Procopius , De Bello persico (Loeb ed. transl . H.B.Dewing), p.185

priopus إله القوة التناسلية عند الذكور في المعتقد الإغريقي والروماني (المترجم)

(٢) تم الانتهاء من معبد إيزيس في منطقة نكتانيوس (٢٦٠ - ٢٤٢ ق.م) بروكوبيوس - مصدر سابق ص . ١٨٧ - ١٨٩ .

وسجل سلكو انتصاراته على البليميين فى نقش يونانى وضعه فى معبد تلميس (كلابشه)، ويبدأ النقش « انا سلكو رئيس التوباد وكل الأثيوبيين حضرت إلى تلميس وتافيس مرة ومرتين وحاربت البليميين ومنحني الله الانتصار بعد ثلاث مرات وقهرتهم نهائياً وجعلت من نفسى سيداً على مدنهم^(١)، من المحتمل أن تكون هناك علاقة بين هذين الحدثين ، إذ فى السابق عندما عبد النوبياديون الأوثان كان الشعبان متحالفين ويتعبد كلاهما فى معبد فيلة . وبعد انتصار سلكو لم يرد أى ذكر للبليميين على النيل . إما أنه تم امتصاصهم أو انضموا إلى أندادهم فى الصحارى الشرقية ، وامتدت الممالك النوبية على طول النيل شمالاً حتى جنوب فيلة .

كما يسجل الدليل الأثرى على أنه قد ظهر فى النوبة السفلى خلال القرنين الخامس والسادس « قبور ذات شكل جديد وليست مصرية بالمرة ، وهى قبور ذات شكل بدائى ، وقد سمي ريزنر هذا الشعب « بالمجموعة س » ، وكانت ذات ثقافة مروية فى الغالب ، ولكن بعنصر زنجى قوى ، إنهم مهاجرون اندمجوا مع المرويين^(٢)

لقد تم البت على أية حال فى مشكلة كيف جاء النوبيون إلى هذه المنطقة . ويرى زهلاز أن نوبا نقش عيزانا (المجموعة ب) انتشروا شمالاً وانضموا إلى أشقائهم – النوبا الحمر (المجموعة أ) عندما تحول الشمال الى المسيحية ، ولكن من المحتمل أن هذه المجموعات تحركت شمالاً قبل ذلك التاريخ . لقد وجدوا أن عملية التحول إلى اللغة النوبية قد تقدمت بالفعل ، وسرعان ما أصبح العنصر النوبى قوياً بما فيه الكفاية

(١) من الصعب تبرير الاسم لأن مقرة وعلوة لم تكونا خاضعتين له ، ولكن التمييز الذى وضعه بين النوبا والإثيوبيين يعين أن النوبيين كانوا ما يزالون عنصراً مختلفاً عن بقية السكان .

(٥) Budge, the Egyptian Sudan ii.308 يبدو أن سلكو كان مسيحياً لأنه يعزو فوزه إلى الله ويشير إلى آلهة البليميين « بالأوثان »

(٢) يكتب فيرث «إن الزيادة المطردة للكم المادى للمجموعة س جنوباً وصفقتها الأثيوبية هى فى صالح تمثيلها آفة الأثيوبية التى شقت طريقها إلى داخل المنطقة الرومانية من ذلك الاتجاه ... إن شعب المجموعة (س) سودانيو السمة والثقافة ، واللفخار العديد من التشابه مع الفخار المروى المتأخر (Arch.Surv.Nub,1908-9,pp.40-1)

وأظهرت تقارير المسح التشرىحي أن شعب المجموعة س هم زنوج أجناب أقوياء شقوا طريقهم فجأة نحو الشمال داخل النوبة جالبين معهم شكلاً من اشكال الدفن ونمطاً جديداً لللفخار ، وأعلن الدكتور ريزنربشكل واضح على أنه ليس فخاراً مصرياً (12) , (Elliot smith and Derry, Arch,surv.Nub,Bull,5,Cairo(1910)

للانتشار أكثر إلى وادى النيل ، وحكم السكان الحاميين المحليين فى الوقت الذى تم فيه امتصاصهم داخل هؤلاء السكان ، ويمكن تفسير ذلك بالاختلاف الكبير فى المميزات الجسمانية بين نوبا جبال كردفان ونوبيى وادى النيل ^(١)

(١) هناك سمة حامية غالبية بشكل مؤكد بين نوبة النيل بينما نوبا الجبال زنوج ، لذا فإن سلجمان (J.RA.l.xliii,1913,610-25) وضع نظرية تبناها ماكمايكل (Hist,vol.1-1,2) بأن تجار دنقلا تغفلوا داخل جبال النوبا فى أزمنة قريبة نسبياً وفرضوا لغتهم على الزنوج ، وهذه النظرية من الصعب التمسك بها ، ومن الاختلافات بين لغات نوبا الجبال والنوبيين على النيل التى نجد فيها سمات لغوية مستقلة تماماً ، لذا فلن تعيش أية نظرية تقول بالاقتراس ، وقد يكون انفصالها قد حدث فى أزمنة مبكرة ، كما لا يوجد هناك أى دليل كما يسلم به سلجمان (Loc.sit.,608) من أن نوبا الجبال قد تأثروا ثقافياً بالدناقلة . إن تدفق النوبا داخل السكان الحاميين فى المنطقة الشمالية ليس كافياً ليعدل بشكل كبير سلالاتهم وسماتهم الثقافية . فيما يتعلق بهذه المسألة ينظر 48 - 137 pp. , 1930 , SNR ., " Nuba Origin " Hillelson,

٢- اعتناق النوبة الدين المسيحي

عندما جاءت المسيحية الي السودان كان شعب الشمال - أي الحاميون - مندمجين مع الزنوج ، وكانت الحامية أكثر في الشمال ، رغم وجود عنصر زنجي كبير يزداد قوة في اتجاه الجنوب حتى أصبح سائدا في جزيرة مروى . وإلى الجنوب من مروى - على النيل الأبيض والسوياط - كانت هناك قبائل الشك الزنجية ، وفي الصحارى وعلى التلال في الشرق والشمال الشرقي حتى ساحل البحر الأحمر كان يتجول البجة الحاميون ، وكما أن النوبا المهاجرين الذين كانوا في زمن غزو أكسوم مازالوا متميزين عن الأثيوبيين المرويين ، قد التحموا الآن مع السكان الأصليين الذين تبناوا اللغة النوبية ، وهكذا وجدنا الشعب الذي يعبد الآلهة المروية القديمة ويمارس الطقوس الإفريقية البدائية ، ومع ذلك فقد كان الشمال لفترة طويلة تحت الحكم الهيليني الذي حكم البلاد بواسطة العديد من الزعماء الثانويين ، البعض منهم قلد الدولة البيزنطية واستخدم اليونانية لغة كتابة في البلاط وفي التجارة . ولم تستخدم النوبية في الكتابة حتى العصر المسيحي .

وعندما وصلت أولى البعثات التبشيرية المسيحية إلى السودان وجدت ثلاث ممالك هي نبتة ومقرة وعلوة التي كان الزعماء الصغار يقدمون لهم الولاء ، ودخلت المسيحية السودان في القرن السادس بمحاولة من الكنيسة المصرية ، فكان أول اتصال للمسيحية بالسلالة الزنجية ^(١) . إن مصدرنا الأساسي لتاريخ هذه الفترة

هو « التاريخ الكنسي للكاتب المعاصر يوحنا اميدا (توفي في عام ٥٨٦ م) أسقف افسس. ^(٢) انتشرت المسيحية بسرعة في مصر حيث كان تطورها فذاً ، وتقبلها المصريون واستوعبوا جوهر روحها بطريقة أثرت بشكل قوى في روح حياتهم الدينية، وصاغوها في ذات الوقت لتناسب العديد من مفاهيمهم الخاصة، لدرجة أصبحت تعبر عن قوميتهم التي كانوا قد حرموا منها في دنيا السياسة ، وقد ظهر هذا في عدة طرق : ^(٣)

(١) إن رواية يوزبيوس (Vit.constantin,108) عن تغفل المسيحية وسط الأثيوبيين والبلبيين في زمن قسطنطين (٣١٢ - ٣١٧) يشير في الحقيقة إلى مملكة أكسوم وقبائل البجة البدوية . وتثير مشكلة غموض كلمة أثيوبيا التي اتخذت في بعض الأحيان في معناها الواسع وفي بعض الأحيان في معناها الضيق . لقد دخلت المسيحية أكسوم لأول مرة من مصر بواسطة التجار عن طريق العلاقات التجارية والبحرية التي كانت قائمة بين البلدين ، وتدل كلمة وسط « كل » الأثيوبيين (Comment,MOH.xxiv-9) ضمناً إلى أنه كان هناك تبشير في مكان ما في المنطقة ، إلا أن حطام سفن فرومنتوس وأديسيوس تدل على أنهم هم المؤسسون الحقيقيون لكنيسة أكسوم ولو أننا نعلم أنه قد ساعد هؤلاء التجار اليونانيين المسيحيين في وقت مبكر . إن الرواية المباشرة للدخول في المسيحية التي تم الحصول عليها من أوديسيوس ذكرها روفينوس

(Eccl.Hist.I.9). لقد رسم فرومنتوس القديس اثناسيوس أسقفا في عام ٢٢٠ م ، وكانت أكسوم أثناء حياته قد دخلت المسيحية رسمياً ، وانتشر الدين إلى داخل الأجزاء الأخرى لأثيوبيا . ومع ذلك يبدو أن السودان لم يتأثر كثيراً من أكسوم ، حيث كان الدين ما يزال محلياً بشكل كبير . وبعد غزو عيزانا حوالى عام ٢٥٠ م ، وتحطم مملكة مروى وتوسع البجة ، كان السودان في قلاقل وانقطعت علاقات الصداقة بين أمرائها وأكسوم .

(٢) John of Ephesus Ecclesiastical History, part III, transl.R payne smith (٢) p,kraus, Die Anfangs des christentums in Nubien,1930,J.Maspero, Hist.des patriarches d'Alexandria,1923, pp.233-6,90,J.Maspero "theodore de philai," Rev. del'hist. desrel. Lix,299-317.

(٣) Bonet- Maury, L' Islamisme Le Christianisme en Afrique pp.37ff. قارن

أولاً : استخدام لغتهم - القبطية - كأداة لنقل الرسالة المسيحية منذ فترة مبكرة .
قارن هذا مع الكنيسة النوميديّة في شمال إفريقيا التي استخدمت اللاتينية وفشلت في البقاء عند غزو الإسلام ، وتمت ترجمة الكتاب المقدس حتى إلى لهجات مصر العليا ومصر السفلي والواحات الغربية ، وعندما أصبحت الكنيسة المصرية قومية استخدمت القبطية أيضاً في العبادة .

ثانياً: إن التقويم الكنسي الذي بدأ بعصر الاضطهاد كان غير عادي في تنظيمه وانضباطه ، فالأسقف مثلاً تم انتخابه عن طريق المصادقة الشاملة من أعضاء الكنيسة واعتبر ببساطة حتى زمن جيروم أنه رئيس الكهنة (Primus inter pares)

ثالثاً: تطور مظهر إيمان الناسك - الراهب والزاهد إلى درجة مرضية .

رابعاً : تطورت مدرسة خاصة - التعليم بطريقة السؤال والجواب catechistical في الاسكندرية وارتبطت بالأسماء العظيمة لكلمنت واثناسيوس وسيرل وبشكل خاص اورجين وكان هدفها التدريس للداخلين حديثاً في الدين ، والذين تركوا السيبراييم المشربة بالفلسفة اليونانية ، وكانت هذه أول كلية دينية مسيحية ، وهي لم تدرس فقط حياة وتعاليم المسيح ،انما كشفت عن انسجام تعاليمه مع تلك التي يقول بها الفلاسفة ، والاعتراف بعناصر الحقيقة في الديانات الأخرى ، واستخدام طرق المدرسة الأفلاطونية .
إنها المدرسة التي بعثت بالإرساليات التي حملت المسيحية إلى القبائل الوثنية في ليبيا وفرنجة وسيناء والجزيرة العربية وطيبة ومصر العليا ، وأخيراً أصبحت مصر مركزاً لرد الفعل المنوفستي ضد النزعات المسيحية الهيلينية التي تركز في داخلها كل ولع المصريين بالاستقلال الديني .

وأصبح أغلبية السكان مسيحيين في عهد قسطنطين . ويمتصّف القرن الخامس اختفت بسرعة كل التأثيرات غير المسيحية ، وبقيت عبادة الأوثان مدة أطول في جزيرة فيلة على الحدود المصرية - النوبية ، وسمحت السلطات الرومانية ببقائها من وجهة نظر سياسية ، اذ كان للنوبيين والبلبيين معابد يعبدون فيها أوثانهم . وكان من المحتمل أن يؤدي إلغاؤها إلى مشاكل مع هذه الشعوب المشاغبة . وتم - كما رأينا - توقيع معاهدة بين الرومان وهذين الشعبين سمح بمقتضاها باستمرار العبادة في معابد إيزيس . وفي عام ٥٢٥م كان هناك أسقف مقيماً في الجزيرة جنباً إلى جنب مع المعابد . ولم يتم إلغائها النهائي لعبادة الوثنيين هناك إلى أن استطاع الإمبراطور الاعتماد على رد الفعل المؤيد في النوبة ، ويكتب الملاح المصري كورمس انديكوبلستس - حوالى عام ٥٢٧ - ٥٤٧م قائلاً : توجد هناك وسط النوبيين والجرمنت كنائس

المسيحيين في كل مكان ، كما نجد الأساقفة والشهداء والرهبان والنساء أينما ينادى بانجيل المسيح. ^(١) ومع ذلك فإن مبالغة هذه الرواية ربما تظهر أنه كان هناك مسيحيون وسط النوبيين خلال النصف الأول من القرن السادس ، كما نعلم أيضا أن المسيحيين هربوا من اضطهاد دسيوس وفالريان ودقلديان والآخرين إلى مصر العليا حيث كسبت القومية القبطية معقلا حصينا لها ، وقد يكون البعض منهم قد دخل النوبة ولم تنقطع أبداً العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر والنوبة بالرغم من الغارات المستمرة ، ومن المحتمل أنها لم تستطع منع المسيحيين من دخول النوبة . ولكن يبدو واضحاً من مرسوم ثيودوسيوس الأول الشهير الذي اعتبر النوبيين وثنيين ، وأن كتاباً من أمثال برسكوس وبروكوبياس الذين تحدثوا عنهم كعبدة لإيزيس وأوزوريس أن المسيحية لم تقبلها إلا أعداد قليلة قبل عهد جوستينيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) ويكتب يوحنا أفسس:

كان من بين رجال الدين الذين حضروا عند البابا ثيودوسيوس ^(٢) القس المدعو جوليانوس، رجل عجوز ذو منزلة أخلاقية عالية ، وكان جاداً بشكل كبير في تصدير السكان المتجولين الذين يقطنون على الحدود الشرقية لطيبة فيما وراء مصر ، ولم يكونوا تابعين لسلطة الإمبراطورية الرومانية وكانوا يتلقون إعانة مالية على ألا يدخلوا مصر أو يذهبوا ، كما كان المقدس يوليانوس شديد الحرص على هذا الشعب ، لذا فقد ذهب وتحدث بشأنهم إلى الملكة الراحلة ثيودورا على أمل إيقاظ رغبتها في تحويلهم إلى المسيحية ، ولأن الملكة متحمسة جداً جداً فقد تلقت الاقتراح بفرح ووعت بأن تعمل بكل ما في طاقتها لتحويل هذه القبائل عن
 أخطاء الوثنية ^(٣)

وعبرت الإمبراطورة عن رغبتها في أن تعهد بمهمة الإرسالية إلى جستنيان الذي قرر بصفته حامياً للكنيسة الأرثوذكسية ولأسباب سياسية بأن مهمة الكنيسة التي تأخرت كثيراً يجب تنفيذها فوراً ، ومع ذلك فلم تكن لديه الرغبة في أن يرى بعثة

(١) The Chirlian Topography, ed., McCrindal, Hakluyt. Society, 1897-p.120

كان الجرمنت في الفترة الكلاسيكية قبيلة بدوية واسعة الانتشار ، تمتد من فزان (فزان) حتى النوبة، ويقول يوحنا بكلاريوم أنهم عقدوا معاهدة سلام مع الإمبراطورية ، وأعتنقوا المسيحية في العام الثالث لجستين الثاني (٥٦٩م) وهي نفس السنة التي دخل فيها المسيحية سكان مقرة الدولة المتاخمة لهم
 Garamantes per Legates Paci Romanac rei Publicae et Fidei Christianae

Sociari desiderantes poscunt, que Statim utrumque imetrant (ed., Mommsen, xl.212.)

(٢) كان ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية ٥٢٦ - ٥٦٦ متفياً في القسطنطينية في هذا الوقت

(٣) يوحنا أفسس . مصدر سابق ص ٢٥٠

ثيودوسيوس تقوم بتحويل النوبيين إلى المونوفستية^(١)، ومن ثم قرر أن يكتب إلى الأساقفة الذين يقفون معه في طيبة يأمرهم بالذهاب إلى هناك ، ويؤسسوا بينهم اسم المجمع الكنسى^(٢) . وأرسل إليهم السفراء ومعهم الهدايا والذهب وكساوى معمودية . وأمر دوق طيبة بحراستهم حتى حدود نبطه .

وكانت الامبراطورة منزعجة جداً لتهوره ، وصممت على أن تتفوق عليه بالحيلة والدهاء ، وقامت بإرسال جوليان ومعه تفويض من بلاطها مع خطاب إلى دوق طيبة تقول فيه:

لقد عزم كلانا - صاحب الجلالة وأنا - على إرسال سفارة إلى شعب نبطه ، وأبعث إليك رجلاً مباركاً يدعى جوليان ، إن رغبتى هي أن يصل سفيرى إلى هناك قبل سفير صاحب الجلالة ، وأحذرك اذا سمحت لسفيره بالوصول قبل سفيرى ، ولم تمنعه بشتى الحجج إلى أن يصل سفيرى إليك والمرور عبر ولايتك والوصول إلى وجهته ، سأرسل فى الحال من يقطع رأسك^(٣)

ولم يجد الدوق صعوبة فى حجز الوفد الإمبراطورى بشتى المزاوغات مثل صعوبة الحصول على الأدلاء أو القافلة الكبيرة الضرورية للسفر إلى داخل الجنوب المتوحش . ومع ذلك فعندما وصل جوليان ورفاقه وجدوا الخيول والأدلاء فى انتظارهم ، وفى اليوم نفسه - بدون إضاعة للوقت وبحجة أنهم يقومون بذلك مجبرين - مهدوا له الطريق ، وكان أول من شرع فى السفر ،^(٤) وكان الدوق منزعجاً جداً لهذا الحدث وقدم عذره لسفير الإمبراطور .

سبى عندما قمت بتجهيزاتى وكنت راغباً فى إرسالكم وصل سفراء عن الملكة وأجبرونى وأخذوا بواب الحمل التى كنت قد أعدتها وسافروا . إننى أعى جيداً الخوف من سلطاتها والمخاطرة بمعارضتها، ولكننا ابق معى إلى أن أستطيع القيام بتجهيزات جديدة ، ومن ثم ستذهب أيضاً فى سلام^(٥)

وكان ممثل البابا منزعجاً جداً وصب لعناته عليه ، ولكنه لم يع الخدعة فى وقتها ، ووصل جوليان فى الوقت نفسه إلى حدود النوبة فى حوالى عام ٥٤٣ م ، وتم إخطار الملك رسمياً بوصول السفارة الإمبراطورية، وأرسل كتيبة لحراستها إلى بخارس

(١) من الصعب أن نفهم تاريخ دخول النوبيين المسيحية دون الرجوع الى بعض المراجع المتعلقة بالخلافات داخل الكنيسة ، لقد ساند جوستنيان المجمع الخلقدونى ، ولكن زوجته ثيودورا كانت مونوفستية وكانت فى سلوكها تؤول أو تضيف إلى إجراءات جوستنيان مايؤدى إلى تضارب سياسة الامبراطورية ، وقد طلب جوستنيان من ثيودوسيوس بطريرك مصر بالمشايعة العلنية للصيغة الخلقدونية ولكنه رفض ، ومن ثم قام جوستنيان باختيار بطريرك آخر يدعى بول (٥٤١ م) ، ولكن المصريين لم يعترفوا به ، ومنذ ذلك الوقت وحتى الفتح العربى (٦٣٩ م) كان هناك بطريركان فى مصر المونوفستى والملكانى (أى المؤيد للحكم الإمبراطورى) الذى احتل الكرسي فى الاسكندرية والذى كانت سلطته على الشعب فاترة فيما بعد ، ولم تعترف به سوى بقايا الكنيسة البيزنطية ، أما ثيودوسيوس وخلفاؤه الذين عاشوا فى دير نقرى (وادى النظرون الآن حيث ما زال يعيش فيه مجموعة من الرهبان) وكان دير نقرى هو المكان الذى بدأ منه ثيودوسيوس بعثاته التبشيرية . لذا فكما يكتب المستر بتلر « تحول النضال الدينى فى الشمال إلى حماسة دينية فى الجنوب » . The Church in Egypt, i.p.330

(٢) يوحنا افسس . مصدر سابق . ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٣) نفسه . ص ٢٥٢ .

(٤) نفسه . ص ٢٥٣

(٥) نفسه . ص ٢٥٣

(فرص. العاصمة شمال وادي حلفا) ، وعند وصولهم قام السفير بتقديم أوراق اعتماده وهداياه ، وسرعان ما خضعوا بكل سرور وأقسموا بالتخلي عن خطأ أجدادهم واعترفوا بإله المسيحيين قائلين أنه الإله الحق ولا إله سواه ^(١) .

وقام جوليان بتعليم الملك ونبلائه المسيحية وانتهاز الفرصة لتحذيره من « أخطاء » حزب الامبراطور ، وعندما وصل السفير الآخر :

قدم الملك الرسائل والهدايا وبدأ في إخباره وقال له : إن تعليماته كالآتي : ان الملك الروماني أرسلنا لكم وأنه في حالة اعتناقكم المسيحية يجب ان تخلصوا للكنيسة ولأولئك الذين يديرونها ولا يضلك أولئك الذين طردوا منها . وعندما سمع ملك نبته وأمرأته بهذه الأشياء أجابوهم بقولهم “ إن الهدية المحترمة التي أرسلها لنا ملك الرومان قد قبلناها ، وسنرسل له هدية ولكننا لن نقبل دينه لأننا إذا وافقنا بأن نصبح مسيحيين فإننا سنسير وراء قدوة البابا ثيودوسيوس الذي - بسبب عدم رغبته قبول الدين الشرير للملك - طرده وأبعده من كنيسته ومن ثم فإننا ما كنا لتخلي عن عبادة الأوثان لنوافق على الوقوع في عبادة الدين الشرير الذي يؤمن به الملك ^(٢) .

وبدأ جوليان بعد كل هذه المكائد في العمل بكل جد ، فقد بدأ في سرد كيف أنه قضى الأيام جالسا في كهف مملوء بالماء من الساعة التاسعة صباحا حتى الرابعة ظهرا يعمد الناس الذي احتشدوا للانضمام إلى الدين الجديد ، ويبدو أنه تعب جدا من الحر والإرهاق لذا فقد عاد إلى القسطنطينية بعد عامين ليقيم تقريراً إلى ثيودورا تاركا خلفه ثيودور أسقف طيبة العجز ليحافظ على عمله ويعززه ^(٣) ، وكان على ثيودور أن يسافر في عام ٥٥١م ليتولى أمر أسقفية ، وترك النوبيين بلا دليل لثمانى عشرة سنة إلى أن أدرك ثيودوسيوس المنفى أن هذا التحول الضخم غير كاف ، وأنه يحتفظ بهم في ذاكرته إلى أن يغادر هذه الدنيا (٥٦٦م) خاصة لأن المبارك جوليان معلمهم قد مات منذ فترة قصيرة وكذلك لأن المرحومة صاحبة الجلالة - الملكة ثيودورا - قد أصدرت أوامرها بتعيين لونجينوس أسقفاً هناك ^(٤) . وتم ترسيم لونجينوس أسقفاً بعد وفاة ثيودوسيوس مباشرة ، ولكن واجهته عدة مصاعب عند مغادرته القسطنطينية وذلك بسبب معارضة الملكانية ، وألقى القبض عليه وسجن ثلاثة أعوام ، وأخيراً استطاع الهرب ، وعند وصوله إلى النوبة (٥٦٩م) استقبل بحفاوة ^(٥) وبدأ في الحال في تعليمهم وتنويرهم ، وقام ببناء كنيسة ورسم رجال الدين وعلمهم نظام الخدمة المقدسة وكل الطقوس الدينية المسيحية . ^(٥) ثم اتصل بالملك ليرسل سفيراً ومعه هدايا إلى

(١) نفسه ص ٢٥٤ تحمل الصيغة صورة لافتة للنظر للشهادة الاسلامية « لا إله إلا الله » ، ويكتب أبو صالح في وقت متأخر (١٢٠٨م) عن طريق السماع “ يقال أن النوبيين كانوا يعبدون في السابق النجوم وأن أول من تحول لمعرفة الحقيقة وثاموس المسيح كان « بحرياً » ابن أخت الملك وكان عالماً في معرفة الدنيا وكان حكيماً ومهماً . وعندما تحول إلى دين المسيح تبعه كل سود النوبة ، وبنى لهم العديد من الكنائس في جميع أنحاء أرض النوبة والكثير من الأديرة التي ما زالت مزدهرة ، بعضها بعيد من النهر والبعض الآخر على ضفافه

The Churches and Monasteries of Egypt, ed ., Evetts and Butler, pp.265-6.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) فيما يتعلق بثيودور ينظر Rev.Hisl.Rel. J.Maspero,(La vie de Theodore de philae,) Lix.303-4.

(٤) يوحنا افسس. مصدر سابق ص ٢٥٦.

(٥) نفسه . ص ٢٥٧.

الإمبراطور جستنيان الثاني ، قد قابل هذا السفير مؤرخنا يوحنا افسس ، وقص عليه كيف أنه أطرى بشدة على لونجينوس قائلاً « رغم أننا مسيحيون اسماً فإننا لم نعرف في الحقيقة المسيحية إلى أن جاعنا لونجينوس »^(١).

ومكث لونجينوس في النوبة خمس سنوات ، ودعى في عام ٥٧٥م لزيارة مصر وذلك للمشاركة في انتخاب البطريك الجديد، وبذل الملك والأمراء أقصى جهودهم لإقناعه بالبقاء قائلين « سنصبح كما كنا - قبل وصولك - كالأيتام بلا أب »^(٢) وأخيراً تركوه يذهب وزودوه بكل وسائل الراحة لسفره إلى فيلة حيث التقى بثنودور البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً ، وسافر إلى الاسكندرية حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام المتاعب ، ولم يكن هذا فقط هو ما أنجزه في هذه المنطقة ، إذ هناك إنجاز آخر عظيم قام به وهو تحويل علوة إلى المسيحية .

كانت توجد في شمال السودان ثلاث ممالك ، بصرف النظر عن قبائل البجة ، وقد كانت أرض نبتة حيث يعمل لونجينوس ، وإلى الجنوب مع عاصمتها في سوبا بالقرب من الخرطوم كان يوجد « الشعب الذي يسميه اليونانيون الوديا »^(٣) بينما يوجد بين نبتة و« الوديا » إقليم يسكنه شعب آخر يسمى المقريين^(٤) . كان لتجاور نبتة هذا مع الجنوب والقبائل الحامية والزنجية في الغرب أهمية كبيرة لانتشار الإنجيل إلى قلب إفريقيا .

وقد سمع ملك علوة ما كان يحدث في النوبة ، ورغب في أن يكون هناك نفس التأثير في مملكته ، لذا فقد أرسل التماساً إلى أوارقيولا^(٥) ملك نبتة يطلب منه السماح للونجينوس بالحضور وتنصير علوة ، وكان هذا حوالي عام ٥٧٥م، وكان لونجينوس قد ترك البلاد ، ولكن ملك نبتة أرسل السفراء إلى مصر واقنعوه بالموافقة على العودة وزيادة علوة ، ولكن عندما سمع الملكانية بالأمر قام البطريك بطرس بعزله ، وأرسل صورة من قرار العزل إلى الملك الذي قابل حملة الرسالة بشكل متصلب " لن نقابل أى شخص سوى أبيناالروحي الذي أنجبنا مرة أخرى عن طريق الولادة الروحية"^(٦) .

(١) نفسه . ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) نفسه . ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) نفسه ص ٢١٥ والوديا بالقبطية dhwofid وباللغوية Ahwos وقد تم تتبع الكلمة حتى القرن الرابع ق-م في (Tlit) of the stela of Nastasen(328-308B.C) .

كما ذكرت في نقش عيزانا (٢٥٠ ق.م) بأنها مدينة مبنية من الطوب ويدل المعبد (الذي تحول فيما بعد إلى كنيسة) أنه من تاريخ يرجع إلى الأيام المروية ، وستسمى هذه البلاد الوديا خلال العهد البيزنطي ، وبعد الفتح العربي لمصر بالاسم العربي « علوة » ، ومن المحتمل أن تكون سلطة الوديا قد امتدت من كبوشية حتى سنار .

(٤) نفسه ص ٢١٩ .

(٥) من المحتمل أن يكون هو خلفية سلكو. وقد سمعنا في عام ٥٥٩ م عن ملك يسمى ايربا نوم (ماسبيرو مصدر سابق ص ٢٠٦) ، قد يكون هو اوارقيولا هذا أو ملكاً آخر في الوسط .

(٦) يوحنا افسس . مصدر سابق ٢١٧ .

وعندما عاد الأسقف إلى النوبيا عام ٥٨٠م أرسل ملك علوة سفارة أخرى يطلب فيها لونجينوس ، وعندما سمع الملكانية بهذه الرسالة قاموا بإرسال أسقفين وآخرين إلى علوة ومعهم أوامر تقول إنه قد تم خلع لونجينوس ولذلك فإنه لا يستطيع أن يعمد ويرسم الكهنة بشكل قانوني ولذا فإن هذين الأسقفين سيرشدانهم نحو الطريق الصحيح ، ولكن ملك علوة لم يقابلهم قائلا :

لا نعرفكم وإن تقابلكم وإن نَعْمَ على أيديكم ، ولكننا سنقابل الذي عمّد النوباتيين ، وهو الذي سيعمّدنا ، أما بالنسبة لما تقولونه عنه فلن نعيّره اهتماماً لأننا نعى أنكم نتحدثون عنه هكذا حسداً . ارحلوا عن بلادنا (١)

وأقنع استقبال علوة للبعثة الثانية لونجينوس « إن تحول تلك المملكة إلى المسيحية كان هدفاً نبيلاً ونعمة من نعم الله . إن الله قد حرك روح لونجينوس ليذهب إليهم » وأصيب النوبيون بإحباط عند رحيله بعد عودته ، ولكنهم جهزوا قافلة كبيرة أرسلوها معه ، وكان بينهم النبلاء والرجال الذين يعرفون مسالك الصحراء ، إذ إن رحلته ليست سهلة كما تبدو ، وهناك صعوبات أخرى عليه مواجهتها ، وهو في طريقه بين شعوب الصحراء المتوحشين ، كما كتب ملك نبتة إلى ثيودور بالإسكندرية فيما بعد :

بسبب المكائد الشريرة التي يدبرها من يسكن بيتنا (أى بين نبتة وعلوة) ، أقصد ملك مقرة فإننى أرسل أخى الطاهر (لونجينوس) إلى ملك البليميين الذى قد يوجهه إلى هناك بطرق أفضل عبر الأراضى ، ولكن المقرين سمعوا بذلك أيضاً ، وأرسلوا الجواسيس فى كل الاتجاهات فى هذه المملكة سواء فى الجبال أو فى السهول وحتى بحر الأعشاب (البحر الأحمر) على أمل إلقاء القبض على أبى ، ووضع حد للعمل الصالح للرب كما كتب لى أبى ليخبرنى (٢)

واستغرقت رحلة لونجينوس هذه إلى النيل الأزرق مائتى يوم ، إذ لم يكن بإمكانه السفر رأساً عبر أقصر الطرق بحذاء النيل ، وذلك بسبب لمعارضة المقرين . وكان على ملك نبتة أن يجهز له السفر عبر بلاد البليميين البدو فى طرق صحراوية خطيرة وغير مطروقة عبر جبال البحر الأحمر حيث واجه ورفاقه العديد من المصاعب ، وكتب قائلاً :

« لم نمرض وتتعرض سلامتنا للخطر فقط ، بل حتى الحيوانات التى كانت معنا ماتت ولم تستطع تحمل الحرارة والعطش فى الجبال وفساد المياه ، لذا فقد فقدنا حوالى سبعة عشر جملاً (٣) ،ومن الطبيعى أن نفترض أن ملك مقرة كان ما يزال وثيقاً ، ولكن يبدو أن رسل الإمبراطور جستنيان الذين خدعتهم ثيودورا تسللوا إلى مقرة بعد فشلهم

(١) يوحنا افسس . مصدر سابق ص ٢١٨ .

(٢) نفسه . ص ٢٢٥ .

(٣) نفسه ص ٢٢٢ . أرسل هذا الخطاب ملك النوباتيين الى الاسكندرية حيث من المحتمل أن يكون يوحنا افسس قد نسخه .

مع النوباتيين ^(١)، إذ إن يوحنا ابوت البكلار يوم (توفى عام ٦١٠م) وهو كاتب كاثوليكي يقول إن المقرين تحولوا إلى المسيحية في العام الثالث من حكم جوستين الثاني (٥٦٩م وهو نفس العام الذي تحول فيه الجرمنت) وأنهم أرسلوا وفداً إلى القسطنطينية في عام ٥٧٢م حاملين هدايا مكونة من أفيال وزرافة عنواناً للصدقة ^(٢)، فإذا كانوا مسيحيين فهذا يفسر السهولة التي مكنت الملكانية من إرسال أسقفين إلى علوة .

وبعد كل المحن التي واجهها لونجينيوس ورفاقه التقوا مصادفة بحرس يقوده امير يدعى أيتكيا (او اتيكا) كان قد تم إرساله لمقابلتهم وحراستهم حتى النيل الأزرق ، ويستطرد الأسقف في رسالته إلى ملك نبتة :

... وعند وصولها إلى شاطئ النيل أبحرنا بسفينة ، وابتهج الملك عندما سمع بوصولنا وخرج شخصياً لملاقئنا وقابلنا بفرحة كبيرة وبنعمة الله علمناه وعمدناه ونبلاءه وكل أسرته ويزداد عمل الرب يومياً ،، ^(٣)

ويستمر في رسالته مما يثبت أن تأثير المسيحية على علوة كان قبل مجئ بعثته : وبقدر ما يوجد أثيوبيون بعينهم قد سقطوا في داء جوليا نوس ^(٤) الخيالي القائل إن جسد المسيح منزّه من الأوجاع والآلام ، لقد قلنا لهم ما هو الإيمان الصحيح وطلبت منهم تحليل وشرح هذه البدعة كتابة ^(٥)

وانتهز ملك علوة مناسبة إرسال رسالة لونجينيوس إلى الإسكندرية عن طريق ملك نبتة ليكتب للأخير مجيباً إياه أخاً في الروح منذ أن أصبح مسيحياً شاكرًا له مساعدته وطالباً منه معدات للكنيسة :

سيدي : نتذكر حبك لأخيينا اواهيولا ، لقد أظهر لي أنك أحد الأقارب ، ليس فقط في الجسد بل في الروح أيضاً ، لأنكم أرسلتم إلى هنا أبانا المشترك في الروح والذي هداني إلى طريق الحق وإلى النور الحقيقي لربنا المسيح ، وقد عمّني ونبلائى وأسرتى ، ويتشعر عمل المسيح في كل شيء ، ولّى رجاء في الله الكريم

(١) Kraus, Die Anfänge Chirstentums in Nubien, 1930 and kirwam Christianity and kura,an, J.Eg,Arch.xx201-3

(٢) إن تحديد يوحنا افسس لموقع مقرة واضح تماماً ، والمشكلة هي ما إذا كانت مقرة يوحنا بكلاريوم متطابقة Makkovpal بطليموس (Geog-iv.-2-19) أو هم شعب مختلف أو فرع من نفس القبيلة ، وإذا كانوا الآخرين إذا فإن مقرة السودان قد يكونون تأثروا عن طريق تحول الجرمنت ومقرة الصحراء ، إذ إن الطرق الصحراوية تمر عبر كردفان وبنقلا حتى ودان وفزان .

(٣) يوحنا افسس مصدر سابق ص ٢٢٢-٢٢٣

(٤) كان جوليانوس هاليكرنسيوس زعيماً منوفستياً ، وهو الذي آمن بالبدعة الخيالية بأن جسد ربنا غير قابل للفساد . وقد سببت هذه البدعة انقساماً في الكنيسة المصرية إثر موت تيموثى الثالث في عام ٥٢٦ م - وفي سنة موته قام جستنيان بتبني هذه البدعة . وهذا يظهر أن المسيحية قد تغلغت في علوة قبل وصول لونجينيوس ، كما تؤكد أن الطريق كانت معدة له سلفاً ، وتفسر دعوة الملك .

(٥) يوحنا افسس . مصدر سابق ص ٢٢٣

وشقوف أكثر لأفعل كل ما يسرك ويطرد عدوك من أرضك ^(١) لأنه ليس عدوك فقط بل عدوى أيضاً، لأن أرضك هي أرضى وشعبك شعبى . لا تدع شجاعتك تخور بل كن شجاعاً واستجمع شجاعتك إذ إنه من الصعب على ألا أهتم بك وبأرضك خاصة وقد أصبحت الآن مسيحياً بمعاونة أبى الأب المقدس لاونجينوس ، ومع ذلك فكل ما نحتاجه هو أثاث للكنيسة ، رجاء تجهيز بعضها لنا ، لأننى متأكد بأنك سوف ترسل لنا هذه الأشياء بكل الحرص والعناية ، وسأرسل لك الرد ، ولكن فى اليوم الذى أحتفل فيه بأننى لا أريد ان أكتب خشية أن تقصر رسالتى عن المرام ، لا تقلق عنئذ بل تحل بالشجاعة وناور خصمك لأن المسيح معنا ^(٢)

ويختتم يوحنا أفسس سرده لتحول علوة بإخبارنا أن هذا الأمر قد حدث فى عام ٨٠م. ^(٣) إن المنافسات السياسية المؤسفة داخل الكنيسة المصرية – من خلال انحياز الكتاب الموالين – حجب عنا الكثير من تاريخ تحول السودان إلى المسيحية ، لقد فعل الملكانية كل ما فى استطاعتهم لإعاقة عمل لاونجينوس إلا أن ممالك نبتة وعلوة بقيت مخلصه للكنيسة المصرية المنوفستية وسترد لها خدمة جلية فى المستقبل .

وحدث خلال فترة لاونجينوس تحويل العديد من المعابد إلى كنائس ^(٤)، كما تم بناء كنائس أخرى ، وبنهاية القرن السادس كان السودانيون فى الممالك الثلاثة قد اتحدوا فى دين واحد ، ولأملك دليلاً لأى تحولات إجبارية ، ويبدو أن الدين قد قبلته هذه الشعوب بكل إخلاص ، ومن الواضح أن تحول الملوك والنبلاء جعل من الحكمة أن يعتنق الشعب دين الدولة ، وإجمالاً بقيت قبائل البجة البدوية على وثنيته ^(٥) ولكن مع استثناء أن المسيحية – فى زمن الفتح العربى – كان معترفاً بها فى كل أنحاء شمال شرق افريقيا حتى الحدود الجنوبية لمملكة أكسوم .

(١) يبدو ان نبتة كانت فى حالة حرب مع مقرة .

(٢) يوحنا افسس . مصدر – سابق . ص ٢٢٠ – ٢٢١

(٣) نفسه . ص ٢٢٦

(٤) أمر البابا جريجورى فى تعليماته إلى ابوت ميلليوتوس الذى أرسله إلى بريطانيا بتدمير الأوثان ، ولكن عليه الحفاظ على المعابد لأجل العبادة المسيحية ، إذ ربما يكون الشعب أكثر استعداداً للتبرؤ من أخطائهم والرجوع لعبادة الرب الحق فى الأماكن التى اعتادوا عليها .

(٥) كان تأثير المسيحية على قبائل البجة البدوية التى تتجول ما بين النيل والبحر الأحمر ضعيف جداً ، وأثر بشكل أساسى على أولئك الموجودين على شاطئ البحر الأحمر ، ويصف (Eusebius vit-costant.i.8) تغلف المسيحية وسط البليمين (فى الساحل) فى عهد قسطنطين ، وفى عام ٧٠٠م تم تعيين الأسقف يارنابا فى ميناء عيزاب ليقوم بمهام الكاهن للبحارة والتجار وعاش فى قفط ولكنه كان يرسل من وقت لآخر قسيساً وشماساً إلى عيزاب (pat.or,iii,499f) ، وكان هناك تحرك كبير لتوسع البجة فى بداية القرن الثامن قضى على مملكة أكسوم ، ومع ذلك فقد عاشت المسيحية فى هضاب التجرى وظهرت مملكة جديدة كان أهم مجال نفوذها فى الجنوب ، ولكنها أثرت على البجة سكان الساحل وأقصى المناطق الجنوبية ، ولن يبدأ المسلمون فى البداية فى إجراء أية معاهدة مع البجة الذين أغاروا على مصر العليا لأنهم وثنيون ، وعندما عقدوا معهم معاهدة كان ذلك بدافع الحيلة ، ويذكر اليعقوبى (History,ed.,Houlsma) خمس ممالك بجاية فيما بين النيل والبحر الأحمر ، وكان « النقليين » سكان إحدى تلك الممالك تسمى « الله » « الزيجر » ، من المحتمل أن يكون تحريفاً للاسم المسيحى عند الاثيوبيين « عز الابجر » كما يقول فى كتاب =

إننا لا نعرف الكثير عن تاريخ هذه الممالك المسيحية حتى الفتح العربى لمصر عام ٦٣٩م ، وكانت عاصمة النوبة فى بداية الأمر فى بلان ، ولكن بعد دخول المسيحية انتقلت إلى فرص المجاورة ، وأصبحت النوبة هى لغة البلاد وصارت بتأثير المسيحية لغة مكتوبة ، ومن ثم اللغة الرسمية بالإضافة الى كونها لغة الحديث بالنسبة للنوبيين ، وعندما ظهرت فى التاريخ مرة أخرى فإن نبتة ومقرة كانتا متحدتين فى مملكة واحدة عاصمتها دنقلا ، وكانت تهيمن على طرق التجارة داخل افريقيا .

= البلدان (ed.,de Goeje, 1896, pp. 3360-7) « إن دين الزنافج » يشبه دين الحداربة وليس شريعة سماوية بل يعيدون صنماً يسمونه « هاهزو » ، وأدى تواجد المسلمين فى المناجم إلى تزايد تأثير الإسلام ، ويقول المسعودى (٩٢٥م) إن قبيلة الحداربة وحدها هى المسلمة وأن البقية وثنية تعبد الاصنام . (Muruj,ed.Meynard and courteille, 1863-iii, 34) ويكتب أبو اسحق الاصطخرى (مسالك الممالك - كتب حوالى عام ٩١١م) أن البجة وثنيون ، ويكتب المقدسى فى عام ٩٦٦م عن قبيلة بجاوية مسيحية تسمى الناصرية ، ويعدلها هارت إلى البشاريين (Le livrer de la création, edil-and transl.C.Huart,iv,69) ويقول الإدريسى الذى أتم كتابه فى عام ١١٥٤م إن البليون (بلو) مسيحيون يعاقبه وكذلك كل شعب النوبة والحيشة وأغلبية البجة

Description de L, Afrique et de L, Espagne ,R.Dozy and M.J.de Geoje, 1766.text p97) كما يقول ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) أن سواكن يسكنها السود من سلالة البجة وهم مسيحيون . geographische wörterbuch, ed, wustenfelfd,iii,189

ويقول ابن سعد (١٢١٤ - ١٢٨٧) أنه بعد وصول الأحباش إلى البجة أصبح جزء من الشعب مسيحياً والجزء الآخر مسلماً ، وهم الذين يسكنون فى جزيرة سواكن فى بحر السويس (اقتبسها عنه ابن خلدون Hist,des Berbèrs, transl.de ويعطى ابن بطوطة انطباعاً بأن مدينتى عيراب وسواكن كانتا فى عام ١٢٢٠ - ١٢٤٠ مديناً إسلامية . Slane, 1854ii-109) ويصف المقرئى (١٢٦٦ - ١٤٤٢م) البجة بأنهم وثنيون باستثناء الحداربة الذين « أسلموا إسلاماً ضعيفاً » (الخط ج ١ ص ٢١٥) ومن الواضح أن البجة البدو كانوا بشكل عام وثنيين رغم أن القليل من المناطق الساحلية أو تلك التى تجاور الممالك المسيحية كانت تحت التأثير المسيحي ، وبعد ظهور الفونج اندمجوا فى اتحاد فضفاض معقد ، وبدأ التحرك الحقيقى نحو الإسلام مع بداية القرن السابع عشر عندما احتلت الجموعية بقيادة المك جماع جزءاً من الإقليم الحالى للهندوة ، وأثرت على مجموعات البجة التى عاشت وسطها .

٣- تاريخ مقرة

من المستبعد ألا يكون هناك احتكاك مهم بين العرب والنوبة قبل فتحهم لمصر ، وليس هناك شك في أن العرب قد عبروا البحر الأحمر ، ولكنهم سرعان ما كانوا يضيعون في فضاء السودان الواسع ، ويتم امتصاصهم داخل قبائل البجة البدوية . في عام ٦٣٩م ، وبعد سبعة أعوام من وفاة الرسول (ص) ، وبعد فتح فلسطين وسوريا قام عمرو بن العاص بفتح مصر ، وتم الفتح بسقوط الإسكندرية في عام ٦٤١م ، وقبل نهاية ذلك العام كان القطر كله في يد العرب ، ولم يكن نجاحهم مرجعه القوة العسكرية في المقام الأول ، وإنما الحزازات التي كانت بين المنوفيست والملكانية ورحبت الأغلبية السكانية القبطية المنوفستية بالفاحين على اعتبار أنهم محرروهم من سلطة البطريك الملكاني واضطهاد الامبراطور الروماني هرقل . ويكتب ميشيل السوري ، ، لم تكن هناك فائدة تذكر للتخلص من وحشية الرومان ومن حقدهم ومن غضبهم ومن تعصبهم ضدنا وأن نعيش في سلام ^(١) ، ومنحهم عمرو الشروط المعتادة ، وهي كفالة حرية عقيدتهم وحماية أنفسهم وأموالهم شريطة دفع الجزية ، كما أنه استدعى البطريك بنيامين والأساقفة الآخرين من المنفى وأعاد تعيينهم في مناصبهم ، واعتبر الخليفة مصر لعدة قرون على أنها بلاد مسيحية يحتلها جيش إسلامي .

أما المعلومات التي يمكن استقاؤها من المؤلفين العرب عن أولى اصطدامات الجيوش الإسلامية مع النوبيين (٢٠/٢١هـ) فهي مشوشة إلى حد ما ^(٢) ، وواضح تماماً مع ذلك أنه تم في البداية إرسال بعض المغيرين ضد النوبيين ، ومن المحتمل أن ذلك كان دون نية لغزو محدد ، وقد هزم النوبيون كل هؤلاء المغيرين وأجبروهم على الانسحاب بمشقة بالغة ، وربما تكون رواية ابن عبد الحكم (توفي عام ٨٧١م) أقرب إلى الحقيقة :

وبعث عمرو بن العاص نافع بن القيس الفهري ومعه سرية دخلت بخيولها أرض النوبة في غارات صيفية متكررة مثل تلك التي كان اليونانيون معتادين عليها ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو عن حكم مصر وخلفه عبد الله بن أبي السرح الذي عقد اتفاقاً مع الأهالي . ^(٣)

وتشجع النوبيون بانتصاراتهم ، واستمروا في الإغارة على الحدود مخربين القطاع القريب من مصر العليا ، وقرر عبدالله بن أبي السرح بعد خلافته لعمرو أميراً على

(١) Chronique de Michel Le Syrien. chabot(905)iii,413

(٢) ينظر : ابن عبد الحكم : فتح مصر

- البلاذري : فتوح البلدان

- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي

- المقرئزي : الخطط

(٣) ابن عبد الحكم . مصدر سابق ص ٢٨٤ . وكذلك تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ . وطبقاً للمقرئزي (الخطط ج ١ ص ٢٢٢) فإن « عبد الله بن سعد هو الذي بعثه عمرو إلى النوبة في عشرين ألفاً ، فمكث بها زمناً فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع » .

مصر عام ٢٥هـ (٦٤٦ - ٦٤٧ م) وضع نهاية لهذا الأمر، وقام فى عام ٦٥١ - ٦٥٢م بقيادة حملة مجهزة تجهيزاً جيداً إلى داخل النوبة ، واستطاع اختراق البلاد حتى دنقلا ، وحاصر المدينة وطلب الملك قاليدورون هدنة ، وكان عبد الله مسروراً جداً للموافقة لأن قواته كانت قد عانت خسائر كبيرة ، ويتفق المؤرخون العرب على أن النوبيين كانوا رماة سهام بارعين ، إذ أطلقوا عليهم رماة الحدق ؛ لذا فقد توصل عبد الله إلى إتفاقية سلام معهم عندما لم يقدر على إخضاعهم ، وقال الشاعر عن هذه المعركة :

لم ترعيني مثل يوم دمقله

والخيل تعدو بالدروع مثقله

وخرج الملك إلى عبد الله الذى «تلقاه ورفع وقربه ، ثم قرر الصلح معه على « بقط » بثلاثمائة وستين رأساً فى كل سنة ، ووعده عبد الله بحبوب يعهد بها إليه لما شكا له من قلة الطعام فى بلده «^(١)، وتمضى المعاهدة كما يلى :

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض اسوان إلى حد أرض علوة ، إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وهنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل النمة ، إنكم معاشر النوبة آمنون بلمان الله ورسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ، ولا نغزوكم ما أقمت على الشروط التى بينتنا ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطريقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وعليكم رد كل أبى خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه وتمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه ، وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كتسه وإسراجه وتكرمه.

وعليكم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أواسط رقيق بلادكم ، غير معيب ويكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والى أسوان .

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان ، فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

(١) المقرئى . الخطط ج ١ ص ٢٢٣ استمد المقرئى مادته من كتاب بعنوان « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » كتبه عبد الله بن سليم الأسوانى ، وهذا الكتاب مفقود ، وكان ابن سليم قد بعثه جواهر قائد الخليفة الفاطمى المعز فى عام ٩٦٩م إلى جورج ملك النوبة ليدعوه إلى الدخول فى الإسلام ويذكره بدفع البقط .

علينا بذلك عهد الله وميثاقه ونعمته ونعمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا
بذلك أعظم ما تدينون به من نعمة المسيح ونعمة الحواريين ونعمة من تعظمونه من
أهل دينكم وملتكم ، والله شاهد بيننا وبينكم على ذلك .

كتبه عمرو بن شراحيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين هجرية (٦٥٢ م) (١).

إن هذه المعاهدة شيقة جداً ، فهي تظهر أولاً أنه ليس للمسلمين اهتمام بالضم ،
ووافقوا على دولة جارة غير مسلمة ، برغم فقرة تضع شرطاً لبناء المسجد في دنقلا ، وإن
الترتيبات للنشاطات التجارية هي التي وضعت الأساس للتغلغل العربي اللاحق في البلاد .

ثانياً : بقيت المعاهدة سارية المفعول لمدة ستمائة سنة حتى العهد الفاطمي، وقد
يكون السبب أنها معاهدة للتسامح الديني المشترك واتفاق تجاري أكثر منه إتاحة
سيادة ، إذ إن النوبيين لم يهزموا (٢) ، أما كلمة البقط فهي كلمة جديدة تماماً (٣) .
ويقال أن النوبيين كانوا - عند الدفع - يقدمون بسخاء أكثر من أربعين عبداً إضافياً
هدية ، ويحصلون في المقابل هدية كبيرة مكونة من القمح والشعير والخمر والخيول
والمواد الأخرى التي من المؤكد أنها تجاوزت في الفترة الأخيرة كمية البقط برمتها (٤) .

ثالثاً: وضعت المعاهدة أساس تجارة الرقيق التي ستصبح فيما بعد مظهراً للحكم،
الأمر المختلف تماماً عن الرق المحلي العادي (٥) .

(١) المقریزی . الخطط . ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) إن تفسيرات هذه المعاهدة مشوشة ، فمن الواضح أن البقط ليست جزية ، فابن عبد الحكم الذي ترجع
روايته إلى ابن أبي حبيب أحد الأرقاء النوبيين يقول " إن الشروط التي وضعها عبد الله معهم هي الآتي : ألا
يعتدى عليهم المسلمون ولا يعتدوا هم على المسلمين ، وعلى النوبة أن تدفع للمسلمين كذا وكذا من العبيد في
كل عام وعلى المسلمين أن يدفعوا إلى النوبيين سنوياً كذا وكذا من القمح والعدس ، ويقول ابن أبي حبيب زيادة
على ذلك أنهم (النوبيين) ليس لهم أي ميثاق من أي نوع مع المصريين ، وأن هذا الاتفاق هو ببساطة للحماية
المتبادلة مع المسلمين .

(٣) يقول س.هـ. بيكر أن كلمة " بقط " مشتقة من بكتوم اللاتينية (Puctum (Enc.isit-6 ، ولكن من المحتمل
أنها جاءت من الكلمة المصرية القديمة Bak ، الجزية العينية . ينظر ، Note in Caetani, Annali dell'ISlam, iv.59.

(٤) المقریزی . الخطط ج ١ ص ٢٢٤ . لقد حدث في حوالي عام ٨٤٧م عندما تراخي النوبيون في الدفع
وتوقفت في المقابل الهدايا ، أن تم إرسال جورج (قرقي) ابن الملك زكريا بن يانس إلى الخليفة المعتصم في
بغداد ، وقوبل بترحاب ، ولكن البحث أثبت أن الهدايا التي تلقاها النوبيون كانت أكثر من الجزية التي دفعت
، ومن ثم تم تخفيض الهدايا ، ولكن قرقي نجح في الحصول على حوالة ضخمة على الخزانة المصرية قابلة
للدفع عند تلقي الجزية (المقریزی . الخطط ج ١ ص ٢٢٥) ، وهناك رواية من المصادر المسيحية في :

(Chronique de Michel Le Syrien (Trans. Chabot, 1405, iii, pp, 90-4) تقول إن المعتصم أرسل
مبعوثاً إلى النوبيين يستفسر عن البقط ، ووجد أن زكريا ليس من أصل ملكي ، ولكنه يحكم كوصي على
العرش لصغر سن ابنه جورج الذي كان ملكاً عن طريق السلالة الأمومية ، وتم إرسال جورج إلى بغداد حيث
تأخر بسبب تمرد ملتزم الضرائب في النوبة الذي أصبح مسلماً .

(٥) لم تكن هذه هي حركة المرور الوحيدة لتجارة الرق ، ويكتب ابن سليم عن تجارة بخارس (أي فرص)
عاصمة إقليم مريس « لهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة (أي ملك مقرة) يعرف بصاحب الجبل من أجل »

وأصبحت العلاقات بين الدولتين لفترة طويلة مقيدة وسلمية عدا غارات عرضية واحتباس البقط من وقت لآخر، واقتصر اهتمام المسلمين في البلاد جنوب أسوان على استيراد الرقيق ، ومؤخراً استغلال العديد من المناجم في أرض البجة ، وكان أهمها العلاقى على الضفة الشرقية بالقرب من قرية كويان .

وسنهتم بشكل أساسى بالقليل الذى عرف من التاريخ الداخلى وأحوال المملكة ، ونلاحظ من نص المعاهدة التى تشير إلى " عظيم النوبه ولجميع أهل مملكته ... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة "، أن مملكتى مقرة ونبقة قد اتحدتا الآن تحت حكم ملك واحد ^(١) ، ويكتب اليعقوبى فى عام ٨٩١م قائلاً:

فصارت النوبة مملكتين : الأولى مملكة يقال لها مقرة ، وهى فى شرق النيل وغربة ومدينة مملكتهم دنقله ، وهم الذين سالموا المسلمين وأدوا لهم البقط ، وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع واتساع المملكة شبيهه بشهرين ، والمملكة الثانية من النوبة الذين يقال لهم علوة أعظم خطراً من مقرة ومدينة مملكتهم يقال لها سويه ، ولهم بلاد واسعة شبيهة بثلاثة أشهر والنيل متشعب عندهم فى عدة خلجان ^(٢)

وكان الجزء الشمالى من مقرة يعرف باسم مريس ^(٣) ويقول ابن سليم «.. إن النوبة والمقرة جنسان بلسانين على النيل ، فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام ... وكانت النوبة والمقرة على خصومة قبل تحولهم إلى المسيحية » ^(٤) ، ولكن كما رأينا فإن مقرة استخدم كمصطلح عام للمملكة المتحدة من الحدود المصرية حتى حدود علوة .

وإذا كان سكان مقرة الملكانيون قد أصبحوا بالتأكيد منوفيست بعد الفتح العربى لمصر ، ويخبرنا يوتشيوس أن الملكانيين فى مصر بقوا بدون بطريك لحوالى ٩٧ عاماً

= ولاتهم لقربه من أرض الإسلام ، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فى معاملته معه فى تجارة أو هدية إليه أو إلى مولاه ، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه للإسلام ولا غيره « (المقرئى . الخطط ص ٢٠٧-٢٠٨) ، وزاد تصدير الرقيق بعد أن كون ابن طولون فرقاً عسكرية من السود ، كانت السلعة المصدرة الأخرى هى الذهب ، وكانت مصر ترسل فى المقابل المنسوجات ومختلف السلع الأخرى كالخز والأمشاط والسلع الأخرى الصغيرة.

(١) لا نعرف بالضبط متى تمت الوحدة، إذ لا يوجد دليل يدعم رأى لبكيرون (J.Eg.Arch.xxi-1-59-69)

بأن الوحدة تمت نتيجة للتهديد العربى ؛ لأن التحدى لم يكن خطيراً ، ومع ذلك فقد أدى ذلك التحدى إلى أن يكتب النوبيون لغتهم الخاصة وتقوية مسيحيتهم كقومية ضد الإسلام.

(٢) تاريخ اليعقوبى .

(٣) مريس معناها فى اللغة القبطية الجنوب ، أى مصر العليا ولكنها تسمى عادة nobaaia ، ومنها جاء الاسم العربى نوبا (تو) أما فرص (بالقبطية maxwpac؛ وبالعربية بخارس) فقد كانت عاصمة مريس. قارن جريقت. Pakhoras- Bakharas-Faras; Eg.Arch. xi.259ff.

(٤) المقرئى . مصدر سابق ج ١ ص ٢٠٩ .

من عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحتى عهد هشام بن عبد الملك ، وفى هذا الوقت استولت المنوفيستية على كل الكنائس التابعة للملكان وعينت فيها أساقفة من طائفاتها ، لذا فعندما « أرسل شعب النوبة إليها يطلب أساقفة أرسلت إليهم أساقفة يعاقبة ، ومن ثم أصبح النوبيون يعاقبة » ^(١) .

وحكم مريس وال عينه ملك النوبة ، وكان هذا الوالى يسمى بصاحب الجبل ^(٢) ؛ بسبب قرب هذه الولاية من حدود المسلمين ^(٣) ، وكانت المقاطعة الشمالية لمريس ما بين الشلال الأول والثانى مقاطعة مفتوحة ، ويقول ابن سليم :

وبهذه القرية ^(٤) مسلحة وباب إلى بلد النوبة ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة (أى وادى حلفا) عشر مراحل ، وهى : الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها قرب أملاك ، ويتجرون فى أعلاها ، وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية ^(٥)

وكانت منطقة جنوب وادى حلفا « منطقة مغلقة » ، وكانت مهمة صاحب الجبل هى مراقبة عدم مرور أى شخص غير مصرح له إلى ما وراء الشلال الثانى، ويبدو أن سياسة العزلة قد تم تطبيقها بحزم :

وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف " بتقوى " وهى ساحل ، وإليها ينتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ، ولا تتجاوزها المراكب ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود فيها إلا بإذن من صاحب جبلهم ^(٦) .

ويخبرنا المسعودى أنه عندما كان يكتب كتابه فى الفسطاط فى عام ٩٤٣/٢٢٢م علم أن ملك دنقله كان كويرا بن سرور، وأن علوة المملكة الجنوبية كانت تحت سلطته ^(٧) .

ومن المحتمل أن تكون هذه المعلومات خاطئة ، إذ لا يوجد دليل يدعم روايته ، ويقول الإدريسى إن ملك النوبة حمل اللقب الوراثى لكاسل (أو كامل) ^(٨) .

(١) Pater. Gr.iii.,199-3,CF.Letronne,Annals,ii-386;Wüstenfeld,Macrizi,s Geschichte der Copten,1847.p.22.

(٢) من المحتمل أن يكون صاحب الجبل اختصاراً لجبل الجنادل . ينظر :

Idrisi, Description de L'Afrique ed. Dozy and Goeje, text, p.20

(٣) المقرئى . مصدر سابق ص ٢٠٧ - ٢٠٨ . كان صاحب الجبل يقيم فى إبريم فى زمن أبى صالح (ص ٢٦٦) ، ويكتب ابن سليم « ويوجد فى هذه الناحية « بخارس » عاصمة مريس ، قلعة إبريم وقلعة أخرى » ويقول إن صاحب الجبل يقيم فى هذه الناحية .

(٤) القصر على بعد ميل (أو خمسة) جنوبى فيلة .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٧ . قد يكون هؤلاء نوبيين مسلمين .

(٦) المقرئى . مصدر سابق ج ١ ص ٢٠٨ .

(٧) Masuvdi, Les Prairies d'Or (Merynard and Courteille) 1863, ii.39

(٨) Description..., ed. Dozy and de Goeje, text, p.19

وكانت البلاد مزدهرة جداً فى هذا الوقت إذا ما حكمنا بناءً على رواية ابن سليم شاهد العيان عما رآه فى عام ٩٦٩م ، وهو يتحدث عن منطقة دنقلا قائلاً :

ما رأيت على النيل ضفافاً أوسع منها ، وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل ، الجزائر تقطعه والأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة ، وأخرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجة حمام وأنعام ، وأكثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط والنوى والببغا، وغير ذلك من الطيور الحسان ، وأكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية ، وقال ابن سليم : وكنت معه فى بعض الأوقات ، فكان سيرنا فى ظل من الحافتين فى الخلجان الضيقة ، وقيل إن التمساح لا يضر هناك ، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة ، ثم سجد بقل وهى ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم إلا أن فيها جزائر حسان ، وفيها بون المرطتين ثلاثون قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخيل الكثير والكروم والبساتين والزرع ، ومروج فيها إبل وجمال وصهب مؤيلة للتاج ، وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأن طرفها القبلى يحاذى دنقلة مدينتهم ^(١) . (عاصمتهم) .

وكانت لمريس ومقرة لغتان مختلفتان ، ومن المحتمل أنهما لهجتان مختلفتان تطورت إحداهما إلى لغة مكتوبة ذات علاقة وثيقة باللهجة الحديثة لمنطقة الفديجة - المحس ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث بعد الفتح العربى لمصر مباشرة ، وهناك إحياء بأن هذا التطور كان لتعزيز استقلالهم ، ولكن لأن كل الكتابات التى بقيت كانت تعرض الاستعمال العام للشعب ، فقد تكون عملية طبيعية للنفوذ المسيحى ، ومن المحتمل ألا يكون الكتاب المقدس قد ترجم كله ، وقد تم اكتشاف أجزاء من كتاب الفصول باللغة النوبية ^(٢) (*) ، وتم اتخاذ الحروف الهجائية اليونانية مع إضافات من الحروف القبطية وربما المرويه ، وتتضمن الكتابات النوبية الموجودة اليوم من كتاب الفصول مواظ دينية و« شرائع نيقيا » ^(*) (*) . وقصصاً تثقيفية من الواضح أنها ترجمت من اليونانية وليست من القبطية ، ويعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثامن والرابع عشر ، وكانت النقوش اليونانية أكثر شيوعاً من النقوش النوبية مما يوحى بأن اللغة اليونانية كانت هى اللغة الرسمية للبلاد .

ويقول أبو صالح إن طقوسهم الدينية وصلواتهم كانت تؤدى باللغة اليونانية أيضاً ، إذ عندما دخلت المسيحية كانت الطقوس الدينية المصرية لم يكن قد تم ترجمتها بعد

(١) المقرئى . مصدر سابق ص ٢٠٩ .

(٢) قارن جريقت . مصدر سابق ص ٢٤ - ٤١ .

(*) كتاب الفصول : كتاب يتضمن فصولاً من التوراة للتلاوة فى القداس .. الخ (المترجم) .

(**) نيقيا : منسوب إلى المجمع المسكونى الذى انعقد فى نيقيا بآسيا الصغرى عام ٣٢٥م (المترجم) .

إلى القبطية ، وأن اليونانية خلال الفترة الهيلينية كانت لغة البلاط النوبى ^(١) ، وتم تداول الكتب القبطية أيضاً فى السودان عندما امتلأت البلاد بالرهبان والقسس الذين حافظوا بالطبع على استقلال الكنيسة عن مصر، وجاء ذكر بعض النوبيين فى مدونات نصوص جمعية حجاج فلسطين ، زاروا القدس فيما بين عامى ١١٨٠ و ١٤٨٠م ^(٢) .

ويصف .ج.و.كروفوت كنيسة نوبية كما يلى :

كنيسة صغيرة بمداخل ، بمماشى من الشمال والجنوب أو سلم الى السقف فى الركن الجنوبي الغربى ، وغرفة صغيرة لا يعرف فى ماذا كانت تستخدم فى الركن الشمالى الشرقى ، ويوجد فى الطرف الشرقى ثلاثة اجزاء ناتئة نصف دائرية داخلية ، فى الغالب بممر ضيق خلف الجزء الناتئ الأوسط . كما وجدت فى بعض الكنائس بقايا مقاعد حول الجزء الناتئ الأوسط وحاجز ينسجم مع الحاجز الأيقونى الحديث وكذلك مذبح . هذا هو الطابع الذى وجدت عليه الكنائس فى النوبة السفلى مع بعض الاختلافات الطفيفة فى مقاطعة دنقلا وفى وادى الغزالي وجبل بخيت مثلاً وفى سقدي فى أقصى الجنوب . ^(٣)

(١) أبو صالح . مصدر سابق . ص ٢٧٢ .

(٢) جمع كروفوت مختلف المصادر فى : J.W.Crowfoot, (Christian Nubia) J.Eg. Arch. xiii, 148-9 .

(٣) كروفوت . مصدر سابق ١٣-ص ١٤٤ . أما فيما يتعلق بصور وخرائط الكنائس

ينظر: Milenam, Churches in lower Nubia, 1910, and Samers Clarke, Christian Antiquities in Nile Valley, 1912.

٤- التغلغل العربى ونهاية ملكة مقرة

استمرت مملكة مقرة لحوالى سبعمائة عام، وكان لسقوطها أسباب داخلية وخارجية، وسيتم مناقشة ذلك فيما بعد .

وكما رأينا فإن إحدى مهام صاحب الجبل كانت التأكيد على عدم تسرب أى شخص غير مخول له إلى داخل المنطقة فيما وراء وادى حلفا ، ولم يسمح إلا للتجار بالدخول إلى مقرة على ألا يكونوا عرباً ، وسمح للمسلمين بالدخول وحتى الإقامة فى المنطقة الحدودية ، وأصبحت هذه المنطقة مكاناً للجوء العرب الذين وجدوا الأمور صعبة جداً بالنسبة لهم فى مصر .

وعندما كانت مصر تحت سيطرة العرب فإن العلاقات بين المسلمين والنوبيين كانت موافقة لمقتضى الحال ، ولم تحدث سوى بعض الاحتكاكات العرضية بسبب الامتناع عن دفع البقطة ، إلا أن العلاقات تغيرت بتولى الحكام غير العرب حكم مصر ، وقد أرسل ابن طولون فى عام ٨٦٩م حملات تأديبية مكونة بشكل أساسى من العرب البدو الذين كانوا يعيشون فى مصر العليا ضد النوبيين والبجة^(١) ، واستقر هؤلاء العرب الذين كانوا بالدرجة الأولى من ربيعة وجهينة فى البلاد، بعضهم وسط النوبيين بالقرب من أسوان والآخرين مع البجة ، وكانت جاذبية أرض البجة بالنسبة للعرب متحررة من القيود المتزايدة للحكم المصرى واستغلال مناجم الذهب فى العلاقى ، وكانت هناك فى البداية احتكاكات إلا أن العرب تزاوجوا تدريجياً مع النوبيين والبجة وحققوا السيطرة^(٢) ، وحافظ كل من النوبيين والبجة على لغتهم ومميزاتهم السلالية وعاداتهم ، وتم امتصاص العرب تماماً . إن النوبيين الكنوز الذين يعيشون الآن فى المنطقة الواقعة ما بين أسوان وكورسكو هم نتاج امتصاص قسم من ربيعة التى سكنت بالقرب من أسوان مع نوبيى تلك المنطقة . إن لقب كنز الدولة كان لقباً وراثياً منحه الخليفة

(١) سرعان ما أصبح العرب على اتصال مع هذه القبائل القلقة ، وقد رأى عبدالله بن سعد بعض البجة على ضفة النيل أثناء عودته من حملته على دنقلا ، فسأل عن شأنهم فأخبر أنه ليس لهم أهمية ولا يستحقون عقداً ولا صلحاً . واستمر البجة فى غاراتهم داخل مصر الإسلامية كسابق عهدهم ، ويقال أن عبيد الله ابن الحبحاب (حاكم افريقيا ١١٦ - ١٢٢هـ) عقد معاهدة معهم شبيهة بتلك التى مع النوبيين . (ابن عبد الحكم - مصدر سابق ص ٢٠٩ - ٢١٠) وتم فى عام ٨٢١م خلال عهد الخليفة المأمون إرسال حملة ضدهم تم بعدها إعادة التوكيد على المعاهدة مع ملكهم كنون ، ولكنها لم تغير إلا قليلاً من عادات البجة (المقرئى . الخطط ج١ ص ٢١٦)

(٢) يقول ابن سليم - بعد أن يصف هزيمة البجة على يد المسلمين وما تلاه من زيارة أمير البجة إلى المتوكل فى بغداد عام ٢٤١هـ - ، ، فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجة قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامح الناس فوقدوا من البلدان ، وقدم عليهم أبو عبيد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٨ - ٨٦٩م) ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيزاب ، ومالت البجة إلى ربيعة وتزوجوا إليهم وقيل إن كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنهم معافهم على ذلك ، فلما قتل العمرى واستولت ربيعة على الجزائر (جزائر البجة) والأهم على ذلك البجة فأخرجت من خالفها كف ضرهم عن المسلمين ، ، ١١ المقرئى . مصدر سابق ج١ ص ٢١٧ - ٢١٨

الفاطمي في سنة ١٠٢٠ إلى أبي المكارم هبة الله شيخ ربيعة وعامر في أسوان والتي منها عرفوا لدى المؤرخين المسلمين ببنى كنز ، وقد سيطرت هذه القبيلة سيطرة تامة على مصر العليا خلال فترة المماليك ، ولعبت دوراً مهماً في الأحداث التي أدت إلى سقوط المملكة المسيحية ، كما أن مجموعة بجاوية أخرى - العبابدة - كانت قد تأثرت - بشكل عام - بالعرب ، وهي الآن تتحدث اللغة العربية .

وتقبل المصريون بهدوء الحكم الأيوبي الذي حل محل الحكم الفاطمي ، ولكن جنود الفاطميين السود الذين تم نفيهم إلى مصر العليا تمردوا ونهبوا البلاد وهاجموا أسوان ، وقام صلاح الدين بإرسال أخيه شمس الدولة توران شاه لإخماد التمرد في عام ١١٧٢م، وبعد أن هزمهم هاجم النوبة ، ومن المحتمل أن النوبيين قد ساعدوا أو آووا المتمردين ، ونهب إبريم وسلب الكنيسة التي يعطينا أبو صالح سرداً لها بعد أن تم استردادها :

تقع إبريم في أرض النوبة ، وهي مقر صاحب الجبل ، وكل سكانها من إقليم مريس ، ويحيط بها سور وتوجد بها كنيسة جميلة تم تخطيطها على نحو رائع ، وتسمى باسم سيدتنا مريم العذراء ، وتقوم فوقها قبة عالية يرتفع فوقها صليب مرتفع .^(١)

وقام شمس الدولة بتأسيس حامية كردية في إبريم ولم تستطع الاحتفاظ بإبريم إلا بصعوبة ولدة عامين فقط ، وبقيت مملكة مقرة سليمة لم تمس ، وقاد في العام التالي كنز الدولة قوة مختلطة نوبية - عربية إلى داخل مصر ولكنه هزم وأسر وأعدم ، وطلب صلاح الدين من شمس الدولة تقريراً حول تفوق النوبيين ليستفيد به عند الانسحاب إذما تعرض لمشاكل مع سيده نور الدين ، ولكنه لم يتأثر بما شاهده ولا بأي تقرير من أي رسول بعث به إلى دنقلا ورد معارضاً ، وما زال الحكام المصريون ليست لديهم الرغبة في ضم النوبة^(٢)

ولم تتأثر مملكة مقرة نسبياً بهذه الغارات ، وكما رأينا ، فإن السياسة النوبية كانت تترك المنطقة الشمالية مفتوحة ، ولكن تمنع بصرامة عبور المسلمين إلى مقرة بشكل خاص فيما عدا للأغراض التجارية ، ويكتب أبو صالح عن الأحوال المزدهرة لدنقلا في مستهل القرن الثالث عشر :

هنا عرش الملك . وهي مدينة كبيرة على ضفاف النيل المقدس وتحتوى على العديد من الكنائس والمنازل الكبيرة والطرق الواسعة ، ومنزل الملك شامخ وبه العديد من القباب المبنية بالطوب الأحمر ويشبه المباني في العراق وقد أدخل هذه البدعة رافائيل الذي كان ملكاً على النوبة في عام ٣٩٢هـ (١٠٠٢)^(٣)

وجاء القرار بتغيير السياسة المصرية مع صعود الأسرة المملوكية للمماليك البحرية في عام ١٢٥٠م ، وقد حظيت مصر تحت هذا الحكم العسكري الأولي جاركى بازدهار وتوسع كبيرين ، وشكل البدو مصدر إزعاج لهذا النظام ، لذا فقد تم الترحيب بأي

(١) أبو صالح . مصدر سابق ص ٢٦٦

(٢) AL mari, Masalik al-Absar, tr-Gaudefroy- Demombynes, 1927 pp.47-8

(٣) أبو صالح . مصدر سابق . ص ٢٦٥ .

هجرة لهم نحو الجنوب ، وقام السلطان الشهير ركن الدين بيبرس الأول (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) فى محاولة لضمان أمن مصر بالتدخل بشكل نشط فى شئون مملكة مقرة بحجة نصرة النوبيين المطالبين باسترداد العرش ، وفى عام ١٢٧٢م رفض الملك داود دفع البقظ ، وقام بالعديد من الغارات على مصر العليا ، ومن ثم قام بيبرس بإرسال حملات إلى داخل البلاد فى أعوام ١٢٧٥ و ١٢٧٦م وعقد معاهدة رسمية مع أحد المطالبين بعرش النوبة مكافأة له عن الخدمات التى يؤديها مما جعل مريس محمية مصرية فى واقع الأمر ^(١) .

ويقول المقرئى إن المسلمين اشتراطوا أن يدفع النوبيين جزية مقدارها دينار نقداً عن كل ذكر بالغ طالما بقوا مسيحيين ^(٢)، ودمرت الكنائس وأخذ الزعماء رهائن ونهب كل شئ ذى قيمة ، وتم الاستيلاء على سواكن على البحر الاحمر فى عام ١٢٦٦م .

وتلى ذلك سنوات من الاضطرابات الداخلية والفوضى ، وكان للسلطان قلاوون الذى تولى بعد وفاة بيبرس (١٢٧٧م) هدف واضح لاحتلال دنقلا ، وقام بإرسال حملتين (١٢٨٧ - ١٢٨٩م) ، ووضع أحد المطالبين بالعرش وهو ابن أخت الملك ملكا دمية على العرش ، وقامت الجيوش المملوكية بالتخريب المنظم للبلاد ، وذلك بحرق القرى وتدمير السواقي وحمل أسراهم عبيداً إلى مصر ، وبعد أن تكبدت الحملة خسائر فادحة ، وبعد عدة حملات - كانت الحملة الثانية اجتياحاً كاملاً - استطاع الملك شممون طرد الحامية المملوكية والمطالبة بالعرش واسترد عرشه ، وقام فى عام ١٢٩٠م بإرسال سفير إلى قلاوون يعرض عليه زيادة البقظ إذا ما تركه وشأنه، وكان قلاوون مستعداً للقبول لأن

(١) المقرئى . مصدر سابق ص ٢٢٦ . وقد حفظ لنا النويرى القسم الذى أداه الملك الذى قال إنه أعظم الملوك مهابة لدى النوبة (قارن 1837p.129 , Quatremere Histoire des Sultans Mamlouks)

وببدأ القسم ، أقسم بالله وبالثالوث المقدس والانجيل والعذراء الطاهرة أم النور والمعمودية والأنبياء والمرسلين والحواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجدد المسيح كما جحد يودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه وألا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة ، إننى اخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وإننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإنى ما دمت نائبة لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى . وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة ، وكان عليه أن يسلم الاقليمين الغربيين من أسوان (أى بلاد العلى والجبل) إلى السلطان ، وكذلك جزية سنوية مقدارها من الأفيال ثلاثة ومن الزرافات ثلاث ومن إناث الفهود خمسة إلى جانب أشياء أخرى.

(٢) المقرئى مصدر سابق ج ١ ص ٢٢٦ ، وهذا يوضح أن أغلبية الشعب كان ما يزال مسيحياً . إن مبادئ شن الجهاد هى أن الشعب الذى يتم غزوه يجب أولاً دعوته لاعتناق الإسلام ، وإذا ما رفض فعليه الخيارين :

- ١- الخضوع للحكم الإسلامى ، أى يصبحوا ذميين ويدفعون الجزية والخراج .
 - ٢- أو القتال حيث قد يقتلون أو يسترقون ، وإذا ما أصبحوا مسلمين فإنهم يصبحون مواطنين كاملين فى الكومنولث ، أما اذا بقوا ذميين فإنهم لا يصبحون مواطنين فى الدولة الإسلامية وتصبح حياتهم وممتلكاتهم ودينهم مضمونة لهم ، ومع ذلك فيجب أن يكون الذمى من أهل الكتاب (أى اليهود أو المسيحيين أو المجوس أو الصائبة) أما فى حالة الوثنيين فإن الاختيار محدد : إما الإسلام أو الموت .
- * من المعروف أن المجوس والصائبة ليسوا من أهل الكتاب . { المترجم }

حملاته جلبت الفوضى في مصر العليا ، وكان يجهز للهجوم على عكه . إن هذه الحملات الشرسة - رغم فشلها في تحقيق أهدافها المباشرة - تسببت في فوضى داخلية شاملة في دنقلا .

كما قام الناصر محمد بن قلاوون بإرسال حملات في عامي ١٢١٥ و ١٢١٦م ، واستطاعت الحملة الثانية أسر الملك كرميس ووضعت مكانه عبد الله بن سميو ابن أخت الملك داود الذي يبدو أنه كان مسلماً ، وقد قتله كنز الدولة الذي أعلن نفسه ملكاً وبقيت النوبة أثناء حكمه وحكم خلفائه دولة مستقلة في واقع الأمر .^(١)

وتدخلت مصر مرة أخرى في عام ١٢٦٥ - ١٢٦٦م بدعوى عدم الاستقرار الذي يشجعه في مصر العليا بنو الكنز وبنو جعد وعكرمة ، وأصبحت الآن دنقلا أنقاضاً وهجرها سكانها ، وقاوم الملك من مقره في داو ، ومع ذلك فقد كانت كل هذه الغارات محصورة تقريباً في شمالي النوبة ، ولم تحدث محاولات جادة - بسبب قوة بنو الكنز- لتحويل مقرة إلى دولة تابعة لمصر .

وما زال أغلبية السكان مسيحيين ، وأصبحت الدولة الآن مفتوحة للهجرة العربية التي أصبحت طوفانا ، وتدفقت القبائل جنوباً نحو الأراضي الغنية فيما وراء الأراضي النوبية الماحلة غير المضيفة التي ما تزال تعمل حتى الآن حاجزاً ، ونادراً ما قامت بهذه الهجرة جماعات منظمة بهدف محدد ، ولكن تمت الهجرة بواسطة قبائل وقطاعات من قبائل بشكل منفصل بهدف غير محدد لتعيش حياتها البدوية في بيئة كانت مناسبة لها بشكل جيد ، وقدم السودان لهم الفرص التي كانت مسدودة في وجوههم في مصر بتخومها الضيقة وقلة أمطارها ، وكانت أجزاء كثيرة من البلاد صالحة للحياة الرعوية ، وبسبب عدم وجود تنظيم حكومي صارم - كما هو الحال في مصر تحت الحكم الاستبدادي لسلطين المماليك - عاش العرب بحرية بالشكل الذي يريدونه ، وقام العرب الذين لا يعرفون التمييز العرقي بالتزاوج بحرية مع السكان المحليين . زيادة على ذلك فإن خلافة ابن زعيم القبيلة من امرأة نوبية تم ضمانه باستخدام النظام الأمومي الذي كان سائداً وسط النوبيين والبجة^(٢) ، وهكذا ضعفت بالتدريج سلطة الأمراء النوبيين أو بالأحرى تم امتصاصها ، وبعد أولى الهجمات للحصول على « مجال حيوى » فإن امتزاج الشعوب كان يتقدم برفق ، كما سار مع هذه العملية التحول التدريجي للشعب نحو الإسلام ، ويصف ابن خلدون هذه العملية كما يلي :

(١) هذا صحيح برغم من أن ابن فضل الله العمرى يقول « ملك دنقلا تابع لحاكم مصر ويدفع جزية سنوية وتلى الخطبة باسم الخليفة وحاكم مصر » التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٩ .

(٢) لم يكن للعرب التأثير نفسه على البجة البدو كما كان الحال مع النوبيين ، ولا شك فإن النظام الأمومي الذي كان سائداً عندهم يدل عليه بشكل قوى الوضع الاجتماعي الحالى للنساء ، ويتحدث ابن سليم والمسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢) عن تزوج العرب من بنات شيوخ البجة وتقوية البجة ضد النوبة ، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان هذا وحده قد مكن العرب من الحصول على أى نصيب في الأرض ، وكتب ابن بطوطة في عام ١٢٥٠ عن البجة « إن نساءهم لا نصيب لهن في الميراث » (القاهرة ١٩٣٩ ج ١ ص ٤٢ - ٤٣) ، واليوم فإن واحداً من أغرب العادات البجاوية هي عدم تحويل ملكية الأرض ؛ لذا فالنساء لا يمكنهن وراثة الأرض ، ففي هذه الحالة فإن العرب هم الذين امتصتهم القبائل البجاوية التي حافظت على لغتها وعاداتها .

توقف دفع الجزية بدخول النوبيين فى الإسلام ، ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوها وملوكها وملأوها عبثاً وفساداً ، وذهب ملوك النوبة فى مدافعتهم فعجزوا ، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم ، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم ، وليس فى طريقة شئ من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعاً لهذا العهد ، ولم يبق لبلادهم رسم للملك ، وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادى الأعراب ^(١) .

وهذا يبين أن العرب لم يقهروا البلاد بالأعداد ولكن بالتسرب ، وبخلع البيوت الملكية عن عروشها وأنهوا بذلك الحياة الثقافية والدينية للملكة ، وانتقل العرب بعد تدمير الحياة السياسية النوبية إلى المنطقة الواسعة التى يتحركون عليها الآن وانتشروا فوقها ، وبقي بنو كنز وعكرمة فى شمال النوبة حيث استقروا تماماً ، بينما تدفقت جنوباً القبائل الأخرى خاصة جهينة وفزارة ، ومع ذلك فلم تكن لهم الحرية الكاملة فى التوسع إلى الأراضى الأغنى فى الجنوب ، وذلك بسبب التواجد المستمر لمملكة علوة المسيحية .

(١) اقتبست من ماكمايكل . مصدر سابق ج ١ ص ١٢٩ (انظر تاريخ ابن خلدون . المجلد الخامس . دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ ص ٩٢٢ . [المترجم])

٥- ملكة علوة

تمتد علوة من كبوشية إلى ما بعد سنار جنوباً ، ويقول ابن سليم « وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب (كبوشية) ، ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح ^(١) » ، وكان هذا الإقليم مستقلاً عن مملكة مقرة ومتميزاً عنها ثقافياً ، واستخدمت اللغة اليونانية فقط لغة كنسية وربما لبعض الوقت فى البلاط بعد تحوله ، وتظهر النقوش القليلة التى تم العثور عليها فى سوبا أن لغتهم ذات قرابة باللغة النوبية ولكنها تطورت تطوراً مستقلاً ^(٢) . ويقول المسعودى إن علوة مرتبطة بالثقافة القبطية المصرية عن طريق المسيحية دينها الرسمى ، وهى مرتبطة أكثر بأجناس السودان الجنوبي ، ليس فقط لأن عاصمتها سوبا سوق كبيرة للرقيق ، بل أيضاً جنساً وثقافة ، ويوجد فيما وراء علوة قبيلة كبيرة من السود تدعى كونا (٣) وهم عراة مثل الزنج ^(٤) ، كما كان لعلوة تأثير ثقافى على الجنوب حيث ينتج الحديد ، ولو أنه ليس فن استخراج الخام ، كما يظهر الفخار فى المواقع المسيحية عدم وجود أثر للتأثير البيزنطى يماثل ذلك الموجود فى شمال السودان اليوم .

وعلوة ملكية وراثية مقرها سوبا بالقرب من الخرطوم ويعطينا ابن سليم سرداً طريفاً لها :

وسوية مدينة العلوى شرقى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض والأخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعها ، وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه ، وفيها أبنية حسان وور واسعة وكثائن كثيرة الذهب ويساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ^(٥) . ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقر وأعظم جيشاً وعنده من النخيل ما ليس عند المقرى ، وبلده أخصب ، وأوسع والنخيل والكرم عندهم يسير . وأكثر حيويهم النزة البيضاء التى مثل الأرز منها خبزهم ومزدهم (كسرتهم ومريستهم) ، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة ، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا فى أيام ، وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ، وبينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالثوبة . وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهماً من النوبة ، وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم ويفير جرم ، ولا ينكرون ذلك عليه ، بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم . وينابون : الملك يعيش ، فليكن أمره ، يتوج بالذهب ، والذهب كثير فى بلده وقد رأيت الكثير من الخلق والأجناس تقدم نكر أكثرهم يعترفون بالبائى سبحانه وتعالى ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف البائى ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنته من شجرة أو بهيمة !! ^(٥)

(١) المقرئى . مصدر سابق ج١ ص ٣١٠

(٢) Griffith, Fll., Nubian Texts of Christian Period, p.5.

(٣) المسعودى . مصدر سابق ج٢ ص ٢٨٢

(٤) يوضح ذلك مجال النشاطات التجارية للمسلمين . ان كتابات اليعقوبى المبكرة (٨٩٠ م) تتحدث عن المسلمين المترددين على سوبا

(٥) المقرئى . مصدر سابق ج١ ص ٣١١ - ٣١٢

ويبدو أن المسيحية التي اعتنقها أولاً الملك والنبلاء أصبحت دين الدولة ، وبالرغم من أنها انتشرت جنوباً حتى جبل سقدي في منطقة سنار فإنها لم تكن أبداً ديناً حقيقياً للشعب الذي بقى أرواحياً ^(١) Animistic بالدرجة الأولى .

وكتب أبو صالح مؤخراً في عام ١٢٠٨م وصفاً لعلوة في الوقت الذي كانت فيه المملكة في أوج عظمتها وازدهارها :

توجد هنا قوات ومملكة كبيرة بأقاليم واسعة بها أربعمئة كنيسة ، وتقع المدينة شرقي جزيرة كبيرة بين نهري ، النيل الأبيض والنيل الأخضر ، وكل سكانها مسيحيون يعاقبة ، ويوجد حولها الأنيرة ، البعض منها على مسافة من النيل والبعض الآخر على ضفافه ، ويوجد في المدينة كنيسة كبيرة واسعة جداً ومخططة ومبنية بإتقان ، وهي أكبر من كل الكنائس الأخرى في البلاد ، وتدعى كنيسة منيالي وتعتمد محاصيل هذه البلاد على فيضان النيل وسقوط الأمطار ^(٢) .

وسقطت مدينة دنقلة في بداية القرن الرابع عشر ، وبدأ الاندفاع العربي الكبير نحو الجنوب ، وبرغم أن النفوذ الأجنبي قاطع مسيرة علوة ، فإنها ما زالت باقية ، وكانت القبائل العربية وحدات منفصلة نادراً ما توحدت ، ولم توجد قبيلة واحدة ذات قوة كافية لتهاجم المملكة ، كما لم تكن حكومة المماليك في مصر تفكر في الاستيلاء على دنقلا ، وكانت بعض القبائل تتحرك حول ضواحي المملكة لأن ابن خلدون يتحدث عن شبه قبائل من جبهة «قريبة من الأحباش» ^(٣) من المحتمل في جنوب الجزيرة ، وتجزأت المملكة ، واندلعت الحرب الضروس بينها وبين القبائل العربية التي كانت تحرك قطعانها إلى داخل المملكة وقام في عام ١٤٧٤م شعب يتحدث العربية بتوسيع مدينة أريجى ، وتحكم العرب بشكل نهائي في آخر الأمر على الجزيرة وسيطروا على سكانها .

ويعتقد أن السبب الفعلي لسقوط علوة عام ١٥٠٤م كان مرجعه تحالف قواسمه رفاعة مع قبيلة الفونج الزنجية التي ظهرت فجأة من الجنوب ، ولكن الدليل الوحيد على هذا التحالف مصدره المدونة التاريخية للفونج ^(٤) والتي تشكك أركل ^(٥) في قيمتها كسجل للمنتى سنة الأولى لمملكة الفونج ، وتقول رواية بروس الأقدام من المدونة أنه :

(١) ينظر : Crowfoot, „Chirstian Nubia „, J.Eg. Arch. xiii. 147

أو المذهب الحيوى : وهو الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون روحا ، وهى ديانة وفلسفة الإنسان البدائى . ينظر . برنسلو مالىنوفسكى : السحر والعلم والدين . سلسلة الألف كتاب الثانى . العدد ١٦٧ [المترجم]

(٢) أبو صالح مصدر سابق ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ، ولم يبق الآن سوى القليل من مدينة سوبا بعد أن بنى المصريون الخرطوم من بقاياها .

(٣) Hist. des Berberes., trad. de Slane (1852) i40

(٤) لخص هذا الكتاب هـ . ا . ماكمايكل (Hist. ii,354.434) وتقول الرواية « بدأ الآن عهد عمارة دنقس بجمعه للشعب حوله واستمروا فى التزايد ، وهو يجلس معهم فى جبل مويال واقع غرب سنار ، وحضر إليه هناك عبد الله جماع من عرب القواسمه وهو والد الشيخ عجيب الكافوتى الجد الأعلى لأولاد عجيب ، وصمم الفونج شن الحرب على ملوك سوبا وقرى ، لذا فقد بدأ عمارة وعبد الله جماع محاربة ملوك سوبية وقرى وهزمهم وقتلهم ، وعليه اتفق رأيهما بأن يكون عماره هو الملك الأعظم فى مكان ملك سوبه لأنه الكبير والمقدم ويكون عبد الله بعده فى مكان ملك قرى ويلقب شيخاً ، فجلس عبد الله فى قرى وذهب عماره فاخترت مدينة سنار وجعلها كرسى مملكته ، وقيل كان هناك امرأة تسمى سنار ، فسميت المدينة باسمها ، وكان هذا عام ٩١٠هـ (١٥٠٤م) وكان عماره وعبد الله كالأخوين ، إلا أن مرتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله فكانا إذا حضرا معا يتقدم عمارة على عبد الله ، وإذا غاب عمارة قام عبد الله مقامه . المخطوط ص ٢ - ٣

(٥) Fung Origins, SNR., 1932, pp.201 ff.

سكن في عام ١٥٠٤ م شعب أسود مجهول حتى الآن الضفة الغربية للبحر الأبيض عند خط العرض ١٢ تقريباً ، وقد جاءوا بأعداد كبيرة في قوارب و زوارق إلى الاقاليم العربية ، وفي معركة بالقرب من « اريجي » هزموا ود عجيب وأجبروه على عقد اتفاقية استسلام يدفع العرب بموجبها للفرار - في البداية - نصف قطعانهم ، وفي السنة التالية نصف المحصول الذي تم فرض الضريبة عليه ، أثناء مرورهم إلى الأراضي الرملية هرباً من النباب ، وبناءً على هذا الشرط يتمتع العرب بممتلكاتهم السابقة التي لم تمس على أن يكون دائماً قصر وكرامة عجيب عرضة للإكراه من قبل الفرقة في حالة ما إذا رفض الدفع أي من العرب البعيدين ، وهكذا أصبح ود عجيب وكأته موقف ينوب عنهم ويسمى هذا الجنس الأسود في بلادهم بالشك (١) .

وهناك العديد من النظريات التي تم اقتراحها (٢) بناءً على ما قاله بروس من أنهم زمرة من الشك نزلت النيل الأبيض و« اكتسحت علوة » وساعدت الشعب الأصلي المتحدين معهم في الجنس والثقافة ضد العرب ، ولكن لمصلحتهم الخاصة ، لذا فقد فرضوا هيمنة سياسية ، ونقرأ في طبقات ود ضيف الله " عندما غزا الفونج العرب لأول مرة فرضوا على القبائل ضريبة لإعاشة الجند ، وكان على كل قبيلة توفير الكثير من أرطال اللبن وعلى الآخرين تجهيز الخبز (٣) * .

إذا كان هناك أي أثر باقٍ من المملكة فإنه بالتأكيد قد اندثر في هذا الوقت الذي برز فيه الفونج ، والمسيحية التي كانت ما تزال باقية قد خمدت تحت حكم مملكة الفونج ، وبقيت الحبشة هي المملكة المسيحية الوحيدة في إفريقيا .

(١) كان بروس في سنار في عام ١٧٧٢ م . Bruce, Travels (ed.2) vi,370-1 .

Arkell, Loc, cit., pp.246-7

(٢) ينظر

(٣) طبقات ود ضيف الله - م ٢٢١ ص ٢٣ .

* أما النص بلغة ود ضيف الله فهو « وكان الفونج أول ملكهم فرضوا على قبائل العرب تودات العسكر كل قبيلة عليها عمار لبن وناس معلومين يتقوهم الفطير ، ، طبقات ود ضيف الله تحقيق د. يوسف فضل . الطبعة الأولى ١٩٧١ . قسم التأليف والنشر . جامعة الخرطوم ص ٨١ [المترجم]

٦- أسباب اضمحلال وأفول المسيحية فى السودان

١- أسباب الانتشار البطئ للإسلام

انتشر الإسلام فى السودان بشكل أكثر ببطء عما كان متوقعاً له ، إذ كان للإسلام فى الأيام الأولى سلطة توسع سياسى لا يقاوم ، وكان مرجع ذلك ربما بطء الغزو بسبب عدم جاذبية الأرض حيث استكنت هذه المسيحية البربرية . وتبرهن معاهدة عبد الله بن سعد على أنه لم يفكر فى الضم ، ولكنه رغب ببساطة فى ضمان الهدوء على الحدود الجنوبية لمصر ، كما يبدو أن العرب اعتبروا أيضاً أن الشلال الأول عند أسوان هو الحد الواضح وأن النوبة غير جذابة ، وأنها لا توفر سوى الرقيق الذى تدفعه طبقاً لنصوص البقظ وشروط السماح للتجار المسلمين بالعمل فى البلاد ، زيادة على ذلك فالصفة الاستقلالية للنوبيين جعلتهم يحافظون على استقلالهم السياسى ولغتهم ودينهم ، كما أنهم لم يضطهدوا كما حدث للأقباط المنوفستين من قبل الإمبراطور الرومانى ^(١) ، كما أنهم لم يرغبوا فى التخلص من حكامهم ، لذا فقد بقيت المسيحية فى عزلة تامة تقريباً فى أدنى المستويات الثقافية فى النوبة لمدة سبعمئة سنة ، وكان اختفاؤها مرجعه أسباب خارجية أكثر من كونه أسباباً داخلية .

٢- الأسباب الضمنية التى أدت إلى اضمحلال المسيحية

برزت الأسباب الرئيسية لمكاسب الإسلام من الضعف فى المجتمعات المسيحية نفسها ، لقد بقيت الكنيسة فى السودان داخلية دائماً ، ولم تصبح أبداً أهلية بمعنى ما عليه الإسلام الآن ، لقد جاءت المسيحية كعبادة جديدة مع ثقافة البلاد الانكفائية لما قبل البطلمية بدون أن تحدث ثورة سواء فى حياة النبلاء أو العامة ، لقد اتحدت العبادة بشكل حميم مع الغرباء ومع الثقافة الأجنبية ، لقد كان كل الأساقفة والعديد من رجال الدين مصريين ، ولم يكن هناك نظام للتنازل عن السلطة ، كما لم تتطور أى مدارس دينية مستقلة بشكل حقيقى لأن وظائفها كانت تملأ بالقسس الذين يختارهم الرهبان الأقباط ، وبسبب هذا الاعتماد على المنوفستية المصرية توقف أى إمداد جديد لرجال الدين عندما انقطعت - فى زمن متأخر - العلاقات مع الإسكندرية لأسباب سياسية ، كما انقطعت فى زمن الحاكم بأمر الله العلاقات بين دنقلا والإسكندرية عندما رفض السماح بكتابة الخطاب لمدة عامين ^(٢) ، وعندما فقدت الكنيسة القبطية - فى عهد المماليك

(١) كان الفتح العربى خلاصاً للأقباط . يقول أبو صالح مصدر سابق ،، كانت هذه هى الفترة التى اضطهد فيها الامبراطور الشعب الأرثوذكسى (أى المنوفستى) ، وطالبهم بالعمل وفق عقيدته التى كانت متناقضة مع الدين ، ومن هذين الرجلين (أى هرقل والمقوقس - سيرس بطريرك مصر) عانى المسيحيون اضطهاداً عظيماً إذا لم ينكروا إيمانهم ، وفى زمنهم ظهرت الأمة الحنيفية وقهرت الرومان وذبحت العديد منهم واستولت على كل الأرض المصرية ، وهكذا تحرر المسيحيون اليعاقبة من الطغاة (أى الرومان)

(٢) اعتاد البطارقة كتابة خطابين كل عام إلى ملوك الحبشة والنوبة ، وكان زكريا (١٠٠٤ - ١٠٣٢ م) آخر من فعل : ذلك لأن الحاكم منعه من ذلك - ينظر أبو صالح مصدر سابق ص ٢٩٠ .

– الكثير من هيبتها ولم تستطع فرض أى نفوذ مؤثر علي الأراضي الجنوبية ، زيادة على ذلك كانت الطقوس الدينية تتم باللغة اليونانية ، ولأن الشعب يمكنه أن يتعبد بصدق وإخلاص عن طريق لغته أصبحت العبادة مجرد شكل ، وكان من الطبيعي أن تدوم المعتقدات الرواحية . إن حياة وإرادة الشعب لا يمكن التعبير عنهما عن طريق لغة أجنبية وسلطة دينية أجنبية ، ومن ثم تدهورت الحياة الروحية إلي درجة متدنية جداً من الانحطاط ، ولم تظهر أي حركة للإصلاح ، وكان السودان علي اتصال مع منوفستية الإسكندرية فقط ، ولم تهتم أي كنيسة أخرى بهذه الكنائس البربرية ^(١).

وتركت مملكة علوة بلا دليل أو توجيه ، بعد أن اجتاحت العرب دنقلا ، وقد حصلنا علي بصيرة ناقدة ألفت الضوء علي حالة المسيحية في علوة في كتابات الفاريز البرتقالي الذي سافر في الحبشة في أعوام ١٥٢٠ – ١٥٢٧م مباشرة بعد نهاية مملكة سوبا

يجاور هؤلاء البلونين (٢) ناحية الشمال شعب يسمى النوبيين ويقال إنهم مسيحيون يحكمون من روما ، وقد سمعت رجلاً سورياً من طرابلس – بسوريا واسمه يوحنا السوري ... أنه كان في هذه البلاد وأنه يوجد بها مائة وخمسون كنيسة ما زالت تحتوى علي صليبان وصور سقنا وصور أخرى مرسومة علي الحوائط وكلها قديمة . وأن سكان هذه البلاد ليسوا بمسيحيين ولا مسلمين ولا يهود ولكنهم يؤمنون أن يظلوا مسيحيين ، وهذه الكنائس كلها في قلاع قديمة منتشرة في كل أرجاء البلاد ، وكما أن القلاع كثيرة فكذا الكنائس ، وبينما نحن في بلاد برستر جونا قدم ستة رجال من تلك البلاد سفراء ليرسئروا أنفسهم يناشدونه أن يرسل لهم قس وراهبان لتعليمهم ، ولم يرغب في أن يلبي طلبهم ، ويقال إنه قال لهم أن ليه أيما (أبونا أي المطران) من بلاد المسلمين أي أنه من بطريك ، الاسكندرية تحت حكم المسلمين ومن ثم كيف يعطيهم قس وراهبان حيث أن الآخر يعطيهم ، وقالوا إن الشعب في الزمن القديم كان يأخذ كل شيء من روما ، وأنه قد مات منذ زمن طويل الأسقف الذي جاءهم من روما ويسبب حروب المسلمين فإنهم لم يحصلوا علي غيره ، لذا فقد فقدوا رجال دينهم ومسيحياتهم ^(١) .

مرة أخرى كانت المسيحية منذ البداية ديناً للدولة ، ولم تخلق أبداً ثورة في حياة الشعب لأن أي كنيسة تكون حيوية وأساسية في حياة البلاد يجب أن تعمل وفق حدود استقلالية معقولة لتأمين حريتها الروحية . هذا صحيح تماماً في المملكة الجنوبية حيث تلقى الملك والنبلاء المسيحية التي ربطتهم بالثقافة الأعلى ، وقبلها الشعب بشكل رسمي

(١) بذلت الكنيسة الرومانية محاولات فاشلة للتغلغل إلى داخل السودان في القرنين الثالث والرابع عشر . ينظر :

du Cailloud, „Les Tentatives des Franciscains au moyen âge pour pénétrer en Haute Ethiopie, Bull. soc. Gèogr; de Paris, 1896, pp.212-32.

(٢) من المحتمل أن يكون هؤلاء هم البلو في منطقة القلابات.

* Prester John ملك خرافي من العصور الوسطى في آسيا، ولكن تاريخه تجمعت حوله في الأصل نواة من الحقيقة ، وقبل أن يظهر بوستر علي المسرح مهدت لظهوره خرافة شبيهة في أوروبا حوالي عام ١١٢٢م، وبعد ذلك تجلى برستر جون علي المسرح في شخصية فاتح مسيحي يجمع بين كاهن وملك . (المترجم).

(١) Stanley of Alderley, Narrative of the portuguese Empassy to Abyssinia, by father Francesco Alvarez, London, 1881, pp.351-j

واحتفظ بأرواحيته ؛ لذا فقد تحدث عنهم ابن سليم كعبدة للرب ، ولكنهم يضمنون معه الأشياء الطبيعية ، وهى فى السودان لم تكلف الإنسان أى شئ كى يعتنق المسيحية ، ولم تشيد الكنيسة على دماء الشهداء ، إذ لم يكن هناك أبداً أى خطر للاضطهاد ، لذا فلا يوجد قديسون من الأهالى ليرتبط بهم الشعب فى ممارساته الدينية ، ولا يوجد سبب لافتراض أن الجماهير سكان المناطق الريفية كانوا مسيحيين ، ومن المحتمل أن المسيحية كانت موجودة فقط فى المدن الرئيسية والقرى الكبيرة . لقد كانت الأرواحية هى دين الجماهير وهذا واضح من الاختفاء التام لعناصر المسيحية الخالصة والاحتفاظ بالأرواحية الضمنية فى إسلامهم ، ولم يجد الشعب صعوبة فى تقبل دين كل ما يهمله هو " الشهادة " ويتركهم أحراراً يعيشون كما كانوا من قبل ، ويمارسون عاداتهم القديمة عدا عبادة الاصنام والأشياء الطبيعية .

وأصبحت الكنيسة المنوفستية فى السودان كما كانت فى الإسكندرية حصناً للقومية السودانية ، وتميزت بشكل جاد عن الثقافة البدائية الجامدة للشعب ، لذا فعندما أصبح الحكام مسلمين انهارت البنية كلها ، وكانت الكنيسة كمؤسسة قومية ضيقة فى استشرافها وفقيرة جداً فى سلطاتها الروحية ، زيادة على ذلك وبسبب كونها ببساطة دائرة من دوائر الدولة فمن المحتمل ألا تخلق رأياً عاماً مستقلاً ضد الأفعال الشريرة مثل تجارة الرقيق التى قوضت قوة وحيوية الممالك ، إذ قد يكون الرق المحلى تم التسامح فيه ، أما تجارة الرقيق فلا . لقد تسامحت الكنيسة بالتأكيد بالتجارة ولكن ربما - كما فى الحبشة - قد استفادت منه .

كما فشلت تماماً المسيحية السودانية أيضاً فى تحدى تأثير الدين الإسلامى الغنى والنشط على حدودها ، كما تسببت عزلة الإقليم فى أن تنتكس مسيحيته إلى مستوى ما قبل المسيحية .

وأخيراً كانت المسيحية - مثل الإسلام بعده - محكومة بالمناخ الذى يتسبب فى الافتقار إلى الطاقة وضعف المقاومة الأخلاقية ، إن المسيحية النشطة هي فقط التى تطور عبادة محلية حقيقية - تثار باستمرار من الخارج - بإمكانها مقاومة الهجوم الضارى للدين الغريب ذى القابلية للتكيف مع الأفارقة .

هذه هى الأسباب المعقدة والضمنية لاضمحلال المسيحية ، وبينما كانت المسيحية القوة الفعالة وسطهم ، فإن الاستقلال الطبيعى للشعب أدى إلى مقاومته للإسلام . ولكن بمجرد أن أصبح رسمياً فإنهم استسلموا للنفوذ الإسلامى القوى الذى يحيط بهم ، واحتاج النوبيون التعبير عن طموحاتهم الروحية ، وكان من الطبيعى أن يهرعوا نحو الدين المتوهج الذى أقحم نفسه عليهم ، والاتصال مع ما أثرى منطقته بتوفير الأساس للوحدة الثقافية .

٣- الأسباب المباشرة

لقد كانت هناك بلا شك بعض الدعاية الإسلامية تعمل في مقرة وعلوه قبل سقوطهما ، اذ كان يوجد مسجد في دنقلا ونزل إسلامي في سويا ، كما أن التجار المسلمين كانوا دعاة عاديين ، ولكن لا يوجد دليل على أن تلك الدعاية كانت قوية وأن اندفاع الشعب نحو الاسلام لم يكن سببه الدعاية التبشيرية . قد يكون التجار مهدوا الطريق ولكن المسيحية كانت ما تزال هي دين الدولة . لم يأت الإسلام كتأثير ثقافي أعلى ، وفي الحقيقة فإن أى درجة من الثقافة امتلكها النوبيون اختفت بعد الفتح لأن العرب البدو كانوا عامل تحضر على أية حال ، وكانت الأسباب المباشرة لسقوط الممالك عوامل داخلية وخارجية ، وقد جاءت الانشقاقات والخلافات الداخلية في النوبة حادة خلال فترة الممالك البحرية ، وأعطت بيبرس الفرصة للتدخل ، وكانت المصلحة الشخصية في هذا الوقت هي الدافع الوحيد للحكام المسيحيين ، وكان الأمن العام ضعيفا ؛ لأن جمع الرقيق لدفع الجزية كان معناه الإغارات المستمرة التي أدت إلى الفوضى الداخلية ، لذا فقد أصبح من المستحيل وجود حكومة جيدة ، كما لم يكن للنوبة حاجز طبيعي حصين كالذي لدى الحبشة الجارة المنوفستية ، برغم أن الصحارى الشمالية وفقر السودان لم تجعلها جذابة جداً سوى للبدو .

وجاء السقوط الفعلي لمملكة مقرة عن طريق تسرب وإقامة القبائل العربية التي تصاهرت تدريجياً مع النوبيين ، وأمنت لأبنائها الوراثة عن طريق النظام الأمومي ، كما فوضت السلطة المركزية التي كانت ما تزال موجودة ، وذلك بصعود بني كنز القبيلة النوبية المصرية التي تختلف عن القادمين الجدد لمطابقتها التامة مع الحياة النوبية ، ومن خلال التخريب الداخلي الموشى بالتدخل المباشر للممالك البحرية في شئون النوبة، كما جاء سقوط علوة أساساً بهجرة العرب والقبائل النهرية الأخرى ، وتلاه غزو الفونج من الجنوب ، وبعد تمزق المملكة بدأت المسيحية في الاختفاء سريعاً من خلال امتصاص السكان داخل النظام العربي والهيمنة الثقافية للإسلام ، وكل ما بقي حتى الآن من الممالك التي كانت مزدهرة في يوم ما هي خرائب العديد من الكنائس^(١)

وتلى السقوط الفعلي للممالك الهيمنة السياسية للمسلمين واضطهاد المواطنين من قبل أناس ذوي إيمان مختلف وقوى ، وسيكون هنا التميز الاجتماعي المعتاد ضد المسيحيين والوثنيين معاً مع إمكانية التحرر إذا ما تم اعتناق الإسلام والتزواج مع القبائل العربية . أخيراً والشئ الأكثر أهمية هي جاذبية السلطة المغرية التي مارسها الإسلام على كل شعب إفريقي تخلص من ديانتها التي لا وطن لها ، خاصة من خلال قوة استيعابها للممارسات الفطرية ، وكان اختفاء الكنيسة من السودان خسارة فادحة

(١) خرائب الكنائس التي كانت مشيدة بالطوب الأحمر في مملكة علوة موجودة في سويا ورودس وألثي وكترانج وكاسمبا وبرونكو والحصاحيصا والكاملين وأرجي وسنار على النيل الأزرق ، وفي القطينة على النيل الأبيض .

للمسيحية الإفريقية . لقد أسست الكنيسة نفسها بقوة وأثرت بعمق في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وقدمت استحكاماً قوياً ضد تغلغل الإسلام إلى داخل مناطق أعالي النيل ، وقدم سقوطها مثلاً للمخاطر الرهيبة للكنيسة التي كانت ببساطة المؤسسة الدينية للدولة ، وما زال لاختفائها عواقب وخيمة ، ويكتب السير ريتشارد بالمر عن تأثير سقوط دنقلا على السودان الأوسط :

قد يقال إنه حتى نهاية القرن الرابع عشر كان تأثير مملكة دنقلا المسيحية يتفوق على تأثير السودان الشرقي بغض النظر عن الأفكار المستمدة من مصر أو عبادة النار . فمن البحر الأحمر حتى بحيرة تشاد كان انهيار مملكة دنقلا المسيحية متزامناً مع صعود مملكة كانوم الإسلامية تحت حكم الحاج إبراهيم في التاريخ نفسه تقريباً وهو الذي وطد المزاج الديني لهذه المناطق آنفة الذكر حتى الوقت الحاضر (١)

لقد بررنا في الدفاع إذن - أن سقوط دنقلا ربما كان هو العامل الوحيد المهم الذي أثر في الانتشار السريع للإسلام في إفريقيا ، فمنذ ذلك الحين وحتى العصر الحديث لم يعد للمسلمين منافس في نشر دينهم في كل مكان من القارة .

The Borno Sahara and Sudan, 1936,p.4.

(١)

السودان تحت الحكم الإسلامى

١- توسع القبائل العربية وتعريب السودان

استقرت جنوبى النوبة كل القبائل البدوية التى تدفقت جنوباً بعد سقوط المملكة المسيحية ، فقد تتبععت خط النيل من خلال دنقلا - حيث استقر القليل منهم - ولم تكن البلاد مغرية ولم تحتفظ بأعداد كبيرة من البدو ، كما كان يشغل الصحراء الشرقية قبائل البجة المولعة بالحرب وبعض القبائل العربية التى هاجرت منذ فترة ، لذا فقد تحركوا جنوباً على طول النيل الأبيض إلى أن وصلوا لمنطقة السهوب ، ثم انتشروا باتجاه الجنوب الغربى إلى داخل كردفان وجنوب شرق حتى نهر عطبرة والنيل الأزرق داخل البطانة وإلى الجزيرة فيما بعد ، وذهبت بعض المجموعات التى تشكل الآن الكبابيش إلى داخل منطقة الصحراء الغربية الهائلة التى لم تكن مأهولة عدا بالتبو البدو ، كما ساروا أكثر إلى داخل كردفان أرض الاستبس - الذى يسكنه النوبا - المرعى المناسبة تماماً لتربية الإبل، وهناك بدأوا بتنمية السلالة العربية - الزنجية التى تقطن فى كردفان - ، ودخلت مع الفونج القبائل العربية التى كانت تحوم حول المنطقة وتركز العبد لاب العرب الحاميون فى قرى ، بينما يبدو أن الخوادة استقرت حول كبوشية ، والجعلين حول شندى والمجموعية على النيل الأبيض ، واجتازت رفاعة الجزيرة وخضعت للفونج ، ودخلت السودان القبائل التى تشكل البقارة الآن عن طريق النيل ودارت من دنقلا غرباً إلى أن اخترقت ما يعرف الآن بالسودان الفرنسى ، والبعض الآخر الذى طرد من هناك - لا تهاهم بقتل ابن سلطان « بلأل » - استقر فى دارفور فى عهد السلطان حسن ، ومنها اتجهت بعض القبائل نحو الشرق .^(١)

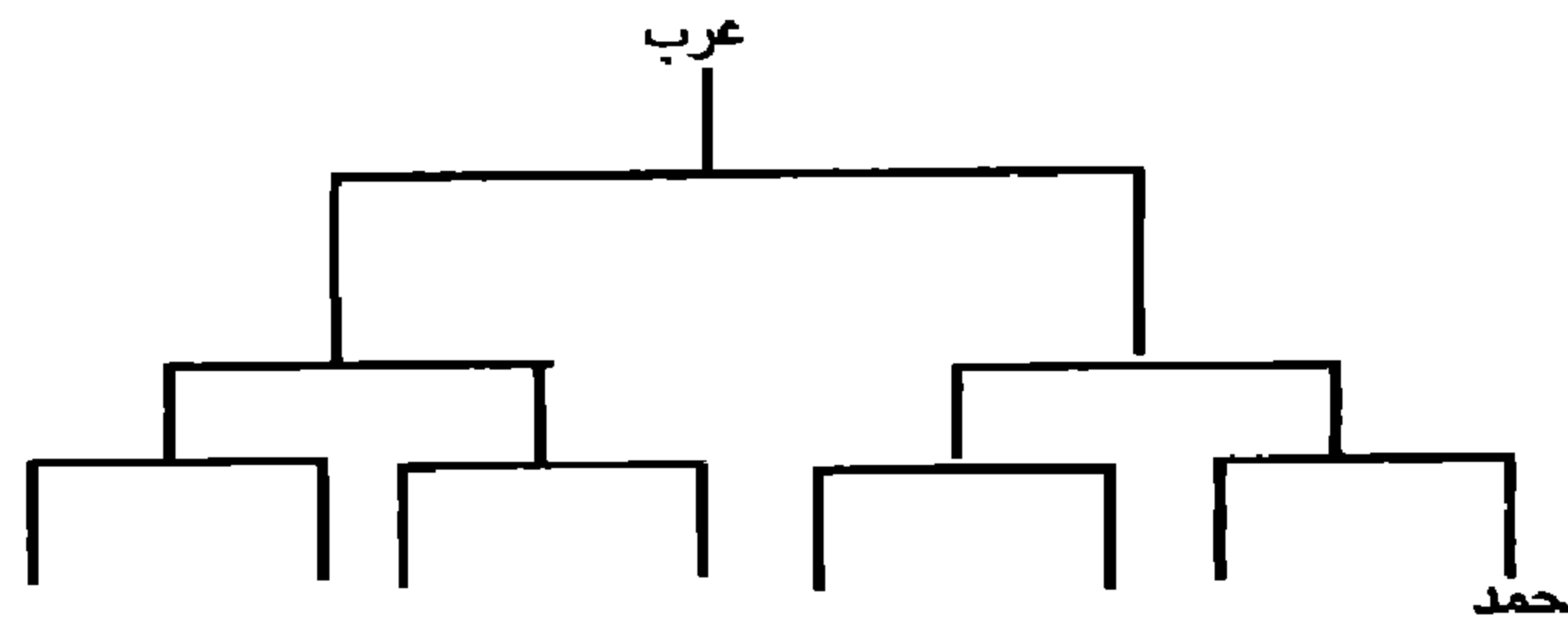
لقد كانت هذه القبائل مجرد مجموعات صغيرة فقط ، أما القبائل الكبيرة مثل الحمر والكبابيش فقد شكلت نفسها فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر عندما انضمت إليها المجموعات الأخرى المختلفة ، وبلا شك فإن هذه القبائل لاقت بعض المعارضة وعقدت بعض معاهدات مع الغزاة السود الأقوياء من الجنوب ، إلا أن عاداتهم البدوية وقدرتهم على المصاهرة أعطتهم مجالاً حيوياً فى البلاد قليلة السكان وسرعان ما استسلم الكثيرون منهم لحسنات حياة الاستقرار ، وتم امتصاصهم ، وفى الوقت نفسه كان هناك تحرك عام للقبائل النوبية الحامية (أى الجعلين) نحو الجنوب

(١) تقول تقاليد سليم أن أبا تمانية الذى قادهم غرباً تزوج ابنة السلطان الأسود ، كما تروى دار محارب أن زعيمهم عند وصولهم كان « ود السودا » ، وكانت النتيجة الواضحة هى أمة عربية سوداء .

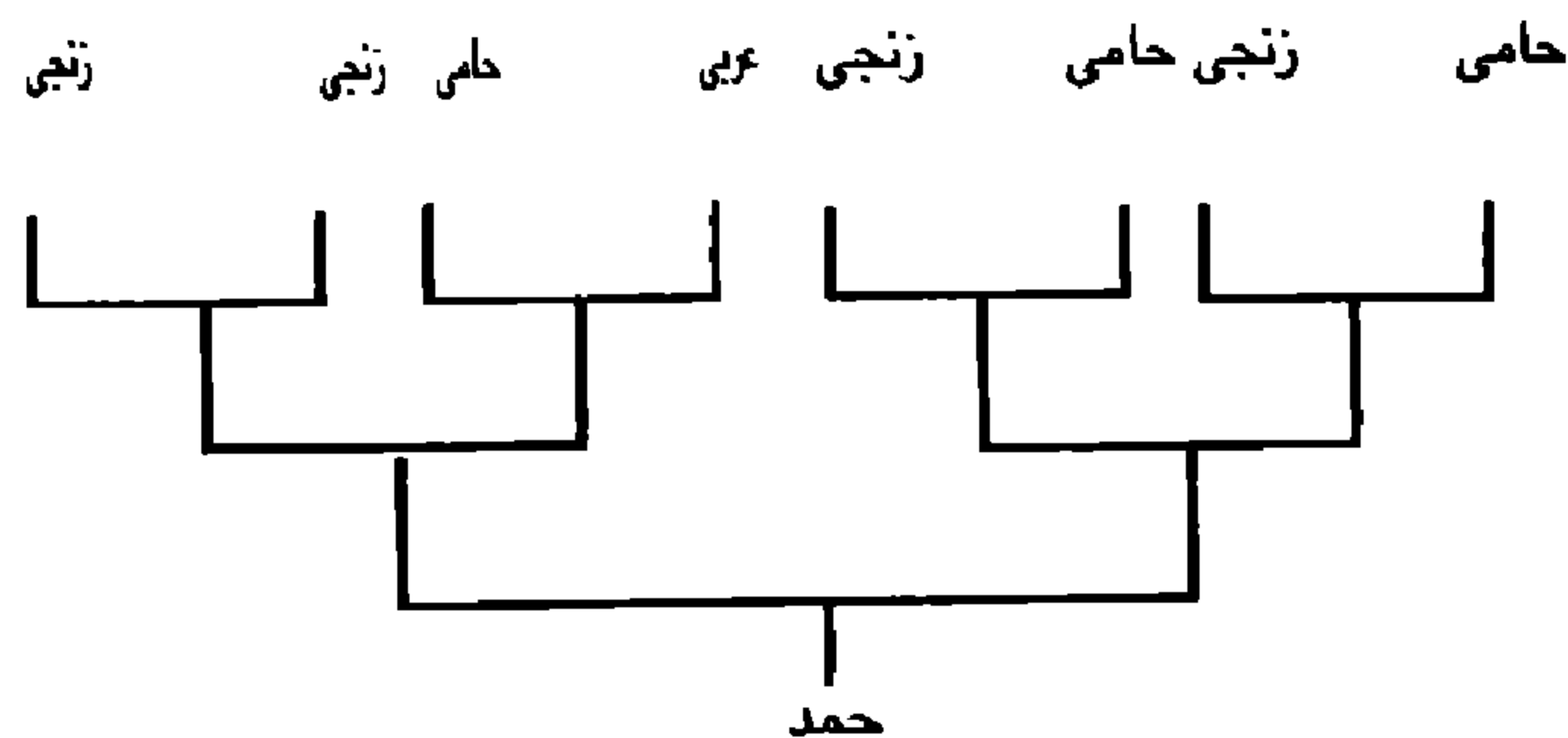
الغربي إلى داخل كردفان ، وقد اعتبر دائماً أن هذا التحرك تحرك للقبائل العربية رغم أن عدد العرب الذين دخلوا البلاد كان قليلاً نسبياً^(١)

وكان من بين تلك القبائل التي تحركت إلى كردفان : الجوامعة والبديرية والشويهات التي كانت من المحتمل قد تحورت وامتزجت بشكل كبير مع النوبا لدرجة أنها أصبحت زنجية في صفتها ، ففي القرن الثامن عشر كانت البديرية مثلاً ما تزال تتحدث « الرطانه » ، أما القبائل الأصلية الأخرى (مثل القبائل المستقرة كالقوديات والبقارة وأولاد حامد) التي تحركت غرباً بدت وكأنها تنتمي إلى مجموعات الفونج – النوبة .

وكانت هناك خلال هذه القرون عملية ثورة ثقافية نتجت من تعريب وأسلمة الشعب ، وهناك عمليتان متوازيتان واضحتان في تعريب السودان ، الأولى لغوية وثقافية اكتسب بها الشعب اللغة العربية والمفاهيم الثقافية الإسلامية ، وأصبح الشعب مرتبطاً بالنظام القبلي العربي ، أما الثانية فكانت عرقية ، إذ امتص السكان الأصليون العناصر العربية الواردة بدرجات مختلفة، لذا فالدم العربي يجري اليوم في عروقهم ، وكان التعريب الثقافي للشعب أكثر عمقاً لأنه كان يعنى أيضاً إسلاميتهم ، أما العملية الأخرى فقد يكون من الأفضل تسميتها بتأصيل العرب ، رغم أن الدم العربي قد حور بلا شك المميزات العرقية للقبائل الحامية والزنجية بدرجات متفاوتة^(٢) .



وعندما نقلها وتتبع حمد إلى الوراء إلى أجداده الكبار فإن زيف شجرة النسب العربية ظاهر تماماً وقد نحصل على « شريف » بسلسلة نسب كهذه



(١) بعض القبائل المصرية مثل ربيعة وجهينة قبائل عربية أصلية ، ولكن الأصل العربى للعديد من القبائل الأخرى مشكوك فيه . ينظر Revue de Monde Musulmane, Ivii.87

(٢) شجرة النسب المعتادة هي بهذا الشكل

ويعطى الوصف التالى الذى كتبه ج.و. كروفوت عن نوبا تقلى فكرة عن العملية فى مرحلة مبكرة :

أصبح الشعب فى بعض مناطق الجبال الشرقية - تقلى مثلاً - مسلماً لجيل أو جيلين ، يرتدون الملابس ويتحدثون العربية بشكل جيد ، وبعضهم يتظاهر بالنسب العربى وتخلوا عن الاحتفاظ بالخنازير ويتحدثون عن ازبائهم " للنوبا العراة " . إن مثل هذه الثقافة الإسلامية التى تبناها مثل شعائر الختان والزواج وممارسة الخفاض ... إلخ جاءت من القبائل النهرية أو من كتانة والكواهلة الذين سكنوا وسطهم وليس غريباً كما يبدو أنها من قبائل البقارة الذين كانوا معهم على اتصال لزمان طويل ، وقد قبلهم العرب كمسلمين وإخوان ، بينما يبتسمون على مزاعمهم. وقد سمعت كاهلى فى كُوكى يصف سكان الجبال المجاورة " بالنوباوى " الذى أصبح كواهلى، فى حقيقة الأمر فإن نوبا الشرق هؤلاء يبدأون نفس الانسلاخ الذى بدأه معظم أسلاف قبائلنا العربية الإفريقية قبل عدة قرون قليلة ، وأن التحول غير الكامل فى الحالة الأخيرة هذه لم تذهب بعيداً جداً مع النوبا (١)

أبدى السودانيون مقاومة ضئيلة لعملية التعريب الثقافى هذه ، ولكن برغم قبولهم لها بشكل كبير فإنهم غيروا تركيبتها إلى حد بعيد ، ولم يحافظوا فقط على العنصر السلالى السودانى الأصل ، وإنما على قوميتهم فى عاداتهم ، وفى حالة النوبيين والبجة على لغتهم .

ومن بين العرب المهاجرين حافظت قلة من القبائل البدوية ملاك الإبل على كلمة واحدة السلالى . لقد تحللت بشكل عام المؤسسات القبلية للسكان الأصليين وأجبر الشعب على تبنى النظام القبلى العربى برغم أن النظم الأهلية كانت ما تزال حية فى مملكة الفونج وفى دارفور ، وكان النظام القبلى العربى شاملاً تقريباً فى زمن الغزو المصرى ، ولم يمارس الفونج الحكم المباشر ، لذا فإن التحالف الأسمى معهم لم يؤثر على السلطة القبلية ، وكان الالتحام بين القبائل متقلباً لاعتماده على العوامل المتغيرة مثل الأحوال المناخية أو شخصية الشيخ أو ضعف الشيخ الذى يؤدى إلى تحول النقاط الحدودية أو علاقة المعاهدة أو أن تتولى السلطة قبيلة مغيرة مثل الشايقية .

وليس مدهشاً التبنى الشامل للغة العربية عندما نأخذ فى الاعتبار أن الفلاحين الأقباط المحافظين جداً كانوا قد تبناها ، ولكن المدهش أن يحافظ النوبيون والبجة على لغتهم.

(١) J.W Crowfoot, "Further Notes on Pottery SNR. viii, 25.

٢- النوبة وبنقلا

بعد عام ١٢٦٦م عندما نهب بنو كنز أسوان ودفعوا الثمن غالباً ، فإنهم تمردوا مرة أخرى (١٢٨٥م) واستولوا على أسوان ، ولم تتدخل مصر في شئون النوبة لفترة طويلة، وبقي بنو كنز في موقف مستقل في أسوان والمنطقة الشمالية والجنوبية لها وكذلك منطقة صحراء عيزاب ^(١)

وفي عام ١٥١٧م هزم سليم الأول المماليك البرجية في مصر ، وأصبحت الدولة خاضعة للعثمانيين وبسط جنرالاته حكمه جنوباً إلى الشلال الثالث حتى السكوت والمحس في عام ١٥٢٠م وأقيمت حاميات في أسوان وإبريم وصاي من المرتزقة، البوسنيين تحت قيادة مسئولين ذوي أصول تركية أو بوسنية يسمون « الكشاف ». إن هؤلاء الشماليين الذين استقر معظمهم وتزوج مع النوبيين والذين يسميهم السودانيون بالغز (أوغز بالتركية) حكموا البلاد لمدة ثلاثمائة سنة ، ويدعى الكثير من النوبيين انحذارهم من هؤلاء الغز . ولم يكن للحكومة المركزية سيطرة فعلية مؤثرة على المناطق الواقعة فيما وراء أسوان عندما استولى مرة أخرى الهوارة البربر على مصر العليا في القرن الثامن عشر ، وكان الغز، مستقلين تماماً عدا إرسالهم إلى القاهرة الجزية المكونة من الرقيق والبلح الذي يجمعونه من النوبيين ، وصد بشدة الكاشف الثاني ابن جنبلان هجوماً للفونج (حوالى عام ١٥٢٠ - ١٥٣٠م) عند حنك لدرجة أنهم لم يغامروا في النوبة مرة أخرى ، وفي زمن الفتح عام ١٨٢٠م كانت السلطة تحت أيدي ثلاثة كشاف إخوة سماهم بوركهارت « حكام النوبة » ^(٢)

وتجزأ النوبيون في دنقلا إلى الجنوب من مجال الكشاف ، تحت حكم العديد من المكوك الصغار تحت سيادة الفونج ، أما في الشمال فقد كانت السيادة للبربر تحت حكم الجوابرة ^(٣) الذين طردهم الغز إلى دنقلا ، ثم نجد إلى الجنوب منهم مقام مكوك البديرية من تيتي حتى الشايقية التي تمركزت عند مروى .

وأصبح الدناقلة والجعليون هم التجار الرئيسيون وتجار الرقيق في السودان ، ولم يكن طريق التجارة الرئيسي في هذا الوقت عن طريق أسوان بل عن طريق شندي سواكن ، وكان يتم جلب الرقيق خاصة صغار السن من دارفريت ودار رونجا وشارى الأوسط وبلاد بنده داخل دارفور ^(٤) إلى أن فرغت هذه البلاد من سكانها بسبب لعبة الحصول السهل على البشر ، وقد تم الاستفادة من هذا المصدر لأن القبائل المقاتلة في

(١) ينظر : القلقشندى ، صبح الاعشى في صناعة الإنشا ج ٨ ص ٨-٥ خسرينو كنز اسوان في عام ١٤١٢م واستولى عليها الهوارة البربر الذين كانوا حلفاءهم عندما تم الاستيلاء على المدينة والذين أصبحوا القوة المسيطرة في مصر العليا إلى أن هزمهم إبراهيم باشا في عام ١٨١٣م ،

(٢) ينظر : شقير . تاريخ السودان و. Burkhardt, Travels in Nubia, p.135

(٣) أحد فروع الزناتية . تسكن من الشلال الثالث حتى تيتي ، وكان مركز رئاستهم في أرقو . ويقولون أن اسمهم جاء من جابر الأنصارى.

(٤) بوركهارت . مصدر سابق ص ٣٢٤

مستنقعات أعالي النيل ودار نوبا قاومت بشدة المغيرين . إن علاقة السودان الأبدية مع مصر عن طريق التجارة والتأثير الثقافى والدينى تضاعلت فى هذه الفترة إلى أن وصل للاشئ تقريباً .

٣- كونفدرالية سنار

أسس مملكة سنار المعروفة فى السودان بالسلطنة الزرقاء بعض المغيرين السود الذين يبدو أنهم تحالفوا مع السكان المحليين فى الجزيرة ، والذين يسميهم الفونج « الهمج » ضد القبائل العربية ، ثم فازوا بالهيمنة والسطوة على الهمج والقبائل العربية ، ويبدو أن مصطلح الفونج مصطلح سياسى يعنى الأرستقراطية فى سنار والمراكز الأخرى ، ولا يتعلق بالضرورة بأى سلالة أو ثقافة ، وكان احتفاظهم بشكل مستديم بجيش من السود من أهم العوامل التى تثبت أن الفونج كانوا أقلية صغيرة مسيطرة . وقد اعترف عمارة دنقس (١٥٠٤ - ١٥٢٤م) أول ملوك الفونج بعبد الله جماع كأول نائب له على كل القبائل العربية فى وادى النيل ، وكان عبد الله هذا شيخاً على قسم صغير من رفاة ، ومن المحتمل أنه ساعد بشكل جيد عمارة فى محاولاته الحصول على السيادة ، وقد أسس سلالة حاكمة تدعى العبدلاب حكمت من قرى . وكان الفونج ورعاياهم غير العرب وثنين ، إلا أن عمارة انضم إلى الإسلام لأسباب سياسية^(١) . وتقول الرواية إنه بعد أن غزا السلطان التركى سليم مصر فى عام ١٥١٧م أرسل حملة إلى النوبة لمساعدة بربر الغربية (١٥٢٠م) ، كما أسس قواعد فى سواكن ومصوع مهدداً بذلك استقلال البجة والحبشة واستشعر عمارة الخطر ، وأن هذا الأمر يشكل تهديداً لمملكته ، لذا بعث برسالة يقول فيها إذا كان سليم يفكر فى شن الجهاد ضده ، فإنه سيعلم أنه وشعبه عرب ومؤمنون حقيقيون ، ولإثبات ذلك قام بإرسال كتاب الأنساب الذى جمعه له السمرقندى - المسئول عن معظم أشجار الأنساب الزائفة والخيالية فى السودان - وذلك لإثبات أن الفونج ينتمون إلى بنى امية . ولكن هذه قصة بعيدة الاحتمال ، إذ بعد أن استولى غزُ سليم على النوبة مباشرة حتى الشلال الثالث ، فكر الفونج فى منازعة هذا الاستيلاء وأرسلوا حملة ضدها ، وقد انهزم الفونج بشكل قاس لدرجة أنهم لم يحاولوا مرة أخرى أبداً مع الغز.

ويقول بروس " عند تأسيس هذا العرش كان الملك وكل شعب الشلك وثنين ، ولكن سرعان ما تحولوا إلى الإسلام من أجل التجارة مع القاهرة واتخذوا اسم الفونج والتى يترجمونها فى بعض الأحيان إلى السادة أو الفاتحين ، وفى بعض الأحيان بالمواطنين الأحرار .^(٢)

(١) شقير ، مصدر سابق . ج ، ص ٧٣ - ٧٤

(٢) بروس : مصدر سابق ص ٢٧١ - ٢٧٢

ومن الطبيعى بالنسبة لأى قبيلة إفريقية مغيرة أن تنضم للإسلام ، ومن ثم فإن رعاياها سرعان يتبعونها . وقد شجع الفونج رجال الدين من الجانب الآخر للبحر الأحمر لزيارة مملكتهم والإقامة فيها ، وكان هؤلاء الرجال هم المسئولون عن أسلمة القبائل النهرية وقبائل الجزيرة ، وكانت أحوال الجزيرة تحت حكم الفونج خليطاً حقيقياً للوثنية الإفريقية مع العناصر العربية الإسلامية ، فقد كان هناك كجور النوبا فى بلاط سنار ، وعندما يكتب بروس عن « سيد القوم » . فإنه يقول :

ولد فى قرية فازوغلو وقد بدا لى أنه ما زال وثنياً ؛ فقد كان يلزمه باستمرار رجال دين نوبايون . وهو مشعوذ وساحر قوى إذا أمنت به . وقد تحدث عن ذلك بحرية كبيرة . وعندما علمت أنهم يفهمون العربية عرفت منهم العديد من الأمور الخاصة بوضع الأجزاء الداخلية من البلاد خاصة مناطق جبال الداير وتلقى التى تقع فى قلب إفريقيا والتي يقولون أنهم أتوا منها فى الزمن القيم (١) .

ومن المحتمل أن الشعب كان يتحدث لغات متنوعة همجية - نوبية ، إذ يقول بروس إن العربية كانت لغة عامة فقط وسط الطبقة العليا ، وقد سيطر الفونج على منطقة واسعة إذ كانت فى زمن ازدهارها العظيم (فى عهد بادى الثانى أبودقن ١٦٤٢ - ١٦٧٧م) تمتد من الشلال الثالث إلى فازوغل على النيل الأزرق ، ومن البحر الأحمر حتى كردفان . وكانت هذه المملكة مكونة من شبكة كونفدرالية فضفاضة عن كونها دولة موحدة ، ولم تكن هناك سلطة مركزية ولامؤسسات مشتركة ، وكانت الأرض الواقعة بين النيلين هى فقط التى كانت تحت حكم سنار المباشر ؛ إذ احتفظ الفونج بالحكام الإقليميين كمكوك تابعين ، وسمحت بكل المؤسسات الأهلية بالاستمرار ، ويقول بروس أنهم يجعلون أمير الإقليم الذى يقومون بغزوه نائبهم فى بلاده فيما بعد . هذا هو الحال بالنسبة لدنقلا التى استمر مكها فى منصبه وكذلك مع ود عجيب أمير العرب الذى هزموه ، كما كان الحال أيضاً بالنسبة لفازوغل وودعبود وجبل موياء والدويلات الصغيرة الأخرى التى تم غزوها كلها ولم يغيروا أمراءها . (٢)

كما يخبرنا بروس أيضاً أنه عندما غزا عبد القادر الأول مناطق جبال موياء وسقدي (حوالى عام ١٥٣٦م) أخذ الملوك المهزومين وجردهم من ألقابهم ، على أن يباعوا فى ساحة السوق كأرقاء ، ولكنه أعاد تأسيس سلطتهم وألزمهم بدفع جزية خفيفة ، واستمرت حياتهم الوثنية كما كانت من قبل ، وحدث الشئ نفسه عندما ضموا جبال تلقى والداير فى جبال النوبة فى نهاية القرن السابع عشر .

(١) نفسه : ص ٣٧٢ - ٣٧٤

(٢) نفسه : ص ٣٩١

ومارس حاكم سنار المطلق سلطته عن طريق الاحتفاظ بحق اختيار خلفائه التابعين من أسرته وابتزاز الجزية ، ولكن الرباط كان واهياً ، وكان تابعوه كثيراً ما يرفضون دفع الجزية ، ومع ذلك فقط احتفظ على ملك سنار بشكل دائم بجيش ضخم من رقيق النوبا (١٤,٠٠٠ راجل و ١٨٠٠ حصان وذلك في زمن يروس) ، وكان باستطاعته في زمن ازدهار المملكة الاحتفاظ بسيادته العليا ، ففي عام ١٦١٠م مثلاً تحرر حاكم العبد لاب ولكنه هزم وقام ملك الفونج بترشيح ابنه العجيل في مكانه وقد منح الفونج هؤلاء الملوك التابعين لقب مانجل (أومانجلك) ، وبعد وفاة المانجل يأتي المرشحون إلى سنار ويعلمون خضوعهم ، وعندما يتم اختيار أحدهم يقوم الملك بتقليده بالكر أو كرسي الدولة والطاقيّة أم قرنين والعمّة والسيف ، وفي بعض الأحيان سلسلة ذهبية ^(١) واختار العبدلاب سادة القبائل العربية شمالي أربجي ^(٢) شيوخهم التابعين وقلدهم الطاقيّة - ويقول شقير :

إذا مات هؤلاء مك اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم مكا عليهم وأتوا به إلى الشيخ عجيب فيخلق الشيخ له رأسه ويلبسه « طاقيّة » ذات قرنين محشوه قطناً ويجلسه على كرسي « الككر » ، ثم يخاطبه بلقب مك ويقول له « مبارك عليك » فيقبل الملك يده ويدعو له ، بخير فيأمر الشيخ بضرب النحاس إشهاراً لتأييده مكا على أهله ^(٣) .

ومع ذلك فقد مارس الفونج سلطة مباشرة في الجزيرة نفسها على كل القبائل بما فيهم العرب ، وكان هناك وزير وأقارب الملك لهم أيضاً سلطات « الأرايب » (جمع الأرايب) كما كان سارياً أيام بروس القانون الذي كان ينص على أن الملك قد يعينه رعاياه أو عبيده بمجلس يعقده كبار الضباط إذا قضوا بقاءه ليس من مصلحة الدولة أن يستمر في حكم الدولة أكثر من ذلك ^(٤) . وكانت مهمة « سيد القوم » تنفيذ قتل الملك .

وانتهت سيادة الفونج بتولى محمد أبو لكليك السلطة (توفي عام ١٧٧٦م) ، وكان أبو لكليك من الهمج ، وبمعنى آخر كان من إحدى المجموعات الأهلية التي هزمها الفونج ، وكان قد ساعد في هزيمة الأحباش عام ١٧٤٤م وناصر الفونج بعد أن هزمهم

(١) ليس هذا رمزا خاصاً بالمانجلات فقط . لأنه غالباً ما يمنح علامة للشرف . وكان يتم أحياناً تقليد الشيوخ الدينيين بالعمّة والككر [الطبقات م ٧٩ - ٨٠ ، ١٤٣] ، وكانت الطاقيّة فقط عند تقليد حسن ود حسونه (م ٤٧)

(٢) كان العبد لاب الذين دعموا سلطته بجيش دائم من الفرسان قد فرضوا جزية رآها البدو أنها ثقله عليهم ، وكانت إحدى نتائجها هجرة القبائل الشرقية إلى داخل كردفان والأخرى استقرار البدو والذين صاهروا القبائل الحامية أو الحامية الزنجية الذين طوروا السلالة العربية ، ويبدو أن المعنيين « بالعرب » هم كل القبائل المتحدثة بالعربية شمال أربجي وكذلك النوبيون وربما قبائل البجة .

(٣) شقير . مصدر سابق . ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤) بروس . مصدر سابق ج ٥ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . وهي موازية لعادة مروى القديمة .

(Diodorus, BK.III, chap.vi) and Nilotic shilluk and Dinka (Saligman,Pagan Tribes, pp.90-2-197-8)

المسبغات فى كردفان ، ومن ثم فقد تحولت تلك الهزيمة إلى نصر وعاد إلى سنار لإسقاط الملك بادی الرابع ، ونصب فى مكانه ملك دمیة ، والتاریخ التالى لسیادة أبو لکیك وتولى الوزراء المنصب بالوراثة هو واحد من الخصومات الداخلية التى أدت إلى الانحدار والحروب الأهلية واستسلامهم دون قتال عندما جاء الغزو التركى فى عام ١٨٢١م.

كان العبد لاب مستقلين تماماً عن سنار بدءاً من ١٧٧٠م ، وكان مجال سيطرتهم محدوداً جداً إذ أصبح الشایقية مستقلين فى القرن الثامن عشر ، وسيطروا على الشمال حتى قدوم الممالیک إلى دنقلا بعد مجزرة عام ١٨١١م ، كما لم یکن الفونج یسيطرون فى عام ١٨٢٠م على أى منطقة على الضفة الیمنى للنیل الأبيض والنیل ، ولم یکن لهم سوى مجرد سلطة اسمیة على الضفة الشرقیة للنیل – كانوا یسيطرون على الجزیره حتى الحبشة وجنوباً حتى قریة العیس (الكوة) الشلکاویة على النیل الأبيض والشایقية قبيلة بدویة – من المحتمل ذات اصل بجای (١) – استوطنت البلاد الواقعة حول النیل من جبل دیقة (جنوب دنقلا) حتى الشلال الرابع – واشتهروا فى نهاية القرن السابع عشر وكانوا خاضعين لسیادة العبد لاب ، وتقول تقالیدهم (٢) أنه فى حوالی عام ١٦٩٠م بعد مجاعة « أم لحم » قام شیخ ساییق یدعى عثمان ود حمد بهزيمة سیده وأخذ منه ضمناً باستقلال الشایقی ، والواضح أنه فى منتصف القرن الثامن عشر كف الشایقية الذین كانوا یتحكمون فى مكوك النوبة فى الدمار ودنقلا والخندق وأرقى عن دفع الجزیه إلى العبدلاب ، وهیمنوا عند نهاية القرن على وادى النیل من أرض الغز حتى الحلفایة بالقرب من مقرن النیلین ، ومن الواضح – رغم أنها قبيلة بدویة ومغیره ، ورغم أنها اتخذت لنفسها معاقل فى بلادها حیث سكن زعماءها – فإنهم لم یحكموا ، ولكنهم عاشوا على حساب القبائل النهریة ، وعاش وادى النیل كله فى رعب منهم ، وهم المسئولون عن تشرید آخر للجعلیین الدناقلة ، كما عاش الشایقية فى حالة من التوتر المتبادل ، ولكنهم كانوا قادرین على تنمية مشاحناتهم الخاصة جانباً والاتحاد ضد العدو المشترك . إن هذه القدرة على الوحدة بالإضافة إلى بسالتهم القتالیة وضعف الممالك الأخرى مکنتهم من السيطرة على القبائل الأخرى .

(١) یقول ابن سلیم (المقریزى . الخطط ج١ ص ٢٠٩) عن امتداد النیل هذا فى عام ٩٦٩م وفیها خلق من البجة یعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً ، وقطنوا هناك وهم على حدتهم فى الرعى واللغة ولا یخالطون النوبة ولا یسكنون قراهم ، وعليهم وال من قبل النوبة ،،، وتنتهى كل نهايات أسماء قبائل الشایقية باللاصقة البجاویة أب ، ویقال أيضاً أنه یجرى فى دماء الشایقية بعض من الدم الشركسى .

(٢) ینظر سیره اللعسر بن عبد الرحمن فى الطبقات و Nicholls, The shai kya, pp. ١٠-١٤ وما کمایکل . مصدر سابق ج٢ ص ٢٦٦ – ٢٦٧ – ٢٠٤ – ٢٠٥ یقول ود ضیف الله فى الطبقات إن اسمه « حمد ولد عثمان » الطبقات مصدر سابق [المترجم] .

وتعرضت سلطتهم للتحدى فى الشمال مع بداية القرن التاسع عشر عندما استقر فى دنقلا المماليك الفارون من مجازر محمد على فى عام ١٨١١م ، وقام المماليك بطرد الشايقية خارج مراغة حصنهم وحموا الدناقلة ، وعاش المماليك والشايقية فى حالة من العداء المشترك إلى أن بدأ محمد على غزوه للسودان عام ١٨٢٠م، عندها هرب المماليك جنديا واختفوا من التاريخ . واتحد الشايقية لمقاومة الغازى وحاربوا ببسالة ، ولكنهم لكونهم مسلحين بالرماح والحراب انهزموا أمام المصريين المسلحين تسليحاً جيداً ، وتكبدوا خسائر فادحة ، ولأنهم لم يكونوا قادرين على البقاء كمزارعين ، فإنهم انضموا إلى الجيش جنوداً غير نظاميين وخدموا سادتهم بإخلاص .

٤- دارفور ودخولها الإسلام

تتكون دار فور من هضبة سهوبيا واسعة تفصلها تلال مرتفعة فى وسطها جبل مرة ، والعناصر الأثنية الرئيسية عناصر زنجية وحامية ، وفى تاريخ مجهول قبل القرن الثانى عشر جاء الداجو - وهم سلالة من السود - من الشرق وسيطروا على وسط دارفور وأسسوا حكومة ملكية ^(١)، وفيما بعد فى القرن الرابع عشر بدأت الهجرة إلى هناك بعض البربر أو النوبيون التنجرة ^(٢)، فإذا كانوا بربرا فربما حركهم ضغط بنو هلال فى شمال إفريقيا ، وفاز التنجر تدريجياً بالسلطة وسيطروا على السود ، ولكن سرعان ما بدأوا يفقدون شخصيتهم بالتزاوج من السود وجاءت النتيجة سلالة بدائية . إن الداجو والتنجر الذين فى دمهم أيضا بعض الدماء العربية يسمون بالفور ويوجد منهم فى الوقت الحاضر القليل مشتتين فى قرى التنجر .

بسط التنجر سيادتهم على وداى فى الغرب ، وشكلوا حاجزا ضد التوسع الإسلامى إلى داخل هذه المناطق ، وكان تاريخ حكم التنجر غامضاً تماماً حتى القرن الخامس عشر عندما قام بطرد حاكم التنجر شاو دورشيد أخوه غير الشقيق دالى او دليل بحر الذى كان ذا دماء فوراوية ، وأسس الأسرة الفوراوية الحاكمة المسماه كيرا ^(٣) ولا يزال هذا الرجل مشهوراً بسبب القانون الذى وضعه للبلاد (كتاب - دالى) الذى أصبح الأساس لقانون البلاد تحت حكم الأسرة الذى استمر حتى عام ١٩١٦م.

(١) افترض نسبة للصلاة اللغوية بين الداجو وشعوب جبال كادوقلى بأنهم أتوا من دار نوبا ، نوقشت مشكلة الداجو فى SNR. VIII, 59, VX151FF ، ولم يتم امتصاص كل الداجو ، إذ يقطن فى دارفور عدد منهم .

(٢) يقول ما كما يكل ، مصدر سابق ص ٦١ . ١٦٩ أنه يستشف من تقاليدهم أنهم قبيلة نوباوية قديمة لما قبل قدوم العرب ، وبإمكان المرء أن يستدل - من التقاليد الموجودة الآن وسطهم - على أنهم كانوا مسيحيين فى زمن هجرتهم من الغرب ، وتتعلق العادات المشار إليها برسم علامة الصليب فى مختلف المراسم ، ومع ذلك فإن موتيفة الصليب شائعة بشكل كبير خارج المسيحية .

(٣) استمر التنجر فى السلطة فى وادى حتى عام ١٦٢٥م عندما قام عبد الكريم الجامع بإسقاط الملك داود ويعد عبدالكريم مؤسس الأسرة الإسلامية الحاكمة فى البلاد بالتعاون مع الحلفاء العرب .

وبالرغم من أن الإسلام دخل البلاد مع التنجر، فإن أحمد المقر الذي كان من أوائل الحكام المسلمين لم يكن له أى تأثير بالمرة على حياة البلاد التى عبد شعبها الحجارة والأشجار ، وكان سليمان سولونج (١٥٩٦ - ١٦١٦ م) أول حاكم فوروى يعتقد الإسلام وهو الذى غزا السهول ولحم القبائل معاً فى وحدة سياسية واحدة وأسس الأسرة الحاكمة من التورا ^(١) التى بسطت سلطتها على كردفان ، وكانت أهم علاقة بارزة فى القرن الثامن عشر هى افتتاح خط الآبار من الفاشر حتى جبال كاجا شرقاً . وسهلت هذه الآبار التجارة مع الشرق بشكل كبير ، وهكذا أصبحت دارفور أكثر اتصالاً بالمراكز الإسلامية ، وبذا بدأت عملية الأسلمة ، وجلب سليمان الفقرا من الشرق لتعليم الإسلام ^(٢) ، وتسارعت العملية مع أحمد بكر حفيد سليمان الذى حاول إدخال بعض الإجراءات المدنيةية إلى البلاد وذلك بجعلها أكثر تكييفاً للدولة الإسلامية . وفى حقيقة الأمر فقد بقيت الدولة بنفس الشكل حتى عام ١٩١٦ م ، كما كوّن علاقات مع عناصر من السكان الأجانب من البجيرمى والبورنو ، وشجع التجارة وشيد المساجد والمدارس وأدخل الأسلحة النارية ، ثم بدأ الشعب تدريجياً فى تبني الإسلام عندما أصبح على اتصال بالعالم العريض عن طريق التجار والفقرا ، وبينما تبناوا الممارسات الظاهرية للإسلام فإن الجذور الاجتماعية لحياتهم الوثنية بقيت حتى اليوم أرواحية الى حد بعيد .

وكانت الروابط الخارجية لدارفور دائماً مع مجموعة وداى - بورنو بدلاً من كونها مع الشرق وسرعان ما فقدوا كردفان بعد وفاة سليمان وأصبحت مرة أخرى تحت حكم الفور عندما قام السلطان ود احمد بكر (١٧٦٨ - ١٧٨٧ م) بالسيطرة عليها وبقيت تحت سيطرتها حتى الفتح المصرى . لن نقوم هنا بأية محاولة للبحث فى تاريخ مملكة دارفور المكون من مجموعة من المنازعات التنافسية للاستيلاء على العرش وصراعات داخلية ومعارك مع وداى . ^(٣)

واستمرت دارفور سلطة مسيطرة فى الغرب حتى فتح محمد على وقيام محمد بك الدفتر دار باختراق البلاد فى عام ١٨٢٠ م ، وقد لقى مقاومة ضد قواته أجبرته على

(١) تقع التورا بين ماراوسى ، وأصبحت الفاشر العاصمة فى عهد عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٥ - ١٧٩٩ م)
(٢) يكتب السير ما كما يكل ،، زرت فى عام ١٩٠٦م التورا فى جبل مرة مقر مملكة الفور القديمة، وكذلك مكان دفن السلاطين منذ عهد سليمان سولونج ، وقد وجدت أنه قد أقيم هنا مستعمرة صغيرة للجوامعة « فقرا » الذين ادعوا انحدرهم منذ أجيال مضت من جدهم الأعلى إدريس الذى كان قد أحضره سليمان سولونج من النهر منذ ستة أجيال مضت ، وذلك من أجل خاطر الدين ، وهم منذ ذلك الحين حراس على المقابر الملكية دائمة المسجد المحلى ،، (Hist. I.189).

(٣) ويعطى التونسى Voyage au Darfour(1845) سرداً قيماً عن عادات سكان دارفور والنظام السياسى تحت السلطنة .

الانسحاب ، وفكر سلاطين دارفور عندئذ في حماية استقلالهم بالعيش ببلادهم في عزلة مانعين أى شخص أبيض بالدخول إلى بلادهم ودافعين بعض الجزية إلى القسطنطينية ، ولكن عندما سنحت الفرصة قامت الحكومة المصرية بمتابعة فتحها لكردفان وتغلغل الزبير باشا من بحر الغزال إلى داخل دارفور بأوامر من الحكومة المصرية وبدعم من إسماعيل باشا في مصر ، وقتل في عام ١٨٧٤م السلطان إبراهيم في معركة مع الزبير باشا وتم نهب الفاشر وتولى المصريون الحكم ، حتى استسلم سلاطين إلى المهديين في عام ١٨٨٢م ، واستمر المواليون للعرش محافظين على أنفسهم في أجزاء من البلاد لا يمكن الوصول إليهم فيها ، وأصبحت دارفور مرة أخرى - قبل معركة من أم درمان - تحت حكم سلطان وطنى هو على دينار زكريا .

٥- التركية

كان التأثير المصرى على السودان قد اختفى تقريباً بعد الغزو التركى للنوبة في عام ١٥١٨م ولكن طموحات محمد على الاستعمارية أحييت ذلك النفوذ مرة أخرى ، تلك الطموحات التى بدلت أقدار الشعوب السودانية .

كان السودان - قبل الفتح المصرى - مقسماً إلى عدد من المشيخات التى يحكمها المكون - حكام إمبراطورية الفونج - غنيمة سهلة لأى غاز يفكر فى ضمها. لقد كانت الأسباب الرئيسية لفتح محمد على للسودان أسباباً اقتصادية . لقد فكر بأن السودان يوفر الفائض السكانى اللازم لاصطيادهم رقيقاً وعلى أمل أن تكون غنية بالثروة المعدنية . لقد كان فى حاجة لتجنيد الرقيق فى جيشه والمال لحروبه الكثيرة ، كما كان فى حاجة لمخرج لجيشه الكبير العاقل وتم فى البداية ضم دنقلا (١٨٢٠م) وتم غزو البلاد بجيشين : الأول بقيادة ابنه اسماعيل الذى سار بمحاذاة الضفة الشرقية للنيل حتى سنار محارباً فى طريقه الشايقية والجعليين ، أما الآخر فبقيادة محمد بك الدفتردار الذى سلك طريقه داخل صحراء بيوضة إلى كردفان حيث هزم المسبعات . لقد كان الاحتلال سهلاً ، ولم تواجههم سوى مقاومة ضئيلة وأريق القليل من الدماء فى قتال فعلى بالرغم من أن الابتزازات والأخذ بالنار التى نفذتها الجيوش فيما بعد كان مقززاً للنفس بشكل كبير .

وفى التاريخ الذى توفى فيه محمد على (١٨٤٩م) امتدت سلطة مصر جنوباً حتى كدوك ، بينما ضمت المناطق الشرقية كل أراضي البجة - منطقتى كسلا وطوكر - على الحدود الحبشية ، ولقد تم تنظيم البلاد بغرض الاستغلال فقط ، ولم يتم وضع إدارة مباشرة وأصبحت الخرطوم العاصمة الجديدة (١٨٣٠م) سوقاً مركزية لتجارة الرقيق الواسعة ، واندفع المغيرون لاصطياد العاج والرقيق إلى ما وراء الإقليم الذى تحتله مصر . وأسسوا مراكز جديدة فى الجنوب ، واستاء السكان ، وقام الخديوى سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) بإصدار مراسيم بالغاء الرق ، وقام موظفوه بإبطال مفعول المراسيم ، وبدءاً من عام ١٨٦٠م تمركز قناصة الرقيق - خاصة من الخرطوميين

وأساساً الدناقلة والجعلين - فى سلسلة من المحطات على طول الأنهار، وتزايدت بدرجة أدت إلى خراب الجنوب ، وكتب السير صمويل بيكر فى عام ١٨٧٢م عن الجنوب قائلاً :

من المستحيل وصف التغير الذى حدث منذ أول زيارة قمت بها لهذا الإقليم ، لقد كان عند ذاك حديقة غناء ذات كثافة سكانية وتنتج كل ما يرغب فيه الإنسان، وكانت القرى كثيرة وبساتين من النباتات فوق المنحدرات على ضفة النهر ، وكان المواطنون يرتدون ملابس نظيفة . لقد تغير المشهد ! فالإقليم كله قفر ، لقد هرب السكان ولا قرية ترى . هذه هى النتيجة المؤكدة لاستيطان تجار الخرطوم . لقد خطفوا النساء والأطفال لاسترقاقهم ونهبوا ودمروا كل مكان وضعوا فيه أقدامهم^(١).

وأصبح تجار الرقيق من أمثال الزبير باشا حكاماً ، كما عين الخديوى حكاماً أوروبيين بالاستوائية (بيكر ١٨٧٠ - ١٨٧٣م) ، وغردون (١٨٧٤ - ١٨٧٩م) لاختبار صلابتهم ولمحاولة تطبيق القرارات الرسمية لمنع الرقيق ، وكان التلطيف الفعلى مؤقتاً ، ولكن جاء عمل غردون كميلاد جديد للشعوب المعذبة ، فاتحاً آمالهم لإمكانية رؤية أشياء أفضل رغم عدم معرفتهم كيف يحصلون عليها .

لقد كانت الإدارة المصرية فاسدة حتى النخاع . فعند خلع الخديوى إسماعيل فى عام ١٨٧٩م كانت ممتلكاته فى السودان الواسع فى حالة مزرية تماماً بسبب سوء الإدارة والاستغلال . لقد أعطى الكثير من الرحالة صورة محبطة للحكم المصرى فى السودان ، صورة عن الشعب الذى حكم بالقوة وشلته الضرائب الثقيلة وبانتشار مناطق الذباب ودمار المديرىات وبتحطيم الجماعات القبلية الوثنية والهجمات المباشرة بشكل مستمر وفرارهم وهجرتهم وتمزيق الروابط الأسرية .

لقد كان السبب الأساسى لهذا الوضع هو أن كل الاقتصاد والرفاهية الاجتماعية للسودان - وبدرجة أكبر بالنسبة لمصر - جاء من الاعتماد على الرق ، لقد كانت البلاد عديمة القيمة لمصر ، على الرغم من طموحات محمد على فيما عدا تجارة الرق ، لذا فقد ارتكز عليها الحكم المصرى . إن مثل هذا النظام القائم على الطمع لم يكن يهتم أبداً برفاهية الشعب . إن الشعوب المعذبة التى تربت على تقاليد الإيمان بالقضاء والقدر تقبلت الأمر الجديد بشكل سلبي . إن الدين وحده قد يمنح الدافع لتركيز كل هذه المشاعر المحجوبة لأن تصبح تعبيراً فعالاً عن المشاعر ، ولكن الوقت متاح الآن حيث وفر الدين أخيراً الحافز الضرورى الذى صمم للرد على هذه الأحوال السياسية والاجتماعية .

(١) مقتبسة من : The Life of Gordon by D.C. Boulger, p.142

٦- المهية

كان هذا هو الوضع في عام ١٨٨١م في ساحة القتال ، إذ بدأ في حقيقة الأمر لبعض الوقت أنه توحيد للسلالات السودانية المتنوعة للقيام بهجوم مضاد لاكتساح ممثلى السلطة المصرية - العثمانية خارج البلاد .

لقد كان الدنقلاوى محمد أحمد (١٨٤٣ - ١٨٨٥م) ابن صانع المراكب رمزاً وقائداً لهذه الثورة التى ستؤسس السلطة الدينية . لقد كانت لديه خلوة لتعليم الصبية فى بربر وكبرى ، ثم رحل إلى الخرطوم حيث أخذ الطريقة على الشيخ محمد شريف خليفة السمانية (فى عام ١٨٦١م) ، وعلى خليفة الإدريسية فى قرى ، وسرعان ما حقق له حماسه وورعه الاعتراف ، وبعد سبع سنوات من الزهد عين شيخاً معلماً للسمانية وراية خاصة وسلطة فى قبول الآخرين فى الطريقة ، وسرعان ما اعتزل بعد ذلك (١٨٧١م) فى الجزيرة أبا على النيل الأبيض حيث بنى خلوة ، وبدأ فى جمع التلاميذ حوله ، وكان من بينهم على ودحلو الذى سيصبح خليفته الثانى .

وكان ساخطاً من انهماك زعماء الدين - مثل الخليفة شريف - فى الأمور الدنيوية وأدت صراحته إلى شجار بينه وبين أستاذه الذى قام بطرده من الطريقة ^(١) ، مما جعله يتصل بمنافسه الشيخ القرشى شيخ الطريقة السمانية بالمسلمية والذى أخذ الطريقة من الشيخ الطيب مؤسس الطريقة ، وعند وفاة الشيخ القرشى خلفه محمد أحمد (١٨٨٠م) .

وكان محمد أحمد - لعلاقته الوثيقة بالشعب ونتيجة لتنقلاته الكثيرة لنشر دعوته - حزيناً لمعاناتهم ، وكان مدركاً أن تعصبهم الدينى الكامن ينتظر فقط قدوم المخلص ، ومعرضاً نفسه للتقشف الدينى ومحولاً العيش خارج العالم فى أرض الأحلام الصوفية الخيالى والانجذاب الصوفى ، ولكن عالم الواقع كان يضغط عليه ويزعجه إلى أن جاءه الإلهام فجأة بأنه المهدي المنتظر ، ولقد كان هذا الإلهام مؤسساً بلا شك على الخبرة الدينية التى آمن بها بصدق برغم أنه كان عليه أن يكابد مصير معظم المصلحين الدينيين ، وأن تصورات اختلطت بالأفكار السياسية والاجتماعية ، وكان عليه أن يمارس الخدعة المدروسة ويستخدم الوسائل الحكيمة .

وبدأ وهو مقتنع بدعوته فى مارس ١٨٨١م فى إدخال الآخرين سرّاً فى نشاطه التبشيري وتقيدهم بولاء واحد يرتفع فوق كل الروابط القبلية وهو الولاء لله عن طريقه وبالجهد ضد الترك الكفار ، لتطهير العالم من الظلم والفساد ، وضم إليه فى مرحلة مبكرة بعض زعماء البقارة وذلك بأخذ البيعة منهم ، وكان من بينهم عبد الله التعايشي

(١) قال محمد شريف لنجوم شقير (تاريخ السودان ج٢ ص ١١٦ - ١١٨) إن الطرد سببه أن محمد أحمد أسر إليه دعواه فى عام ١٨٧٨م ورغب فى أن يكون محمد شريف وزيراً ، وقد رفض محمد شريف إدعاءاته . وعقد مجلساً فى أبا حضره النظار والقضاة فى محاولة لإقناعه والرجوع عن خطئه ، ولكنه رفض التخلي عن معتقده ، وقام محمد شريف بطرده من الطريقة ، وينكر أتباع المهدي هذه القصة .

الذى أصبح خليفته ^(١) ، وأخير محمد شريف روف باشا - الحاكم العام - بما يحدث، ولم يهتم روف باشا فى البداية بالأمر ، ولكن عندما أعلن محمد أحمد نفسه علناً مهدياً (أغسطس ١٨٨١م) تم إرسال حملة صغيرة ضده فى أبا ، وبعد أن هزم هذه الحملة هاجر إلى جبل قدير فى كردفان وجعله مركزاً لنشر دعايته ، ومنه بعث برسله حاملين الرسائل والبيانات التى تعلن قدوم المهدي وبدء طريقة عالمية جديدة ، وقد أسس تصورات على لقاءاته مع النبى الخضر وجبريل والأقطاب وتدفقت الاستدعاءات « بالهجرة » للانضمام إلى راياته والقسم بالولاء .

ونحن لا نغنى بسرد تفصيلى لنجاحات المهدي وفشل الإجراءات الحكومية ضده بسبب سوء فهمهم للقوة الدافعة للتمرد وطبيعتها التى أصبحت ثورة شاملة بسبب نجاحاته ، وسقطت الأبيض فى عام ١٨٨٢م وأبيد جيش هكس ، وقررت الحكومة البريطانية ، التخلّى عن السودان ، وأرسلت الجنرال غردون لتنفيذ المهمة المستحيلة فى شكلها المزدوج : انسحاب الحامية وترك شكل من أشكال الحكومة المنظمة ^(٢) ، وطلب غردون إرسال الزبير باشا تاجر الرقيق القديم الذى كان منفياً فى مصر إلى السودان لإعادة تنظيم الحكومة، وعندما رفض طلبه قرر أن ينفذ الأمر بنفسه على أمل أن تقوم الحكومة المصرية بإرسال حملة ، وحاصر المهدي الخرطوم وقتل غردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥م .

وشرع المهدي بعد سقوط الخرطوم فى تنظيم سلطته ، ولكنه لم يعيش طويلاً بعد مقتل غردون ؛ إذ توفى فى يونيو من العام نفسه وخلفه عبد الله التعايشى بالبيان الذى أصدره المهدي والذى ينتهى بـ :

... إن الخليفة عبد الله هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا فى جميع أمور الدين ، وإياكم والوسوسة فى حقه ، وأطيعوا أوامره وصدقوه فى قوله وأعطوه كل ثقتكم وإيمانكم فى كل شئونكم . كان الله معكم . آمين ^(٣)

وكان الخليفة رجلاً قوى الشخصية واستعد لتنفيذ البرنامج الدينى - السياسى للمهدي ، ولم يكن باستطاعته تحقيق ذلك ما لم يحافظ على وحدة المهدية بأن يركز فى يده القوات القبلية شديدة اليقظة والبعيدة عن المركز والتى ترجح هذه الوحدة الضرورية للإخلاص والتوجيه ، وعزم على مهاجمة مصر إلا أن التمرد الداخلى فى دارفور وكردفان حال دون ذلك حتى عام ١٨٨٩م عندما انهزمت حملته فى توشكى

(١) يقال ان عبد الله ألح على الزبير باشا أن يعلن نفسه مهدياً (سلاطين . السيف والنار ص ١٢٧ - شقير . مصدر سابق ص ٧١ - ٧٢) ويقول كاتب فى المقتطف (xxlv 1905) أنه هو الذى حرض محمد أحمد ليعلن نفسه .

(٢) ينظر الفصول ٧.٦ فى B.M.Allen, Gordon and the Sudan بخصوص مناقشة تعليمات غردون

(٣) نعوم شقير . مصدر سابق ج ٢ ص ١٧٢

وأنهت أحلامه فى فتح العالم ، وكان عليه لتعزيز وتقوية حكمه أن يسحق القبائل النهرية - الدناقلة والجعلين وقبائل الجزيرة الذين أصبحوا فيما بعد أتباع المهدي الأساسيين . ولإقناع قبيلته وقبائل البقارة الآخرين قام برشوتهم وإجبارهم على الهجرة إلى أم درمان حيث بدأوا فى دعم أنفسهم - لعدم وجود قطعانهم معهم - بنهب الآخرين . إن هذا الزرع الصناعى للبدو داخل أراضى السكان المستقرين كان عملاً طفيلياً أقلق كل البنية الاجتماعية ، وكانت العلامة البارزة لبداية النهاية للمهدية ، وتم طرد أمراء المهدي عدا عثمان دقنه الذى جمع حوله الولاء الشخصى للعديد من الهدندوة ، وهكذا بدأت سنوات الطغيان والقمع التى تركت أثراً لا يمحي فى عقول السودانيين ، وعانت البلاد كلها بشكل قاس من القهر والحروب المستمرة وتوابعهما الأمراض والمجاعات ، التى أهلكت كل القبائل وأصبح جزءاً كبيراً من البلاد خالياً من المزروعات .

وتبنت الحكومة البريطانية بعد سقوط الخرطوم سياسة مؤقتة بعدم التصادم مع السودان ، ولكن تم التخلي عن هذه السياسة فى عام ١٨٩٦م ، وكانت الأسباب التالية أسباباً مساعدة : (١) المخاوف من خطط فرنسا فى الجنوب . (٢) انتهاء التدريبات البريطانية للجيش المصرى . (٣) تصاعد الروح الاستعمارية (٤) المناشدات من السفير الإيطالى بتخفيف الضغط على القوات الإيطالية فى إريتريا . (٥) الرغبة فى إرضاء روح المثالية مكافأة لموت غردون ، وذلك بتخليص البلاد من الطغيان . وبدأ إعادة الفتح فى عام ١٨٩٦م وانتهى فى عام ١٨٩٨م بمعركة أم درمان وموت الخليفة فى السنة التالية ، وتم بالتالى البدء فى وضع سياسى جديد هو السودان الإنجليزى - المصرى.

٧- السودان الإنجليزى - المصرى

لسنا بحاجة لذكر الكثير عن الماضى والتقدم المادى للسودان تحت الحكم البريطانى الذى قد يكون متناسباً مع المرحلة التاريخية التى - برغم تفرداها - قد تكون مرحلة انتقالية ^(١) ، وقد لا تسلم بريطانيا السودان بعد الفتح إلى الحكم المصرى بسبب ماضى سجل الحكم المصرى السيئ ، ولن تستولى عليه بنفسها بسبب احتمال التعقيدات الدولية والمصالح المصرية الخاصة فى مياه النيل ، ومن ثم لإرضاء المطالب وضمان حكومة سودانية جديدة تم خلق الحكم الثنائى من بريطانيا ومصر ، وكان هذا أكثر قليلاً من رابطة سياسة ، وأخذت بريطانيا بحق الفتح من الحس السودانى بعدم الثقة فى المصريين بالعبء الإدارى الأكبر ، وشكلت حكومة سودانية ذات حكم ذاتى متحررة من تدخل وزارة الخارجية البريطانية أو الحكومة المصرية ، وما زال هذا الحكم الذاتى قائماً ، وقد تقرر بمعاهدة ١٩٣٦م التى تنص « يجب أن يكون الهدف الأساسى

The Anglo-Egyptian Sudan(1934)

(١) يمكن الرجوع إلى السير هـ.أ. ماكمايكل

والكتيب الفابى The Sudan : The Poad Ahead (1945)

لإدارتهما في السودان هو خير السودانين « ، يسمح لمصر طبقاً للمعاهدة بالاحتفاظ بقوة عسكرية في السودان ، وأصبح الآن دورها الحقيقي في السودان الحديث - عن طريق علاقتها السياسية - تعزيز الثقافة الإسلامية ، إذ لا يرغب السودانيون في أن يحكمهم المصريون .

كان الوضع البريطاني القائم بالفعل كحاكم للسودان هو الوصاية على الشعب السوداني الذي لم يكن قادراً على حكم نفسه ، وقدمت بريطانيا بضمير ما اقتنعت أنه في صالحهم ، وقد تضمن ذلك وحدة المسلمين في الشمال وتدريب السودانين على الإسهام التدريجي في الإدارة وتعزيز تطوّرهم نحو الاشتراك الفعلي في الحكم ، وتغييرت البلاد تحت الإدارة البريطانية بشكل كبير ، وتحول العداء إلى الثقة والفقر إلى الكفاية والاضطهاد إلى الحرية . أما بالنسبة للفروق العرقية الواسعة والمؤسسات القبلية في البلاد فتم الاحتفاظ بأمن داخلي بشكل مدهش، وتم في الحال منع الغارات لاصطياد الرقيق ، كما خمدت تقريباً الحروب بين القبائل ، وتم ضم دارفور في عام ١٩١٦م بعد قمع تمرد السلطان على دينار الذي كانت حكومة السودان قد اعترفت به بعد معركة أم درمان سلطاناً مستقلاً وقيامه بدفع جزية سنوية ، ومع ذلك فلم يتم أبداً استيعاب المديرية داخل بنية السودان الشرقي ، وتم تأسيس النظم الإدارية والقضائية والتعليمية واستبدال « الحكم غير المباشر » بـ « الحكم المباشر » بالإداريين السابقين ، كما تم منح البدو عن طريق النظام القبلي مشاركة متزايدة في إدارة شئونهم ، ومنحت الإدارة المحلية مهام إدارية في المناطق الريفية والحضرية ، وأصبحت الآن الأغلبية الكبيرة من الموظفين الكتابيين في الحكومة من السودانين (٧٩٪ في نهاية عام ١٩٤٦م) ، كما أصبح هناك تطور اقتصادي ومادي يعتمد على الموارد الضئيلة للبلاد ، وبسبب الإجراءات التي تم اتخاذها لتشجيع المزارعين وتجارب المحاصيل ونظم الري توسعت الرقعة الزراعية بشكل كبير ، وزادت السلع الغذائية واختفى الخوف من المجاعة ، كما ارتفع عدد السكان من حوالي ٢ مليون نسمة عام ١٩٠٠م إلى حوالي ٦.٥ مليون نسمة عام ١٩٤٥م ، ونمت المدن وعمرت القرى وأعيد تشكيل القبائل البدوية ، كما تحسنت صحة المواطن عن طريق تعزيز الصحة العامة والبحوث الدوائية .

ونجحت في المقام الأول سياسة الوصاية بسبب نوعية مجموعة الموظفين البريطانيين الذين أثبتوا روحاً عالية للمسئولية والإخلاص ، واكتسبوا روح الجماعة الذي وضعهم على مستوى أعظم الإنجازات التاريخية في حكم الطبقة الحاكمة الأجنبية ، وثانياً : خلو السودان من المشاكل السياسية الداخلية المعقدة واستيطان الرجل الأبيض ، كما تضمنت سياسة الوصاية خلال سنوات الحرب الاتجاه نحو سياسة المشاركة والسير نحو الحكم الذاتي النهائي ، كما تم تشكيل المجلس الاستشاري للسودان الشمالي في عام ١٩٤٤م ، وبينما يقدم الآن اسهاماً بسيطاً للسودانيين في الإدارة المركزية فإنه قد

وفر الأساس الممتاز للتطور نحو تعاون محكم بين ممثلى الحكم الثنائى والزعماء السودانين فى الرعاية المشتركة للدولة والشعب. (١)

٨- انتشار الإسلام فى السودان

بعد أن نشر الاندفاع الأول للفتح الإسلامى الجيوش العربية فوق ساحل البحر المتوسط خمدت طاقته وتوقف تقدمه إلى داخل إفريقيا فى الشرق بالمملكة النوبية، وفى الغرب بالإسبان وعصيان البربر وصراعات الأمراء المغاربة ، كما أن القبائل الوثنية القوية مثل القرعان البدو فى تبستى أوقفوا تقدمه ، وأخفق عقبه بن نافع فى غاراته الاستكشافية فى اكتشاف منطقة الساقانا الغنية فى وسط السودان ، وبدأت المرحلة الثانية للفتح فى إفريقيا فى القرن الحادى عشر مع الازدياد المفاجئ لقبائل بنى هلال وبنى سليم البدوية فى الشرق ودخول البربر فى الاسلام وفتوحات المرابطين فى السنغال مما أدى إلى أن يصبح كل شمال افريقيا والصحراء تحت الحكم الاسلامى، ولجأت القبائل المحاربة إلى الإسلام بسهولة لأنه - مع عقيدة الجهاد - كان وسيلة للهيمنة والسيادة. لقد تحركت هذه القبائل المحاربة جنوباً وغزت وتصاهرت مع الوثنيين ، وأدى هذا إلى ظهور الممالك الإفريقية المولدة القوية فى السودان الغربى مثل سنغى وبورنو ومالى. (٢)

وانتشر الاسلام فى السودان الشرقى كما رأينا فى القرن الرابع عشر عندما سقطت مملكة مقرة المسيحية وتركت معظم مناطقها الشمالية والوسطى مفتوحة أمام تغلغل المسلمين ، لذا فقد التقى التياران - تغلغل التجار من النوبة حتى وصلوا نيجيريا -، بينما انتشرت دعاية البربر والسودان الغربى نحو الشرق ، وارتبطت بورنو ووداي بدارفور وكردفان. إن القبائل الغربية فعلت الكثير لنشر الإسلام فى إفريقيا أكثر مما فعلته القبائل الشرقية ، وقد اتصل التيار الشرقى بالغربى ولكنه لم يتعد جنوب سنار . وبعد أن أسلمت ممالك دنقلا وعلوة توقف أى تقدم إضافى نحو الجنوب

(١) تم بعد كتابة هذا الجزء اتخاذ خطوة إضافية نحو الحكم الذاتى . كما أعلن الحاكم العام أمام المجلس الاستشارى وضع خطة مدتها عشرون عاماً لإعداد السودانين لتولى المناصب الحكومية العليا ، وسيتم تطوير التعليم لتأهيل السودانين لتولى المناصب العليا فى أقرب فرصة ممكنة (The times, 30-5-1945) وعقد العزم على تشكيل مجلس تنفيذى من ١٢ عضواً ، ستة سودانيين سيتم اختيارهم من أعضاء المجلس التشريعى الذى سيكون به أغلبية الاعضاء المنتخبين .

(٢) كان للنقوذ الشرقى على وسط السودان فى القرن السابع أثر كبير لأن «الإسلام انتشر من مصر إلى كانم - المملكة الواقعة شمال وشمال شرق بحيرة تشاد التى نهضت بعد اعتناق الإسلام بقليل لتصبح دولة ذات أهمية معتبرة وبسطت سيطرتها على قبائل السودان الشرقى حتى حدود مصر والنوبة ، ويقال إن أول ملك مسلم لكانم كان يحكم البلاد عند نهاية القرن الحادى عشر أو بداية القرن الثانى عشر . (Becker ,

Geschichte des östlichen Sudan, pp.169-3)

اقتبسها T.W.Arnold, preaching of Islam, p.320

وتم فى القرن الخامس عشر انتقال عاصمة مملكة كانم إلى بورنو غربى بحيرة تشاد .

الشرقى بسبب رسوخ المسيحية الإثيوبية أو نحو الجنوب بسبب مصاعب اختراق منطقة السدود والمقاومة الحاسمة من قبل القبائل النيلية .

قلنا إن القبائل العربية التي سيطرت على السودان الشرقى لم يحركها الحماس الدينى ، ولكن دوافع التجول بحثاً عن المرعى وروح الطمع والرغبة فى الهروب من حكم الممالك . إن القبائل البدوية التى نادراً ما تكون متعصبة ومجردة من الحماس التبشيرى لم تقم بأى محاولة عند دخولها فى الدين الجديد . لقد كان انتشار الإسلام أساساً عن طريق التغلغل والمصاهرة والسياسة الاستراتيجية للزعماء الفائزين وقادة المجموعات (التى تشمل الإجراءات القسرية) والتجارة والاستيلاء على الرقيق ، وكما فى الأيام الأولى للفتوحات الإسلامية فإن اعتناق الإسلام ربط التحول بالنظام القبلى العربى كتابع.

إن حكاية ابن سليم التى أعطتنا صورة عن بعثة إسلامية منهمكة فى العمل تثبت أنه كان هناك بعض النشاط التبشيرى المباشر وسط الوثنيين فى القرن الخامس عشر، ويروى ابن سليم محادثته فى بلاط مقرة مع وثنى من بلاد تبعد عن النيل مسافة ثلاثة أشهر ، وعندما سأل عن دينه أجاب :

ربى وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد . وأنه قال له فأين يكون ، قال فى السماء وحده، وقال إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجيبون للوقت وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا، وسأله هل أرسل فيكم رسول ، قال لا ، فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وما أبدوا من المعجزات ، فقال إذا كانوا فعلوا فقد صدقوا. ^(١)

وللإسلام خاصية الاستمرارية برغم التفاوت الكبير فى الشدة ، ويجب التأكيد على أن الأشخاص الذين نشروا الإسلام فى إفريقيا كانوا دائماً أفارقة وحاميين فى الأساس ، وكانت معظم الممالك السودانية الإسلامية (وداى وبورنو ودارفور وتقلي) قد أسسها بعض الفقرا الحاميين المتحدثين بالعربية الذين قدموا لنشر التجارة والإسلام . لقد كان إسلاماً إفريقياً فى إفريقيا.

لقد كان إسلام الفونج والعرب البدو إسلاماً اسمياً ، وأعلن الفونج إسلامهم لدواعى سياسية برغم أنهم دعوا « الأولياء » من الخارج ورحبوا بهم ، ولم يكن الدناقلة والقبائل الشمالية تعرف من الإسلام سوى الشهادة ، إلى أن أسس فى القرن الرابع عشر شيخ وكابى يدعى غلام الله بن عايد - كان والده قد جاء من اليمن - مركزاً لتعليم القرآن فى دنقلا التى كانت عند قدومه قد غرقت فى الجهل بسبب عدم وجود رجال متعلمين ^(٢) ، وقد طور المركز أبناء جابر الأربعة الذين أسسوا - فى القرن السادس عشر - الخلاوى فى بلاد الشايقية وحققوا نفوذاً معتبراً .

-(١) المقرئى . مصدر سابق ج١ ص ٣١٢

* فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر (ينظر الطبقات) المترجم

Mac Mchael's M.S.D..5(d) History,ii-342

(٢)

وفى مملكة الفونج ذاتها كان أول مصلح هو محمد العركى الذى قدم من مصر واستقر على النيل الأبيض ، والأمر المثير هو أن معظم الأجانب الذين أثروا بشكل كبير على الحياة الدينية فى السودان الشرقى كانوا من الحجاز ، كما ذهب إلى الأراضى المقدسة للحج العديد من السودانيين الذين تم تعيينهم عند عودتهم فقرا ^(١) . إن نشاط هؤلاء الفقرا من مراكز زواياهم - رغم جهلهم - أثار النشاط التبشيري الداخلى الذى أدى إلى إحياء الإسلام فى النوبة وسنار ، وكذلك اعتناق البجة والقبائل الزنجية الوثنية للإسلام تلك القبائل التى كانت متحدة مع الفونج كونفدرالياً ، وسافر بعض الفقرا لمسافة أبعد حتى وصلوا إلى وسط السودان ^(٢) ، ومع ذلك فلم يكن نفوذ هؤلاء المبشرين قوياً للتأثير على الشك على طول النيل الأبيض ، وعلى الأغلبية من نوبا كردفان والإنقسنا وبورنو والخمة جنوبى الفونج ، وكلها ما تزال وثنية .

كما كان هناك عامل آخر مهم فى نشر الإسلام خلال حكم الفونج وهو هجرة مجموعات من المحس واستيطانهم على النيل الأزرق فى توتى والطفاية والعلفون وكترنج والكاملين وأماكن عديدة أخرى ، وهؤلاء المحس الذين يدعون أنهم عرب أنصار سرعان ما تبنا اللغة العربية والتدريس التقليدى للتشريع ووراثة الصوفية وأسسوا أسراً من الفقرا تقوم بعمل المعجزات . وقد أثروا بعمق على الحياة القبلية للسكان فى اتحاد الفونج الكونفدرالى ، وكانت أهم نتائج التأثير الحجازى هو إدخال الطرق الدينية القادرية والشاذلية التى كانت تعاليمها الصوفية آنذاك فى حالة غير كاملة ولكنها مبسطة . ولم تكن هذه الطرق مركزية عندما تكونت فى السودان ، وكانت السلطة الدينية كلها متمركزة فى يد مختلف الشيوخ . وهكذا أصبح الإسلام السودانى « سامياً » بالمعنى الحرفى للكلمة بالإضافة إلى المعنى المجازى ، وأصبحت الزاوية نواة الحضارة الإسلامية الجينية فى البيئة الوثنية ، لذا فقد أصبحت عبادة الولى أقوى تأثير دينى فى السودان ، وتطورت سيرة الأولياء لدرجة تفوق فيها الأولياء السودانيون على أعظم الشخصيات المبجلة فى الإسلام ، واتحدت الطقوس الوثنية والعادات الاجتماعية مع الحرية المطلقة ، وبقي الشعب أرواحياً تحت التقاليد الإسلامية لمدة طويلة ، وظلت أسلمة الشعوب التى خارج نفوذ الفونج ساكنة حتى بعد الفتح المصرى ^(٣) .

(١) شجع بعض ملوك الفونج الفقرا للذهاب إلى الحج، وذلك بدفع نفقات سفرهم (ينظر رواية المصوى فى الطبقات م ٢٠ - ٢١)

(٢) من أمثال محمد بن عدلان الذى ذهب إلى بورنو وأرض الهوسا ، وأبى سرور الفضلى شيخ إدريس وأبى زيد اللذين عملا فى دارفور والبرقو.

(٣) عندما كان بروس فى عام ١٧٧٢م يتحدث عن العرب « كمتعصبين قليلي الاحتمال » قال عن السود فى سنار أنهم « لا يهتمون إلا قليلاً بتفاصيل الدين المحمدى الذى يعتقدونه من أجل الحرية الشخصية والأفضليات فى التجارة فحسب ، وكانوا وثنيين فى قلوبهم وممارستهم ومسلمين فى محادثتهم فقط ، أما أبنائهم فهم وثنيون كآبائهم ما لم يبذل بعض الفقرا والأولياء العرب جهداً عظيماً لتعليمهم وتدريبهم القراءة ، وإلا فإن كل دينهم يتألف من الاعتراف بالدين » بروس مصدر سابق ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

ودائماً ما كانت دار فور مرتبطة أكثر مع وسط السودان من ارتباطها مع الشرق، وكانت كما رأينا - منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر - تحت سيطرة التجار الوثنيين الذين حكموا أيضاً وداى ، وقد دخلت الإسلام تدريجياً وجزئياً تحت الأسرة الحاكمة التى أسسها سليمان سولونج فى عام ١٥٩٦م والتى قام أحد سلاطينها ، وهو السلطان تيراب بفتح كردفان فى القرن الثامن عشر ، وحول إلى الإسلام قبيلة نوباوية تدعى كولداجى . ومع ذلك فلم تتطور أى مدارس تعليمية فى دارفور ، مثل تلك التى كانت موجودة على النيل فى الشرق وفى تمبكتو وكانو وكاتسينا فى الغرب ، وكان دين الشعب لمدة طويلة مجرد أسلمه وثنية اسمية .

ويعود التقدم الكبير للإسلام فى وسط إفريقيا إلى بداية القرن التاسع عشر ، ويرجع ذلك جزئياً لتجديد نشاط الدروايش المناضلين مع عبادتهم للأولياء ، ولكن يعود أساساً إلى الفتح الفعلى وإخضاع الوثنيين مثل هيمنة الفولانى فى نيجيريا ، كما كانت الأسباب الأخرى هى نشاط التجار المسلمين الذين كانوا دائماً عرباً - حاميين أو زنجياً حاميين يعملون بحرية تامة دون أى تنافس ، كما ساعد فى بعض الأحيان فى ظهور المهدي ، وكانت أهم العوامل هى المميزات الاجتماعية التى تحققت للأفارقة وذلك بالانتماء إلى النظام الاجتماعى الإسلامى ، مع التحرر من أى تحيز لوني وامتنياز الأخوة والوعى بالانتماء إلى نظام اجتماعى رفيع .

وكانت اليقظة التبشيرية الفعلية ثمرة أحداث من خارج إفريقيا ، نشوء الوهابية ، تجديد يقظة الطرق الصوفية ، كما تعود التأثيرات المباشرة للسودان الشرقى أساساً إلى رجل واحد هو ابن إدريس الذى أرسل من مكة فى أوائل القرن التاسع عشر البعثات التبشيرية . وقد أسس هؤلاء المبشرون طرقتهم فى السودان ، ولم يؤثر انتشارهم على الحياة الدينية السودانية فحسب ، وإنما على انتشارها إلى بعض المناطق الوثنية . وكان للطرق تأثير كبير جداً على الهداية ، إذ كانوا فى بعض الأحيان مبشرين نشطين خاصة أثناء الفترة المبكرة جداً للفتح ، إلا أن إسهامهم الحقيقى كان فى تسهيل استيعاب الأفارقة للدين الإسلامى .

وقد حدثت هذه اليقظة خلال الحكم المصرى ، وسارت الهداية جنباً إلى جنب مع الفتح وشن الهجوم على البلاد ، وحمل النوبيون بصفة خاصة عبء العمل التبشيرى كملحق لتجارة الرقيق فى كل أنحاء السودان الوثنى ، ويكتب بام الذى تجول فى كردفان عام ١٨٢٧ - ١٨٢٩م :

وجدت عدداً كبيراً من الفقرا وسط الناقلة ، المحافظين الأكثر تشدداً للدين المسمى ، وكان الاستثناء الوحيد هو أنهم مغرمون « بالبراندى » ولا يعملون بالزراعة وهم تجار ومماسرة ... إلخ وأغلبيتهم منافقون ، ومن الأفضل بالطبع تجنبهم تماماً. (١)

Pallme, travels in Kordofan, 1844, p.186.

(١)

وليس كل مسلم مبشراً ، ولكن فى إفريقيا - شريطه ألا يتضمن خطراً شخصياً - يتجه التبشير نحو إدخال الوثنيين فى الإسلام لأن يكون عملاً طبيعياً لأن الإسلام يعزز النشاطات التجارية، أما التأثير الأفضل من تأثير التجارة فهو تأثير الفقرا التابعين للطرق لأن هؤلاء يشكلون مراكز عبادة للمسلمين فى وسط السكان الوثنيين ، يحصلون على الترحيب أولاً ككتبة للأحجية ومعلمين يربطون الشعب - عن طريق اللغة العربية - بالحياة الجديدة العريضة .

ويشير بالم إلى مبشر فذ هو الشيخ بدوى الذى التقى به فى الأبيض بقوله :

إنه رجل تقى ومحبيب ويتمتع برأى جيد عن كل الناس ، ويفض المنازعات ويقدم النصائح الودود لكل من يأتى إليه طالباً النصيح ، ولا يعرف التفرقة ويتلقى الهدايا دون طلب ... وهو مسلم متشدد فيما يتعلق بالدين ويدافع عن آرائه وإيمانه بحماس كبير . ولم أسمع أبداً يتحدث بازراء عن المسيحية أو أى دين آخر ، كما يفعل الدراويش عادة ... وباختصار إنه مبشر محمدى استطاع هداية الآلاف وسط الزنوج الهمج ، لأنه يتجول معظم السنة فى الجبال مكرساً نفسه لنشر الإسلام ، كما يدافع عن إيمانه طبقاً لرسالة القرآن حتى أنه فقد ابناً له فى معركة من أجل قضية عادلة ، ويخالف الفقرا ويراعون عدم المزاح بالقرب منه ، وهو يحترمهم بشكل تام (١)

ويبدى الشيخ بدوى هذا العطف الكبير على السكان المضطهدين تحت الحكم التركى المصرى ، وهو يقول للمصريين « تسمون أنفسكم مسلمين والله وحده يعلم الحقيقة ، أما بالنسبة لى فإنكم المضطهدون لبلادى » ، وحاول محمد على أخذه ولكنه ابتعد عن طريقه فى جبال النوبة .

ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق والتجنيد فى الجيش من أهم العوامل فى نشر الإسلام ، إذ بتدمير مراكز الحياة الوثنية اتجه السكان الوثنيون نحو التراجع، وتم امتصاص العوامل القبلية داخل الإسلام ، وتسبب النحاسون فى الجنوب الغربى لبحر الغزال فى التفسخ القبلى التام ، وأصبحت مختلف جماعات الفريتيت مسلمة. ومن المدهش أن الحركة الوهابية المجاورة لم تؤثر فى السودان فيما يتعلق بتوجيه وإصلاح المعتقدات والجهاد .

وتلقى العمل التبشيري دفعة جديدة أيام المهدي ، واستمر تحطيم الوحدات الثقافية الزنجية ، ولكن القبائل النيلية قاومت بشدة مناشدات المهدي وبقيت الأعداد الكبيرة من

(١) بالم . مصدر سابق ص ١٨٩ - ١٩٠

Peney, Revue d'Ethnographie, i.492

(٢)

الشعب جنوب خط العرض ١٠° على حالتها الوثنية، ونتيجة لهذا الظلم الذى استمر لثلاثة أرباع القرن ، وبسبب التجارة والمرض والجاعة والحرب هلك جزء كبير من العديد من القبائل مثل الباري والمتو^(١) ، أما القبائل الأخرى التى تسكن فى الداخل مثل الدينكا والنوير فقد كانت فى مأمن بطبيعة أرضهم ، كما كانت ممالك الزاندى قوية جداً ولا يمكن مهاجمتها ، بينما القبائل الأخرى مثل الشلك ، اذ لم يتم قهرهم ابداً تم إخضاعها فى النهاية ، وهم مع النوبا والآخرين مثل النيامنج حافظوا على هويتهم ، اذ لم يتم قهرهم أبداً .

ورغم أن كل الأحوال كانت فى صالحه ، فإن الاسلام لم ينتشر بالسرعة التى كانت متوقعة له خلال الفترات المصرية والمهدية ، وعلى عكس التأثير الذى كان فى صالحه علينا أن نبرز وحشية الفتح المصرى وحكم الخليفة ، والقسوة اللاإنسانية لتجارة الرقيق وغدر النخاسين المسلمين فى نشر الأمراض التناسلية ومصابيح اختراق منطقة السدود والمقاومة الطبيعية للقبائل الزنجية للإسلام ؛ لأن الأرواحية محافظة جداً ، ولعب الإسلام دوراً مخرباً بالمؤسسات الوثنية ، كما كان على الشريعة فى إفريقيا مرة أخرى أن تكون أقل صرامة فى التعامل مع الوثنيين ، ويجب ألا يجبر الناس على الدخول فى الإسلام بالقوة ، اذك فطبقة الشريعة الإسلامية لا يمكن أن يباع المسلم عبداً . وبالرغم من أن هذا لن يكون ذا أهمية بالنسبة للمصريين فإنه قد ساعد على إعاقة النشاطات الخاصة بالهداية وسط القبائل التى لم تشن ضدها الغارات ، ولم يتم بالطبع وضع أى اعتبارات لهذا الأمر أثناء المهدية التى حاول قادتها تحقيق رسالة الشريعة حينما كانت قواتهم قوية بما فيه الكفاية . وعندما ضعفت قوات المهدية ارتدت عن الإسلام تلك الشعوب الوثنية التى أجبرت على الدخول فيه.

وأعاقت هذه الأسباب الإسلام بشكل كبير فى السودان الشرقى على عكس الانتشار السريع فى الغرب خلال الفترة ذاتها^(٢) ، ولم يفعل الإسلام أى شئ ليؤثر على القبائل النيلية والقبائل الأخرى فى شرق السودان . لقد كان الانتشار بطيئاً بسبب الفتح وتجارة الرقيق ، واستمر تقدم الإسلام بين الوثنيين بطيئاً جداً بسبب الاحتلال البريطانى ؛ لأن الممثلين كانوا تجاراً وفقراً وموظفين وطنيين ، وسيتم مناقشة هذا التقدم بشكل أكثر تفصيلاً فى الفصل التالى.

(١) يكتب لورد كرومر (Modern Egypt, p.889) أنه [قبل عام ١٨٨١م كانت المنطقة الواقعة على طول ضفاف نهر الرهد والدندر تحتوى على أكثر من ٨٠٠ قرية ، وعندما زار السيد ريجنالد ونجت هذه المنطقة فى عام ١٩٠٢م لم تكن هناك أى قرية باقية]

(٢) يجب أن نذكر أنه فى السودان الغربى أيضاً فإن الحروب واضطهاد القاتحين من أمثال الحاج عمر وسامورى بالإضافة إلى النشاطات التيجانية المولعة بالحرب تسببت فى بغض الإسلام الذى يمثل بالنسبة لهم شكلاً من أشكال الحركة القومية . ينظر ارنولد . مصدر سابق ص ٢٢٢

الإسلام القويم

١- تمهيد : خصائص الإسلام السوداني

إن هدفنا هو محاولة فهم دين السوداني المسلم ، فالقادم حديثاً إلى السودان والذي كان قد قرأ بعض الكتب المدرسية عن الإسلام يميل لأن يفترض جدلاً أن دين الشعب هو القرآن والشريعة ، كما أن أبرز شئ يراه الإنسان عادة هو المسجد مما يجعله يفشل في فهم أن المسجد ليس هو المركز والرمز الوحيد والمهم بالنسبة لهم . إن الرمز الأكثر أهمية للإيمان والذي ينتشر في أماكن عدة بالسودان وبوفرة كبيرة أكثر من المسجد هي قبة الولي البيضاء ويمكن اعتبار أحدهما رمزاً للنظام ، واعتبار الآخر رمزاً للإيمان الحي ، وبناء عليه فلا نحتاج لنعرف النظام أكثر كما هو ضروري لفهم الإيمان.

وقبل أن نتحول إلى الخصائص الجوهرية للإسلام السوداني هناك بعض الملاحظات المهمة الضرورية. فدراسة الإسلام في أى منطقة ليست مسألة جدولة معتقداته الأساسية وممارساته وتفكيره ، حيث نجد روح الإسلام في حياة المسلم، بل على العكس من ذلك أن نفهم ما هو الإسلام الحقيقي في حياة المسلم ؟ وما هي المتطلبات التي يحددها في الممارسة فضلاً عن النظرية ، ثم نرى كيف شكل المنهج شخصية الإنسان وعكف على ما يؤلف بالفعل فهمه لله والإنسان ، وتشكل دراسة الإسلام النظرى بالنسبة لنا مرحلة ثانوية لدراسة ما الذي يخلفه الآن في حياة البشر وخبرتهم.

وتبدو العقيدة الإسلامية بسيطة جداً على السطح لدرجة أن المرء لا يتوقع أن يجد أى انحراف كبير للتطور الإقليمي ، ولكن في الحقيقة فالإسلام ليس عقيدة بقدر ما هو نظام اجتماعي كائن حي يساوى كل الأعراق وجميع مناحي الحياة التي صاغت وكيفت نفسها في كل مكان طبقاً للظروف المحلية .

كان النشوء والتطور التاريخي للنظام الإسلامي غامضاً من خلال التلون الاكثريكي للتقاليد الإسلامية . والقارئ لكتاب مدرسي تمهيدى يمكن أن يخرج بإنطباع بأن محمداً - نبي بلاد العرب - ترجع إليه كل التقاليد التي تمت صياغتها، وفي الحقيقة فإن العنصر الإقليمي الوحيد في الإسلام هو النبي محمد نفسه ، الذي ربط نفسه بالتقليد النبوي لليهودية والمسيحية ، وأعلن نفسه نبي العرب ، وأصبح زعيماً سياسياً ناجحاً في الجزيرة العربية . وليس هذا كل شئ . إن ظهوره والوحدة السياسية التي فرضها هو وخلفاؤه على الجزيرة العربية تطابق مع القوى التي تسببت في هجرة سامية جديدة في القرن السابع . إن تلك الهجرة وهي تنشر جماعات البدو البرابرة المحاربين مع عقيدتها الموحدة لصيحة الحرب على مصر وسوريا البيزنطيتين وعلى

الإمبراطورية الساسانية درست - إلى جانب النظم الإدارية والاقتصادية للدول المفتوحة - الكثير من وجهة نظرهم وديانتهم وثقافتهم على الحياة . إن المهاجرين العرب القليلين عدداً والأدنى ثقافة من الدول التي فتحوها أتوا بشئ جديد وحيوى : القوة الدافعة للوحدة التي بدونها ما كان باستطاعة الهجرة الجماعية تلك أن تنجح أبداً . لقد كان هذا هو العامل النبوى الأصيل لمحمد الذى تجسد فى القرآن وأساس عمله الناجح فى دمج الدين والدولة . إن هذا العامل الفردى الذى أعطى الإسلام هذه الصفة التى يمكن تمييزها امتصته جماهير المهتدين كعامل حيوى داخل حضارتهم الهيلينية - الشرقية ، وأصبحت بسرعة عامل توحيد بالنسبة لهم ، وقد أعطى هؤلاء المهتدون من جهة أخرى العقيدة النبوية الجديدة - الإسلام - الاستشراف العالمى الذى غرس الدين داخل كل شئ فى الحياة . مفهوم حياة غريبة للعربى البدوى عيزالمبالى دينياً فى القرن السابع كما هو اليوم ^(١) ، لذا فقد أصبح الإسلام هو النظام الذى وفق بين المعتقدات الدينية المتعارضة، وأصبح اليوم واضح المعالم مختلفاً عن مفهوم محمد والحضارة الشرقية التى امتصتها . لقد نشأ شئ جديد فى واقع الأمر من تفاعلاتهم وتركيباتهم .

إن دين الشعوب المسلمة فى كل مكان ملئ بالعادات غير الإسلامية والخرافات التى امتصتها ، ولكن هذه العادات أضعفت بالتأكيد تماسكه الدينى - الاجتماعى، وهو كنظام له قوة داخلية غير عادية لاستيعاب العوامل الأجنبية التى أغنت مفاهيمه الأصلية الساذجة ، كما يحتفظ فى الوقت ذاته بإرادته الداخلية للقوة والوحدة العنصرية والاستشراف الكونى .

يظهر تطوره العقائدى سمة الأفكار الهيلينية ويكشف تصنيفه القضائى تأثير القانون الرومانى ، كما يظهر تنظيمه السياسى . فى عهد الخلافة العباسية استخدم الأفكار السياسية الفارسية وتصوفه المخصص للأفكار الشائعة للبطلانية الجديدة والهندوسية ، ولكن الإسلام يثبت فى كل مجال من هذه المجالات قابليته للاستيعاب العنصرى وإعادة صياغة العوامل الأجنبية التى لا تظهر إلا عند التحليل النقدي . ^(٢)

يشير هذا الاقتباس إلى استيعاب الإسلام لعناصر النظم ذات التطور الرفيع ، ولكن علينا أن نخطو خطوة أبعد . ماذا عن اتصاله المباشر أولاً مع تلك التطورات الخاصة بالإيمان بالخرافة الذى يشكل أساس كل هذه النظم الشرقية ، وثانياً مع الأرواحية الخالصة فى بلاد العرب وإفريقيا والمناطق الأرواحية الأخرى؟ هذا كله - الدين الحقيقى لناس - شريطة ألا يؤثر فى جوهر تفرد الإسلام . قد تم امتصاصه

(١) يجب أن يكون مفهوماً بوضوح أن انتشار الدين الإسلامى يجب ألا يتساوى مع انتشار السيطرة السياسية الإسلامية ، إذ إن ذلك النظام لم يكن موجوداً عندئذ ، وكان الإسلام فى فترة الحكم الأموى ديناً قبلياً تقريباً للأقليمية الحاكمة ، وبدأ النظام فى التطور تحت الحكم العباسى ، ووصل إلى تطوره الكامل عند سقوطه فى عام ١٢٧٣م

(٢) Goldziher, Le Dogme et Loi d'Islam, pp.2-3

أيضا ، وكان العامل المهم الذى ساعدنا لفهم القوة التى يمارسها الإسلام على الجماهير . أما بالنسبة للنظام الإسلامى ، بغض النظر عن هذه العوامل التى لا تغنى عنها للمحافظة مع خاصيته الوطنية وأسلوب حياته ، وبينما تتعلم كل الشعوب المسلمة تبجيل الشريعة كقانون إلهى ورمز للنظام ، فإن حياتهم حكمتها عاداتهم النظرية وقانونهم العرفى . إن هذا الاستيعاب المتبادل كان معناه أن الإسلام قد أصبح عمليا فطريا فى كل بلد انتشر فيه . إن الآية القرآنية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة . الآية ١٤٣) تشرح موقع الإسلام فى المجالات الدينية والثقافية والجغرافية .

إن العاملين - تملك الفرد الشخصى البارز وتكافل النظام الإجتماعى الواسع - معاً مع السلطة واستطاعتها فى أن تصبح فطرية باستيعاب أو إعادة تنضيد عناصر الثقافات الأخرى يفسر قوة الإسلام الضخمة وتماسك قبضته على الموالين له . وأهم مفتاح لفهم المسلمين الذين برزوا من هذا هو أن دينهم وحياتهم الاجتماعية تشكلان الفطرة السليمة ، ويؤكد المسلمون بشكل صارم على المظهر الخارجى للإسلام ولا يضعون أية أهمية على المطالب الأخلاقية . ولهم قانون دينى - اجتماعى للسلوك يمكن تحقيقه ، وهم لا يعيشون - كما يفعل المسيحيون - فى حالة توتر شعورى بأن حياتهم غير كافية لمستوى دينهم ، لذا فهم لا يعانون من أى توتر . إن حياتهم الدينية كلها مسألة سلوك وانسجام . إن العادات الاجتماعية رغم وثبيتها فى الأصل تستخدم كلها العقوبات الدينية والإسلامية ولا أحد يعنى تماماً وبشكل واضح ما هى العناصر الدينية والإسلامية وماهى الاجتماعية والوثنية المتطابقة مع الإسلام دون أى تضمين منطقى ، ونتيجة ذلك هى أن الإسلام نظام معقد بشكل كبير ، ولكنه ثانوى فى قوته الدافعة ضمناً .

دعنا نتحول الآن إلى دين السودانين . لقد كانت عملية الاستيعاب فى السودان متقدمة مع خلوها من عيوب العملية الطبيعية التى كانت من جهة تحولاً للثقافة الإسلامية - التى فيها العوامل الدينية أقل حسماً من النظام - وكانت من جهة أخرى عملية امتصاص العناصر الدينية الثقافية الأرواحية المحلية والباسها الأشكال والصياغات الإسلامية ، وتوجهها نحو الاستشراف العالمى ، لذا فقد حدثت بشكل بطئ عملية استيعاب متبادلة ، إذ كانت العناصر الأرواحية تتشبت بعناد شديد خلال الامتصاص داخل النظام الإسلامى .

وقد ساعدت عوامل عدة على أن تصبح هذه العملية سهلة جداً . لقد بينا أنه قد شارك فى هذا البلد الذى كان فى وقت ما « مسيحياً » الجهل الإيمانى وإهمال الكهنوت والاعتقادات الأرواحية وعبادة القديسين التى أسهمت كلها - بعد سقوط الدولة - فى جعل البلاد فريسة سهلة للإسلام . لقد جاء الإسلام إلى أرض غير متحضرة حيث لم يسهم أى شئ داخلى فى مساعدة رغبات الشعب للارتقاء لمستويات أعلى .

لقد كان الإسلام نفسه يحمل فى داخله شكلاً من أشكال التأمل اللاعقلانى المملوء بالخرافة وسير الأولياء عندما قام الفقرا بتدريسه لأول مرة فى مملكة الفونج . لقد

تدرب هؤلاء الرجال بشكل لا يمكن تصوره على المذهب المالكي الذي قصد من جهة في ألا يكون للإسلام القويم تأثير على الحياة ، ومن جهة أخرى تأثر بشكل عميق بالصوفية لطرق الدراويش ، وهكذا فقد كان لهؤلاء الرجال - وسط شعب ليست لديه أى خلفية ثقافية - السلطة الكاملة لقيادته نحو الخرافات التي تؤمن بها الجماهير ودمجها في شخصيتهم (الفقرا) . إن الاحوال السياسية المضطربة للبلاد وبعدها عن أى اتصال مع المراكز الإسلامية الأخرى عدا الحجاز ، تلك المراكز التي كانت بدورها راکدة في تلك الفترة لم تؤد إلى تطور مدارس تعليمية /أو ثقافية محلية تضع حداً للتطرف ، وهكذا كان الإسلام الذي تطور بهذه الطريقة قد تشرب بشكل قوى بالنزاعات الإفريقية التي كانت عواملها المميزة عاطفية أو خرافية .

كما وفر السودان أرضاً خصبة لتطور الإيمان بالآخرة الذي كان سائداً في البلاد الإسلامية ، والذي شكل اتجاهها ثوريا خفيا - سيتفجر عندما تتاح له ظروف سياسية واقتصادية معينة - في حريق هائل للتعصب المهدى أخذين في الاعتبار كل هذا الاستيعاب ، علينا أن نتذكر أنه بسبب كون النظام الإجتماعي الثيوقراطي يطوق كل الحياة فإننا سنتجنب الخطأ في تسمية المسلم الأرواحي في السودان الشمالي بالحيوي ، ولكن مع المظهر الخارجي للإسلام سنفترض أن حياته الداخلية لم تتأثر بالإسلام . هذا أمر حقيقى مع بعض المجموعات القبلية مثل المجموعات الزنجية في دارفور ودارفونج . إن الحاميين أو زنوج شمال السودان الذين تعربوا هم مسلمون حقيقيون لا شبهة في ذلك ، وهم فخورون بدينهم ، ومقتنعون بتفوقهم على الآخرين ومتعلقون بدينهم بإخلاص متقد . إن التنافر الذي يبدو فيه السوداني المسلم العادى هو وضع ظاهرى وغير حقيقى . إن وجهة نظره عن الحياة وجهة نظر إسلامية حقيقية وليست أرواحية ، إذ إن الإسلام يربى في الموالين له استشرافا عالميا غريبا على الأرواحية .

وبينما الشريعة لكونها القانون الإلهى تكبح هذه المعتقدات الدينية المتعارضة - وعلى الرغم من الاحترام الظاهرى للقرآن والدفاع عنه - فإن التقاليد والطقوس والواجبات الإجبارية هي التي لها السلطة الفعلية على قلوب الناس وليس الإسلام القويم . إن المفهوم الراشد للعلاقة بين الله والإنسان هي فكرة مجردة للحقائق من مكانها في الحياة التي يتعامل معها الإنسان وحده، ومن الطبيعى جداً أن تتغلغل الطبقة التحتية للسحر والخرافة داخل النظم العاطفية للتقوى ، وفي عبادة الأولياء لتزويد الشعب بالوسطاء بينهم وبين الله ، وهكذا تمنحهم الدين الحى . إن الصورة الواضحة لحياتهم الدينية - وسنوضح أن تلك الحياة الحافلة التي تم التقيد فيها من خلال الإخلاص المتقد لشخصية دينية تملك البركة - قد تكون شخصية حية أو ميتة ولكنها دائما ما تكون مثالية . إن الإخلاص للأولياء هو موقف سحرى لا يتضمن أبداً تحولاً للقلب ، ولكن مجرد انتقال للسلطة .

لقد أعطينا مؤشراً بالمكان الحقيقي الذي يكون فيه الإيمان عندما نلاحظ إلى من يتحول الناس في أوقات الضيق والشدة والخطر ، وسنجد أن السودانيين يضعون إيمانهم في الأولياء والممارسات الخرافية ، ولا يضعونها في العقيدة التي يعترفون بها .

إن الحياة بالنسبة للسودانيين محدودة وفقيرة بشكل مفرط ، كما أن هذا الاشتياق للاستفادة من وسائل تدبيرها قوية جداً لدرجة أننا لا نعجب في أن نرى ما لعبادة الأولياء والخرافة والسحر من سيطرة . إن رب الإسلام القويم ممجد جداً ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الأولياء الذين يعملون كوسطاء إليه . إن النظام - الإسلام - أعاد تكييف المعتقدات الشعبية وصاغها داخل نمط حياته ، وهكذا فقد أكد علي استقرارها واستمرارها ، ومن المحتمل أنه افترض أن الجماهير الزراعية لن تكون متأثرة بشكل قوى بالغرب لدرجة تفقد إيمانهم به ، وهناك شئ واحد يجب أن يقال وهو أنه بينما الحياة الدينية للجماهير هي شئ من العبادة لجهول ، وبينما هي توليفة بدائية مادية وإخلاص متقد له مفاهيم خلاصية حقيقية في إخلاصهم المثير للشفقة للأولياء وفي انجذابهم الصوفي عند الذكر واشتياقهم المتألق العميق من خلاله وجلب الاستنارة للحياة المقيدة في الأرض القاسية .

يجب أن نضع في الاعتبار ونحن نشرح دين السودان ، ليس فقط الاختلافات العرقية ، بل أيضا الحقيقة التي يمكن ملاحظتها ، وهي أن كل مجموعة تطبع بطابعها ما تكتسبه - في المجال الديني كما في أي مجال آخر - بطريقتها الخاصة للإحساس والفهم ، وذلك طبقا لاستعدادها لاستيعابه، وبالطبع يجب أن تكون هناك تنوعات بين الطابع الإسلامي الذي يمارسه سكان مختلف الأقاليم والأعراق والمجموعات الحرفية في السودان الواسع وغير الموحد . إن انصهار العرب والحاميين في الشمال والعرب والزنوج في وسط السودان قد أدى إلى وجود عدد لامتناه من الخرافات المحلية المتنوعة، ويزيد هذا الأمر من صعوبة وصف الدين الحي للأهالي والتجمعات السكانية التالية التي يجب أن نذكرها رغم أننا لن ندرسها طبقاً للإقليم :

١- المستقرون في المناطق النهرية : (أ) النوبيون المتحدثون بالبرطانية

(ب) الجعليون - الدناقلة المتحدثون باللغة العربية .

٢- المستقرون في المناطق المطرية : الجزيرة وكردفان و....الخ

٣- البدو الرعاة : (أ) العرب : ١- أهل الأبل ٢- البقارة (ب) - البجة

٤- الزنوج (أ) منطقة الفونج (ب) مديرية دارفور .

وسنشير إلى الأنماط الرئيسة للحياة الدينية التي سنجدها في معظم أجزاء السودان

معا مع قادتهم من طبقة الفقرا ، وهى المجموعة التى تهمنا بالدرجة الأولى . وتتقيد الجماهير بقدر المستطاع بالأركان الخمسة : شهادة أن لا إله إلا الله والصلاه والصوم والزكاة والحج ، ولجهلهم فهذه هى فقط المسائل الدينية التى يعرفونها ، وقد حولوا الصلاة إلى واجب دينى ، وعبروا عن حنينهم الداخلى فى ممارسات الذكر لأنهم سلالة من المؤمنين العاطفيين ، ولا يمكن اعتبارهم أبداً من ذوى الإيمان القويم الحقيقى لأن معتقدتهم كان دائماً مسألة شعارات مبتذلة ؛ إذ إن السحر يجعلهم يتميلون أكثر من الدين والنشوة الدينية أكثر من الصلاة الرسمية ، وزعمائهم هم الفقرا وشيوخ الطرق الدينية ، وقد بنيت أفكارهم الدينية على القصص المستقاة من تعاليم الطرق حول حياة الأنبياء والأولياء . وبالنسبة للعامة « فالبركة » ، وغير المرئى والخارق للطبيعة ومظهرهم هى أمور حقيقية تماماً . إن عالم الروح - الخير والشر - حاضر معهم بشكل دائم ، كما كانت عبادة الأولياء الأحياء منهم والأموات - هى دينهم - ، وهم يزورون قبورهم يكشفون عن رغباتهم الداخلية ، ويلتمسون مساعدتهم فى وقت الحاجة ، ولعنة حياتهم هى عالم الأرواح الشريرة التى تجلب الأمراض والموت والمحن والكوارث للأفراد والأسر ولكل مجتمع القرية ، وهم يعتمدون على الفكى المتخصص فى طرد الأرواح الشريرة . إن حياتهم الاجتماعية والأسرية من الميلاد حتى الوفاة - مع الاحتفالات الخاصة بها - بينما تحكمها فى الظاهر القوانين الإسلامية ، فإنها غير منفصلة عن الطبقة التحتية للأرواحية ، وكل الممارسات المتصلة بها ذات أصل وثنى تقريباً . ومرة أخرى فإن هذه الأفكار والممارسات تختلف طبقاً للسلالة أو المنطقة لأن الإسلام حقق طريقه بحلول وسطية مع الأشكال الدينية التى لاقاها ، وهذا هو السبب فى أن الدين الشعبى للجماهير يعد عقبة أمام التقدم؛ لذا فالمثقفون - بينما يتمسكون بالنظام الإسلامى - ينظرون إلى الدين كمسألة جهل وخرافة وشئ مناسب للحبوبات ، ولكنه ليس قوة داخلية حقيقية فى حياة الرجل الذكى . إن دين الجماهير بكل ملامحه المستردة يقف الآن بشكل واسع ليدعم بشكل كبير الأشياء التى تقف عقبة بدلاً من أن تدعم القوى التى ترقى الحياة ، ويجب أن يكون دائماً رجل الدين أو المبشر عاطفياً وملائماً لمزاج الناس إذا ما رغب فى أن يفهموه ، ولا يجب أن ينظر إلى مثل هذا الإسلام الشعبى على أنه قوة يستطيع بها التعاون لإقامة حياة جديدة فى الإسلام .

طبقة الفقرا : هؤلاء هم القادة الدينيون للجماهير ، وهم يحتلون مكاناً بارزاً وفريداً كأفراد أو كأسر ، وهم الوارثون للسلطة الغامضة (البركة) من بعض الأسلاف المشهورين ، وهم رجال دين بالمعنى الإسلامى ، وهم مرتبطون دائماً بطرق الدراويش ، برغم أن تصوفهم مجرد خرافة غامضة ليس إلا ، مع عدم وجود ملامح محددة لها . هذا هو الفكر الذى يلجأ إليه السودانى فى مشاكله ، والذى يبحث عنده الحماية من المخاطر المجهولة أو الأرواح الشريرة ، ويعارض هذا النفوذ كل من ذى الإيمان القويم والأفندى العصرى .

المسلم المحافظ: يعتبر معظم السودانيين أنهم من ذوى الإيمان السديد ، ولكن هناك القليل منهم من يمكن اعتبارهم من ذوى الإيمان السديد بشكل جازم، ومن تشبعوا بالقرآن والتقاليد، وقد ثبت إيمانهم السديد هذا التحول بعيداً عن كل الأفكار العصرية واجدين القناعة فى الصيغ الدينية الشديدة التمسك بالتحاليم والأساليب التقليدية ، ويعتقدون أن هذا هو الشئ الوحيد الصالح الذى يتطابق مع معايير الماضى . إن الإيمان بالنسبة لهم أعمى عنيد يصدق على النظريات الثابتة ولا علاقة له بالقلب والعقل والإرادة ، وبالمثل فإن الأخلاق بالنسبة لهم هى الأداء الأعمى للواجبات المحددة . كما أن خاصية هذه الطبقة فى كل مكان هى تمسكهم بوجهة النظر الضيقة العنيدة بتقسيم البشر إلى كافرين ومؤمنين ، وما زالت أفكارهم تلبس كل أنواع الأوهام القدريّة التى هى جزء متمم للإسلام . وهم يجدون مثلاً سعادة بالغة فى مناقشة فى أى سماء صعد سيدنا عيسى ، أو ماهى وظائف حراس الجنة التسعة عشر (المدثر: ٣٠) . وبسبب كرههم للتصوف الزائف لطرق الدراويش وخاصة تبجيل الجماهير لشييوخها ، فهم لا يتأثرون بالصوفية ، ولكننا سنجد بين أيديهم فى الغالب الصوفية الكلاسيكية قديمة المعتقد . وينتمى مسلمنا المتحمس ذو الإيمان السديد إلى الطبقة الوسطى عادة ، كما أنه قد يتقلد منصباً دينياً أو معلماً فى خلوة أو تاجراً محترماً .

أما الأفندية فهم أولئك الذين تلقوا تعليماً غربياً ويحتلون مناصب كتابية أو فنية ، وهم مسلمون مخلصون فى الأساس ، حتى بالرغم من أن وجهة نظرهم عن الحياة تختلف بشكل كبير عن وجهة نظر المجموعات سالفة الذكر . وهم أوفياء لأن الإسلام هو النظام الذى ولدوا فيه ، وربما يجدون أنفسهم ضائعين خارجه ، وفى الوقت ذاته فهم ضد مفاهيم النظام الذى رأوا أنه يعوق ويقيد كل ما يناضلون ضده بلا جدوى . لقد فقدوا الإيمان بالمفاهيم الدينية للإسلام، ولا يفكرون فى المسائل الدينية، وهم مشغولون بالمسائل التى يركز عليها نظام التعليم الغربى، وهم عصريون جداً وليست لهم أى صلة جوهرية بالدين الشعبى أو القويم، وهم يشتغلون بعقلنة الإسلام على نطاق ضيق، وقد يزورون الفكى ليرشدتهم فى الأزمات ، وهم غامضون جداً فيما يتعلق بأساسيات الحياة الروحية، ولا يستطيع الإنسان أن يقول بكل ثقة فى ماذا يفكرون ويؤمنون . وبالرغم من أنهم يهزأون بخرافات الجماهير، فكلهم يستمرون فى لبس أحجبتهم وينتقدون إيمان آبائهم ويؤدون صلاة الجمعة بانتظام إكراماً للمظاهر، لأنهم يتولون مناصب اجتماعية عليهم المحافظة عليها . وجيرانهم يعرفون أنهم لا يصلون بانتظام ولا يصومون ولكنهم مجبرون على المحافظة على العادات الأسرية والاجتماعية، ويترقبون أخذ مكانهم فى الاحتفالات الدينية ، ويهتمون بشكل كبير بالمشاكل السياسية والاجتماعية ، ولكنهم يفشلون عادة فى فهمها ؛ لأن بيئتهم لا تمكنهم من تصورها فى وضعها الصحيح .

ويجب أن نضع في الاعتبار نفوذ الأفندي في السودان الحديث، إلا أن ذلك النفوذ عرضة للمبالغة، فهو حريص على مصلحته الشخصية ، ولا يضع اعتباراً لتقدم الجماهير ويفتقر تمرده الإخلاص ، ولا نفوذ له في البيت ؛ لأن الطبقة النسائية جاهلة بشكل ثابت، ومن المضحك مشاهدة إلى أي مدى تافهة معرفته ولا قيمة لها بالنسبة للحبوبة.

٢- الدولة الدينية الإسلامية

من الضروري أن نلم بعض الشيء بالإسلام القويم ، وذلك لفهم في المقام الأول شيئاً عن الصفة الشمولية للإسلام ومعنى الدولة الدينية المسلمة والمكانة التي يلعبها ذلك المفهوم في حياة المسلمين الذين تمسهم الشريعة ، وثانياً النظام القانوني للإسلام الذي يؤثر بشكل خاص - في التطبيق - على حياة الأسرة والنظام التقليدي للتعليم .

لقد بينا أن أول مرحلة في الطريق لفهم الإسلام هو التحرر من فكرة أن الإسلام يتضمن موقفاً دينياً غريباً عن العقل وأداء ممارسات محددة . لقد طور الإسلام في الحقيقة بشكل بالغ نظاماً اجتماعياً ذا تعريف دقيق للأسس التنظيمية ، وعلاقة أفرادها الذين يربطهم معا موقف محدد بالقوى الخارقة للطبيعة .

ولم يكن لمؤسس الإسلام تصور عن نظام كامل ، لقد قبل بأسلوب الحياة القديمة لما قبل الإسلام كأمر واقع، وكان سبب ابتكاراته التشريعية هي الحاجة النفعية لتنظيم الممارسة عندما تتعارض مع فهمه لنفسه ولسالته ، وعندما توفي لم يكن قد تم تثبيت الشريعة الإسلامية أو العقيدة ، ومع ذلك فقد كان مفهومه للحكومة الدينية التي نتجت بمرور الزمن - بتطور النظام بتأثير الحضارات الشرقية - بتمثيل الدولة كجزء مكمل للثورة المقدسة .

وادعت هذه الدولة الشيوقراطية بأنها القوة الوحيدة المؤهلة لحكم العالم ، وكان هذا الادعاء هو أساس الحكومة الدستورية ، لذا فالعالم مقسم إلى معسكرين : دار الإسلام ودار الحرب ، ويسمى المسلمون أنفسهم بالجماعة أو الأمة وكوحدة دينية واجتماعية وسياسية محكومة بالله بواسطة نبيه والشريعة فقط هي التي تحكم هذه الأمة .

ونظرياً فإن هذا الأمر حقيقى الآن كما كان في الماضي ، إذ بدونه كان الإسلام سيتحلل ، ولكنه سرعان ما انتشر إلى ما وراء بلاد العرب .

وواجهت الحكومة الإسلامية الحقائق التي اضطرت إلى أخذها في الاعتبار عن طريق حكمها للسكان المتحضرين غير العرب الذين اعتنق بعضهم الإسلام ، وكخلفية لدراسة الإسلام في السودان فإننا لن نهتم إلا قليلاً بالسكان الوطنيين غير المسلمين

(الذميين) الذين اعتبروا حراساً للدولة ، وهم مثل الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام وشكلوا أغلبية المسلمين وحافظوا على العادات الاجتماعية الخاصة بهم ، وكفوا في الوقت المناسب عن أن يصبحوا دولة مسلمة واحدة ، وسرعان ما برز حكام محليون في كل مكان ، وهكذا ظهر في التطبيق مجموعتي قوانين : إحداهما الشريعة الأبدية ، القانون الديني ، وهو القانون الإلهي الذي أوحى به في القرآن والسنة وأكمل بالقياس والإجماع ، أما المجموعة الأخرى فكانت العرف الإقليمي القائم على العادة المحلية التي تتفاوت من بلد لآخر ، والتي تنظمها وتدعمها إرادة الحكام . وبين مجموعتي القوانين هذه أو بالأحرى المجالين القانونيين كانت الحدود دائماً هي نفسها . إن الشريعة رغم عالميتها نظرياً قد حكمت فقط حياة المسلم الشخصية والأسرية (الزواج - الطلاق - الأطفال - الميراث) وواجبات محددة لله مثل الصلاة ، أما القانون المحلي والإرادة التحكيمية للحاكم فقد غطت المجالات الأخرى كلها : القوانين المدنية والجنائية والتجارية وقوانين الحرب والضرائب .

كان هذا هو التقسيم الضروري الذي فرض على كل رجال الإدارة ، ولكن لم يتم قبوله أبداً بشكل كامل من قبل علماء الدين برغم أنه كان على العلماء التسليم بالصعوبة العملية لتطبيق الشريعة في الظروف القائمة ، وصارت الشريعة رمزاً لتضامن المجموعة الإسلامية ، ودائماً ما أصبحت سبباً في الثورات ضد رجال الإدارة ، ومن هنا - وهذا مهم جداً - لأنه يحدث أثراً ملائماً مع رجال الإدارة الأوروبيين بالإضافة إلى المسلمين عدم رغبة الإداريين في غالب الأمر في إتخاذ إجراءات تتفق والمنطق ، وتؤدي إلى أن يثور ضدهم رجال الدين والجماهير التي من السهل أن يثيرها رجال الدين .

وهناك ثلاثة عناصر يجب وضعها دائماً في الحسبان في الدولة الإسلامية : -

١- العلماء الذين هم فوق النقد والشك والقابعون خلف نظام قانونهم المقدس الساكن.
٢- رجال الإدارة (المديرين) ، وهم يعرفون القانون نظرياً وتواجههم المواقف العملية التي يجب أن يشرعوا لها ، ولا يملكون الاستقلال التنفيذي المطلق بسبب الخوف من العلماء .

٣- الجماهير التي تعيش طبقاً لمستوى ديني وقانوني وأخلاقي شخصي تماماً ومختلف عن الشريعة ، ومع ذلك تبجله ، ومن ثم تحركها بسهولة صرخة « الإسلام في خطر » .

لقد استمدت الشريعة في المقام الأول من القرآن ، ولكن بسبب كون الوحي في الإسلام محدداً ومحصوراً في القرآن ، فقد كان من الضروري اللجوء إلى أقوال وأعمال الرسول فيما يتعلق بالأمور المستجدة ؛ لذا فقد تم إخضاع كمية ضخمة من المواد التي تم استيعابها من التشريعات ، والممارسات المحلية للدول التي تم فتحها وتم تبريرها بنسبتها إلى أفعال الرسول، ومؤخراً عندما أصبح من الصعب الحفاظ على

هذه الطريقة ، أصبح من الضروري التسليم بالقياس ، وفي النهاية بالإجماع ، في البداية باتفاق الصحابة ثم مؤخراً تم توسيعه ليشمل المؤمنين ، وعملياً الاتفاق بين العلماء وقد أصبح الإجماع في حقيقة الأمر السلطة الحاسمة. ويسمى كل النظام القانوني الذي أوحى به الشريعة « بالفقه » ، وهذه المصادر الأربعة هي أصول الفقه ، وقد تطورت المدارس الفقهية - (تسمى المذاهب) ، وأصحاب هذه المدارس الأربعة هم : أبو حنيفة (٧٦٧م) ومالك بن أنس (٧٩٥م) والشافعي (٨٢٠م) وأحمد بن حنبل (٨٥٥م) . وكانت نتيجة تأسيس هذه المذاهب أن أصبح التطور مغلقاً إلى مدى بعيد ، وأصبح النظام جامداً ولا يسمح لأحد التحقيق في « المصادر » ولم يصبح للقرآن والحديث من قيمة سوى الأدب الثقفي ، وأصبحت كتب التفسير الفقهية لهذه المذاهب « كتب قانونية » جديرة بالاعتماد والقبول للمسلم سديد الإيمان ، ومن ثم لم يعد العلماء خلاقين أبداً ، وتبددت قوة الإسلام القويم .

لذا فقد أصبح الفقه دراسة أكاديمية في الأساس يهتم بالقانون المثالي الذي يتصل بالدولة المثالية للمجتمع ، وانفصل عن الحياة العملية ، وأصبح للحكام قانونهم الدنيوي ، وصارت عادات الشعب ومعتقداته الشعبية هي الصفة المقدسة التي حافظت دائماً على أساس تعليم المسلم .

وأصبح يمثل الإسلام القويم في السودان ، كما في أي مكان آخر :

١- النظام التعليمي التقليدي .

٢- المحاكم التي تطبق الشريعة.

٣- المساجد العامة وموظفوها .

٢- نظام التعليم التقليدي في السودان

كان للقبائل البدوية التي غزت السودان قوانينها القبلية الخاصة بها ، ولم تكن تهتم بالشريعة ، بينما حكم الفونج بشكل استبدادي الشعوب التي شايحت عاداته الفطرية ، ولم تمض فترة طويلة قبل أن يبدأ نوع من النفوذ القويم في التأثير على حياة سكان المدن والأرياف ، ويستهل ود ضيف الله طبقاته عن الأولياء بقوله :

اعلم أن الفنج ملكت أرض النوبة (١) وتغلبت عليها في أول القرن العاشر : سنة

عشر بعد التسعين (٢) (١٥٠٤م) ولم يشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا

قرآن ، ويقال ان (٣) الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة (٤)

(١) بينما كان الإسلام يكيف نفسه بشكل كبير كان يصر دائماً على إجراء إصلاحات في الحياة الأسرية للوثنيين . لاحظ الجدال الذي حدث بين القاضي دشن ومحمد الهميم (الطبقات - ص ١٥٠) [يشير المؤلف إلى الرواية التي ذكرها ود ضيف الله في الطبقات » وأنكر عليه القاضي دشن قاضي أربجي وأن الشيخ [محمد الهميم] جاء لصلاة الجمعة في أربجي فلما خرج من الجامع ركب على جواده فمسك القاضي في عنان الفرس ، فقال له : خمست وسدست وسبعست ، تجمع بين الأختين ، تخالف كتاب الله وسنة رسول الله . فقال الرسول اذن لي ، إلى آخر القصة . ينظر الطبقات . شعبة أبحاث السودان جامعة الخرطوم . الطبعة الأولى ١٩٧١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ المترجم وقد نقلت النصوص في هذا الموضوع وغيره من كتاب الطبقات لود ضيف الله كما هي ، بأخطائها اللغوية والإسلامية ، وفضلت ألا أتدخل فيها بالتصويب . (المترجم)

حتى قدم الشيخ محمود العركي^(١) من مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصرًا يعرف الآن بقصر محمود . وفي أول النصف الثاني من القرن العاشر ولى السلطان عمارة أبو(٢) سكيكين الشيخ عجيب المانجلك . ففي أول(٣) ملكه قدم الشيخ إبراهيم(٤) البولاد من مصر الى (٥) دار الشاذلية ودرس فيها العلم : خليل والرسالة^(٦) وانتشر علم الفقه في الجزيرة ... ثم قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم (طريق الصوفية) وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التوحيد والتجويد في الجزيرة ثم قدم الشيخ محمد بن قرم بدار بربر وادخل فيها مذهب الشافعي وانتشر مذهبه في الجزيرة ثم قدم الشيخ محمد المصري دار بربر ودرس فيها علم التوحيد والنحو والرسالة .

وهكذا فقد كان التطور الثقافي الإسلامي مرجعه المهاجرون الذين نشروا نظام التعليم التقليدي في كل أنحاء مملكة الفونج ، ذلك النظام المتلازم مع نظام التصوف ، وهكذا أتاحت الفرصة لمهنة مدى الحياة بلا استثناء لأولئك الذين اختاروا اتباع ما تقضى هذه الطريقة ، ونجد في مكان آخر بعض الآثار القليلة للمعارك الضيقة بين العلماء والمتصوفة والتي كانت مظهرًا عامًا لحياة المسلم لأن العالم والصوفي في السودان كان يمثلهم شخص واحد في أغلب الأحيان^(٧) ، وقد جاء هذا الخلاف مع الشيوخ الأزهرين خلال الفترة المصرية^(٨) ، وقد أصبح أكثر حدة اليوم . ومع ذلك فقد يبدو سخيلاً أن يقول الإنسان إن علماء الصوفية يجمعون في عالمهم المحدود طرق الغزالي الثلاث عندما يصف الفقه بأنه خبز حياة كل المؤمنين ، والتوحيد بأنه الدواء الواقى ضد الزندقة ، والتصوف بأنه المنظم للمجالين السابقين ، وذلك لبناء الحياة الدينية الحقيقية .

نظام التعليم : كان هدف التعليم دراسة الشريعة – المادة الوحيدة الحقيقية للتعلم – لأن ذلك يتكون من الأحكام في الماضي، فإن المنهج ثابت والطريقة هي الحفظ . إن بداية – وبالنسبة للأغلبية نهاية – التعليم هي تلاوة القرآن^(٩) ويكتب ابن خلدون في مقدمته :

(١) كان محمود العركي سودانياً ولد في النيل الأبيض وذهب إلى مصر لدراسة المذهب المالكي وعند عودته (١٥١٠ - ١٥٢٠ م) أسس خمس عشرة خلوة في النيل الأبيض .

(٢) كتاب الفقه .

(٣) هناك آثار لمثل هذه المعارك ، ولكنها كانت مهذبة جداً . ينظر خلافتات القاضي دشن مع الشيخ ادريس حول مسألة التنخين (الطبقات ص ٩ - ١٠) ومع محمد الهميم حول زواجه بأكثر من أربع زوجات (الطبقات ص ١٥٠ - م ١٤٢ - ١٤٣)

(٤) كان في الأزهر ثلاثة أروقة هي : السنارية (١٨٥٠) والبرابرة ودارفور .

(٥) كان القرآن يتلى في دنقلا ودارفور طبقاً لرواية ورش وطبقاً لأبي عمرو في بقية السودان ، أما الآن فهناك رجل واحد في دنقلا يرتل طبقاً لرواية ورش .

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان ، وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ^(١) .

ويمكن أن تشاهد فى كل أنحاء السودان - فى حوش أو تحت ظل راكوبة أو تحت شجرة فى السوق - حلقات الاطفال حول الفكى المتكى على عنقريب ، الكل يرتل فى اطراد رتيب ، ويتمايلون إلى الأمام والخلف يدندنون بالأجزاء حتى يحفظونها ، ويملى الفكى من الذاكرة ، ويتم نسخ الأجزاء على ألواح خشبية بأقلام تغمس فى حبر مكون من السناج والصمغ والماء . والقرآن بالنسبة لمعظم السودانيين كتاب محكم ، ولا يتم تدريسهم معنى اللغة لأن القراءة نفسها عمل جدير بالثناء . وكما يقول ابن خلدون فإن أهل شمال افريقيا « مذهبهم فى تعليم الولدان الاقتصار على تعليم وحفظ القرآن فقط لا يخلطون ذلك بسواه فى شئ من مجالس تعليمهم » ^(٢) . كان الفكى الذى يجمع فى شخصه العديد من الوظائف فى الماضى أكثر أعضاء المجتمع احتراماً ، وما زال هذا هو الأمر السائد حتى الآن بصفة عامة ، رغم أن المتعلمين يحتقرونه لأنه جاهل وغير مؤهل ، وهو فى الحقيقة كما يقول الجاحظ من الصعب أن تجد « سكيراً أكثر من معلم الكتاب » ^(٣) ، ولمعظم الفقرا خلوة خاصة لأنها وظيفة أكثر احتراماً وطريقة سهلة لكسب العيش ، وبعض الخلاوى ملحقة بالمسجد وتدعم من أموال المسجد .

وما زال هذا النظام هو الشكل الوحيد للتعليم بالنسبة للأغلبية الكبيرة للسودانيين وهناك حوالى ١٥٠٠ خلوة متناثرة فى السودان تحفظ القرآن بالطريقة التقليدية ، وحتى هذا التعليم مقيد بشكل ما لأن العديد من الأطفال عليهم رعى الماشية فى سن الرابعة ، وقد حاولت مصلحة التعليم حث الفقرا على الوصول إلى مستوى أعلى ، وذلك بإجراء دورات تعليمية قصيرة ودعم تلك الخلاوى التى تدرس القليل من القراءة والكتابة والحساب ، ولكنها أدركت الآن أنه لا أمل فى التعليم الريفى عن طريق هذا الإطار ، وما زالت سارية كذلك حقيقة أنه لا أحد ممن يتركون الخلوة متعلم ، وقد كان اللورد كرومر محقا عندما كتب أن مثل هذه المدارس « مؤسسات تعليمية لا فائدة منها » ^(٤) .

ويعرف تلميذ الخلوة بالحوار (الجمع حيران) وعندما يكمل الحوار « قسماً » يكتب الفكى الآية الأولى من القسم التالى فى لوحة ، ويأخذ الصبى إلى أسرته التى ترسل إلى الفكى هدية تسمى « حق الشرافة » . ويقوم كل طالب فى يوم أربعاء بأخذ بعض الذرة وطبخه وأكله مع الفكى ، ويأخذ القليل منه إلى المنزل « بركة » ، ويعمل الطلبة خدماً للفكى ، ويتولون واجبات جمع حطب الحريق وكنس الأرض .. الخ .

(١) المقدمة . طبعه القاهرة ص ٢٩٧ .

(٢) المقدمة . مصدر سابق ص ٢٢٨

(٣) الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٩

(٤)

وبعد دراسة تستمر حوالى سبعة أعوام يتلو الطفل القرآن ثلاث مرات أمام الفكى ويقوم فكى آخر بامتحانه ، وإذا ما نجح يعلن أنه « حافظ » ، ولكنه إذا لم يصبح هو نفسه فكياً ، فإنه سرعان ما ينسى معظم ما حفظه من القرآن .

ويعيش التلميذ عادة وسط أسرته ، كما يكون الفكى من سكان القرية ، ولكن فى دارفور يترك معظم أبناء الفور بيوتهم فى سن ٧-٩ سنوات ويذهبون مع رفقاءهم إلى الفكى الذى سمعوا عنه ، ويسمون « مهاجرين » ويزرعون للفكى مقابل أجره . وهكذا تنشأ قرية « المهاجرين » التى تتراوح ما بين ٢٠ و ٢٠٠ طفل وشاب ، وكثيراً ما تسبب هذه المجموعات المشاكل فى القرى، وقاموا فى عام ١٩٢٧م بثورة فى دار تابيلا سرعان ما تم قمعها ، ويقراً الصبى حتى سن السادسة عشر ثم يصبح هو نفسه فكياً أو يعود إلى قريته ، أو إذا ما فشل فإنه يهاجر شرقاً . ويبدأ يوم الخلوة من الساعة الرابعة صباحاً بعصا الفكى التى توقظهم ، ويبدأون القراءة فى مجموعات صغيرة حول النيران إلى أن تشرق الشمس ، ولهم واجبات أخرى خلال النهار : فقد يعملون فى زراعة أرض الفكى أو يطحنون الحبوب ، بينما يقوم الآخرون بجمع الحطب وجلب الماء ، وفى أيام الثلاثاء يذهب الصغار فقط فى مجموعات ليتسولوا الحبوب من أبعد المناطق ويعودوا يوم الجمعة ولا يفعلون شيئاً فى موسم الأمطار سوى زراعة أرض الفكى ، ويدفع المهاجرون الفطرة للفكى ، وإذا حدث وكان هو نفسه إمام القرية فإن « القرويين يعطونه الزكاة والفطرة ، ويعتبر تدريسهم القرآن ممارسة سحرية كما يجب إنجازة إحساساً بالقوة»^(١) . أما فى الشرق فإن بعض الأطفال فى سن الثانية عشرة يستمرون فى أداء واجباتهم فى الزوايا والمساجد ، ويسمى كتاب الطبقات مثل هؤلاء الطلبة بفقرا العلم فى مقابل فقراء القرآن . ويتكون المنهج هنا من فرعين من فروع العلم : التوحيد طبقاً لمذهب الأشعرى والفقهاء طبقاً لمذهب مالك .

وتتمركز الزاوية حول منزل الشيخ وتجمع وظائف المسجد والمدرسة والكلية ، ولم تكن هناك حتى الحكم المصرى أى مؤسسات تعليمية أخرى ، ويتم التدريس بطريقتين : أن يجلس الطلبة عادة حول الفكى ، بينما يقوم بتلاوة النص والتعليق مضيفاً إليه

(١) تظهر الرواية التالية من التونسى (Voyage au Darfour, p.293) على أن دارفور تقدمت قليلاً منذ زيارته (١٨٠٢ - ١٨١٣م) ، ، إن مستوى التعليم فى دارفور ضعيف ، كما أن تعليم قراءة القرآن ضعيفة أيضاً هناك . ومن الأسباب الرئيسية أن التلاميذ لا يتعلمون قراءة القرآن فى المدارس سوى فى المساء بعد حلول الليل ، إذ يكون الصغار (الفتيان فقط حيث أن الفتيات ليس لديهن الفرصة لتعلم القراءة على الإطلاق) مشغولين فى رعى قطعانهم ، وفى المساء بعد عودتهم من الحقول يأخذون ألواحهم الصغيرة ويتوجهون إلى المدرسة ، ويتعين على كل طفل أن يحضر بعض الأخشاب (الحطب) لإشعال النار التى تضى المكان ، ويتعلق حول نورها الأطفال ويستغرقون فى تعلم القراءة والكتابة والحفظ عن ظهر قلب ؛ لذا فإن ما يعرفه الفورايون من القرآن ضئيل جداً .

تعليقاته . ويذهب في بعض الأحيان الطلبة فرادى إلى الفكى ، ويتلو كل منهم النص الذى حفظه ، ويلقى الفكى ببعض التعليقات ويحدد أو يملأ قسماً آخر ، ونادراً ما يستخدم الكتب ، ويكتب الأولاد ما يملأ عليهم فى ألواحهم . وليس للمصادر - القرآن والحديث - مكان فى دراستهم ، إذ ليست لها قيمة عملية نسبة لأن العقيدة والدين ثابتان ، أما الأسس فهى الفقه والتوحيد . ولكن هنا مرة أخرى لا تتم أية دراسة نقدية لأعمال ابن مالك أو مؤسسى الفقه الآخرين . وهناك « مختصرات » قدمها أفراد مغمورون وتلك الكتب هى التى يحفظها الطلبة عن ظهر قلب . ولا يوجد عالم يجرؤ على التعبير عن رأيه الشخصى على الشريعة أو المذهب ، أو أن يحاول تعيين أهمية القيمة المعرفية لهؤلاء المؤلفين ، وهم مقيدون بكتابة الشروح والحواشى على هذه المختصرات (١).

كان العاملان المعياران فى الفقه والمستخدمان فى السودان خلال عصر الفونج هما رسالة ابن أبى زيد القيروانى (توفى عام ٩٩٦ م) ومختصر خليل بن اسحق (توفى عام ١٣٦٥ م) . كما كانوا يدرسون فى العقائد مقدمة السنوسى (توفى عام ١٤٩٠ م) ، وقد حفظ البعض بحوثه الثلاثة فى العقيدة ، كما قال البعض إنهم قرأوا علم الكلام الذى يظهر من شرح محمد بن عدلان (٢) إنها مجرد خلاصة مختصرة لكتاب السنوسى ، أم البراهين ، (٣) ، كما كانت طرق تجويد القرآن من بين المواد الدراسية المقررة ، كما تم ذكر بعض الأفراد القلائل الذين قرأوا الحديث والتفسير ، ومع ذلك فإن الأغلبية لم تقرأ أو تدرس أكثر من خليل والرسالة . وتعتبر مدرسة الشايقى عبد الرحمن بن إسيد استثناء من هذه القاعدة (توفى عام ١٧١٥ م) ، وتستحق مدرسته الاستشهاد بها لأنها تعطينا أيضاً : يوم فى حياة فكى خلوة (٤).

يروى تلميذه الفقيه محمد بن الريدة العوضى قال أول ما يفرغ من صلاة الصبح يدخل يقرأ الماضى من خليل ، بعد ما يقوم منه يدخل على ناس القرآن يصحح الواح الدرس ، ثم يقرأ التفتيحة فى خليل ثم يجوا ناس الخرازى والشاطبية (٥) ثم يحيوناس العقائد والأخضرى والعشماوى (٦) ثم جاء المؤذن لصلاة الظهر . فإذا فرغ منه دخل يقرأ ظهريه خليل ثم صلى العصر ثم جاء أهل التجويد ثم جاء ناس العقائد والعشماوية والأخضرى ثم جاء المؤذن لصلاة المغرب ، ثم جاء لقراءة المغربية على خليل فى راسه المتته الواحده بقرا فوقها سياقاً يساوى مقرا من

(١) وضع المضوى بن محمد المصرى (توفى عام ١٦٨٤ م) أربعة شروح على كتاب السنوسى « أم البراهين » وشروح أخرى على الوسطى والصغرى والحاشية (الطبقات م ٢٠ - ٢١) ص ٢٢ .
(٩٢) المصدر السابق ك م ١٦٤ - ص ١٧٢ .

(٢) يوجد مختصر لأم البراهين فى كتاب A.J.Wensinck, "the Muslim Creed" pp.275-6

(٤) الطبقات : م ١٢٣ - ١٢٤ ، ص ١٣٠ - ١٣١

(٥) توفى عام ١١٩٤ م . كتب قصيدتين من السجع المنظوم عن قراءة القرآن . .

(٦) كتابان فى الفقه . كتب الأخضرى (القرن العاشر الهجرى) المختصر فى العبادات على مذهب مالك بن أنس .

القرآن ثم يجيبوا عن قريب يجلس عليه، يعرض ناس القرآن الدارسين اثنين اثنين ، يقوم لصلاة العشا فيصبر قليلا حتى يتعشوا الفقرا . ثم يمسك سوطه ويجلس لناس القرآن حتى يقرأ السبع ^(١) الدُّراس ، فإذا فرغ منه قام ودخل خلوته. ويجي واحد من الطلبة شايل حزمة حطب ويوقد النار وهو يقرأ ، وهو يجيب محفظته فيها ست عشرة قُباضه ^(٢) وهو يتنفل والفقير يدرس لنفسه ، فإذا فرغ منها شال سوطه وقورُ الفقرا ناس العلم والقرآن يحوا ويكتبوا الواحهم ومحفظته في خشمها سبحة الفيه بقاقه فيشتغل بها حتى يكتبوا الفقرا الواحهم ثم شرع في صحة الواح الدارس فقط حتى يجيه المؤذن لصلاة الصبح ثم يدخل لقراءة الماضي من خليل. فلَيام البطالة يفتي ويحكم ويكتب الحجبات، هذا دأبه حتى فارق الحياة^(٣).

إن نظام التعليم الذي تم إيجازه أنفا هو نظام تقليدي مجرد من كل أنواع المتعة والاكتشاف ، ولا يتبنى احتياجات الريف ، ولا يمكنه أن يكون أساساً لتدريب الشخصية ، كما لم يكن من أجل نفوذ الصوفى . لقد تم تجريد عقل السودانيين بشكل تام من كل أنواع المبادرة والحيوية والنشاط ، وقد أدرك ابن خلدون هذا الأمر عندما كتب أن الإشارة المستمرة للماضى قد « سلبت من عقل المسلم الأصالة والاستقلالية » .

٤- التنظيم الحديث للعلماء

بينما كان القليل من هؤلاء الفقرا شافعيًا فإن الأغلبية كانت مالكية ، وبقي السودانيون مالكيين حتى اليوم ، فقد أدخل الفتح المصرى المذهب الحنفى الذي تدين به الامبراطورية التركية وهو القانون الرسمى فى كل المحاكم ، وباستثناء الفترة الوجيزة التى أبعدت فيها الشريعة خلال المهديّة ، فقد استمرت الحنفية هى القانون الرسمى ، وبرغم ذلك فإن السودانيين مخلصون للمذهب المالكي فيما يتعلق بشئون حياتهم الخاصة وواجباتهم الاجتماعية ، ويجب أن نتذكر أن الشريعة تمس فقط جزءاً من الحياة ، وأن تأسيس الحكم البريطانى لا يعنى أن الشريعة لن تكون قانون البلاد ، وهى لم تكن أبداً قانون البلاد وكانت قابلة للتطبيق - طالما كانت إدارتها فى المحاكم معنية - فقط بتصريح من السلطة ذات السيادة . إن بريطانيا - عدا إلغاء الرق - حكمت البلاد بنفس طريقة حكم أى بلد مسلم . إذ إن معظم البلاد قد تبنت القوانين

(١) واحد على سبعة من الأسبوع ، وهم يدرسون أقسام صغيرة ويتلون بها كلها دفعة واحدة ، ويتم جلد الكسلان .

(٢) ربما تكون حصى تستخدم مثل السبحة أو تباع لاستخدامها فوق المقابر ، وذلك بعد القراءة عليها [يقول د. يوسف فضل لعله يعنى جمع قبضة أى المجموعة الصغيرة من ورقات الكتاب أو الملزمة . ينظر الطبقات . مصدر سابق ص ٢٨٢ هـ ١٢ - المترجم]

(٣) هذا برنامج طويل ، ولكن لأحد ملم بفكى خلوة سيحتاج الى أن يسأل متى يذهب الفكى للنوم .

المستمدة من النماذج الأوروبية ، وتقع تحت حكم الشريعة المسائل المتعلقة بالأسرة (الزواج - الطلاق - القُصْر - الميراث) ، والمعاملات الدينية والمؤسسات الاجتماعية والأوقاف .

وتوجد المحاكم الشرعية فى كل المديرىات وعواصم الأقاليم ، والقضاة موظفون تابعون لحكومة السودان وعلى رأسهم كبير القضاة والمفتى^(١) ، وعملهم خاضع للجنة استشارية ، ويقرر السكرتير القانونى كل المسائل الخاصة بالنظام والإدارة الخاصة . وللمحاكم الشرعية العليا حق تعديل قرارات القضاة وأحكامهم ، ويتم اختيار القضاة من بين خريجي كلية غردون ، ويتم تدريبهم فى المدرسة القانونية الملحقه بالكلية ، وتتضمن مهامهم إلى جانب العمل القانونى إدارة المساجد التى يتم الانفاق عليها من الموارد المالية العامة ، وهناك مجلس للعلماء لإسداء المشورة إلى الحكومة فيما يتعلق بالتشريعات الخاصة التى لها تأثير على المؤسسات الإسلامية والمشاعر الدينية .

وكان يتم تدريب الموظفين من غير القضاة فى بيوت العلماء حتى عام ١٩١٢م عندما خلف أبو القاسم أحمد هاشم محمد البدوى شيخاً للعلماء ، وقد أقنع أبو القاسم الحكومة تخصيص قطعة أرض بجوار الجامع العتيق فى أم درمان ليكون وقفاً لبناء مسجد جديد ومدرسة دينية تابعة له تسمى « المعهد العلمى » ، وفتح باب الاكتتاب وتم جمع مبلغ ١٦.٠٠٠ جنيه مصرى ، كما خصصت له الحكومة جزءاً من رسوم السوق ، وأدار المعهد مجلساً من العلماء يعمل تحت سلطة مصلحة القضاء ، وكان التدريس فى المعهد مشابهاً للتدريس فى الأزهر ، وتم إجراء أول امتحان فى عام ١٩٢٠م ، وكانت هناك ثلاث مراحل تدريبية^(١) أربع سنوات أوليه يتم بعدها الحصول على الشهادة الأولية ، ولا يتم هذا التدريب فى المعهد .^(٢) أربع سنوات وسطى يتم بعدها الحصول على الشهادة الأهلية وعندها يكون الطالب مؤهلاً ليصبح مائذوناً أو فكيّاً يعلم خارج المعهد أو كاتباً قضائياً .^(٣) أربع سنوات عليا يتم بعدها الحصول على الشهادة العالمية أى يصبح عالماً ، ويصير بعدها مؤهلاً ليصبح مساعداً قضائياً أو معلماً فى المعهد أو إماماً لمسجد .

وكان تأثير هذه الطبقة محصوراً فى المدن ، وكما بينا فإن المزارعين والرعاة كانوا محكومين بالعادة ، فقد كان على سبيل المثال يتم أخذ قسم السودانى الوقور على قبر شيخه ، بالرغم من أن هذا الأمر طبقاً للشريعة أمر مكروه ، وكان البدو محكومين بالعادة أيضاً حتى فى المجالات التى تحكم فيها الشريعة بشكل أكثر ، مثل المشاكل الخاصة بالميراث والوصية والزواج ، وقام البقارة بطرد القاضى الشرعى الذى أرسل

(١) يعد المفتى مستشار الدولة الذى يفسر القانون ، ويسمى قراره بالفتوى ، والقاضى هو الذى يحسم المنازعات القانونية ، وكان كبير القضاة مصرياً دائماً حتى عام ١٩٤٧م عندما - كجزء من سياسة السودان - تم تعيين سودانى كبيراً للقضاة .

إليهم . إن حضانة الأطفال بعد الطلاق من حق الأب ولكنه أصبح من حق الأم الاحتفاظ بالفتيات، وهناك نزاع قائم الآن بين عادات زواج الزغاوة والشرعية . وكانت السلطات القانونية الحكومية فى عام ١٩٢١م فى بداية عملية تطبيق اللامركزية (الأمر المحلى الخاص بسلطات شيوخ البدو) قد اعترفت بحكم العادة ، وامتد هذا حتى عام ١٩٢٧م تحت أمر محلى بنفس الاسم مع حذف كلمة « بدو » ؛ لذا فإن القوانين القبلية سارية المفعول بالنسبة لكل القضايا المحلية بدلاً من الشريعة إذا قبل الطرفان المتقاضيان المحاكمة عن طريق المحكمة القبلية ^(١) .

٥- المساجد : موظفوها وجماعات المصلين

ليس المسجد العادى بالنسبة لأى سودانى هو مجرد مبنى غير جميل من الطوب ، ولكنه مكانه فسيح يمكن للمصلين التجمع والصلاة فيه . إن ميدان الجامع بأم درمان حيث كان المهدي وخليفته يلتقيان بالآلاف من أتباعهم هو المسجد السودانى النموذجى ، وإذا ما ذهبنا إلى قرية فى وسط السودان فإنك ستجد المسجد مجرد سياج من الشوك فى أحد جوانبه راكوبة من القش لوقاية المصلين من شمس الظهيرة ، أما فى الشمال فالمسجد يتكون من سور من الطين بداخله إما راكوبة أو حجرة من الطين لحماية المصلين من حر النهار ^(٢) .

ومثل هذا السياج الذى يمكن تخطيطه بقليل من الحجارة يسمى مسجداً ، ويجب أن تخلع نعليك قبل أن تدخل هذه المنطقة . ويرتبط مثل هذا المسجد عادة بالطريقة الصوفية والذكر وهو الغرض الأساسى من وجوده ، ومن ثم يسمى الزاوية . أما إذا كانت هناك حجرة داخل السور لأداء صلاة الجمعة فتسمى تلك الحجرة فى هذه الحالة بالجامع ، وإذا وجدت مدرسة قرآنية فيسمى المكان أيضاً خلوة . وقد يحدث اختلاط بسبب أن هذه المصطلحات الأربعة ربما تستخدم للإشارة إلى المكان نفسه ، وقد يكون إمام المسجد الذى يؤم المصلين هو خليفة الطريقة أو فكى الخلوة ، أو أى مسلم محترم من الحاضرين .

والمسجد الكبير فى المدينة هو دائماً الجامع الذى يؤدى فيه صلاة الجمعة ، وقد بنى هذه المباني البناعون اليونانيون بأموال الحكومة ، ويشعر السودانى بالغربة فى الجامع والمؤذن ، أما فى الجوامع الكبيرة فالعدد أكبر من ذلك ، وعكس ما يشعر به عندما يكون فى الجو الدينى فى الزاوية أو المسجد . ولا يقل عدد موظفى الجامع عن أربعة : الإمام الذى يؤم المصلين ، وخطيب الجامع وخادم الجامع . لا تتطلب مهمات هؤلاء الموظفين أى جهد كبير ؛ إذ إنهم لا يختلفون عن نظرائهم فى العالم الإسلامى .

(١) إذا وجدت فى المراكز الريفية كل من المحكمة القبلية والمحكمة الشرعية فى المدينة نفسها فإن القضايا الشرعية يجب أن تنظر أمام المحاكم الشرعية .

(٢) نذكر بأن أول مسجد فى الكوفة - بنى عام ٦٣٨م - كان مساحة من الأرض محاطة بخندق مغطى بصف من الأشجار تعرش جانباً من أحد جوانبه ، وتوجد فى اليعقوباب فى الجزيرة راكوبة عالية جداً بها العديد من الأعمدة يقول أركل أنها قد تكون إحياءً لموتيف المعبد المصرى .

ويجب أن نذكر أن الإسلام في جهوده الرامية للمحافظة على وحدة الواجبات يشدد فقط على المظاهر الدينية الخارجية . إن العقيدة أقل أهمية من التقيد بالطقوس لأن الطقس هو الذى يقسم الناس ويحددهم دينياً ، ولا يعد منشقاً عن العقيدة من يحافظ على الواجبات الخارجية التى يفرضها الإسلام . إن الإيمان والإحسان هما من الأمور الخاصة بين الفرد وربه ، والكل يجرى ظاهرياً أحكام الشريعة ، ولكن التقيد بالقاعدة العامة يتباين بالطبع حتى وسط الأسرة الواحدة ، والإكراه ضرورى للحصول على التقيد بالقاعدة العامة كما كان الحال أيام المهدي ، والقليلون هم الذين يحافظون على أداء الصلوات الخمس ، وأولئك الذين يؤدونها لديهم بعض المقاصد ، إما لأنهم ينتمون إلى الطبقة التعليمية أو التجار أو كبار السن الذين لديهم الكثير من وقت الفراغ . أما المزارعون والأشخاص الذين يعملون في المدن فلا يقدرّون إلا على صلاتين فقط ، أما الأفندية فإن لبس البنطلون يعوقهم ، والبدو لا يعرفون شيئاً سوى الأيماءات الطقسية . والإحساس الروحي في الصلاة غائب عن معظم الرجال رغم أنها قيم إسلامية للانضباط والنظام الصارم للممارسة الدينية ، أما ذوو الإيمان السديد فهم أكثر إثارة بتلاوة القرآن في العيد أو الصوم ، أما الجماهير فتحركها نشوة الذكر . ويحافظ المزارعون على صوم رمضان أكثر من محافظتهم على الصلاة ، أما البدو فلا ، وقد تأثروا هنا بطرق الدراويش وليس بالشريعة لأن الطرق كلها تؤكد على الحاجة للتقشف ، حيث إنها تحل محل الصلاة في الأوراد ، وهناك اعتقاد بأن المحافظة على صوم رمضان يكفر عن كل الذنوب التى ارتكبت خلال العام ، ولم أجد إلا دليلاً بسيطاً للاعتقاد في هذا العرف ، رغم وجود اعتقاد عام جداً بأن التقيد بالقواعد يحقق مكافآت خاصة في الآخرة . وتأثير رمضان شامل وعام وهو شهر التعطل ، فالكل نعسان وذو مزاج عابس ، وهذا مرجعه فوضى التغذية بالليل مما يؤدي إلى اضطراب نظام الهضم حتى بالنسبة لغير الصائمين من الأطفال .

ليس هناك اعتبار للزكاة الإلزامية وهي ضريبة دخل مقدارها ٢.٥٪ تدفع للفقراء ، ولكن معظم الناس يدفعون الصدقة الطوعية ، أما زكاة الفطر رغم كونها سنة طبقاً للمالكية فإن سكان المدن يدققون كثيراً في دفعها (إخراجها) ، والحج إلى الأماكن المقدسة مطمح كبير . وبالرغم من قربهم من الحجاز فلا يذهب إلى الحج إلا القليلون ^(١) والذى يعود تحت الظروف البطولية يتم الاحتفال به ويحترم لأن حجه يجلب لأسرته بركة الأماكن المقدسة ، ويلقب من الآن فصاعداً بالحاج ، ويتم الاحتفال بذكرى هذا الإنجاز بتزيين منزله بالرسوم التوضيحية لرحلته . ويستقبل السودان دائماً من حجاج غرب إفريقيا الذين يمضون وقتاً لا بأس به في العمل لكسب تكاليف السفر ،

(١) من ٨٤٠٤ حاج ركب من سواكن خلال موسم حج عام ١٩٤٦م كان هناك ٥٠٠ حاج فقط من السودان الإنجليزي - المصرى ، أما البقية فكانوا من « الغرابة » .

وتتم إجراءات الحج تحت إشراف الحكومة ، ويبحر معظمهم من سواكن حيث يتم الكشف عليهم طبياً . والحج شئ مهم لأن الحجاج العائدين هم الحصون لذوى الإيمان السديد .

وهناك تجاهل دائم فيما يتعلق بتحريم تعاطى المسكرات ، وتشكل « المريسة » بنداً مهماً فى الوجبة العادية ، وهناك العديد من « الإندايات » المصرح بها .

كما لقيت الاحتفالات الكبيرة الاعتراف الرسمى كعطلات عامة ، وهناك العيد الصغير أو عيد الفطر والعيد الكبير من ١٠ إلى ١٢ ذى الحجة (ويسمى أيضا عيد الأضحى أو الفداء) ، وتقوم فيه كل أسرة بذبح خروف من عمر معين فى ذكرى فداء إبراهيم . وتقام فى كلا العيدين صلاة العيد وهى سنة ، وتقام فى العادة فى الهواء الطلق فى الصحراء أو فى مكان مفتوح ، وتتكون من ركعتين تتلوها خطبة من جزعين . ويتم خلال هذه الاحتفالات لبس الملابس الجديدة وزيارة الأصدقاء وتهنئتهم بالعيد وكذلك زيارة القبور وأضرحة الأولياء .

معتقدات وممارسات شعبية في الإسلام

أ- تأليه الأولياء

١- الأولياء في الإسلام : فكرة المسلم عن الإنسان التقى

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم

ولا هم يحزنون .) [يونس : ٦٣]

يؤمن كل مسلم أنه إلى جانب الأمر المدرك للمؤمنين ، هناك أمر غير مرئى للأولياء الذين - بتوجيه من الله - يديرون له شئون الدنيا ، لذا فالأولياء غير منفصلين عن الحياة الدينية للإسلام في السودان لدرجة أن التفكير في الرب دون وسطائه أمر مستحيل .

ويشد الأولياء الانتباه عن طريق قوتهم المزعومة وذلك منذ بداية الإسلام ، ولكن لا توجد نظرية متسقة عنهم ، كما لم تتطور طائفة خاصة حتى ظهور طرق الدراويش في القرن الثاني عشر الميلادي ، وعندئذٍ حصرت كل السلطات في شيخ الطريقة الذي ادعى أن له قدرة التشفع عند الله وصنع المعجزات . ومن الطبيعي أن يستمر أتباعه - بعد مماته - في تبجيله على أنه « ولي » الله ، وأنه الذي يحميهم .

وربما يمكن ترجمة كلمة « ولي » في معناها الديني « بالقديس » ، ولكن يجب أن نتجنب استخدام مفاهيمها الخاصة على الكلمة . إن فكرة « التقرب » (إلى الله) الكامنة وراءها تحتاج إلى توضيح؛ إذ إنها مهمة في تطور نظرية المسلم عن « القداسة » ولا يوجد في القرآن معنى محدد لكلمة ولي^(١) ، ولكن أصبحت بمرور الوقت تطلق على أولئك الذين شعروا بأن لهم علاقة حميمة مع الله ، وأصبحت من ثم توضع الكلمة للتأكيد ليس على الورع ، بل على العلاقة الحميمة مع الله . إن الأولياء هم أولئك الذين يعيشون في حضرة الرب .

ونتيجة لتطور هذا الاستخدام لتعبير « ولي » تطورت نظرية ترى أن الله منحهم قوى خاصة بإمكانها جعل بقاء وتوجيه الدنيا متوقفاً عليهم ، ويعلن على الجويرى أن الله قد اختار الأولياء ليبرهن على أعماله :

(١) أطلق الولي في القرآن على الله بأنه « النصير » و« الوصي » (سورة البقرة : ٢٥٧ والجاثية : ١٩) ، كما استخدم بمعنى « الحارس » في معناه العام (البقرة : ٢٨٢) و« ولياً » أو « حليفاً » لله (يونس : ٦٢) وأصبح المعنى المبسط والشعبي شائعاً خلال القرن التاسع الميلادي .

لقد جعل الله البرهان النبوي يدوم حتى اليوم بجعله الأولياء الوسائل التي تتجلى بها . فإن علامات الصديق والبرهان على صدق محمد دائعة الظهور بجلاله . لقد جعل الأولياء حراساً على الدنيا . لقد نذروا أنفسهم كلية لشئونه وكفوا عن صفاتهم الجسدية . وتسقط الأمطار من السماء من خلال حلول بركاتهم ، وتنمو من الأرض بطهارة حياتهم ، كما يتحقق النصر للمسلمين على المشركين بقوة أرواحهم ^(١) .

ولحكومة الدنيا هذه اجتماع ليلي للأولياء - الأحياء منهم والأموات - كتنظيم موجه لها ، ورئيسهم هو القطب الولي الذي يعيش على الأرض في تجسيدات مختلفة ، وهو المكلف الرسمي من قبل الله في الدنيا ويشكل الحلقة الهامة الأساسية في سلسلة الاتحاد بين « الخالق » و« الخلق » .

وأكّد العديد من الصوفية - هرطقياً - أنه بواسطة فضيلة بلوغ الاتحاد مع الله فإن الأولياء أعلى من الأنبياء في الرتبة ، وهم في حقيقة الأمر كذلك بالنسبة للجماهير ، وبالتأكيد فإن النبي أقل قيمة من الولي بالنسبة للمجتمع ، إذ تجسدت في الولي تلك الرغبة الشديدة للخلاص المتأصل في الإنسان ، كما يعتبر تجسيدا للاحتفاظ بالقوة المنفصلة تماماً عن تقواه أو عدم تقواه ، وهذا مرجعه أن فكرة المسلم عن التقى ليس لها ما تفعله أمام فضيلته الشخصية أو بلوغه القداسة من خلال الألم والمعاناة والصلاة والتفكير . إنه مجرد مفهوم ميكانيكي ولا يضم الإرادة الشخصية . وإن الأولياء أناس « شرفهم » الله بتأييد من عنده ، والوسيلة الذي يظهر بها هذا التشريف هو حيازتهم « البركة » التي تتحقق بها الكرامة لأجلهم ، فالكرامة تشريف ^(٢) . إن لطهارة حياة الولي أو العقيدة أهمية ثانوية ، إذا استطاع عمل المعجزات فهو يكفي لأنه ولي ، ومن ثم يجب خشيته كما يجب التماس حمايته . ^(٣) فالولي بدون معجزات ليس ولياً بالمرّة ، ولكن يجب أن نذكر أن هداية المذنب ^(٤) والاستبصار والتخاطر والفراصة هي أمور من قبيل الكرامات ، وهذه الأشياء هي الظاهرة العامة بين الإنجذابات الصوفية ، وسنرى أنه ليس صعباً إحراز الولاية . ومن المنافي للعقل البحث عن علامات الأخلاق ، إذ لو كان وعى التقى قد استغرق في الله ، فمن الصعب أن يكون جسده مسئولاً عن أعماله، ولا

Kashf al- Mahjub, trans, R.A. Nicholson, p.213

(١)

(٢) يشير د. ب. ماكدونالد إلى أن كرامة القديسين ذات صلة وثيقة بـ Xapyata of I Cor.xii.9 من فعل نعمة إلهية وأصبحت المعجزة مترادفة مع الآية ، أي معجزات بالمعنى الاصطلاحي التي اعترف بها المسلمون الإيمان السديد في الرسل فقط ، وهو القضاء والقدر الذي تحقق بواسطة الرسول لإثبات دعوته .

(٣) تم تبني الموقف نفسه مع أضرحة القديسين المسيحيين في البلاد الإسلامية ، ويوجد بالطبع العديد منها في التقويم الإسلامي . وفي السودان الذي لا يوجد به قديسون مسيحيون محليون فإن المثال الوحيد هو الاحتفال بمارجرجس (النبي الخضر في الإسلام الشعبي) في الكنيسة المكرسة له في الحظاية ، ونتيجة لعلاج المجانين فإن احتفاله (١٦ نوفمبر) أصبح مرتبطاً مع طيف عمله المعجز ، ويقوم في ذلك اليوم مئات المسلمين والمسيحيين بزيارة الكنيسة وتقديم القرابين والنذور .

(٤) ينظر طبقات ود ضيف الله ، ترجمة حياة عووضه بن عمر وسلمان الطوالي .

يعنى هذا أن طهارة الزاهد لا يتم الإعجاب بها ، ولكنها لا تملك ما تفعله تجاه القداسة. وتعنى البركة فى وعى المسلم بأنها هبة من الله ، والمفهوم جذوره فى المعتقدات التى كانت قبل الاسلام ، فى قوة المعجزات وقد تم إعادة صياغتها فى شكل جديد فى الاسلام ومن ثم بأهداف جديدة وينظر إليها كنعمة من الله، ويملك الأولياء البركة فى أعلى درجاتها ، وقد وهبها الله بشكل تحكى بصرف النظر عما يستحقها . وبالرغم من أن المفهوم ليس غائباً بأن التقوى الاستثنائية والزهد بإمكانها أن تجبرا يد الله وتجعله يهبها . وهناك إيمان عام فى السودان بأن بركة الولي يمكن نقلها أيضاً إلى ذريته ، وهذا يفسر حقيقة أن الرجال سيئو السلوك جداً والذين قدموا أسوأ المثل للآخرين قد تم تبجيلهم على اعتبار أنهم ورثوا هذه القوة الخارقة للطبيعة من جدهم الولي . وهكذا نجد فى السودان أن كل سكان قرى الفقرا تعيش بدرجة كبيرة على سذاجة الجماهير، ويمكن ادعاء البركة أيضاً بأفعال معينة كتلاوة الفاتحة مثلاً التى يصاحبها فعل رمزى برفع اليدين أثناء التلاوة ومس الوجه براحة اليدين^(١).

ويجب أن يحترس المسيحي فى الحكم على أولياء الإسلام طبقاً لمقاييسه الخاصة والاجتهاد لفهم المتطلبات الإسلامية فى الولي (القديس) . إن الأولياء هم نتاج للبيئة الدينية التى تحتاجهم ، وقد أصبحوا وسائل حقيقية لتزويد الحياة الدينية للجماهير التى كان الإسلام القويم بالنسبة لهم مظهراً خاوياً - قارن موقف المصلين فى مسجد بشعيرته الرسمية الوقور مع موقف أولئك الذين عند مزار الولي - حيث الناس رجالاً ونساء وأطفالاً على حد سواء يعبرون بحرية عن حبهم الشديد لحارس أسلافهم وحاميهم اليوم « والقريب من الله » من وقت لآخر ، والذي يسمع تضرعهم المثير للشفقة ويتشفع لهم عند الله .

٢- غرائب تقديس الولي فى السودان

إن الإيمان فى رجال الدين الأحياء منهم (الشيوخ أو الفقرا) والأموات (الأولياء أو الصالحين) وعبادتهم جاءت كلها جاهزة إلى السودان حيث وجدت أرضاً خصبة لاستقبالها ، لأن السودانيين دخلوا فى العبادة بتعصب ديني لن تثيره أبداً الشعائر الرسمية . واليوم - رغم انتشار التعليم الحديث - لا يوجد أى نقص تقريباً فى تقديس الولي . وفى الحقيقة فقد يسخر منه بعض الأفندية من خريجي كلية غردون وكذلك المتشددون ، ولكن بالنسبة للجماهير فإن الاعتقاد فى الأولياء وفى فعالية بركتهم ، إلى جانب قوى الشفاعة والمعجزة ، تمثل بالنسبة للجميع جوهر حياتهم الدينية ، حتى الأفندي لا يسيطر على الحريم ولا يرفض مطلقاً السماح لابنه لأن يتزين بتعاويذ فكي ورع ، كما لا يتخلص من حجاب الخاضع .

(١) قد تمثل البركة - كما سنرى - أشياء طبيعية بالإضافة إلى البشر ، كما يعتقد أن المعتوهين المسالمين يملكون البركة نسبة لأن الله قد أخذ شخصيتهم لنفسه ، ولكن يعتقد أن المجانين قد تملكهم الجن .

إن عدد أولياء السودان - رغم إسلام البلاد الحديث نسبياً - كبير جداً ، ومعظمهم من أهل البلاد ، وينطلق اسمهم في الحال من شفاء الناس في أوقات المرض والمحنة والخطر ، ويأتى الحجاج باستمرار إلى أضرحتهم لإظهار التوقير ولتلقى التبرك . وكل الأولياء متصلون بالطرق الدينية ، وسنذكر العديد منهم في الفصل التالي ، وسنجد ذكراً لحياة أولئك الذين اشتهروا خلال حكم الفونج الذى استمر ثلاثة قرون من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٨٠٠ فى طبقات ود ضيف الله (توفى عام ١٨٠٩ م) ^(١) . ولا يسرد هذا الكتاب ٢٦٠ ترجمة لحياة حشد متتافر مكون من الزهاد والمتصوفة وصانعى المعجزات كاشفاً ليس عن شخصياتهم المتنوعة وأسلوب حياتهم وتجلياتهم ومعجزاتهم فحسب ، وإنما يلقي أيضاً ضوءاً كاشفاً نافذاً داخل الحياة الدينية للجماهير السودانية اليوم ، لان هذه التراجم هى المرآة التى عكست الأفكار والحنين والمزاج والشفقة والفطرة السليمة وحماسة الناس الذين يبجلونهم ، وهم يمثلون الشكل " الكاريكا توري " وأيضاً الشكل المثالى للحياة الداخلية للسودانيين .

ويتفاوت هؤلاء الرجال فى النمط والاتجاه ، لقد عاش البعض منهم حياة سُكر ديني والبعض عاش حياة تتسم بالاعتدال ، وكان البعض زهاداً يعيشون فى خلوة وتقشف شديد ، واستمتع آخرون حتى الثمالة بأبهة وخيلاء الدنيا ، وقد عم التصوف السودان بشكل كامل لدرجة أن معظم ممثلى الشريعة كانوا أيضاً هم ممثلى هذا المظهر المتعمق للحياة الدينية ، لذا فقد اوعى معظم رجال الدين هؤلاء بأنهم يملكون حسن الاطلاع على كل من القانون الرسمى والصوفى من معلمين مجازين ، يذكر ودضيف الله اسماءهم بشكل مطرد . وخير مثال على ذلك هو خوجلى بن عبدالرحمن (توفى عام ١٧٤٢ م) .

والشيخ خوجلى ولد بالجزيرة توتى وبدأ الكتاب عند الفقيرة عايشة بنت ولد قдал ، واخذ علم الكلام والتصوف وهو ممن جمع بين التصوف والفقہ ^(٢)

ومع ذلك فالبعض لا يعتبر أن جفاف الدراسة القومية أمر ينسجم مع التقدم فى طريق الصوفية . فالبعض كان حياً تماماً . ويرى أن أحد الأولياء قرأ القرآن حتى سورة الزلزلة وبعدها ترك الدراسة . وينسب إلى عبدالرازق أبوقرون (توفى عام ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩ م) أن :

(١) درس الطبقات كل من هـ ١٠ . ما كما بكل (Histii , ii, 306) وس . هلسون S.N.R vi . 191-203 وقدم كلاهما اقتباسات وافرة ، كما ترجم ونشر هلسون سيرتين فى كتابه : Sudan Arabic Texts, pp.172-203

وهناك طبقتان من الطبقات إحداهما طبقة منديل * (١٩٢٠ م) ، والأخرى طبقة إبراهيم صديق (١٩٢٠ م) وسنشير اليهما فيما بعد بـ « م » لنسخة منديل و « ص » لنسخة صديق . إن عربية الكتاب مشوقة جداً لأن أسلوبها العامى متحرر من اللغة الطناتة للمدرسين ، وهو يختلف بشكل جوهري عما كتب الأولياء الآخرون كالشعرانى ؛ إذ كتبهم مؤلفة أساساً من « أقوال » بينما يشتمل كتاب ود ضيف الله أساساً على التراجم الذاتية .

* أى سليمان داود منديل [المترجم]

(٢) الطبقات . م ٧١ ، ص ٧٤

حوار الشيخ باسبار اسمه على ولد مُرَج لما رأى إقبال الناس على عبد الرازق للدعاء والتبرك به قال : كيف الناس يتبعون رجلاً أمياً ، تراحم الناس هذا أحق به باسبار – وقرأ عبد الرازق أفكاره وقال له : الله يريك ما شافت عينك فمسكه ووراه الكعبة عياناً ^(١) .

ونقرا أن عبد الماجد بن محمد الأغيش (توفي عام ١٧١٠م) كان :

ممن جمع بين العلم والعمل واتباع الكتاب والسنة لا تتخذ في الله لومة لانم وكان من أرباب المكاشفات يخاطب الناس على ما في ضمائرهم ، وقال لتلامذته اولاد الفقيه السميع سعد وحماد لما شاوروه على قراءة « خليل » في القوز . فقال لهما امشوا تزوجوا والدوا لكم جنا يخلفكم لان عمركم سيكون قصير لدراسة « خليل » فكان الامر كما قال . فاخذوا في « خليل » ثمانية ختمات فتوافهم الله تعالى ^(٢)

والسودان نظرياته الغربية فيما يتعلق بالأولياء . يقول ادريس ابن الأرباب :

برجات الأولياء ثلاثة اقسام : عليا ووسطى وصغرى . فالصغرى أن يطير في الهواء ويمشي على ظهر الماء وينطق بالمغنيات . والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية : اذا قال لشيء كن فيكون ، وهذا مقام دفع الله ولدى . والكبرى وهي الدرجة القطبانية ^(٣)

وغير واضحة بالمرّة نظرياتهم بشأن القطب ، وقد سئل الشيخ حسن ود حسونه عن مقام موسى بن يعقوب فقال : « هو في مقام الفرد . ومقام الفرد عند الصوفية غير القطبانية والأوتاد الأربعة والنجبا السبعة والأربعين البدلا فهم على عدد الذين اشتركوا معركة بدر (أى ٣٠٠) فهؤلاء للقطب بمنزلة العسكر ^(٤)، وهو يشير هنا بوضوح إلى القطب بأنه محور الكون ، ولكن عندما يطلق على الولي فإنه يعنى أنه وصل إلى هذه الدرجة الثالثة للقدسية ، كما يلقب ود ضيف الله موسى بن يعقوب هذا بأنه القطب الرباني والغوث الصمداني ، ومرة أخرى فقد لا يعنى أكثر من كونه « خريج » لأننا نقرأ عن دفع الله ود إدريس أنه عد من بلغ من تلامذته درجة القطبانية في العلم والدين والصلاح لا القطبانية المعلومة عند الصوفية نحو الأربعين ، ^(٥) ونقرأ في الإجازة التي منحها عبد الرحمن بن جابر إلى ابراهيم ولد أم رابعة « جعلته قطباً في مكانه ^(٦) . » كيف أصبح السوداني ولياً ؟ عند فحصنا لحياة هؤلاء الأولياء نجد أن العديد من أعضاء أسرة الولي يتجهون لأن يصبحوا أولياء ، وتبدو النزعة كامنة فيهم ، ولكن قد

(١) الطبقات . م ٧١ ، ص ٧٤

(٢) المصدر السابق . م ١٣٥ ، ص ١٤٢ . يقدر عبد القادر الجيلاني أن الله خلق ٧٠.٠٠٠ حجاب من الضوء والظل بين المؤمن والكعبة .

(٣) المصدر السابق . م ١٢١ ، ص ١٢٩

(٤) المصدر السابق . م ٧٩ – ٨٠ ، ص ٨٦ . وينظر أيضا ترجمة عووضة بن عمر منه بن حمر، الولي المذكور هو دفع الله بن محمد أبي إدريس .

(٥) تطلق كلمة قطب في الاستخدام الحديث على الشخص ذي المكانة والشهرة في مهنته ، مثلاً هو قطب من أقطاب السياسة .

(٦) الطبقات . م ٣٢ ، ص ٢٣

تصبح واضحة من خلال الاصطفاء أو التمرينات الخاصة . إن خليفة الولي العظيم – الذى يكون عادة من أسرته – يرث بشكل ألى بركته إلى جانب المنصب – ويبدو البعض وكأنه حصل على القداسة عن طريق الزهد الصادق – وقد حدد البعض احتراف الحياة الدينية على أنها مهنة ، حيث المهن القليلة الأخرى مفتوحة للتظاهر بالزهد وممارسة السحر، وهناك إشارات للنساء القديسات فى مصادر الطبقات ، ومع ذلك فالمؤلف لم يذكر أى إشارة عنهن فى ترجماته ^(١).

وهناك عدد من الروايات فى الطبقات عن البادرة الأولى للإشارة الروحية للإنسان الذى تم اختياره ، وسوف نجد أن لا مجال للجدارة الشخصية ولا الاكتساب بالتقدم من مرحلة (مقام) إلى آخر فى بلوغ الفناء فى فلسفات الصوفية . ويمكن إحراز الفناء بدون أى إعداد ، [إن ' جذبة ' من الله تساوى كل أعمال البشر والجن] والتجليات هى الحجة التى يدعيها هؤلاء الأولياء ، وما زالت التجليات تلعب دوراً مهماً اليوم فى الحياة الدينية للسودانى . والتجلى فى العديد من الروايات هو الطيران خلال العديد من السماوات ومقابلة النبی ، لأن رؤية النبی هى رؤيا حقيقية لأن الشيطان لا يتخذ صورته ^(٢) ولهذه الرؤيا علاقة بالمعراج ، وسوف يتابع المهدي فيما بعد النظرية نفسها ، ولا يوجد شك بشأن حقيقة حدوث هذه الرؤيا والهلوسة ، لأن درويش اليوم الذى يعيش فى حالة تنويم مستمرة لديه رؤيا مشابهة ، وهناك مثال من القرن التاسع عشر رواه أحمد الهدى مريد محمد بن المختار (توفى عام ١٨٨٢ م) الذى أدخل الطريقة التيجانية إلى السودان .

لقد وصل إلى حالة ' الجذب ' النهائية وتجول فى العديد من الأقطار ووصل إلى حالة الفناء . وقد اعتاد الدخول فى حالة الغشية والبقاء هناك والسجود على الأرض لا يأكل ولا يشرب ولا يسترد الوعى لمدة اربعين يوماً إلى أن يتحد مع شيخنا الذى أتم تدريبه وعندما اعتاد السيد (أحمد بن المختار) التحدث حول التنوعات المقدسة لزعيم الطعام فإن الحديث يعلو ويعلو حتى يرقى إلى ما فوق مداركهم . لذا فقد اعتاد أن يقول الآن أنت لا تفهم ما أقوله ، ولكن هذا الشئ الذى لا حياة فيه والذى يجلس هنا يفهم ، ويشير إلى أحمد الهدى الذى تملكه الحالة . لذا فالناظر اليه يعتقد أنه لا حياة فيه ^(٣)

وتبرهن الرؤيا الخاصة عن كيف جاءت الاستنارة لأول مرة إلى شرف الدين وكيف أتاه النداء دون أن يطلبه للسير فى الحياة الدينية ، وقد رواها إلى ود دفع الله والده كما يلي :

(١) ينظر تعيين أبو دليق لابنته عائشة – الطبقات م ١٦ ، ص ١٨ .

(٢) فى صحيح البخارى عن أنس أنه قال قال رسول الله (ص) من رأى فى منامه فقد رأى لان الشيطان لا يتصور بصورتى

Ar-Risalat as-Sadisa, p. 20 .

(٣)

وسبب بداية امره حدثني بها الفقيه حجازي سبط الشيخ ادريس قال حدثني الفقيه عبد الرازق ولد عويضة انه قال : دخلت خلوة عبادة واصابني جنباً (أماً) واتعبني حتى مرقت من الخلوة والشيخ شرف الدين نازل في الحجير فخرجت لزيارته ، فوجدته راقد في راكوبة قدام البيت والناس حالقين عليه وهو مقبل القبلة . فقلت وراء الناس قلت يفرغ منه ازوره . فانا غمنا بقفاه قال : الزول عبد الرازق ، (قلت نعم) وانت يا عبد الرازق يمرقك من الخلوة جُتَب (أُم) قال لراجل جالس في وجهه يا محفل أنا سبب اخذني الطريق من الشيخ عبدالله الحنقي خطبت بنت خالي . خرج معاي ولد خالي مسافر الى الصعيد استاجر على القراءة احصل شيئاً استعين به على تزويجها . فلما دخلنا ابو حراز الجلابة سبقتنا ولد مدني . قلنا هل نزور الحاج عبد الله وتلحق الجلابة - فوجدناه راقد في ظل المسجد يعصره فقيراً - ناغمنا بقفاه قال الزول شرف الدين ولد برى ، قلت نعم : لي ثلاثة أيام جاني رجل من الصالحين فقال لي ولدي مسافر الى الصعيد احجزه وسله وارشده . جابوا لنا طعاما اكلنا قال لي اخواني حصل خير كثير . قلت لهم ما بدور خير فوق بنت خالي ، ثم قال لي قم غسل هدمك واغتسل تعال . قال ففعلت ذلك فوجدت عنده قرعة ملاته لبنا وسلق لي سلقه واعطاني سبحة الفيه وقال لي : ادخل خلوة ثمانية ايام والحي القيوم يبر كل صلاة خمسين الفا . فجاني في الخلوة شخص شايل عصا من حديد فضريني بها ، فما تركت وردي أوردة وانا راقد نهاراً الثامنة جاني فقير فقال : الشيخ بناديك . فوجدته توضع لصلاة الظهر فاحرم لها فلما احرمت خلفه رأيت العالم من العرش الى الفرش ، ورايت جميع ما في عقول الناس فحصل لي انقباض عن الناس . فلا منى بعض الفقرا على ذلك فقلت لهم حصل لي كذا وكذا فقالوا : نحن طلبنا هذا ما وجدناه فبمجرد الكلام انقطع منى ذلك المدد . فان الشيخ سألني فقال لي أى شئ رايت في الخلوة فقلت كذا وكذا فانتقطع من أول ما اخبرت به الفقرا فقال لي : انا ريك إنت مطموس ماك محل امانه فبكيت بكاء شديد ثم قال لي : أمشى غسل هدمك واتبرد تعال فدخلت الخلوة ثانيا ، من فضل الله الشفتو ما انتقطع منى ^(١)

وقد تعتبر الرواية التالية لتحول المسلم الصغير تحولاً سودانياً يشابه تحول الغزالي :

وسبب بدء امره بعد ما فرغ من قراءة « خليل » و« الرسالة » سافر الى الشيخ دفع الله العركي بن الشيخ أبو ادريس ودخل في خلوة معلم الصبيان . وقال له أنا جئت من البابية - بداله من الف ب ت ث والصبيان يمشوه في لوحه ويضحكوا عليه وجاء الشيخ ووجده على تلك الحالة . وقال له : تعال يا فقير انت ماك عالم ؟ قال : لا ، قال : انا بشوف عليك أثر العلم . اما صدقتنا ما تنتفع مننا ، فقال له : علمي ما نفعتني ، حيث بدور مدكم . فسله طريق القوم ونجح له شاء وامره باكلها وبخله خلوه سبعة ايام فخرج منها ينظر في العالم من العرش الى الفرش ^(٢)

(١) الطبقات . م ٩١-٩٢ ، ص ٩٨-٩٩ - وقد ترجم هيلسون (17-213 . VI . SNR. ٧١ روايات عن مجي الاستناره إلى حسن ود حسونه وصالح بن بان النقا

(٢) الطبقات = م ٢٢ ، ص ٢٤ .

ويوجد بين هؤلاء الرجال أولياء ذهبوا لأبعد مما ذهب إليه الحلاج فى تطابقهم مع الله بمزية بلوغهم درجة الفناء . « قال الشيخ بلال الشيب بن الطالب أيوى دفع الله اسم الله الأعظم » وكان إذا كتب حجاباً لم يكن يكتب فيه جميعه سوى « دفع الله ، دفع الله ... »^(١) ، ويدعى هؤلاء الاولياء ، مثل المتصوفه فى أى مكان أنهم لا يخضعون لأحكام الشريعة التى تحكم حياة الناس العاديين ، وهؤلاء الرجال عندما ينتهكون الشريعة بالفعل يسمون « ملامتية »^(٢) ونقرأ عن محمد الهميم أنه :

كان من الملامتية : طائفة من الصوفيه تفعل اللوم وتخالف الشرع فتتكر الخلق عليهم ببعضهم . يعطب المنكر عليهم وبعضهم قصدهم انكار « الخلق » عليهم هضما للنفس خوف الشهرة^(٣)

قيل لنا أن محمد الهميم استولى على محظية شخص آخر، وتزوج الأختين وكانت له سبع زوجات فى وقت واحد وكلها أمور تتعارض مع الشريعة ، وفى الاحتفالات بزواجه من حليلة - ابنة مك عطبرة - واحدة من ثمانين امرأة تزوجهن - غنت السرارى :

الشيخ يعبد الله ويلعن إبليس .. ويكون لحليمة طايحا حنيس فقال : هى كدى^(٤)

وتظهر الكرامة لهؤلاء الرجال بطريقتين ، ويؤمن كل الأولياء بأنهم يحوزون « علم الولي » ، والاتحاد بحرية مع النبى والخضر والقطب والأولياء البارزين الآخرين « رجال الغيب » حيث يتحدثون بصراحة عن الأشياء الخفية ، كذلك عن امتلاكهم قوة عمل المعجزات أو أن الله يقوم بعمل المعجزات لمصلحتهم وهذه تسمى « بخوارق العادات ».

وتتوقف القدرة على صنع المعجزات على قوة بركة الولي ، ويتجه الولاء السودانى دائماً نحو الأشخاص ، وهم يتحدثون اليوم عن الشفاء بالعزيمة « إن البركة فى

(١) الطبقات : م ٨٠ ، ص ٨٦ . ترجمة دفع الله بن محمد ابو ادريس . وتسمى أقوال الشخص الذى فى حالة التجلى الصوفى بالشطحات

(ينظر As-Saraj, Kitab al-Lumá Fi, Tasawwf, edit, R.A. Nichdson, pp.375-409) وتطلق الشطحات فى السودان على أى نوع من الأقوال المتطرفة أو الأشعار التى يتفوه بها اثناء الانجذاب فى الذكر . ويورد الطبقات بعض الأمثلة . وتقرأ فى مجلة التيجانية (العدد الرابع ص ٢٢) عن الشيخ محمد الخير أنه عاش فى حالة فناء أبدي فى مجتمع شيخه محمد بن المختار الذى أدخل الطريقة التيجانية إلى السودان خلال الحكم التركى - المصرى ، ونطق بشطحات - مثل « اليزيد هو أبى والمتصوفة كلهم سكارى . »

(٢) اعتبر الصوفى أنه متحرر من قيود الشريعة لعلاقته الخاصة بالله ، ولأنه واحد مع الله ، فإنه يطيع قوانين الله بالطبع ، وقد وجد البعض أن هذه حجة مفيدة ليحيا حياة فاسقة تحت قناع وذريعة القداسة . ويكتب على الجويرى الذى يهجر القانون ويرتكب فعلاً غير دينى ويقول أنه يتبع حكم « اللوم » هو إنسان مذنب ومرتكب عمل واضح وشريير ويطلق العنان لأهوائه ورغباته وشهواته . Kashf al Mahjub, edit, R.A Nicholson, p.65

(٣) الطبقات . م ١٤٢ ، ص ١٤٩ أنظر كذلك رواية اسماعيل بن الشيخ مكى الدقلاشى م. ٢٧ ص ٢٩

(٤) المصدر السابق . م ١٤٢ ، ص ٢٩

الكفوف موش فى الحروف « ، ولكن بعض الطرق تؤمن بأن البركة فى «الحروف » (مثلا استنشاق بعض النصوص المحروقة) . إن اجراء العملية مرتين لهو أمر ضرورى ، أى تفاعل بركة الفكى فى الرمز .

إن بركة الأولياء لامتناهية فى تنويعاتها ، وأشهر أولياء الجزيرة هو حسن ود حسونة (توفى عام ١٦٦٤م) الذى قدم جده من أسبانيا ، ويمكن تفسير بعض كراماته نفسياً ، ولكن الكثير منها روايات مشوهة أو مبالغ فيها لأحداث بسيطة أو لتلك الحالات العامة للانجذابات الصوفية أو بشكل أكثر عمومية من اختراعات أتباعه ، وقد يكون مشوقاً أن نورد بعض الأمثلة من كنز الطبقات نظراً لأنها على شفاه الناس بشكل مستمر ، كما أنها تساعدنا لفهمها ، ويمكن ترتيبها تحت المجموعات التالية :

١- الشفاء المألوف بالعزيمة ، ومع ذلك فهناك مثال للشفاء بالوسائل النفسية - عندما تفشل العزيمة - قام بها خوجلى بن عبدالرحمن الذى توفى عام ١٧٤٢م والذى توجد قبته فى الحلفاية ، وقد عد واحداً من أعظم الأولياء :

فاطمة بنت عبيد مرضت مرضاً شديداً اشرفت على الموت ، وجا الفقيه النور (الى الشيخ خوجلى) وقال له : يا سيدى الشيخ حسن احيا الميت دا الحين دايرك تسئل الله لها ان يحييها نأمر لك بفرضها قسم الله وانه عزم للفقيه النور فى ماء الركوه وغروها بالماء فمجته لأنها (على عتبة الموت) فان آخر الليل خاطبت النور بصوت هادى وقالت : انا طيبه ، فانى رايت الشيخ خوجلى واقف عند الصندوق فوكزنى بعصاه وقال لي : قومى ثم ان النور قام فى ليله وركب وسار الى توتى فوجد الفقيه احمد بن الشيخ قدأى المسجد وقال له : البشارة بنت عبيد طيبه . وقال احمد : الفقيه ساد الخلوة عليه الى الآن - وقال (لى) انا غلبان كنا انا وملك الموت نتنازع فى روح بنت عبيد فتركها لى (١)

٢- المكاشفات ، وهى معرفة الأشياء الخفية والأفكار والمستقبل والاستبصار والمواهب التلبائية .. و .. الخ ، وهذا مجال واسع . إليك مثال شائع وهو التنبؤ بالمستقبل :

مرض الشيخ بان النقا مرضاً شديداً فعاده بعض اخوانه فقالوا له انت مرضان ما عندك ولد ذكر ولايتك كلها بنات فقال لهم : زوجتى بنت صالح حامل بتجيب ولد ما يموت حتى يبقى طول السيف ، فكان الأمر كما قال . لان ابنه الشيخ صالح يروى ،، فبعد وفاة ابي مكثت سبع سنين حتى بلغت الحلم (٢) .

(١) الطبقات : م ٧٥ ، ص ٧٨ - ٧٩

(٢) نفسه : م ٢٦ ، ص ٢٨

ويروى المسلمى أنه

« خرج بفقره ونزل عند رجل منفرد عن الناس وتأسف الرجل وقال : الما عنده جماعة ولا مال هل ييكى على عمره عمال - فالمسلمى كاشفة

(قرأ أفكاره) وقال له : الجماعة ما ينتزل والمال ما بدوم . الما عندو ذكر الله يموت مغموماً نحن (راضين) على أنفسنا ^(١)

٢- تبديل أنفسهم أو الآخرين أو الأشياء ، فنقرأ عن على اللبدي أن :

عبد الحفيظ بن الخطيب ابو عمار طلب يد اخته التى يسمونها لبدي وكلمته امه وقالت له يا مجنوب اختك يتزوجها ابن الخطيب ، اين السمن و العسل ؟ قال لها جيبى زير سقيه واملوها ماء . ثم قال لها : جيبى آخر فملته كذلك . ثم قال لها جيبى ثالثا فقعدت تضحك عليه هي والنساء . قالت له : املا الاثنين . قال لها : جيبى ثالثا فضل المولى كثير . فامتعت عاداه كلام غيبه - ثم أدخل عكازه فى الزير وساطه يمينه وشمالا وقال « بسم الله الرحمن الرحيم ا ب ت ث ج ح خ » فانقلب ذلك الماء سمنا اصفر له ريش والثانى عسلا . ثم قالت له بجيب لك الثالث قالها فات ذلك ، ثم زوجوا عبدالحفيظ الى لبديه ^(٢)

وهم يقولون اليوم عن أى فكى قوى أنه « فكى يروب المويه »

٤- السيطرة على العناصر : الطيران - السير على الماء - السيطرة على الحيوانات والأشياء الجامدة :

مجا بن عبد اللطيف بن الشيخ حمد ولد زروق ولد بشمبات . وظهرت له كرامة عظيمة عجيبه بشهادة الشيخ خوجلى - قال : تزوج امرأه فى توتى اسمها زينب بنت بله ، وتوفى العصر ما امكن الناس يمرقوا نعشه لضيق النهار والبحر ملان فى الصيف - (والناس محتارين ماذا يفعلوا) قال ثم ان الشمس انقلبت الى محل الطلوع (من الغرب إلى الشرق) فحينئذ مرقوا جنازته وبقنوه فى الشرق مع اباته - قيل للشيخ خوجلى : شفت بعينك أو سمعت ؟ قال شفت بعينى . انا معاي الجنيات تلعب الضقل الناس قاعدين قدام المسجد فى ظل عشية ، ثم ان ناس البكاء قعدوا فى ظل الضحى ووراء المسجد وشفت النساء تركن البكاء وزغرتن زغاريت الفرخ ^(٣)

ونجد هنا قصة طيران متعلقة بمحمد قيلي يرويها موسى ود ريه : قال خرجت من الطفاية مسافر الى الريف (مصر) ومعهم فقيرا يقولوا له ولد فُكَّة سافر الحج ونزلنا فى خلوات الشيخ محمد قيلي . قال منتظرين الجلابة نصلى معه الاوقات الخمسة فذات يوم جينا منتظرنه لصلاة الصبح فشفتاه جاء طائرا بين السماء والأرض فنزل عند باب خلوته فخطا خطوتان عند نزوله كالصقر ثم دخل خلوته فلم يصل معنا الصبح . قاما ولد فُكَّة بمجرد رؤيته له طائرا خرج هايمنا من وقته . وانقطع خبره فلم نعرف هل حيا أو ميتا . فخرج (الشيخ) من الخلوة متقبضا وامرنى بكتم ما رأيته منه ^(٤)

(١) نفسه م ٢٣ - ٢٤ ، ص ٢٥

(٢) الطبقات . م ١١٢ ، ص ١١٩

(٣) نفسه : م ١٦٩ ، ص ١٧٨

(٤) نفسه : م ١٥٨ ، ص ٥١ - ٥٢

٥- إحياء الموتى : وهى متصلة بحسن ود حسونه متعدد المواهب :

واحيا عفيشه ولد ابكر غرق فى بحر الخشاب فمكث فى البحر ثلاثة أيام وانقضى نحبه ، وقالوا له صلى على حوارك فقال انا مان حسن الاول عند سيدى (ربي) انا حوارى غرقان له ثلاث أيام ما أخبره فلما راه قال له قم . فقام فتمالت روحه (انتشرت روحه في جسمه) وتزوج بعد ذلك وولد له ولد اسماء ابكر وقد ذكر ان الشيخ دايماء راسه كاشف ما يتقنع قالوا قال الشيخ ابريس : الشيخ حسن ان إتقنع الميت ان قال له قوم يقوم . فجاء رجل شايل طيرات ميتات على رأسه اخذها منه فوضع كم قميصه على رأسه فطار (١)

ولا تستعمل هذه البركة لفعل الخير فقط ، بل قد تستخدم بشكل مهلك لمعاقبة فاعلى الشر ، ويسمى الولي فى هذه الحالة « عتاب للظلمة »

بدوى ولد مرتاتى غصب دارا من حوار له اسمه أبرق ابو شعبان ، فارسل اليه الشيخ فيها فملا يده تريا وقال : ابيه دى . فلما سمع دعا عليه وقال له : تدخل فى حلقك وتمرق بدبرك فى الوقت والحين ، خرج التراب بدبره فى وقته توفى فركب الشيخ على فرسه الشقرا ورد البحر وكجروا (وضعوا) له الفرکه للبراد فجاء اخو بدوى وصايحه بالشرق وقال له : يا هذا الزول البكا العلى ناس بدوى شنو ؟ فلم يكلمه - ثم كلمه ثانيا فقال له : بدوى لحيقا له (اذا اراد الله سوف تلحقه) فمات فى الوقت والحين فدفنوهما الاثنين جميعا (٢)

ويبدو أنهم استخدموها أيضاً لأغراضهم الخاصة ضد الشخص الذى يضايقهم ويستخدمونها ضد أولئك الذين لا يؤمنون بهم ويسخرون من مزاعمهم . والسودانى حساس جداً للإيحاء ولعنه مثل ذلك الرجل ، وهو يؤمن بالقضاء والقدر الذى يحفظه عن السؤال عن الأفعال التى نعتبرها لا أخلاقية ، ونقرأ فى ترجمة شرف الدين عن اللعنة القريية من المعجزة :

ووقعت له كرامات كثيرة منها انه ظهر فيه حلق (مرض الزهرى) كثير فامتلا جلدة منه . وناس نسرى قالوا الشيخ حلق فدعا عليهم قال : اللهم ان كان ما مشيت له فى محله (أى أتى لم ازور مكان الزهرى) ابتليهم به ببركة الشيخ على ولد برى . فجميع من فى نسرى حلق الألعى والبهايم والاطفال حتي الشجر كله إملا براد (٣)

وتستمر عملية التقديس بعد وفاة الولي ، وتتم باستمرار إضافة أولياء جدد إلى القائمة فأم درمان التى تعد مدينة حديثة (٤) وتعتبر اليوم المركز العصبى للحياة الدينية

(١) الطبقات . م ٤٩ ، ص ٥١ - ٥٢

(٢) نفسه : م ١٢٧ ، ص ١٤٥

(٣) نفسه : م ٩٢ ، ٩٩ . ينظر كذلك رواية على ود عشيبي م ١٠٧ - ١٠٨ ، ص ١١٤ - ١١٥

(٤) كانت أم درمان قبل المهدية قرية غير مهمة ، وجاء ذكرها لأول مرة فى الطبقات على أنها محل إقامة حمد بن محمد (١٦٤٦ - ١٧٢٠م) ، ويوجد قبره جنوب أم درمان حيث تسمى ود أم مريوم ، ونمت أم درمان خارج المعسكر الذى نصبه المهدي هناك لحصار الخرطوم .

السودانية تضم الآن ثلاث قبب، والعديد من الأضرحة الأخرى وعلى الأقل مائة « بيان »، وإحدى تلك القبب هي قبة قريب الله (توفى عام ١٩٣٠م) خليفة الطريقة السمانية، ويسمي أتباعه فرع طريقته بالقريبية، والآخران هما قبة دفع الله الغرقان (توفى عام ١٩١٧م) شيخ الطريقة القادرية وتلميذ محمد بدر وقبة ود البدوي (توفى عام ١٩١١م) وهو ليس ولياً ولكنه كان شيخ العلماء في الأيام الأولى للحكم الحالي، أما في الجزيرة فهناك خليفة اليعقوبية الشيخ هجو عبد القادر الماسي (توفى عام ١٩٣٠م) الذي اعترف به ولياً في حياته^(١)

وفتحت فكرة المسلم عن الإنسان التقى مجالاً واسعاً للدجل، وعاش العديد من الذين اتخذوا هذا الوضع حياة لا أخلاقية، وهناك دائماً البعض الذين يستحقون الاحترام مثل قريب الله الذي عاش حياة تقوى وزهد حقيقية، ثم هناك مجموعة كبيرة من الفقراء الذين لهم سمعة حيازة البركة والقوى السحرية. وتضم هذه المجموعة رؤساء طرق الدراويش الذين لهم في السودان ضغط قوى عليهم، كما أنها مهنة العديد من أسر الفقرا، وهم يتفاوتون من مكان لآخر. وهم في الجزيرة صادقون في حسهم الإسلامي، أما في كردفان فهم مشعوذون بشكل عام يعيشون على الشعب بذكائهم، زيادة على ذلك هناك الدراويش والمعتوهون الذين يمكن تصنيفهم معاً. وقد مات مؤخراً معتوه كان يتجول في أم درمان وكانت النساء تسميه الولي داود، وتنطبق كلمات « لين » على السودان أيضاً عندما كتب أن « معظم المحسوبين أولياء في مصر إما مجانين أو معتوهون أو دجالون »^(٢)، ومن الأفضل قول شيء بشأن الطراز المتميز للولي الحى. فمن النادر إطلاق اسم الولي على إنسان حى، ويتم حجز الاسم حتي يثبت - بعد وفاته - أحقيته في اللقب، وذلك بالممارسة المستمرة للقوة من قبره. إن المصطلح العام هي كلمة الفكى الغامضة^(٣) التي اطلقت بلا قيد على العالم والصوفى وبدرجة أدنى على رجل الدين المراوغ الجاهل وعلى البائع المريب للتعاويد والأحجية^(٤) وما زالت ملاحظات الكونت دسكابراس ديلا تور، جيدة بالنسبة لجزء كبير من السودان :

(١) عاش هجو في جوف شجرة تبلى أثناء فترة المهدي، وقد دخل الشجرة عن طريق شق ثم غلقه فيما بعد، وتم بعد سنوات فتح الشق مرة أخرى. وقد حقق شهرة جعل اليعقوباب يطلبون منه أن يصبح شيخهم.

(٢) Modern Egyptians (Everyman), p.234.

(٣) الفقيه في الأصل هو القانوني. وقد حرفت الكلمة في السودان إلى فكى دون معني محدد، ومع ذلك فيبدو أنها أرجعت جزئياً إلى المعنى القديم بمعنى الحكيم، ولا تجمع على فقهاء وإنما تستخدم بدلاً من ذلك كلمة فقرا (ج. فقير) يقولون مثلاً «ودر كل ماله في الفقرا» وفقير تعنى عادة الدراويش مع ذلك فإنها تطلق أحياناً على الفكى وقد تعنى كلمة فكى في بعض اللهجات العربية معلم الكتاب وهي إحدى استخداماتها في السودان.

(٤) S. Hilleon, J.R.A.S., 1931, p.664

نجد فى القرى رجال دين من الدرجة الثانية ، رجال دين مساكين غير معروفين فى أى مكان آخر يسيطرون على السكان بالثقة السائدة فقط ، يعيشون على الصدقات والحرمان ويسمى رجال هذه الفئة بالفقرا ، والعديد منهم حج إلى مكة ، وكلهم يعرفون القراءة وكلهم يقرأون القرآن وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ، ولكل قرية فقيرها وهو الذى يعلم الصبيان القراءة والكتابة ، ويشرف على الزيجات والجنائز ويتولى وظيفة القاضى فى حل المنازعات البسيطة ، ويضيف إلى هذه الوظائف تلك المتعلقة بطرد الأرواح الشريرة . وهو يستحضر بجانب سرير المرضى الشيطان الذى يثيرهم ، ويكتب على قصاصات من الورق سورة الفلق والطلسم الذى يحمى من يحمله من وسوسة أعداء الإنسان ، وحتى - طبقاً للبعض - من الجروح والأمراض التى قد يتعرضون لها ، كما يجنى من بيع هذه الطلاسم بعض المال الذى يمكنه من الحياة . إن هذه الصناعة بريئة تماماً ، إذ إن هذه الطلاسم لا تضر أحداً وتحقق دائماً تأثيراً مرضياً على التخیل ، إلى جانب أن الفكى لا يقصد خداع الآخرين ، وهو يؤمن بحماس بقوة تأثير التعاويذ ، كما لا يقيد نفسه دائماً بطرد الأرواح الشريرة عن المرضى أو يجهز لهم قصاصات من الورق أو الماء الذى غسل فيه التعازيم الدينية . إذ دائماً ما يضيف إلى هذا الدواء الخادع استخدام عطور النباتات التى درس فعاليتها عن طريق ممارساته وخبرته الطويلة أو تقاليد أجداده^(١). وبينما معظم هذه الأشياء ما زالت صالحة فمن الحكمة إذاً الاستفسار عن صفة الفكى إذا ما قيل للمرء إن الفكى هو كذا وكذا ، إذ للكلمة العديد من المعانى .

١- إذا قدم طبأخك سفرجيا جديدا وقال إنه فكى ، فمن المحتمل أن كل ما يعنيه هو أنه « راجل تقى » ، هنا مرة أخرى يجب أن يحاذر المرء من قراءة المعنى الخاطئ لمصطلح « تقى » ، إذ المعنى ليس أكثر من أنه دقيق فى الحفاظ على ممارسات الشعائر الدينية ، وليس أنه أمين أو جدير بالثقة . ٢- وقد يكون « مداوياً » وهو فى حد ذاته رجل دين فى المقام الأول مهمته تجهيز التعاويذ الواقعية للشفاء عن طريق الصلاة والتعاويذ والتعازيم ، أو - فى حالة المرض الخطير - بوسائل التعاويذ الأكثر إتقاناً . إن هذا النوع من الولاية وراثي فى العادة ولسلطته الكثير لتقوم به ، ويأتى تعزيزها بالرعاية الروحية ، وإن كان ضرورياً ببعض المظاهر الخارقة للطبيعة . وبالرغم من أن الناس يستخدمون بشكل متزايد المستشفيات فى حالة المرض ، فما زالوا يزورون الفكى لجعل الشفاء مضاعفاً ، كما يؤمنون أيضاً أن بإمكانهم اكتشاف اللص وتحديد مكان المسروقات وعلاج تأثير العين الشريرة . ٣- المتقلدون لمناصب معينة مثل رئيس الطريقة الصوفية ، وتظهر هنا مسألة القوة غير العادية ، لأنه يرث بركة سلفة الولى

المتوفى وكان مؤسس الإسماعيلية معروفاً دائماً فى حياته بالفكى إسماعيل^(١). وقد نجد فى هذه المجموعة نساء من أمثال علوية ومريم الميرغنى ومرة أخرى يطلق اللقب على حارس القبة وهو دائماً ما يكون من ذرية المتوفى . ٤- أخيراً يطلق على ناظر الخلوة أو المدرسة القرآنية ، وهو ما زال شخصية مهمة فى مجتمع القرية ، ويحاول بالقليل من المعرفة تدريس القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن كما يعمل إماماً فى صلاة الجماعة. وكانت مهام ١ أو ٤ فى القديم متلازمتين ، أما الآن فهما متشابكتان بشكل كبير ، ومعظم فقرا الخلاوى يمارسون التدوى إلا أن ممارسة هذه المهام التى يقوم بها هؤلاء الفقرا لا يشجعها أى شخص تلقى تعليماً حكومياً عاماً ، ومع ذلك فإن الانتشار التدريجى للتعليم الحديث قد خفف من نفوذهم وسط قطاعات محدودة من السكان ، وما زال للفقرا سلطة فى البلاد.

٣- الأضرحة والممارسات المرتبطة بها

قد لا يكون الناس متأكدين دائماً من فعالية بركة الفقرا الأحياء ، ولكنهم يثقون ثقة عمياء فى بركة الولى الميت ، ويتحدثون بشكل طبيعى عن «شيخنا» ، ودائماً كما لو كان حياً ، ويفترض أنه ينام نوماً خفيفاً ويظهر للناس فى الأحلام أو الأثر ، كما أن قوته للمباركة أو التلف تغطى تقريباً كل صنوف الاحتياجات الإنسانية^(٢) ، وقوته مجربة بالمعجزات التى قام بها ليس فقط لمصلحة الأجداد المتفوقين بل للأسرة الحية أيضاً ، ومن المستحيل تخيل شئون شخص ما بشكل لائق دون مساعدته سواء أكان شفاء طفل مريض أو الفوز بزوجة أو مباركة الأطفال .

وتوجد مقابر هؤلاء الأتقياء أساساً على طول النيل شمالى الخرطوم والنيل الأزرق من الخرطوم حتى سنار ، وهى أقل تكراراً على النيل الأبيض ، وهناك مقابر أخرى موزعة فى معظم المناطق المأهولة ، ودفن فى كردفان الكثير من الفقرا المحليين تحت الأشجار بعلامات من حجرين فقط ، وقليل من الرايات التى ترفرف لتحديد وتعين المكان .

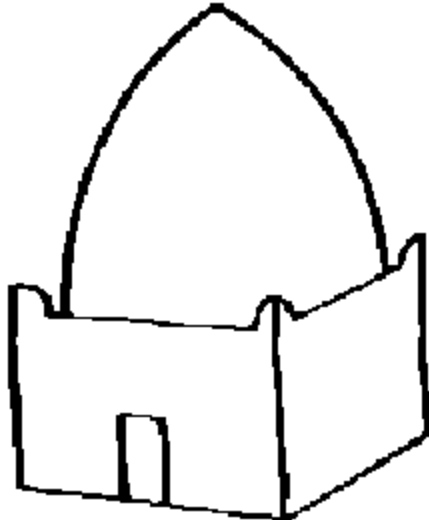
وهناك مختلف أشكال الأضرحة ؛ لأن أى مكان يكون مرتبطاً بشكل ما مع الولى قد يشارك بدرجة ما فى بركته .

١- هناك القبة ، وهى مقبرة مقببة لولى مشهور ، وقد يكون «مبنى جالوصاً مربعاً» لقبة ذات شكل بيضاوى^(٣) ، أو «تكل» مرتفعاً ذا شكل مخروطى ، وقد تشيد هذه القبة

(١) ديلاتور . مصدر سابق ص ٤٤٨

(٢) بالنظر الى هذا التيجيل الشامل للأولياء من الدهش ان تكتشف ان القول المأثور « أنا قايل فى القبة شيخ » مرادف لـ « ليس كل ما يبرق ذهباً »

(٣) يظهر طراز هذه القبة السودانية وسط بدو الجزائر سكان الهضبة العليا «ونجد جذور الطراز المحلى للبناء بالطين الموجود فى بلاد البو يقب ذات أشكال بيضاوية ومبان منخفضة ذات شكل مستدق عادة» (Enc.lis.,suppl.vol.128) ويعطى بوركهارت (Nubia 274) وصفا لمقبرة ذات شكل مخروطى ويقول انه لم ير سوى قبنتين خلال زيارته . وتتكون قبة الشيخ إدريس المجذوب فى « كويكا » من مسطبة مدرجة تشبه ما كان موجودا فى الأسرة المصرية الأولى وتشبه القبة العادية الشكل التالى



غالباً في المكان الذي دفن فيه ، ومن الطبيعي أن تكون بركته أقوى في المكان الذي عاش وقضى جل وقته فيه ومات فيه ، ومع ذلك فلا ترمز بالضرورة كل قبة إلى مكان قبره ، ولا يوجد في بعض الأحيان أكثر من ضريح تذكاري أو قد يكون المكان الذي دفنت فيه مشيمة الولي ^(١). ويوجد واحد من هذه الأماكن في « الجديد » حيث ولد بكرى ود ادريس وآخر لبكرى بن عبد الله بن حسوبه في سوبا وبكرى الذي دفن في أم لبان على النيل الأبيض . كما نجد في بارا مكاناً للحسن ابن مؤسس الطريقة الميرغنية المدفون في كسلا ، وتكون القبة عادة تحت مسئولية فكي من سلالة الولي الميت ، وقد يعين الخليفة في بعض الأحيان حارساً يعيش على ما يجود به المجتمع وعلى هدايا الحجاج .

٢- كما توجد مبان مشابهة من الطين ذات سقف مسطح أو « تكل » في شكل القبة المعتادة (تسمى ضريح) ، والبعض الآخر بلا سقف بالمرّة ، بل مجرد تربة مستوية ذات علامة عند الرأس والقدم بحوائط من الطين حولها . وهناك العديد من الأضرحة تسمى « بيان » تحدد وتعلم الأماكن التي يظهر فيها الولي في الحلم . وأم درمان التي لا يوجد فيها الكثير من أضرحة الأولياء مليئة بهذه « البيانات » ، ويوجد واحد من هذه البيانات خارج منزلي ، وقيل لي إن أحد الناذرين حلم بأنه قابل ولياً يدعى الشيخ مسعود في هذه البقعة ، وقال له الولي إن بركته ستكون موجودة هناك لمساعدة الناس ولتلقى التكريم ، وقام الرجل من ثم ببناء حائط من الطين ، وتقوم النساء بزيارته ويتركن نذورهن في شكل قطع نقدية صغيرة أو قهوة أو ... الخ ويقوم فقير أو أطفال بأخذها . ويوجد في مدني « بيان » غير عادي للحسن بن محمد عثمان الميرغني وهذا البيان مبني بالطوب وله سقف من القصب ، وتوجد تربة في الداخل - رغم عدم وجود أي شخص بداخلها - مغطاة بعمود أرجواني في أحد نهاياته ثقب يحتوى على تراب يؤخذ لتمنح بركته للمريض ، وبيانات سيدي الحسن كثيرة جداً ، وقد رأيت ثلاثة منها على الأقل في أم درمان ، ويتم زيارة بعض البيانات لخدمات خاصة ، وهناك واحد في الخرطوم للشيخ محمود أبو شيبه المدفون في النوفلاب ويذوره العرسان في ليلة عرسهم ، وكذلك أضرحة خوجلي وحمد في الحلفاية .

٣- وهناك أضرحة لا تميزها مبان ولا مقبرة سوى دائرة من الحجارة أو ركام من الأحجار في بعض الأحيان بعصاة ورأية ، وتكون هذه السياجات في الغالب بيانات أو قد تميز البقعة التي اعتزل فيها الولي أو صنع فيها معجزة .

٤- كما هناك العديد من الأماكن والأشياء المقدسة الأخرى المصاحبة للأولياء أو تكون لها صفات خاصة ببركته أو - في الأماكن التي ما زالت وثنية - قد تكون الأشياء مثل الأشجار والينابيع والآبار والأحجار التي كانت مرتبطة مع عبادة الوثني تتجسد أو تتطابق مع الأولياء .

(١) يعتقد سلجمان أنه في مصر القديمة كان ينتظر إلى المشيمة بشكل مزدوج : جسدي وروحي بالنسبة للوليد الذي قامت بتغذيته (Hamitic problem, p.658) ، ويسود في أم درمان اعتقاد مشابه وسط بعض القطاعات .

وتعتبر القبة دائماً منطقة محرمة ، وفى بعض الأحيان المنطقة المسورة حولها ، لذا فهي تمثل ملجأً للهاريين من الانتقام أو العدالة . وهناك إحساس عام أيضاً بعدم قتل الحيوانات المتوحشة بالقرب من الضريح ، إذ من المحتمل أن يكون لهذا الحيوان علاقة بالولى ، إذ العديد منهم يمنحون حمايتهم لحيوانات بعينها ، وهناك اعتقاد غريب بين البشاريين والعبادة مفاده أن الحيوانات التى يضحى بها فى الضريح تتحول إلى غزلان أو وعول تتمتع بحماية الولى الذى يعاقب أى شخص يحاول اصطياها (١) .

كما يحمى الولى أيضاً الأشياء التى تودع عند قبره ، ويقوم المزارعون بترك محاريتهم وأدوات زراعتهم فى حماية الضريح ، ويذكر ماكمايكل أنه رأى أشياء مثل خيمة الشعر والأوعية وأحجار الرحي تركها العرب عند ضريح حسن ود حسونة حين عودتهم فى نهاية الموسم (٢) ، وما زال التجار الذاهبون إلى مصر يتركون بضاعتهم الزائدة عند قبر أبو حمد فى الوقت الذى زار فيه كايو المنطقة فى عام ١٨٢١م كما يتم فى الغالب ترك الشعر وقلامات الأظافر والأسنان فى الأضرحة لمنع الآخرين من الحصول عليها لأغراض سحرية ، كما تبقى أيضاً الأتربة أو الأحجار التى تؤخذ من مقابرهم ، ويتم ربطها عادة بعارضة ساقية غير مستخدمة لحمايتها من السرقة . إن أعظم قسَم مقدس بالنسبة لمعظم الناس هو ذلك الذى يتم عند قبر الولى (وليهم) ، فى حين لايهتمون بالقسَم كذباً على القرآن .

إن عادة العبادة عند القبور بسيطة جداً فى صفتها ، فهي حرة تماماً وبلا شكل محدد للعبادة ، ومع ذلك نسبة لأن معظمها مرتبط بالطرق ، فهناك أساليب محددة لقراءة الفاتحة وفقرات قرآنية معينة و«مراقبات» [تأملات] ويسمى الذهاب إلى الضريح بالزيارة ، وإذا لم تتم زيارات منتظمة لهم فإن الأولياء يتجهون للظهور فى الأحلام تعبيراً عن اللوم والتهديد ، ويقوم الزائر للضريح بقراءة الفاتحة رافعاً كفيه أمام وجهه ثم يمسحهما بوجهه .

وهناك نوعان من أشكال زيارة الأضرحة : الأول لمصلحة الولى والآخر للزائر . الأول يتم بتأدية مجرد الاحترام للولى بالزيارة وقراءة الفاتحة وتقديم « الزوارة » ، وهى فى العادة عبارة عن طعام أو شمع أو بخور ... الخ . وتقدم الهدايا فى مختلف مراحل العمر مثل حلقة رأس الطفل والختان والزواج وذلك لتأمين الحماية ، ويؤدى الفشل فى الوفاء بالنذر وقوع الضرر على الطفل . ويؤمن الناس بشدة بأن الولى يستمتع 'بالمواد'

G.W.Murray, sons of Ishmael, p.154

(١)

Hist.ii, 287

(٢)

الروحية للطعام الذي يقدم إليه ، ويقول ذو الايمان السديد إن تقديم الطعام يعد عملاً من أعمال التقوى ، وأن " الحسنة " التي يرحب بها مانح الصدقات تتحول بشكل طبيعي إلى الولي . ويجب أن تستهلك « المواد » إما بالحرق على شرفه (الشمع - الزيت - البخور) ، أو أن يأكل الطعام شخص حي ، ويفضل أن يكون الفكي الذي يحرس الضريح أو أى فقير أو طفل . و" النية " هى أهم شئ لتحويل « المادة » أو الحسنة إلى الولي .

أما بالنسبة للمتعب فإنه يجلس أو يقف فى مواجهة الضريح ويحكى للولي «رغباته» أو مشاكله ، و لتحريك شفاعته بشكل أكثر فاعلية يقوم بعرض نذر مشروط ، فإذا كان الولي كريماً فإنه سيعود ويواصل قراءة القرآن أو يقدم ذبيحة أو يقوم بطلاء قبته باللون الأبيض أو يتصدق على المساكين . ويعتقد أن ليلة ٢٧ رمضان (ليلة القدر) مناسبة جداً لتقديم الالتماسات والمطالب ويحدث عند تقديم النذر أن يذهب الناذر بمفرده وفى بعض الأحيان مع الأصدقاء أو - إذا كانت رغبة خاصة جداً - فى موكب . وقد يؤدى الفشل فى الوفاء بالنذر - بعد تحقق الطلب أو الالتماس - إلى حدوث بلاء وعواقب أليمة كمرض أو وفاة الابن الذى تحقق طلبه . وقصص هذه الكوارث أمر شائع ، ويتم الزيارة لضريح الشيخ عند الزواج والختان والاحتفالات الأخرى ، كما يتم أيضاً إحضار الحيوانات المريضة إلى الضريح لتلف سبع مرات حول الضريح ، ويعتقد أن الاتصال بالضريح مقيد ، لذا فلتذكير الولي بالطلب ، يتم ترك شئ له علاقة بالشخص المعني ، عادة ما تكون قطعة من قماش تعلق بالباب أو على عصي تغرز فى الحوائط لذاك الغرض .

كما يؤمنون بأن الولي يحتفظ بعد وفاته بالخصائص التي كان يمتلكها فى حياته ، فإذا كانت له معجزة مشهورة فى حياته فإنه يستمر فى ممارسة تلك المعجزة وهو ميت ، وهكذا فإن قبة خوجلى فى الحلفاية صالحة لنمو أسنان الأطفال ، وقبة عبد المعروف فى بربر حيث يصبح معظم الناس سعداء جداً للقسم زيفاً على قبره ، كما أن الطين المأخوذ من ضريح أحمد ود الطريفى بالقرب من مدنى يصلح لعضة الكلب ؛ لذا فهو يسمى احمد دابى السعار . وإذا ما دعت مسمار غرز فى الأرض أمام بيان؛ الشيخ جنزير بالخرطوم فسيؤدى لأن يزورك الشيخ فى المنام ويدلك أو يخبرك عن اللص . كما أن قبة الشيخ أحمد طريفى الطلحيتين وقبب العركى الثمانى عشرة فى أبو حراز خاصة بقبة شريف يوسف أبوشرا مشهورة فيما يتعلق بالخصوبة . ويجب أن تقضى النساء سبعة من ليالى الخميس داخل أو خارج القبة يرافقهن فى الغالب أزواجهن والأقارب الآخرون ، ويتم قضاء الليل فى الشراب والغناء ، ويعطيهم الخليفة بعد الليلة السابعة ورقة مكتوب عليها آيات قرآنية ، وإذا ما حملت المرأة بنجاح تحضر الطفل إلى الخليفة عند بلوغه الشهر الرابع ويقوم الخليفة بحلق رأس الطفل وتعطيه الأم أوقية ذهب إذا كان المولود ولداً ونصف أوقية إذا كانت بنتاً ، وهذه الزيارات مشهورة جداً . وتصل الشاحنات المحملة بالنساء من ود مدنى والقرى المحيطة إلى القبة فى ليالى الخميس .

ويعتبر الأولياء الذين كانوا بلهاء في حياتهم بلهاء في مماتهم . والبشارين واحد في وادي السريراب. « فلكي يحصلوا على رضاه يكفي أخذ شاة إلى هناك ووضع كومة صغيرة من الحجارة والتظاهر بتغطية الدم لإشعار الولي بأن الشاة قد ذبحت له ثم تؤخذ الشاة مرة أخرى بعيدة ... »^(١).

كما نطق بعض الأولياء من قبورهم . ونقرأ في رواية مدني الناطق بن عبد الرحمن وسبب تسميته بالناطق أنه لما توفي اختلفوا الناس فيمن يخلفوا بعده بعضهم قال : الخليفة مالك لأنه ماهر في العلم وبعضهم مسك الفقيه اللعسر لشدة ورعه وزهده . وطال الخلاف بينهم . فإن فقيراً غريباً ويا جلس عند قبره ، قال له : الناس اختلفوا فيمن يخلفوه بعدك فناطقه فقال له : الخليفة شيخ (وكان الخليفة شيخ شقيقه) فجاء فلخبر الناس بقول مدني فانكره فقير شرقاوى . فقال له : انت كذاب فجاءت الناس طالبة قبره فانضب خشم القبة على المنكر فخاف على نفسه العطب . فحينئذ خلفوا الفقيه شيخ^(٢)

ويعد مولد أو حولية الولي من أهم احتفالات القرية . ففي كل عام في الذكرى السنوية لميلاد أو وفاة الولي - اليوم العظيم لاستقباله في السماء - يمكن رؤية العديد من السكان وهم يتوافدون علي الضريح حاملين نذورهم . وإذا كان الولي مشهوراً فسيأتون من كل أنحاء المنطقة ، وهو في الوقت ذاته البيعة للولي ، وعند قدومهم يؤدون الشعائر التقليدية : الطواف حول القبة وإنشاد الموالد والذكر ، وهو وقت الابتهاج العام ولقاء الأصدقاء ، بالإضافة إلي الطقوس الدينية ، إذ الحياة الدينية والاجتماعية متلازمتان معاً وغير منفصلتين . وهناك البائعون الجائلون ، وتعد بعض الأسواق بمناسبة هذه الموالد .

وأهم الاحتفالات الدينية هو الاحتفال بمولد النبي ، إذ يتم الاحتفال به في كل أنحاء السودان من أصغر قرية حتي أكبر مدينة ، ورغم أنه ليس من الاحتفالات الرسمية إذ جاء إلى السودان مؤخراً مع العهد المصري، فإنه قوبل في حقيقة الأمر باستقبال شعبي عام رغم فكرته الفاطمية^(٣) ، وكان يتم الاحتفال به في زمن المهدي بإقامة استعراض ضخم يستمر أربع ساعات يحضره الخليفة . وقد اعترفت به رسمياً الحكومة الحالية .

G.W.Murray, Sons of Ishmael, p.152.

(١)

(٢) الطبقات : م ١٥٩ ، ص ١٦٧ . وتكررت كذلك في ترجمة الشيخ اللعسر . م ٩ ، ص ٩٧ . وينظر أيضاً قصة مشابهة لبان النقام ٣٦ ، ص ٢٨ - والرواية التالية من (Arabia Deserta (ii, 160) أخبرني رجل عن معجزة سنوية في كهف بدر حنين حيث الموقع الذي دفن فيه الشهداء الذين سقطوا في معركة النبي الأولى مع كفار مكة « ففي يوم محدد عندما يذهب الناس إلى هناك للحج يسمعون كما لو كان هناك همهمة سارة خلال أصوات الشهداء ، وربما يدخلها من حفظ حياته من ارتكاب جرائم خطيرة ولكن الفاسدين والخطاه ... لا يمكنهم المرور لأن المر ضيق أمامهم ويتم الإمساك بهم وتثبيتهم في وسط المر بإحكام ... »

(٣) يعد هذا الاحتفال تطوراً متأخراً في الإسلام . ويصف المقرئزي (الجزء ٢ ص ٢٩٢) الاحتفال في عام ١١٢٢ خلال العهد الفاطمي ، ولكن هذا الأمر لم يصبح شعبياً حتى زمن السلاجقة عندما - كجزء من رد الفعل الديني للفترة - أصبح مرتبطاً بالصوفية الشائعة بين عامة الناس .

وبالرغم من أن مولد الرسول هو ١٢ ربيع الأول إلا أن الاحتفال به يبدأ في واقع الأمر عشية يوم المولد ، ويشغل الاحتفال بذكرى المولد الأسبوع السابق له كله ، وتبدأ الزفة في غرة ربيع الأول في كل المدن الهامة من المراكز الحكومية الرئيسية في المدينة وتشق كل الشوارع المهمة وتنتهي في ميدان المولد ، وتسير على رأس الزفة الفرقة الموسيقية يليها المأمور والضباط والشرطة الراكبة ، ثم تأتي مجموعات الطرق على الأقدام حاملة الرايات والطبول ثم العامة على صهوات الجياد أو الحمير أو على الأقدام وتكمل الزفة بعربات النقل الصغيرة التي تجرها الحيوانات وهي تحمل الأطفال الذين يتصايحون بفرح وحيوية ونشاط .

وخصص في أم درمان الميدان الكبير الذي كان جزءاً من جامع المهدي لحوالي عشرين أو أكثر من مجموعات الطرق ^(١) التي تقوم بنصب خيام كبيرة وصغيرة (صيوانات) حسب إمكانياتهم المادية ، أما فيما يتعلق بالعرض فهناك تنافس سنوي بين الميرغنية والمهدية . وللحكومة وعمدة المدينة صيوانات أيضاً ، وتضئ المشاعل جنبات الميدان وهي علامة من علامات الاحتفال ، أما حول الميدان فهناك الأكشاك ووسائل التسلية التي لا تنفصل عن أي احتفال ، كما تقام موالد خاصة في المنازل تبلغ ذروتها في العيد .

ويستمر طوال الأسبوع تلاوة الموالد ^(٢) ، وهي مدائح أو نثر مسجوع حول حياة النبي ، هذا إلى جانب الذكر في حالة الطرق الصوفية ، وتنشد الطائفة المهدية الأناشيد ليس عن النبي فقط وإنما عن المهدي خاصة عن ابنه الزعيم الحالي للطائفة ، ولا يقتصر تلاوة الموالد على هذا الأسبوع ، ولكنه الميزة البارزة الآن للتجمعات النظامية للعديد من الطرق الصوفية .

ب- العوامل الإيمانية بالبعث والحساب

١- الاعتقاد في المهدي

لعبت العوامل الخاصة بالمخلص في تفكير المسلم دوراً هاماً في تاريخ السودان . ومن الضروري ذكر بعض الملاحظات العامة إذا ما أردنا أن نفهم خاصية المظهر السوداني . إن أسطورة « القديس الثاني » للشخصية الأسطورية منذ أيام اليهودية والمسيحية تبنتها الشعوب والمجموعات التي كانت في حالة يأس وإحباط ، وجاء المفهوم

(١) قد يكون مفيداً تسجيل المجموعات التي كانت موجودة في عام ١٩٢٩م : الختمية (١) الأحمدية (٢) البيومية (١) الرفاعية (١) السمانية (٤) الإسماعيلية (١) القادرية (٩) العزمية (١) الخلوتية (٢) الموالد التي وجدت في السودان هي : البرزنجي (القادرية والسمانية) والدايبي (٢) العزب (اليمنيين في السودان) يوسف الهندي (السمانية) محمد بن المختار الشنقيطي (التيجانية) محمد عثمان (الميرغنية) إسماعيل الولي (الإسماعيلية) ، ويوجد وصف لمثل هذه المدائح في الصفحات ٢١٥ - ٢١٧ من بردة البوصيري ، وهي مدحة في الرسول تنشد في المنازل وتجمععات المساجد .

إلى البلاد الإسلامية في المقام الأول عن طريق الذين دخلوا في الإسلام ، وأصلحت الفكرة نفسها بسرعة في الإيمان الشعبي ، وأصبح المسلمون بمرور الوقت مستائين من السلوك الدنيوي لحكامهم ، وتحول البعض إلى الزهد كمهرب ، بينما تشبثت الجماهير بفكرة الخلاص المستقبلي الذي سيرد الإسلام إلى طهارته النقية قبل « النهاية » . وقد بدأت التعاليم الخاصة بالبعث والحساب في الانتشار مبكراً ، وتعلن هذه التعاليم أن اليوم الأخير علامته فترة تشوش واضطهاد ينهي ظهور المهدي ، وسيدمر الدجال المملكة الألفية للمهدي ، ولكن النبي عيسى سيعود ويقتل الدجال ويملا الأرض عدلاً وذلك بالحكم طبقاً للشرعة الإسلامية . وتشكل هذه العقيدة الخاصة بالمهدي أساس الاختلاف بين السنة والشيعة ، ولكننا لا نهتم هنا بالعقيدة الشيعية لأنها غير مؤثرة في السودان .

وحاولت السنة التقليدية كالعادة دمج إيمان الجماهير ، ولكن العديد منهم لم يذهب إلى الحد الذي يقدم عاملاً جديداً لظهور المهدي . حقيقة إن الإيمان التقليدي يعلن أنه سيكون هناك تجديد نهائي للإيمان في الأيام الأخيرة ، وسيكون هو النبي عيسى (المسيح المهدي) ، وقد ارتكز هذا الإيمان على سورة الزخرف الآية « ٦١ » « وإنه لعلم للساعة » . ولا يهتم الحنفية الذهاب لأبعد من ذلك ، رغم أن المذاهب الأخرى تقر بالإيمان بالمهدي في شكل معدل ، ولم يذكر المهدي كل من البخاري ومسلم - أعظم من جمع الحديث - ولا كبار علماء التصنيف ، ويقدم البيضاوي ما يعتبره مقبولاً كما يلي: ^(١)

سيمعد المسيح على جبل مقدس يقال له أفق وسيمسك بيده رمحا سيقتل به الدجال . ومن ثم يدخل القدس في وقت صلاة الفجر وسيفسح له الإمام الطريق ولكنه سيرفض ويؤدي الصلاة خلف الإمام ، متبعاً شعائر شريعة محمد وسيقتل في التواخيز ويكسر الصليب ويدمر الكنائس ويقتل المسيحيين عدا أولئك الذين يؤمنون به .

ولكن للجماهير إيماناً متقدماً في شخص مخلص مستقبلي يدعى المهدي ، ويذكر ابن خلدون هذا الإيمان الشعبي في مقدمته : ^(٢)

اعلم أن في المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي . ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتي بالمهدي في صلاته .

«تتمة الآية» وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم [المترجم]

(١) تعليقه على سورة الزخرف الآية ٦١ .

(٢) ابن خلدون - مصدر سابق . القاهرة . ص ٢١٨

وقد بنى حول هذا الاعتقاد كل أشكال العلامات التي ستشير بقدوم المهدي وإثبات رسالته ، وإحدى هذه العلامات أنه سيجمل نفس اسم النبي محمد ابن عبد الله - طبقاً للحديث « اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي » وسيشبهه النبي في الخلق وليس في « الخلق » .

وكانت عقيدة المخلص الإسلامية وسياسية ودينية في وقت واحد ، وعامل مهم جداً يجب أخذه في الاعتبار في عرف مسلمي إفريقيا ، وقد غاص هذا المفهوم بشكل عميق في العقل الشعبي في شكله المعتدل (غير الشيعي) ، وبينما اضطهد الشعب من قبل حكامه اتجه المهديون للظهور استجابة لشوق الناس للمخلص . ولأن الإسلام لا يفرق بين الدين والدولة فقد أصبحت النتيجة هي أن أي دين إصلاحى يجب أن يستخدم الوسائل السياسية بشكل حتمي ويعلن الجهاد ليس فقط ضد المشركين بل ضد المسلمين الآخرين . وإذا كان الجهاد ناجحاً فإنه يقوم بتشكيل دولة - وفي إفريقيا - حيث تشكل الشعوب العربية - الزنجية والعربية - الحامية الأساس المادي سريع التأثير بالإيحاء الجماعي مع طبيعتهم الفطرية المحافظة على ما قد يكون المهدي العمل المجد لكسب الأنصار. وقد ظهر المهديون بشكل متكرر ، وكانوا دائماً إصلاحيين ومخلصين وشكلوا الدولة عندما نجحوا ، وكان أحدهم هو الداعية الشيعي محمد عبيد الله مؤسس الأسرة الفاطمية الحاكمة الذي أظهر نفسه في عام ٩٠٨م في جيل ماسا - شمالي المغرب - وطرد أسرة الأغالبة من تونس ، والذي حكمت أسرته مصر وسوريا في عام ٩٦٩ - ٩٧٠م ، أما الآخرون فهم محمد بن عبد الله بن تومرت الذي أدخل - في بداية القرن الثاني عشر - المذهب الإسماعيلي الهرطقي في المغرب وأعلن نفسه المهدي الشيعي ، ومحمد المهدي - السنوسي الثاني - الذي استخدم اسمه لتعزيز ادعائه . أما في السودان الإنجليزي - المصري فإن الإشارة الوحيدة للسوداني الذي أعلن نفسه مهدياً قبل محمد أحمد نجدها في ترجمة حمد النحلان (توفي عام ١٧٠٤م) المشهور بود الترابي الذي ادعى - أثناء الحج في مكة - أنه المهدي ^(١) . وقد عومل هناك باستخفاف ، وقام بإرسال رسول إلى السودان ليعلن رسالته ، وقام الملك بادي بقتله . ولا يوجد وصف لأية عوامل شخصية للمهدي في أفعاله وعند عودته ، وكان ملامتياً وقد اعتبر ادعاؤه بالمهدية واحداً من تجاوزاته .

٢- المهدي في السودان

لقد ذكرنا تخطيطاً تاريخياً عن المهدي ^(٢)؛ لأن هذه الفترة من التاريخ ستكون مألوفة لكل المهتمين بالسودان ، ونحن نحتاج الآن لمعالجة هذه الأحداث من وجهة النظر

(١) الطبقات : م ٥٩ ، ص ٦١ و Hillelson, Sudan Arabic Texts, p.181

(٢) ينظر القسم الثالث من الفصل السادس

الدينية الاجتماعية لمحاولة تقدير تأثيرها الدينى ، وسنعالج أفكار النظرية والتطبيق ، ولنرى كيف تم تنظيم هذه الدولة الدينية .

لم يكن محمد أحمد الدنقلاوى دجالاً ولا مجرداً من المبادئ الأخلاقية ، وإلا لكانت الملحمة السودانية هذه مجرد نتيجة بلا سبب . لقد بعث محمد أحمد من خلال أزمة روحية عميقة ، وكانت المهديّة محاولة ليجدد فى محيطه التغير المهم والأساسى الذى حققه فى نفسه ، ولم يكن النجاح الحقيقى لحركته مرجعها قوة حركته ولكن ضعف أعدائه . لقد انضم إليه أناس ماتوا من أجل الحركة لأنهم كانوا فى حالة يأس ، ولكن يجب أن نذكر أن الفترة الطويلة للطغيان لم تكن قادرة على توحيد المجموعات السودانية . لقد كان الدين هو الذى وفر الحافز ، ولو أن الأحوال الاقتصادية هى التى حددت شكل الاستجابة ، وكانت النتيجة هى -- لأن محمد أحمد عاش ولأنه حرك السودان للإيمان بطريقته الدينية -- لم يعد السودان كما كان أبداً . لقد جلبت المهديّة عوامل جديدة لتلعب داخل سيكولوجية السودانيين التى يجب أن يضعها فى الاعتبار كل من يرغب فى إدارة السودان وليس لديه الكثير ليفعله مع توقعات المخلص التى كانت هناك من قبل وما زالت تشكل حياتهم .

وكان سر نجاح محمد أحمد هو قوة شخصيته وقوة نفوذه على السودانيين سريعى التأثير بالإيحاء ، لقد كان هو القائد الذى جاد به الزمن لإبراز القومية السودانية فريدة الطابع ، وقبل كل ذلك كان مؤمناً بشكل ثابت وحقيقى فى دعوته الدينية ، وقام بتنفيذه بشكل إجبارى على الآخرين . إن تأكده التام بأنه مهدى الله منحه السلطة التى لا استئناف ضدها ، وهو كصوفى بسيط آمن بأنه لن يحقق شيئاً إذا ما احتج ضد الاضطهاد الموجود حوله ، ولكن عندما اقتنع بأنه المهدي أعلن الزعيم المعين إلهياً العصر الألفى السعيد ، وأطاعت الجماهير دعوته واكتسحت الأرض منتصرة .

وقام أولاً عندما اقتنع بدعوته - لتوفير الخلفية الخرافية - بانتقاء العوامل التى تنطبق عليه من التقاليد المهديّة الضخمة الغامضة غير المصنفة مثل اسمه وسلسلة نسبه والخال على خده الأيمن (ختم النبوة) ، كما قام بتعديل العوامل الأخرى مثل موقع جبل ماسا^(١) ، وهو يشير إلى العديد من هذه العلامات فى رسائله ومنشوراته لدعم دعواه ، وقد تبع طريق الصوفية السودانية التقليدية وذلك بالدخول فى الطرق السمانية والإدرسية ، وكان عليه فى بداية الأمر أن يقاوم بعنف السخرية المهنية الجاهزة بأنه مجذوب آخر جرفه الانجذاب ، ومن ثم لا يستحق التصديق . ويكتب فى منشوره إلى شعب الخرطوم :

(١) قام بالهجرة إلى جبل قدير فى جبال النوبا حيث أعاد تسميته بجبل ماسا ، طبقاً للاعتقاد الذى يقول أن المهدي سيأتى من جبل بنفس الاسم حيث سيقسم الناس بالولاء له (ينظر القرطبى) ، ويقع جبل ماسا طبقاً للتقاليد المهديّة فى المغرب .

وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدي قد أخبرني به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بيقظة في حال الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لابنوم ولا جنب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل ، أقفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر وأنهى عما نهى عنه ^(١) .

و بالرغم من دفاعه فإن خلفيته الصوفية واضحة في رسائله (قال لي صلى الله عليه وسلم إنك مخلوق من نور عنان قلبي) ^(٢) . وفي اعتماده على الرؤيا يتبع أيضا الأسلوب التقليدي للرجل السوداني التقى ، ويذكر في كل رسائله رؤى النبي والأولياء كبرهان أساسى على مهمته :

كما أراد الله في أزاله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بثنى المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام . وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن ، وفي ساعة يحضر أمام جيشي سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ولو كان الثقلين الإنس والجن . ثم أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لك على المهدي علامة وهي الخال علي خدي الأيمن . وكذلك جعل لي علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابي وينزل الرعب في قلوب أعدائي ^(٣) .

نظام الدولة المهدي

كانت المهدي دولة دنيوية جديدة - حكم الله على الأرض - ، وكانت ثورية في صفتها ، وكان هناك ولاء واحد ممكن ، إن رباط الايمان وحده هو الذي يسود فوق الروابط القبلية والحزابات ، لذا فيجب اتخاذ إجراء محدد ، ومن ثم فقد أعطوا اسماً عالمياً وهو الدراويش بسبب الجبة المرقعة (علامة أخرى للمساواة) التي يرتديها أتباعه ، وقد تغير هذا الاسم فيما بعد إلى اسم أكثر احتراماً وهو الأنصار - على اعتبار أنهم مساوون لأنصار النبي - ، ولم يكن المهدي راغباً في أن يعتقد أن حركته مجرد طريقة جديدة ، لقد كان مؤسساً لطريقة عالمية جديدة.

(١) شقير : تاريخ السودان . ج ٢ ص ١٢٢ وقد نقلت النصوص منه كما هي بأخطائها الإملائية واللغوية (المترجم)

(٢) شقير : المصدر السابق ص ١٢٢

(٣) شقير : مصدر سابق ص ١٢٢

لقد بدد بالطبع الإخلاص للمهدى كل الولاءات القبلية والدينية ، وأبطلت كل الطرق الصوفية ؛ لأن الولاء للشيخ يتعارض مع الولاء لها ، كما لم يعد للمذاهب الأربعة مغزى إضافي وقد تم تبني شعيرة شاملة واحدة .

إن أولئك الذين أنكروا ادعاءات المهدى ليسوا مسلمين ، وقد أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله ^(١) ، وطلب البيعة من أتباعه ، وكانت هذه البيعة على وجهين : الأولى باليد في حالة الموالى المهم وذلك بوضع إبهامه على إبهام المهدى ثم قراءة صورة المبايعة يعيدها المبايع خلفه جملة جملة ، أما الطريقة العادية فهي ترديد المبايعة من قبل كل المجموعة دون مصافحة وتقول المبايعة بعد البسملة :

أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نزنى ولا نلغى بيهتان ولا نعصيك في معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة على ألا نفر من الجهاد ^(٢) .

وكان أكثر المتأثرين بدعوة المهدية هم المزارعون الأكثر اضطهاداً والذين كانوا في شوق عظيم للمخلص ، ويليهم الدناقلة والسود الذين لا قبائل لهم ومختلف القبائل العربية خاصة البقارة المتعصبين . والبقارة لكونهم ملاك إيل أثرياء فقد كانوا فاترى الشعور في البداية ، وهاجموا مؤخرة جيش هكس ، ولكنهم لم ينضموا للزحف على الخرطوم ، وعندما أصبحوا مشايعين للمهدى شكلوا العمود الفقرى لجيشه، وقد عارضت القبائل البدوية الأخرى بعنف النظام الذى ألغى مؤسساتهم القبلية الموروثة ، كما أن مزارعى الجزيرة الذين لم يقعوا تحت الاضطهاد الشديد وبسبب ولائهم لشيخوهم الدينيين لم يستجيبوا للرسائل الذين بعثهم عندما كان فى كردفان ، ولكنهم انضموا فى النهاية مثلهم مثل بقية السودان من قبيل المنفعة والمصلحة .

وبقيت البجة لا مبالية ؛ لأنها لم تتأثر بالحكم المصرى إلا بشكل ضئيل حتى قدوم عثمان دقنه بعد سقوط الأبيض . وعندما قام المهدى بإرسال عثمان دقنه إليهم رافقه أتباع طريقة المجازيب وأسوأ العناصر القبلية ، وبقيت الأغلبية دائماً بلا حماس وانضمت إليه فقط عند ما تم إصدار الاستدعاء العام ، وتفرقوا بعده مرة أخرى وحتى ذلك الأمر كان قد تم بعد رشوة الزعماء .

(١) نفسه . ص ١٢٢

(٢) نفسه . ص ١٢٩

ومهما كانت دوافعهم للانضمام للمهدية فقد كانت لهم فى البداية أثر وحدوى وتم إلغاء الولاء القبلى ، وحارب البقارة والعبيد السود تحت راية واحدة وأصبح بإمكان العبد الارتقاء لأعلى مناصب الدولة ، وكانت هناك مساواة بين الغنى والفقير ، ومع ذلك كانت هناك شيوعية مفروضة بالقوة ، وتم الحفاظ عليها بالسلب والنهب ، وبعد موت المهدي تحولت السيطرة من أيدي القبائل النهرية إلى البقارة والوحشيين أتباع الخليفة عبد الله الذى اتسم حكمه بالأتوقراطية العسكرية فى أسوأ حالاتها.

ويصف ونستون تشرشل تحول خلق المتعصبين بقوله :

ميز التعصب كل عمليات الشعوب المحمدية المولعة بالحرب ، ولكن بهذا التحفظ العام يمكن القول إن العرب الذين دمروا يوسف واعتدوا على الأبيض وأبانوا هكس حاربوا باعتزاز دينى حماسى . لقد حارب العرب الذين عارضوا جراهام وايرل وستيوارت دفاعاً عن الأرض كما حارب العرب الذين غزاهم كتشنر اعتزازاً بالجيش . لقد ملأ التعصب كل المقاتلين فى شيكان والوطنيين فى أبو كيلا والمحاربين فى أم درمان ^(١) .

لقد كان تنظيم دولة المهدية شبيهاً بدولة الرسول ، وذات طبيعة عسكرية للأسباب ذاتها ، وقد اختار المهدي أربعة خلفاء : عبد الله التعايشى الذى خلفه وعلى ود حلو والشيخ محمد السنوسى من الكفرة ومحمد شريف ابن عمه ، وقد رفض السنوسى هذه الدعوة ^(٢) ، وكانت سياسة الخليفة هى التقسيم ، وبذلك أضعف القبائل ، وأعطى لكل تقسيم أميره المستقل . فالجزيرة كانت تحت إمرة الشيخ الدنقلاوى محمد عثمان أبو قرجة ، كما منحت كل راية حصتها لتجهيز الجيش ، وكان على جزء كبير من السكان التواجد فى أم درمان أثناء فصلى الشتاء والصيف .

وكانوا يعودون إلى زراعتهم خلال موسم الأمطار ، ويتم جمع الضرائب قبل عودتهم إلى أم درمان .

وكان بيت المال هو أهم المؤسسات ، كما كان هناك قانون يتم بموجبه إحضار كل غنائم الحرب إلى بيت المال الذى يقوم بتمويل الجهاد ، وكان على الأنصار تشكيل نوع من الفرق العسكرية إلا أن هذا الأمر أثبت فشله عملياً ، ومن ثم سمح للأنصار بالعودة إلى زراعتهم بصفة دورية . وقام الخليفة ببناء جيش دائم وأصبح بيت المال - عندما انتهت الغزوات - مكاناً للأموال التى تجمع من الضرائب والمصادرات .

وارتكزت الضرائب على الزكاة بمختلف أشكالها ^(٣) ، وكان الابتكار أن هذه ليست ضريبة ، ولكنها شئ يقدم لفقير تبرعاً . وقامت المهدية بفرض ضرائب مباشرة وتم

The River war, p.36

(١) استنسخ شقير رسالة المهدي الثانية . ويقول ونجت (مصدر سابق ص ٢٩) إن المهدي قام بتعيين آدم ود العويسر لتولى منصب الخليفة الثالث ، ولكننى لم استطع التأكد من ذلك .

(٢) يبدو أن الأشكال الأربعة للضرائب كانت : ١- عشر المحاصيل والبهائم وتنفع عينا . ٢- الفطرة ، وهى فى الأصل طوعية ولكن الخليفة حددها كضريبة رؤوس وهى قرش واحد عن كل رأس ٣- الهوامل ، الحيوانات والرقيق السائب . ٤- التبرع ، وهو شكل من أشكال الضريبة الإضافية لتنظيم السنة التى يكون بها شدة.

تعيين عامل على كل قسم وهو المسئول عن جمع الضرائب ومراقبة اتباع الأوامر الدينية ، وقسم القسم إلى مناطق تسمى شونات ، كما تم جمع العمال عن طريق شيوخ القبائل أو المناطق التي عرفت [بالملتزمين أو ضريبة مزارعين] . وقد شمل النظام عملياً كل أنواع الاضطهاد ، و أدى التجنيد إلى الاستياء الشديد ضد النظام الجديد ، وكانت تعاليم وأوامر المهدي مبنية على تصور الإسلام الأصلي الذي أبلغ إليه بالوحي المباشر . إن ترتيبه الصارم للحياة يتماثل مع القاعدة الوهابية ، ومع ذلك فلا يوجد دليل لأي تأثير وهابي مباشر ، وبالتأكيد فإن أسس محمد أحمد وابن عبد الوهاب مختلفة تماماً كل منها عن الأخرى . إنه التمرد ضد النظام الأجنبي الجديد الذي ولد المعاناة المرة لتأسيس نظام مثالي .

وكانت النقطة المركزية للتعاليم التي كان عليها تنظيم الدولة المهدية هي الإيمان بالآخرة ، حكم الله علي الأرض عن طريق خليفته المهدي ، وكانت الدعوة للخدمة العسكرية هي النداء الغالب ، وسيطلو إخضاع السودان إخضاع مصر وسوريا والعراق وبلاد العرب . وقال له الرسول في رؤيا عام ١٨٨٣م « كما صليت في مسجد الأبيض ستصلي أيضاً في مسجد الخرطوم ثم في مسجد بربر ثم في مسجد مكة ثم في مسجد القدس ثم في العراق ثم في الكوفة » ، وتضمن الولاء له - كمثل وحيد لله - ابتكارات في الممارسة الإسلامية ، وتغيرت أركان الإسلام :

١- أصبحت هناك إضافة للشهادة وهي « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن محمد أحمد بن عبد الله هو مهدي الله وخليفة رسوله » ، وكان الشك في مهديته يعد ارتداداً عن الدين عقوبته الإعدام . ٢- حل الجهاد وهو الضروري لتأسيس حكم الله محل الحج الذي أصبح لا لزوم له وتم منعه^(١) ، ولم تقرر السنة أبداً الجهاد كركن من أركان الإيمان . ٣- الصلاة جماعة . أعطى هذا الأسلوب العملي للتدريب الاجتماعي تأكيداً كبيراً كرمز للوحدة . ٤- طاعة أوامر الله كما درستها المهدي الذي ادعى أنها مبنية على سنة النبي التي أبلغت له بالوحي المباشر ، وكان يعد لتأسيس سنته الخاصة في عمل يسمى « المجالس » ولكنه توفي قبل أن يتمه . ٥- تلاوة القرآن وراتب المهدي ، وكانا هما الكتابان الوحيدان اللذان سمح بهما في المهدية ، واختفت التعاليم الدينية ومنعت كل أنواع الدراسة وأحرقت كل كتب السنة والتفسير . إن حرق الكتب ظاهرة شائعة في الشرائع الجديدة ، والراتب مجموعة أوراد للمصلين - آيات ونصائح من القرآن والحديث - لا يظهر بها أي ذكر له ولدعاواه ، وهو يتلى مرتين يومياً بعد صلاة الصبح وصلاة العصر ، ويستغرق تلاوته حوالي ثلاثة أرباع الساعة .

وقد هيا المهدي نفسه للعمل بنشاط لإصلاح السلوك الأخلاقي وتشوير عادات السودانيين بالدعوة للتخلي عن كل التفاهات الدنيوية ، ومنع السكر وشرب الدخان

(١) ينظر شقير . مصدر سابق ص ٢٦٥ .

والأحجية والسحر والموسيقى والمواكب واحتفالات الختان والزواج^(١) « والبكا » وزيارة قبور الأولياء ، وهي كلها من أهم مظاهر حياة السودانى الاجتماعية ، وبقيت كلها سرية وعادت بالكامل بعد المهديّة . ويجب أن تكون حياة أتباعه الرجال الذين يعيشون الأيام الأخيرة « لقد دمرت هذه الدنيا وبنيت العالم الآتى^(٢) » ، وكمثال لمنشوراته للزهد نقتبس الآتى :

صلى^(٣) دائماً سواء كنت تسير أو تركب أو مع أصدقائك ، امتنع عن كل المسرات . إذ عن طريق الصلوات فقط يمكن الحفاظ على هذا العالم فى سلام . امتنع أيضاً عن مسرات الموسيقى ولا تضرب الطبول الكبيرة أو الصغيرة ضع جانباً كل شئ له أنتى صورة بمظاهر وعادات الأتراك والكفار ... كل ملابسهم وكذلك طبولهم وأبواقهم ، كما يجب وضع أشياءهم الأخرى جانباً . تقيد فقط بعبادات الصحابة . هذا هو الوقت الذى تاتى فيه إلى الله وتعتد معه عهداً^(٤) .

وتم وضع تأكيد قوى على الجهاد . ويقول المهدي حقيقة إن الله باستطاعته أن يدمر الكفار ، ولكن لتشريف شعبه فإنه أراد تنفيذ خطته بكم ، ويقال إن الأتراك يمكن إصلاحهم بالمواظ على ولكن لا يمكن إصلاحهم أبداً إلا بالسيف . والجهاد مرتبط باللقاء بالله - الرؤيا المبهجة التى تمنح الثقة العظمى لأتباعه ، وفى رؤيا قال النبى للمهدي «إن المحاربين الذين ماتوا فى سبيل دين الله سيرحب الله بهم فى الآخرة وسيدخلون الجنة حيث القصور العالية والزوجات الطاهرات والسعادة والازدهار»^(٥) وبعد وفاة المهدي كان هناك انخفاض طبيعى فى عدد المؤمنين به وبيرامجه ، ولكن الخليفة عمل بحماس للحفاظ على إيمان أتباعه ، وقام بتعزيز حكمه ودفع بالحماس الدينى بإعلانه بالرؤيا التى تلقاها من سيده ، وعزز بحزم الجانب الدينى الظاهر لإلهامات المهدي ، وكان قادراً على الحفاظ على التعصب الشديد للعديد من فروع أتباعه حتى معركة أم درمان .

٣- استمرار الاعتقاد بالمهدي والمهديّة

بدأت الأساطير تنمو عن المهديّة قبل وفاته بفترة طويلة ، وقد شجع المهدي القاضى إسماعيل بن عبد القادر - ابن مؤسس الطريقة الإسماعيلية وأحد أتباعه المتحمسين -

(١) تم تنظيم احتفال الزواج وخفض مهر العروس إلى قرشين للبكر وفرش للثيب . ويعاقب كل من يطالب بمهر أكثر .

(٢) Salatin, Fire and Sward (1895) p.230

(٣) الصواب «صل» وقد نقلتها كما هي بخطها (المترجم)

(٤) ونجت . مصدر سابق ص ٥٩

(٥) ونجت . مصدر سابق ص ٤٨

بأن يؤرخ أحداث عهده ، وبعد موت المهدي أمر الخليفة بأن يستمر إسماعيل بن عبد القادر^(١)، كما كان للمهدي أيضا شعراؤه الخاصين من أمثال محمد التويم وأبو شريعة^(٢) الذي مدحه ومدح الخليفة ، وقد أدى هذا إلى وضع الأساس لتطور طريقة المهدي . إن وفاة المهدي قبل إتمام رسالته قد شوهت بلا شك سمعته في عيون أتباعه ، وكان الخليفة حريصاً على تبرير أفعاله وإثارة حماس أتباعه بإدعائه رؤية المهدي ؛ لذا فإن المهديين المتعصبين أكثر - خاصة وسط أتباعه المقربين - استمروا رغم تناقص القوة حتى معركة أم درمان . وقد نُقِرَ حكمه الاستبدادي ولواء أكثر الأتباع إخلاصاً للمهدي ، وبعد سقوطه قبل معظم الناس النظام الجديد بشكل سلبي ، رفضوا تماماً المهديّة التي انضموا إليها من قبيل الحماسة الدينية أو المنفعة أو الجبر ، وعادوا إلى ولائهم القبلي والديني القديم ، وأعيد تنظيم القبائل البدوية ، وجدد مزارعو النهر والجزيرة ولائهم لشيخوهم الدينيين القبليين ، واستعاد رؤساء الطرق مثل الميرغنية أتباعهم وارتدت القبائل الوثنية إلى وثنيّتها .

ومن جهة أخرى استاء البقارة وحنوا للعودة إلى الأيام الخوالي لسفك الدماء والسلب ، بينما حافظت على ولائها للمهدية مختلف المجموعات العربية والمزارعون ، الأنصار القدامى وخاصة الأفارقة من غرب إفريقيا ، وأمن هؤلاء بعناد أن محمد أحمد هو مهدي حقيقي^(٣) ، وأمنوا أن النبوءات المهدوية الأخرى قد تحققت أو ستتحقق . وقد تم منح اللورد كيتشنر دور الدجال ، واعتقد البعض أن عبد الرحمن ابن المهدي هو النبي عيسى ، ومع ذلك فما زالت الأغلبية تنتظر قدومه ، وبدأت في الانتشار نبوءات كاذبة مثل تلك المنسوبة إلى فرح ود تكتوك في آخر الزمان سيأتي الإنجليز وجنودهم يسمون البوليس وسيقيسون الأرض حتى حواف أوراق البردي ، ولن يكون هناك خلاص منهم إلا قدوم عيسى^(٤) .

(١) كان عنوان الكتاب : كتاب المستهدى بسيرة الإمام المهدي . ينظر شقير . مصدر سابق . ٥٥٩ - ٥٦٠ . وسلاطين ، مصدر سابق ص ٥١٥ . والسيرة تغطي الأعوام ١٢٩٨ - ١٣٠٦ (١٨٨٠ - ١٨٨٨ م) وغضب الخليفة من إسماعيل ونفاه وصدر الأمر بإحراق كل نسخ هذا الكتاب . ويقول شقير إنه استطاع أن يجد نسخة من الكتاب ، وإن كانت ما تزال موجودة فإنها لم تنشر .

(٢) تم نشر مجلد أشعار أبو شريعة (الخرطوم ١٩٢٠ م) ولا يحتوي المجلد سوى أشعاره التي في مدح الرسول ، ويقال أنه أحرق الباقي عند قدوم الاحتلال ، وقد سمعت عن المجموعة الشعرية إذ من المؤكد أنها حفظت عن طريق المنشدين .

(٣) قام كيتشنر الذي عاش مخاطر عبادة المهدي بتدمير جثة وقبر المهدي ، وقد التقيت مصادفة بمن يؤمن بأن جثة المهدي ما زالت ترقد تحت الأنقاض ، ولكنه ليس اعتقاداً عاماً ، إذ بينما سجد في الغالب النساء يصلين أمام البوابات المغلقة فإن عدد من قليل مقارنة بجموع زوار أضرحة الأولياء الآخرين ، وقد يكون ذلك مرجعه حقيقة أن أمامهم رمزاً حياً منه في شخص ابنه (وقد سمحت السلطات للسيد عبد الرحمن بإعادة بناء قبر أبيه كما كان تماماً في الماضي ، وتم إعادة افتتاح المقبرة في ١٥ يونيو ١٩٤٧ م ، ومنذ ذلك الحين هناك زيادة ملحوظة في عدد الزوار .)

(٤) عاش فرح ود تكتوك في القرن السابع عشر ، والنص مقتبس من Hilleison, Sudan Arabic, Texts, p.159

* ويورد الطيب محمد الطيب النص كما يلي :

آخر الزمن يجو الانقليسا عيونهم مثل الكيسة

يقيسوا الأرض قيسا قيسا خفيرين يسمى البوليسا

ما يزيل حكمهم إلا نبي الله عيسى . الطيب محمد الطيب . فرح وتكتوك حلال المشبوك . دار الطابع العربي الخرطوم . د .

ت . ص ٦٧ [المترجم]

ولأن قدوم النبي عيسى أمر متوقع ، فإن عيسى (وفي بعض الأحيان المهدي) ظهر بإصرار مضطرد ^(١) خاصة اثناء الأيام الأولى للاحتلال . وقد ظهر من هؤلاء الفقرا عشرون أو أكثر ، ومع ذلك فلم ينتشر أى منهم أبداً ، وكانوا فى أغلب الحالات متمركزين فى منطقة واحدة ، ودائماً ما ظهوروا وسط المجموعات الجاهلة التى تؤمن بالخرافات ، وفى العديد من أجزاء السودان خاصة فى وسط وغرب السودان ، وكان عدد كبير منهم من الفلاتة لأنهم اعتادوا أن يؤمن بهم جماعات المغتربين فى النيل الأزرق على اعتقاد أن المهدي سيعيدهم مرة أخرى إلى نيجيريا ، وقد قمعتهم السلطات بسرعة ، وكان أخطرها ثورة ١٩٠٨م عندما قام أحد قدماء المهديّة وهو الفكى عبد القادر فكى الكاملين بالتبشير بالجهاد وقتل موظفاً بريطانياً ، وكان لهذا الاضطراب نتائج مهمة إذ أظهرت للحكومة مدى العلاقة بين الظروف الاقتصادية والاجتماعية وبين ثورات التعصب ، وقد أسهم ذلك فى تطوير الجزيرة ، كما كان لثورة نيالا فى جنوبى دارفور فى عام ١٩٢١م حيث قتل فيها موظفان - دوافع اقتصادية دينية معاً ، كما كان هناك سخط فى ديار المساليت والفلاتة حول مؤسسات النظام الضريبى، ولكن عندما أعلن فكى عن الجهاد كشف كل الناس عن الدوافع الدينية، وكانت الثورة عند تطورها معادية للمسيحية وأمن أتباعه بأنهم يطردون الدجال ، أى الحكومة المسيحية ، وكان الفكى عبد الله السهيني ، ولم يسم نفسه النبي عيسى ، ولكن خليفة الله فى الأرض ، وبعد القاء القبض عليه قال ما يلى فى سرد دعوته :

جائى فى إحدى الليالى ستة من الملائكة يسمون زرابون وكالا ومسرى وزباردى وقويائيل وعزرائيل وأخبروني أن هذا هو عام ١٢٤٠م وأنه تم تعيينى لجمع الناس وتزعم الجهاد ضد الترك لإبائهم ، وبعد هذا سأحكم أنا وشعبي الأرض لمدة عشرة أعوام ثم يتم تعيين قائد آخر لمواصلة الحرب . وفى عام ١٢٧٠م ستشرق الشمس من الغرب وتغرب فى الشرق ، وفى ١٢٨٠هـ ستأتى نهاية العالم ويظهر النبي عيسى ^(٢) .

وكانت آخر هذه الثورات فى دارفور عام ١٩٢٧م عندما قام شخص من داجوالفور بتسمية نفسه الفكى المهاجر ، وتزعم ثورة محلية تم قمعها بسرعة ^(٣) .

وشهدت الأيام تطورين آخرين فى المهديّة السودانية : تشكيل دعاية عبادة المهديّة واستمرارها سرّاً وتنظيم الموالين فى جمعية دينية يشار إليها دائماً بالمهديّة الجديدة . وكعبادة فالمهديّة طائفة ألفية تعتبر محمد أحمد مهدياً حقيقياً، وأن ابنه عبد الرحمن هو النبي عيسى ، وتسمى بعده فى بعض الأحيان بالرحمانية ، ومع ذلك فلم يظهر نفسه،

(١) ظهر عيسى حتى فى زمن الخليفة بعد موت المهدي - قارن رواية سلاطين فى السيف والنار ص ٤٢٣ - ٤٢٤ ، وشقير . مصدر سابق ص ٤٧٠ - ٤٧٣ عن ظهور التكردى آدم محمد البرقاوى على أنه النبي عيسى فى القلابات

(٢) و(٣) يذكر ماكمايكل قائمة بهذه الثورات فى Anglo-Egyptian Sudan, pp.98-9, 176-9

وما زال أتباعه ينتظرون يوم الظهور عندما يطرد الإنجليز ويبشر باقتراب الألفية ، يؤمن بهذا المغتربون « الغرباوية »^(١) ، ويصفه خاصة القاطنون في الجزيرة أبا ومستعمرته الزراعية علي طول النيل الأبيض في الجزيرة وكردفان وبقارة غربي كردفان ودارفور^(٢) ، وهم وثنون في الجملة عدا الاسم قبل قدوم وكلاء المهدي . لقد شقت العبادة قنوات في التفكير الإسلامي والإحساس داخل التيار الهرطقي ، لذا فإن الاعتقاد بأن عبدالرحمن هو النبي عيسى الذي « زمنه » قريب هو اعتقاد عام تقريباً . إن الاعتقاد بأن الاكتساح سيكون عن طريق دارفور المرتبطة أكثر مع الغرب بدلاً من الشرق قد انتشر داخل السودان الفرنسي ونيجيريا خاصة برنو ووداي ، وهناك مركز قوي في « دمبلوا » في بورنو وفي باجيرمي حيث يتأثر الغرباوية ، وهم في طريقهم إلى مكة .

ويعود الانتشار السريع للمهدية في الغرب إلى الدعاية المنظمة للوكلاء بين الجماهير التي تتربص بشوق كبير بظهور المسيح الذي سيطرد المسيحيين الأمر الذي قيل إنه الصفة المميزة للإسلام في غرب إفريقيا ، ويقوم الكثير من هؤلاء الأتباع بزيارة عبد الرحمن في الجزيرة أبا علي اعتبار أنه البديل للحج^(٣) ، وهو يعرف بالصديق ويؤدي الكثيرون ركعتين إضافيتين علي شرفه ، ويقولون رضي الله عنه عند ذكر اسمه . وهناك دليل لمخاطر تطور المهدية هذه وانتشارها السريع في عام ١٩١٧م إلى ما وراء أتباع المهدي الأصليين إلى زنج غرب السودان ووداي ، لأن هؤلاء الموالين الجهلاء أكثر استعداداً للتعصب عن طريق الوكلاء ، عما هو عليه في الأراضي التي توجد بها المؤسسات الدينية القوية ، ولكن الحكومة يقظة تماماً للمخاطر ومنعت وكلاء المهدية في كردفان ودارفور .

وهناك تطور للمهدية الجديدة في شرق السودان . ويوجد في الشرق نوع من العبادة ولكن ليس لها نفس الخطر والشكل الألفي ، وأصبحت المهدية وراثية ليس في علي الابن الأكبر ولكن في عبدالرحمن الابن الذي ولد بعد وفاة أبيه من امرأه من دارفور . إن أعظم أتباعه إخلاصاً في الشرق هم الانصار الأحياء وأطفالهم الأقل ثقافة .

(١) يشمل هذا المصطلح القبائل الزنجية في دارفور بالإضافة إلى الفلاته ، ومعظم أتباعه المتعصبون هم من الفلاته خاصة أولئك الذين في جزيرة أبا ، والفلاته البدو ملاكو الماشية وأكبر أمراء فلاته ماي برنو هما التيجاني وماي أحمد أمير مساو السابق مع أتباعهما ، وهناك رسالة مزورة كانت منتشرة في عام ١٩٢٢م بأن الفا هاشم خليفة التيجانية قد أعترف بأن المهدي حقيقى ولكن الفا هاشم بذل جهداً لدحض الرسالة وقام بزيارة أتباعه في السودان .

(٢) التعايشة هم الاستثناء الوحيد من بين البقارة .

(٣) وصلت رحلات الحجاج إلى نسب كبيرة في أعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٥م مما جعل عبد الرحمن يذهب بنفسه إلى الحج في مكة ووافق على عدم تشجيع الحج إلى أبا . وقلت أعداد الزوار الغربيين أساساً بسبب جهود الحكومة في اعتراض ذلك الحج ، كما عارضه الكثير من الزعماء القبليين ، لأن المهدية تضعف من سلطتهم ، وما زال مستمراً ، إذ إن للتحرك شرقاً دوافع اقتصادية ودينية .

وبالنسبة لهم فالإنجليز ما زالوا أتراكاً ونصارى ، وقالوا لي نحن نعتبره جزءاً من أبيه ، لقد حلت بركته في السيد ؛ لذا فهو بالنسبة لهم المهدي ليس بشخصة ، ولكن كحامل لبركة أبيه ، ولا يعتبره الشرقيون النبي عيسى لأنهم إلى حد ما أكثر تعليماً ورقياً لاتصالهم بالتيارات الخارجية وعدم تأثرهم بالمظاهر المهدوية المتطرفة ، ولا يتبع معظم سوداني الشرق المهدية ، ولكنهم يتبعون الطرق الصوفية ، ومن جهة أخرى لا يوجد في دارفور مثل هذا النفوذ المسبق ، ولا تزدهر الطرق هناك سوى وسط « الأجانب » [أى الغرابة] في الفاشر نفسها .

وهناك العديد من السودانيين - خاصة الأفندية - من يشير إلى المهدي على أنه مصلح ديني عظيم وقائد قومي ، وينسبون سوء حكم المهدية إلى الخليفة ، وقد أدى ذلك إلى الإخلاص المختلف للسيد عبد الرحمن المهدي باشا للدولة ، وفي طموحاته الدنيوية أكثر من كونها طموحات دينية ، وهو يفضل هذا لزيادة نفوذه . ويستخدم الهيبة عامة التي ورثها كابن للمهدي ، وعلى استعداد لدعم الأشكال الأخرى للإيمان في نفسه ؛ لأن جماهير الأتباع المتعصبين مفيون كسلاح سياسى . ومع ذلك فهو يقول :

إنه مؤسس حركة جديدة تتبع نظام الحكومة الجيدة وحكم العدالة والسلام بشكل عام بلا أى طموحات سياسية ، ولكن لديه مجموعة أتباع من الأفندية ذوى دوافع سياسية مؤكدة .

وأصبح للمهدية - نتيجة لهذا التطور - وضع اجتماعى ودينى وسياسى فى الإسلام، وهى تدعى أنها ليست طائفة جديدة ، ولكنها دينية قديمة فقط ، وبالرغم من أن ذلك مستحيل لأنها ترفض المذاهب الأربعة وتقر بمذهب المهدي^(١) ، وليست هناك إدعاءات علنية ضد المهدي فى حد ذاته ولا ضد ابنه ولا تعارض الحكومة الحالية ، كما أن المهدية ليست بطريقة صوفية ، إذ ليست لها ذكر أو تعاليم سرية مقصورة على فئة قليلة ، ويتلو أتباع المهدي « الراتب » بعد صلوات محددة ، وينتشدون فى تجمعاتهم المدائح عنه وعن ولده ، ويؤمن الكثيرون أن المهدية حركة إصلاحية ويلتزمون بالمنوعات التى فرضها المهدي مثل منع التدخين ، على أساس أنها لا تتعارض مع العادات السودانية الأصلية^(٢) ، وتمت محاولات لإحياء تنظيمات المهدي الأخرى مثل حملة المهر التى قدرها بجنيهاين (الكورة) ، ولكن الحملة لم تلق إلا نجاحاً ضئيلاً خارج جماعات

(١) خصوم المهدية يسمونهم « الخمسية » أى أتباع المذهب الخامس وتضميناً غير المسلمين .

(٢) كتب المهدي فى أحد منشوراته « تذكر أيضاً أن جريمة أولئك الذين يشربون الدخان أكبر من شرب الخمر إن الذى يشرب الخمر يعاقب بثمانين جلدة ، وأما الذى يشرب الدخان فإن عقوبته مائة جلدة » ، Wingate, Mahdism, p.62

*أما شقير فيقول وحرم شرب الدخان ومضغه ، وشرب الحشيش والخمرة وقضى على من خالف أمره هذا بالجلد ثمانين سوطاً . شقير . طبعه دار الجيل . بيروت ١٩٨١م ص ٦١١ . [المترجم]

المهاجرين ، كما أن « يوم الزواج السنوى (٢٧ رجب) الذى ابتدعه المهدي عام ١٨٨٢م قد حافظ عليه ابنه لسنوات عدة .

إن التعصب هو نتاج الديانات العالمية مثل الإسلام ، وتقوم السيكولوجية السودانية الغربية وبعض سودانيي الشرق بثورات بأشكال معينة بقدر الإمكان ، وربما أقلها فى علاقتهم بهذه المجموعة المهدية الجديدة عما هى بالنسبة لظهور مهدي جديد ؛ لأن الحالة النفسية للتوقع جاهزة سلفاً ، ولكن هناك خطراً حقيقياً بسيطاً ، اذ بينما تحافظ الحكومة على يقظتها واستمرار الازدهار النسبى الحالى ، فإن السخط المتفجر بسبب الفقر هو الشئ الوحيد الذى قد يتسبب فى انتشار مثل هذه الثورة ، ومن غير الحكمة أن تتراخى هذه اليقظة لأن جذوة المهدية الكامنة ستكون المادة الجاهزة للاستخدام فى الثورة السياسية فى وادى النيل .

ج- التأثيرات الأرواحية في الإسلام السوداني

١- الإسلام والأرواحية

« قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد إذا حسد . » [سورة الفلق]

كان استيعاب عناصر الديانات البدائية متأصلاً في الإسلام منذ البداية ، فالنبي لولادته في بيئة مشبعة بعمق بالأرواحية كان عليه أن يحسب حساب ويدمج العديد من مثل هذه العناصر ، لقد حافظ مثلاً علي قوة الديانة البدائية لتتحد مع الشعيرة الدينية الخاصة بالحجر الأسود في مكة وسخرها في خدمة النظام الخاص به . لقد أجبر علي أن يحسب حساب السحر والعرافة لأنه هو نفسه كان يؤمن بأن « الشياطين تعلم الناس السحر » ، ونزل الوحي بمنع السحر والكهانة ، ولكن بقيت التقاليد موجودة فيما حرمه في استخدام الرقي « لا عيب في استخدام الرقي طالما لا تربط أي شيء بالله » ،^(١) الحاجة التي أحسها المسلمون لتبرير غلبة السحر وسطهم وإيجاد إجازة دينية لها .

إذن فمنذ البداية كانت هناك رابطة داخلية وطيدة بين الأرواحية والإسلام مكنته من أن يستوعب بسهولة شعوب إفريقيا وآسيا وجذب العوامل الحنوية لنظمهم ، وأمكنه استيعابهم بحركته التوفيقية المتأصلة ، حتى ولو بدت مختلفة تماماً مع شريعته . إن المعتقدات في القوى العجيبة في الجن والأرواح التي لا حصر لها لا يجب اعتبارها مجرد زوائد ، إذ بالرغم من أنها قد لا تكون منسجمة مع الشريعة الإسلامية فإنها متأصلة في النظام الإسلامي . إن الابتعاد الكبير عن مفهوم الإسلام للإله حتم الابقاء في نظامه علي توسط الكائنات الروحانية التي وفرت للمسلم الموحد بالله الاتصال الداخلي مع الشرك ، وتاماً كما استوعبت في البداية الكنيسة المسيحية في نظامها العديد من العادات الوثنية والاحتفالات الموسمية ، كذلك امتص الإسلام كل المعتقدات والعادات الخاصة بأتباعه الجدد والتي لا يمكن استئصالها . وقد وجد المسلمون أنه من الصعب مداومة التفكير في استمرارية الأشياء المحظورة التي لا يملكون سلطة استئصالها ؛ لذا فقد اتحدوا وأباحوا تزويدها بتفسير الأساطير والصيغ والتفسير المسلمة . ويقول سنوك هورجرونج :

ليس من الضروري أن تكون العادة أو الفكرة مستتكرة طبقاً لمعيار المسلم ، وقد لا تكون في عقولنا أي ظلال من الشك بشأن أصلها الوثني . فإذا كانت - مثلاً - التعاليم المحمدية قادرة على اعتبار بعض العادات الشعبية كسحر مسموح به ضد الشيطان أو ضد الجن عدو البشر أو كتنويذة للطب النبوي أو الولي مع الله فلا يهم إذا أن يكون وجود هذه الأرواح المؤنثة معروفاً في واقع الأمر فقط من المصادر الوثنية . ولا يتردد أي شخص في أن يستفسر عما إذا كان الولي محل التساؤل قد حل محل الإله الوثني في لباس جديد ، أو من كان اسمه متخيلاً قد وضع منافعه ليجمع شرعياً وجود عبادة بعض الأشياء الشعبية الموقرة^(٢) .

(١) ينظر : Hughes's ويتعامل البخاري مع السحر المحظور والمجاز ، فالرقية يمكن استخدامها لعلاج الأمراض شريطة استخدام القرآن . فالسورتان ١١٣ و ١١٤ (المعوذتان) ذات قيمة عظيمة كتعويذة ، والرقية مفيدة ضد عين الشيطان والسم . أما الأشياء الحقيقية التي يقول بها الكهان في بعض الأحيان فهي مسروقة من الجن ، وكذلك طب السحر ممنوع . قارن مسلم الجزء ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢) Snouch Hurgronje, the Achenese, trans. A.W.S. O, Sullivan

إذن فقد يعطى الطابع الإسلامي المميز الاستيعاب للمعتقدات والممارسات الأرواحية وذلك بتقديم اسم الله الذي يعتبر تأكيداً لفعالية التعاويذ والممارسات ، ويصبح الإيمان بقوة المعجزات « بركة » يمنحها الله لبعض البشر ، والتي يمكن نقلها عن طريق الاتحاد مع الآثار المقدسة والأحجار والأشجار . لذا فقد أستمروا الاعتقاد في تجسيد القيم الروحية . وهكذا اتجه عملياً مفهوم وحدة الله ليضيع في المجال المحير لهبة الله « البركة »؛ لأنها توزعت من خلال الأشخاص والأشياء التي قد ينظر إليها كقوة في حد ذاتها .

وكان تأثير قدوم الإسلام وسط الوثنيين كما يقول ماكما يكل « قد انتزع العادة القديمة من محيطها الأصلي وأعاد وضعها في شكل معدل وسط الشعائر المقبولة للمؤمنين الحقيقيين المحليين ، ولن يفشل الآخرون أبداً في على الروح الخفية المعروفة لأجدادهم » (١)

وفي مواجهة هذه الحركة التوفيقية فإن واحداً من التعابير الإسلامية الأساسية هي أن « الإسلام يلقي كل ما قبله » ، وبقي إيقاع الحياة بالنسبة للمسلمين الأفارقة كما كان عليه من قبل ، وهذا هو السبب الأساسي في نجاح الإسلام في احتفاظه وإبقائه بقوة على الموالين له في إفريقيا .

وعندما جاء الإسلام إلى السودان بعد قرون من التطور والتشعب بكل أنواع العناصر الأرواحية والسحرية استوعبت الشعوب السودانية عناصر معينة من الدين الجديد دون اضطراب أو تشويش ، ولم تهزم فكرة الإله الأعلى معتقداتهم السابقة ولكنها ارتبطت بها (١) ، وأصبحت الشجرة أو الحجر الذي كان متحداً مع المعتقدات الوثنية السابقة متحدة مع الولي ومشربة بفكرة بركته ، وتبقى عبادة الأرواح سواء كانت استرضائية أم تطهيرية - رغم ارتباطها بالصيغة الإسلامية - هي نفسها تقريباً كما كانت قبل قدوم الإسلام. فكل عاداتها القديمة باقية كما هي ، فالحياة الأسرية مثلاً تحكمها الشريعة الإسلامية بشكل مؤكد ، ومع ذلك فإن أي ممارسة مرتبطة بها ممارسة فطرية ، فحتى عقد الزواج يحتاج إلى تاريخ وساعة ملائمة يحددها الفكي المسلم الذي حل محل الكجور الوثني .

و مع كل هذه الممارسات المتسامح بها ، هناك الممارسة الشاملة للسحر وكل أنواع الممارسات الوثنية الإقليمية مثل عبادة حجر سوبا في دارفونج وعبادات دارفور. ويتقدم التعليم فقد العديد من الأشياء مظهره المخيف . وهناك القليل من السودانيين - إن وجدوا - الذين يؤمنون بأن تأثير السحر والأرواح على الناس ليست أشياء يخشى أو يحاذر منها . ويعيش المسلم السوداني في جو فوق طبيعي حيث تنتابه المخاوف من الأشياء التي تنطلق من الأشياء ومن الأرواح ، ولكن لا يجب أن يعتقد المرء أن السوداني يطارده دوماً هذا العالم غير المرئي، وعندما تسير الحياة لينة فإنه يشبه

Hist . 1.73-4

(١)

(٢) للشعوب الأرواحية مفهوم باق للإله الأعلى الذي لا يلعب أي دور في شئون الناس ، ولا يحبون ولا يكرهون الإله الذي حدد الإسلام الاتصال به ، وبينما استوعب العالم الروحي للأرواح فإنه طور هذا الإيمان الذي تتلاشى في الإله الأعلى إلى واحد من الآلهة ذوي القدرة الكلية .

(٢) ينظر خاصة الفصل الرابع في (1909) Les Rites de passage

تماماً طفلاً خلواً من الهموم . إن غير المرئى ليس بعيداً أبداً ، فالأزمات بشكل خاص هي العامل المتكرر في حياته ، فأمور مثل الميلاد والختان والزواج والموت هي أزمات لأنها تعنى الدخول في تجربة حياتية جديدة وغير مجربة ، وكذلك المرض واعتلال الصحة والكوارث هي أزمات . إن هذه الأشياء هي التي ما زالت تتعلق بها الخرافات القديمة التي كانت موجودة فيما قبل الإسلام ؛ لأن وظيفة الدين عند الوثني هي ما يمنحه الإيمان - ليس فقط في الاتصال العادي للحياة اليومية - بل قبل كل شيء في أزمات الحياة . لقد سمى قان جنب الشعائر المرتبطة بالأزمات بـ « شعائر الانتقال من حالة لأخرى » ، (أو طقوس التخرج) ، حيث بها يتجدد الإيمان . فالأزمات إذاً هي الحالات التي يجب أن تمنح عندها حماية خاصة ، وهذا هو الوضع الذي ساعد فيه الإسلام الوثني الذي فقد الإيمان في حراسه ، وقبل كل شيء ذلك الإنسان الذي فقد الروابط القبلية ويفقده الروح - الواعز التقليدي - تم إعادة تكيفه مع الإسلام ، ويوضح هذا جاذبية الإسلام لهم، ولم يحرره الإسلام من المخاوف ، بل بضم هذا المجتمع العظيم حمى نفسه ضد مخاطر المجهول ، وذلك بالاتحاد الوثيق للإسلام مع الوظائف البدائية لحياته إلى درجة أقل ، وذلك باستخدام شعائره المعيارية . ويمكنه أن يجلب معه الآن كل أعرافه التي أعيد تثبيتها في الإسلام ، وهكذا استتشتق النصوص القرآنية المحترقة كترياق ضد التأثيرات الشريرة المخالفة للتعاليم القرآنية ، ولم تتعطل عاداته القديمة ، ولكن أعيد تكاملها وأصبحت بإمكانها أن تظل مؤدية لوظيفتها الحيوية ، وأصبح يقف الآن بينه وبين المجهول ما هو أكثر من عرفه القديم .

٢- الخرافات غير الإسلامية والممارسات الوثنية

إن محصلة كل هذا التفاعل المتبادل هي أن الإسلام اليوم في السودان ارتبط مع أساس المعتقدات والممارسات الأرواحية التي تتراوح ما بين امتزاج السلالة والقبلية والمنطقة ، ومن المستحيل التعامل مع هذا على نحو كاف قبل إجراء دراسة أكثر تفصيلاً للإسلام المحلي ، ولكن برغم أن خرافات الناس تختلف بشكل كبير في التفاصيل فإنها غالباً متطابقة في النوع ، وقد يعطى « الاسكتش » التالي بعض الفهم للاتجاهات العامة .

تبدو العديد من هذه المعتقدات والعادات شائعة لكل الشعوب الإسلامية ، وهذا بسبب (بصرف النظر عن التماثل العالمي العام للخرافة) أن الإسلام كان دائماً ما يلزم القيام ببعض التوضيح والتعديل والتبديل في دمج هذه المعتقدات ، فمثلاً انتشر الاسم القرآني للجن ليندمج مع مختلف الأرواح الخاصة بالشعوب الفطرية ، ف (جن) كردفان يماثل على أي حال (جن) دنقلا ، دحك من جن البلاد الإسلامية الأخرى .

أسباب الأمراض والحظ السيئ وأساليب الوقاية والشفاء

لكي نفهم السودانيين ، فمن الضروري أن نميز منذ البداية بشكل واضح ما بين أفكارنا عن الأسباب والنتائج المبنية على الثواب والعقاب فوق الطبيعي للقوى الضارة الخارجية ، أو الأخطاء في السلوك أو العادة التي تؤثر في الصحة البدنية والعقلية . ويعتقد مثلاً أن الإجهاض سببه إما سماع الحامل لصوت اليوم (أي الروح المتجسدة فيه) أو غيره قرينها أو مكر وخبث « أم الصبيان » .

ويسبب الحاجة إلى الحماية والتعويذة أصبحت هناك ممارسة السحر . وفي السودان كما في أي مكان آخر ، فإن إجازة السحر « الأبيض » أدى إلى الإبقاء على الفقراء أصحاب المهنة الذين يزدهرون على حساب سذاجة الجماهير ومعتقداتهم الخرافية ، وبدلاً من الذهاب إلى المستشفيات والعيادات للعلاج ستظل الأغلبية تزور الفقراء ، وسيواصل هؤلاء الرجال أيضاً استمرار ازدهار تجارة العلاج الوقائي في شكل تعاويذ لدفع أذى عين الشيطان ، وضمن الحماية ضد الأرواح الشريرة .

ويسمى ممارسة السحر المجاز أحياناً « بالدعوة » ، والدعوة أو كما يقولون - طلب من الله - تغطي كل الممارسات التي يقرها الإسلام ، ولكنها تطلق بشكل أكثر تخصيصاً على نظام التعويذة ^(١) ، والشكل الشائع للسحر الأبيض هو : ١- العزيمة : التمتمة بتعاويذ قرآنية و« أوراد » والتفل بعد كل آية وذلك لنقل البركة . وإذا كان الفكي غير قادر على زيارة المريض ، فإن بصاقه يمزج بالماء ويؤخذ إلى المريض . والطفل المصاب بحمى تشنجية مثلاً يعالج برسم صليب أسود على جبهته وتلاوة تعويذة خاصة تحول بالتفل ثلاث مرات على المريض . ٢- البخرة : التي تشمل ثني ورقة إلى (مثلاً) إثني عشر مربعاً وفصلها ، ثم كتابة كلمات وجمل ورموز (مثل خاتم سليمان أو نجمة خماسية) على كل قطعة مربعة ، ويطلب من المريض حرق ورقتين في الصباح وورقتين في المساء مع البخور أو العنبر والسماح للدخان بالدوران حول جسمه . ٣- المحاية : هنا يكتب الفكي نصوصاً ورموزاً على لوح خشبي أو جلدي ، ويمحوه بالماء ويضعه في زجاجة ويعطيه أو يرسله إلى المريض ، وتكون الكتابة في بعض الأحيان على جذور طيبة تغلى ويشرب المريض ماها ، أو تحرق ويستنشقها المريض .

وتطلق كلمة الساحر على :

- ١- الفكي الذي يمارس السحر الأسود .
- ٢- أي شخص يعتقد أنه يملك العين الشريرة .
- ٣- التحول إلى حيوانات ، وهناك أيضاً عرافات وكاهنات ، وينسب غالباً الموت الفجائي أو الشلل إلى الساحر .

وتسمى العملية التي تؤدي إلى الضرر « بالعمل » ، وهو ينتج عن طريق عمل السحر بشيء ما مثل الشعر أو قلامة ظفر أو رداء أفرز فيه عرقاً ، أو أي شيء له علاقة بجسد الشخص المراد إلحاق الضرر به . وقد يتم إجراؤه عن طريق استخدام صورة على ورقة أو على جلود الحيوانات والطيور خاصة الحرباء ، أو صورة من الطين وتدميرها ، وأبسط طريقة هي أن يكتب الفكي رقعة ضارة على « ورقة » ، وتلف داخل الورقة عظمة

(١) يمكن استخدام نظام الدعوة هذا في جلب الشر على شخص . والدعوة في هذه الحالة من كلمة دعا على : التوسل لإنزال البلاء ، وليست دعا إلى الله ، أو للتوسل إلى شخص ما ، وهكذا يصبح التوسل سحراً والأشخاص سيئو الحظ في الحياة يسمون « مدعى » ، ويفترض أنهم ملعونون .

أو صدفة ثم تحرق في الرمل أو التربة أو تلقى في النهر بتعويدة تعلن كيفية تدمير أو إيقاع الضرر بالشخص المراد إلحاق الضرر به . ويأخذ هذا السحر في الغالب شكل التوسل بأن يلقي الشخص نفس مصير الورقة أو قطعة الخشب إما بتدميرها عن طريق النمل الأبيض أو الحرق أو الغرق أو ... الخ ، وإذا ما وجدت الرقية فإن السحر يبطل . وهناك قصة من عهد الفونج عن حجازي ابن أبو زيد الذي وضع رقية ضد عدلان الثاني ، وذلك بأن أخذ طينا ليناً وشكله في صورة الملك وأحرقه حتى تكسر . وتتخذ في بعض الأحيان الطيور أو السحالي وتخطأ أجنحتها أو أرجلها بحيث لا تتحرك وتترك لتموت على عتبة المنزل ، أو أى مكان آخر يخص الشخص المراد إلحاق الأذى به ، أما إذا تم إطلاق سراح الحيوان أو الطائر فإن المريض يشفى . والسحر شكل من « أشكال » الاقتناع بالإيحاء الذاتى المرتبط باتحاد الأفكار المتشابهة ، ويرجع تأثيره إلى هذا السبب ، بالإضافة إلى استخدام التعاويذ ومعاونة الجن ، ويتم بطريقة ما إقناع الضحية بأنه تعرض إلى شئ ملعون ، وهو سبب مرضه وهزاله وأنه سيشفى إذا ما وثق في استردادها بطريقة مضادة .

وطرق الوقاية هي استخدام الأحجبة بشكل أساسى ، وستجد أن كل سودانى يلبس على الأقل حجاباً ضد العين الشريرة وآخر ضد الأرواح الشريرة ، وربما نوعين من أنواع الرقى . ويلبس الرجال أحجبتهم المغلفة بالجلد على شكل أسطوانى أو كيس على الذراع فوق الكوع ، أما الأفندية الذين يرتدون الملابس الأوربية فإنهم يلبسونها معلقة بخيط حول الرقبة على الجانب الأيسر تحت الملابس ، وتلبس النساء مجموعات من كل الأشكال والأحجام معلقة أسفل خصورهن ، وفي بعض الأحيان في شعورهن . كما تعلق الأحجبة أيضاً حول أعناق الحيوانات الأليفة ، وتتكون التعويذة المسماة بالحجاب من ورقة مربعة يكتبها الفكى وتحتوى على آيات قرآنية^(١) وعلامات سرية معدة داخل مربعات تسمى « أختام » . والحرز أكثر تنوعاً ، وقد يتكون من أوراق مطبوعة أو خرز أو عظام حيوانات أو أسماك أو رؤوس حرباء مجففة أو جلد ورن أو سحلية أو آثار مصرية مسحوقة أو ودع أو شعر أو أظافر أو قطعة من ملابس ولى أو تراب من ضريحه . وهناك أنواع تسمى « عروق السحر » قد تكون مكونة من مسحوق قلب شجرة أو قطع من أخشاب خاصة مثل « فكى غانا » ، وعادة ما يوجد الحجاب والحرز معا ، فمثلاً تتكون تعويذة كردفان لسفرة طويلة من أنياب خنزير مع أحجبة تعلق على الجانبين ، ومع ذلك يقال أن فعالية هذه الأحجبة تكمن في بركة الفكى الذى عملها ، أما الثمن فينسجم مع سمعة الفكى ، ومرة أخرى فلهذه الأحجبة قيمتها فقط للشخص الذى عملت الوصفة له . وتلبس التعاويذ فقط إن كانت وقائية أو علاجية ولكنها تدمر أو توضع في مكان خاص إن كانت لاستعمال السحر، ويقوم الفكى

(١) أشهرها آية الكرسي (البقرة - الآية ٢٥٦) * والسور ١١٢ و ١١٤ ، ويضاف إليها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون وأسماء الملائكة والجن .

* الصحيح أنها الآية ٢٥٥ . أما السور فهي الفاتحة والفلق والناس [المترجم]

باختيار الطريقة المؤثرة وذلك طبقاً « لطبيعة » من سيتم سحره . وقد تكون استخدامات الحجاب : لمنع المرض والسقم أو للوقاية ضد الأرواح الشريرة أو العين الشريرة أو للغيرة أو غضب شخص ما ، أو لتحقيق النجاح في التجارة أو الزواج أو الحصول على مركز أو لتحويل قلب رجل أو امرأة اشتتت ما لغيرها أو لكسب حب شخص أو لإنجاب الأطفال .

أما التميمة فهي خيوط من الخرز وشُرَابَات مربوطة في شعر الطفل لإبعاد عين الشيطان ، كما أن الفقرا المتجولين يلبسونها أيضا ، ويمكن رؤيتهم في السوق وهم يمدحون النبي ، ثم يرقصون ويجلجل الخرز الذي يلبسونه ، وتقوم النساء بلمسهم للحصول على البركة .

وتتكون « العقدة » من سبع « عقد » يقوم الفكى في النفخ فيها مع التعويذ فوق كل عقدة ، ويتم الحصول عليها بشكل خاص للنساء الحوامل وللوقاية والشفاء من الحمى عند الأطفال ، ويتم في بعض الأحيان تمرير خيط خلال الجلد ثم يعقد ، وهناك عقدة سيدى الحسن لفعالية « عقده » .

وهناك أشكال أخرى لعقدة السحر الأسود ، ويكتب شقير عن فرع من فروع قبيلة بشاريى عطبره أنهم : اذا أرادوا « ربط » شخص ، فإنهم يقومون بصنع تعويذة له تجعله لا يستطيع ترك المكان ، إلى أن يفكوا العقدة ، وإذا وضعوا أمامه طعاماً فلا يمكنه أن يمد يده للطعام .

وشكل العقدة التي سمعت عنها هي عقدة شائعة ومؤثرة ، وهي خاصة بربط شخص ليصبح ذا قوة جنسية . وقد تكون العقدة من أى مادة ويجب أن تكون خفيفة بشكل ما ، إما بإلقائها في بئر أو نهر أو تحرق أو تدفن ، ويتم الحصول على الشفاء بأن يكتب الفكى حجاباً يلبس على الجانب الأيمن ، ثم تكتب رسائل معينة على جرة تملأ بالعسل أو زيت الزيتون وتمحى الكتابة بالماء ويشربها الشخص المصاب . أما عين الشيطان « العين الحارة » فهي تثير الخوف الشديد ، وقد يتفق السودانيون على أن « الشخص الذى يملك قوة عين الشيطان يبت سماً قاتلاً كسم الأفعى الخبيثة » ، أو أن من تكون له سمعة الساحر غالباً ما يعيش حياة غير سعيدة ؛ لأنه يطارده من مكان لآخر ، ويخشى منه بشكل كبير لأن لمحة من عينه قد تشل عضواً حيوياً ، وتؤدي إلى موت الضحية بعد عذاب . ويصف سلاطين باشا « عين » الخليفة عبد الله المفزعة ، وقد حدث أن سورياً بعين واحدة شخص ببصره نحو الخليفة فلاحظ الخليفة أن عين السورى ترمقه ، فأمر السورى ألا ينظر إليه مرة أخرى ، وقال لسلاطين « لا شئ يقاوم العين البشرية . إن المرض وسوء الطالع تسببها في الغالب الشريرة ^(١) » ويقال

(١) شقير . مصدر سابق ج ١ ص ٢٢٧ كما نجد في SNR., 53-5 مثال لعقدة عملها متمرده ضد الحكومة لربط عقول الحكام .

(٢) سلاطين . مصدر سابق . ص ٥١٩

إن الأطفال يتعرضون في الغالب « لشر حاسد إذا حسد » ، ويتم حمايتهم دائماً « بالحجبات » . إن الحاسد في أبسط أشكاله هو من يطلق العين الشريرة . لذا فيجب ألا يعلق الإنسان على صحة أو جمال الطفل ، إلا باستخدام تعبيرات مثل ما شاء الله . وإذا اشتكى طفل من آلام مفاجئة فإنهم يقولون في الحال « أصابته عين » ، ويتضمن الشفاء اكتشاف الساحر أولاً ، وذلك بإلقاء قطعة شب مع ملح وقرص وكمون في « مبخر » ، وتبخير الضحية ، ثم يشكل المكون في كتلة ، ومن شكل هذه الكتلة يدعون أنه بإمكانهم الإخبار بمن تسبب في الضرر . وهناك طرق عدة للتخلص من العلة ، فقد يغسلون عين الساحر وهو نائم إذا كان هو أحد الذين يعتقدون أنه يملكها ببراعة ، أما في الحالات الحادة فتستخدم طريقة نقل الشر كأخذ قليل من التراب من أثر الساحر ، وإن أمكن الشعر أو شئ آخر مماثل ، ثم يحرق مع الشب والأعشاب في « مبخر » ويبخر بها الطفل ، وبعد أن تكون الكتلة قد امتصت الشر يتم تدميرها بالذهاب إلى الطريق أو الصحراء ورميها خلف ظهورهم أو في النهر ، مع مراعاة عدم رؤية إلى أين ذهبت .

ووجد في الجزيرة رجل له قوة الشفاء من الرقبة التي سببت لشخص صعوبة في التنفس والموت ، والتي قيل إن سببها قطعة من « كرشة » حشرت في حلقه ، وكان علاجه رسم وصفة النموذج الهندسي المعتاد مع قطعة من الورق ولفها ووضعها في فتحة أنف المريض وإشعالها ، ويصرخ من سحر بصوت الموجه « أخرجني » ، ويتحقق الشفاء بالانفجار الذي ينشأ بإخراج الروح .

ومرة أخرى هناك دنيا الأرواح الشريرة التي تسبب المعاناة وسوء الطالع والموت . إن عائلة الجن مع العديد من تقسيماتها من عفاريت وشياطين وريح ... إلخ يخاف منها المزارعون بشكل خاص ، أما الموقف بالنسبة للعرب أو البجة فهو ما قاله الشيخ سالم فرج إلى ج.و. موراى « يكثر الجن في جبالنا ، ولا أحد سوى الفلاح يخاف منهم . إن الخطر الحقيقي هو الذئاب » .^(١)

يمكن تقسيم المعتقدات المرتبطة بالجن - مثلها مثل المعتقدات الأرواحية الأخرى - إلى ثلاث فئات : تلك التي من الوثنية العربية القديمة ، وتلك التي قبلها الإسلام من مصادر عدة بما فيها السودانيون من الغرب^(٢) ، من خلال تطورها عبر العصور (كل من تلك التي فقدت خاصيتها الإقليمية عن طريق التوفيقية ، وتلك التي كانت جزءاً من التراث الإسلامى للسودان) ، وأخير تلك التي استعيرت من معتقدات الشعوب الفطرية

Sons of Ishmael, p.156

(١)

Westermarch, Ritual and Belief in Maroco, i.379

(٢)

السودانية ، ومع ذلك فقد تم جمع المادة الناقصة لغرض التحليل . وقد يكون للأرواح نفوذ خارجي ، أو قد تدخل في الشخص أى تتلبسه ، ويعتقد أن الشخص الذى ارتكب خطأ يكشف نفسه لمثل هذا التلبس ، أو قد تدخل في أوقات الأزمات (المشاهدة) . إن الجن هم عالم قوى ما فوق الطبيعة في مرتبة بين الملائكة والبشر ، وكما في أى مكان يعتقد أنهم ماكرون وشياطين مؤذون مشكون من النار والبخار .

ويسكنون في المقابر والأماكن المهجورة ، وعلى العموم فهم الصفات المجسدة لمخاوف الصحراء ، وهم أجسام خفيفة ، ولكنهم قد يأخذون شكل الثعابين أو السحالي أو الأشياء الكريهة الأخرى ، والبعض منهم مسلمون والآخرين كفار ، وكلهم تحت سيطرة النبي سليمان ، وكلهم قادرين على فعل الخير أو فعل الشر ويجب أن تسترضى لكي يتم تجنب نفوذها الشرير ، أو تطرد بالرقى والتعاويذ . وبعد الشفاء من المرض يتم في الغالب تغيير اسم الطفل لتضليل الأرواح ، ويدعى العديد من الفقرا أن لديهم « خدام » ، وأحيانا يتزوج الجن من البشر ، وينسب الفلاتة والهندودة - في الخرافة الشعبية - أصلهم إلى اتحاد الجن مع فتيات إثيوبيات ، وكان لصديق لى حمل لا عيب فيه وعندما رأت الحمل عجوز لم تتزوج أبداً ، أبدت رغبتها في شرائه بإصرار والحاح ، وعندما سأل عن السبب أجابت على مضض أنها متزوجة من جن ، وأن الفكى قال لها إن مثل هذا الحمل ضرورى تقديمه قربانا لمنع عودته إليها . ورغم الخوف الحقيقى من الجن هناك خرافات مرتبطة بهم ، وهى مجرد خرافات ، فمثلا يقال إن « غبار الشيطان » يمثل الجن وهو يمتطى حصانا ، وأن الشهب يلقيها الملائكة على الجن ، ولا يتم حفر بئر أو بناء منزل ما لم يتم تقديم « كرامة » استرضاء للجن « صاحب المحل » الذى قد تقلق راحته .

وبالرغم من أن الجن صنف يفتقر بشكل عام الشخصية الفردية ، فهناك جن له اسم فردي ومميزات خاصة وأكبر لعنة للنساء هى روح تسمى « أم الصبيان » أو « الغزالة » وتصور كامرأة عجوز نحيفة كريهة المنظر ذات قوة تدميرية جبارة ، ولا يستطيع إلا فكى قوى أن يكتب أحجية لإبطال عملها أو استرضائها . إنها لعنة الأمهات الحوامل ، وهى تسبب الإجهاض والعقم وشلل الأطفال ، وأى شخص يصاب بالصرع (الغزالة) يكون سببها أم الصبيان ، ومن ثم فإن السودانيين ينفرون من لمس أى شخص فى نوبة مرض خوفا من التلبس ، وهناك القرين أو القرينة ، وفى أم درمان روح تتلبس الانسان ، وغير معروف فى السودان المفهوم المصرى الخاص بأن القرين يولد مع كل فرد ^(١) ، وهناك أشخاص بعينهم يتلبسهم الجن ، ومثل هؤلاء الاشخاص لا يتزوجون وإلا فإن القرين سوف يؤذيهم ، ويبدو أنه لا يتطابق بالمرّة مع

(١) فيما يتعلق بمفهوم المصريين ينظر Zwemer, studies in popular Islam, ch.v . أما الاستخدام السودانى كزوج الروح أو زوجة الروح فإنه يشابه استخدامه فى القرآن « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » [النساء الآية ٢٨]

بنت إبليس التي لها علاقات مع غير المتزوجين أثناء النوم ، والتي قد تسبب لهم الضعف الجسماني ، وهي ليست سبباً للمرض العقلي أو البلاهة كما في مصر ، والذي مرجعه استبدال الشياطين لأحد أطفالهم المعتوهين بطفل آدمي سليم ، لذا فعندما يسبون معتوهاً يقولون له « المبدل » . وللوقاية ضد هذا الاستبدال يجب عدم ترك الأطفال وحدهم أبداً في الأربعين يوماً الأولى بعد الولادة (أيام الأربعين) ، والتي تكون الأم خلالها حبيسة البيت . ويصنف الجن المتملك عادة بأنه إما جن هادئ أو جن حاسد وهو الذي يسبب المس . وتستخدم كلمة الجنون بشكل محدد لتعني المجاذيب ، وهؤلاء يعالجهم أسر فقرا معينون ورثوا بركة استثنائية ، ويتمثل العلاج في الحبس في حجرة مظلمة والصوم علي قطعة « كسرة » وماء يتلوه ضرب مبرح بعصي كتبت عليها آيات قرآنية وتعاويز مع البصق المعتاد على المريض لنقل البركة وتلاوة القرآن ، ويؤدي هذا العلاج في غالب الأمر إلى وفاة المريض . وتتضمن الطريقة الأخرى المرجحة من القدمين والكتفين ببطء فوق نار حامية مع التعويذات . أما الأشخاص المسوسون بشكل معتدل فيسمون « مشوطن » ، ويجب ملاحظة أنه قد تمارس « الدعوة » في مختلف أنواع علاج الجنون ، إما مع الأداة المهدئة للأرواح أو التعويذة الفعلية .

وهم يخافون بشكل حقيقي من أم الصبيان والأرواح الأخرى التي تتلبس الإنسان ، ولكن هناك أيضاً العديد من الأرواح الأخرى التي تستخدم «بعبا» لإخافة الأطفال ، ويصور الغول كجن بسبعة رؤوس وعرف ضخمة ، وهو ينام عاماً ويصحو عاماً وهو يغري الرجال ويسحبهم بعيداً إلى أماكن منعزلة ليفتك بهم ، وتعرف الأنثى بالسلعوة ^(١) والنوع الآخر هي « الشكلوته » ، وهي مخلوق بعين واحدة ورجل واحدة ويد واحدة ويدون أنف ولها أظافر طويلة تهاجم بها وجوه من تقابلهم من الناس . ويبدو « أن الدودو » وأم بعلو يمثلان البعبع المصري ، ويقال أن الكابوس يسببه « أبو الكباس » وهو شيطان يضع يده فوق فم الشخص لخنقه ، ولكن لا ينجح لوجود ثقب في راحة يده يتنفس الإنسان من خلاله بصعوبة .

وهناك اعتقاد قوى بتناسخ الاشخاص الذين ماتوا وفشلوا في دخول الجنة ، وعادوا ليعيشوا حياة بشرية عادية في بعض الأقاليم أو البلاد وتزور أشباحهم (يسمون بعاتي) عادة أقاربهم مباشرة بعد الموت ، وتحكي القصص غالباً عن مقابلتهم بعد سنوات مع أشخاص يعرفونهم في حياتهم السابقة ^(٢) ، وتعتقد الشعوب النهرية أن

(١) الغول اسم مؤنث من جزر معناه (ليهلك) ، ولكنه يعتبر في السودان شيطاناً مذكراً ، وقد تكون السلعوة من السلالة الشيطان العربي ما قبل الإسلام . انظر المسعودي . مروج الذهب ج٢ ص ٢١٨ .

(٢) قد يكون هذا الاعتقاد مستمداً من عبادة القور لأن ماكمايكل يقول في Hist.i.103 «مازال الاعتقاد الشعبي في كل دارفور ينسب لكل القور قوة الانسلاخ ، وأن كلمة « نباتي » تعبير عام أسى استخدامهم ليضمن الشخص المخاطب هو في حياته الثانية ، وأنه مات ، أي أنه بدلاً من أن يسكن في الجنة عاد ليعيش حياة ثانية على الأرض .

النيل مسكون ببعض أنواع عن عرائس وعروسات البحر يسمون « أولاد الحور وبنات الحور » ويفترضون أن الالبينو Albino* الذين يولدون أحياناً من أبوين أسودين «مبدلين»، ويسمى مثل هؤلاء الأطفال « بالهورى » ، كما يعتقدون أيضاً في سكان آخرين في النيل يسمون ملكات البحر. (١)

إن جماجم وقرون الماشية وجلد التمساح والأبريق الأسود والزجاجات والاطباق التي تربي فوق أبواب الحيشان تمثل في بعض الأحيان نوعاً من أنواع الفتيشية* للوقاية ضد دخول الأرواح الشريرة ، أو يقال أنها هناك لجذب العين الشريرة ، ومن ثم لن تضر أى شخص في الحوش ، كما أن جماجم الحيوانات التي تشاهد معلقة على أعمدة في وسط الحقول هي أيضاً لجذب « العين » .

والزار شكل من اشكال استرضاء روح الزار الحارسة أو « الروح الأحمر » بوسائل الموسيقى والرقص . الزار بالتأكيد ليس متأصلاً عند سكان السودان الشمالي إذ لا يمارس في القرى ، كما لا يمارس أيضاً في مناطق الجزيرة والفونج والنيل الأزرق ، ويبدو أنه جاء من مصر في القرن التاسع عشر عن طريق العبيد السود من السودان الوثني . والاحتمال الأكيد أنه جاء من الحبشة (٢)، والزار الذي دخل السودان الشمالي من مصر، يمارس الآن بشكل أساسى فى سواكن وبربر وأم درمان ، ويوحى انتشاره فى سواكن بأنه دخل من الحجاز الذى ربما جاءها من الحبشة .

وقد تربت نساء أم درمان في جو الخوف من الزار ، وعندما تصاب المرأة بالهستيريا والهزال يقولون ان السبب هو مس الزار ، وهذا يظهر عندما تلقى المريضة بنفسها على الأرض في اضطرابات عنيفة قد تستمر لعدة ساعات ، وتصبح خلالها المريضة في بعض الأحيان متوحشة جداً وفي غضب شديد ، ويتلوه عيون مثبته ومتوترة ومفتوحة عن آخرها . إن النظرية التي وراء الزار بسيطة جدا : فعندما يسمح لروح أخرى بتملك جسم آخر فإن النوايا والأغراض هي نوايا وأغراض شخص آخر .

* Albino : شخص لبنى البشرة أبيض الشعرقرنفل العيين . (المورد) [المترجم]

(١) ينظر : Crowfoot, SNR, ii.183ff

*الفتيشية : أشياء كانت الشعوب البدائية تعتبر أن لها قدرة سحرية على حماية صاحبها أو مساعدته [المترجم]
(٢) الزار كلمة أمهرية دخيلة، من المعتقد أنها جاءت عن دين الأقاو Agao القديم للكوشيين الوثنيين الذين كانوا يسمون إله السماء جار Jar وقد تدهورت الكلمة فى استخدامها من قبل الأحباش (الاقاو الذين تنصروا) فيما يتعلق بالروح الشريرة . ينظر

Paul kahle, Zar-Beschworungen in Agypten Der-Islam,iii.1-41 Travels in Abyssinia,pp.259-60 وفي كتابه plowden كما سرد (1933) Cerulle,Ethiopia Occidentale وقد استمدتها السودانين من كلمة زار ، يزور ، وتشير النساء للمسوسات دائما إلى الزار بكلمة « الجماعة » ويجب ملاحظة أن Lane فى كتابه Modern Egyptians لم يذكر أبداً الزار ؛ لذا يفترض أنه لم يكن قد تم استيراده بعد ، كما أنه انتشر إلى الحجاز ينظر : Snouck Hurgronje, Mekka,ii.124 ff

ويقول بعض السودانين إن كل شخص يتلبسه زار يكون مختلفاً في العادة ، ولكن أحوال بعينها كالصدمة العقلية قد تجعله نشطاً . والشخص المتلبس يسمى «مزيور» ، وهناك أشكال عديدة « للزائرين » ، منهم الحبشى والباشا والمصرى والفلاتى والقس والقبلى ومجموعة راهبات و دراويش بعينهم (مثل عبد القادر الجيلانى وأحمد البدوى)، وتلبس النساء اللاتى مسهن الزار خاتماً منقوشاً عليه اسم - لنقل - عبد القادر ، وتقوم امرأة بإلقاء الخبز فى أركان البيت له ولأى جن آخر .

كما يسمى حفل الاسترضاء بالزار أيضاً . ويتم تهدئة الزار بوسائل الرقص والهدايا والقرايين . والأمر كله وثنى وبعيد جداً عن الإسلام ، إذ لا توجد أية محاولة لأسلمته ^(١) ، وعادة ما تكون صاحبة المهنة أو كاهنة الزار امرأة ، ولو أنه ليس بالضرورة أن تكون امرأة زنجية ، وتسمى الشيخة أو الكوديا ، وإذا كان شخص ما مريضاً مرضاً عقلياً أو جسدياً ، ويعتقد أن مس الزار هو السبب ، يتم إحضار الكوديا الى المنزل لإجراء مراسم تسمى « فتح الصندوق » ، ويحتوى الصندوق على بخور تقوم الكوديا أثناء حرقه بتقرير ما إذا كان الشخص فى حاجة إلى حفلة زار أم لا ، وقد تقول بالطبع ما إذا كان المريض سيكون سريع التأثير لهذه السلطة أو من المحتمل أن تسوء حالته أو يموت من العلاج . وإذا كان الأمر كذلك فإنهم يتجنبون إجراء الزار ويقترحون العلاج بفكى ، هذا لأن سمعتهم (على عكس سمعة الفكى) تتأثر إذا ما أصبح المريض مجنوناً أو مات . وهناك حالات عديدة للانتحار والجنون فى أم درمان بسبب الزار ، ويفترض أن ممارسة الزار ممنوعة ، ولم يتم إلا القليل لإيقافه برغم أن الزار لا يمكن إخفاؤه بسبب الأصوات الشيطانية التى يحدثها قرع الطبول التى تجعل كل الجيران فى حالة توتر .

والمهمة الأولى «للكوديا» هى اكتشاف أى زار أو « ربح » تتفاعل معه ، وما هى النعمة الصحيحة التى بها تطرده أو تطردها (الأرواح الشريرة) أو تكون المريضة فى بعض الأحيان بتلبسها أكثر من روح شريرة ، ويتم محاولة نعمة وراء أخرى يصحبها القرع والرقص المناسب حتى تصبح المريضة (وفى بعض الأحيان الكوديا) فى حالة انجذاب وتدخل فى غيبوبة ، ويدل ذلك على أن الزار الصحيح قد تم التوصل إليه ويتم غناء ذلك اللحن ودق الطبول بشكل مطول جداً ، ويتطلب كل لحن ارتداء ملابس أطفال أو نساء أو مختلئين وذلك طبقاً لجنس الزار . وللزار دائماً رغبات محددة ، ومهمة

(١) لقد أوضحت آنفاً أن اندماج المفاهيم البدائية فى الإسلام يتوقف على انسجامها مع تصور أن الله هو الحاكم الأعلى . إن الوصفة الأساسية « للحجاب » مثلاً يجب أن تكون كلمة الله ، ومن الخطأ توحيد شياطين ما قبل الإسلام مع الله على الورق كما يحدث دائماً ، ومن الخطأ استخدامه لفعل الشر (العمل) على الآخرين أى انتهاك قداسة الكلمة القرآنية ، وبالمثل فإن الزار كممثل لشيطان ما قبل الإسلام لا يمكن أن يكون رفيقاً مثل الولي ليصبح « صديقاً » لله ومن المحزن أن سحر الدين اليوم غير مؤثر فى السيطرة على « الزائرين » ، وأن الشعائر البدائية هى التى تم الإبقاء عليها .

الكوديا هي اكتشافها قبل أن تهدأ . وقد يتم التعبير عن ذلك في بعض الأحيان باللغة العربية وفي أحيان أخرى بلغة الزار ، وذلك إلى الكوديا عن طريق ضحاياهم ، ولو أن الكوديا قد تكون الوسيط في بعض الأحيان ، وتتجه هذه الرغبات لتأخذ شكل الملابس والمجوهرات والأشياء الأخرى المملوكة للغير .

وتستمر حفلات الزار عادة لمدة سبعة ليال ، وتقام وليمة كبرى في الليلة السادسة وتبقى الكوديا والممسوسات الأخريات اللواتي تمت معالجتهم في السابق بالكوديا ذاتها ^(١) طوال الليل وصباح اليوم التالي ، ويقمن بذبح خروف قريباً ، ويتم أول ترتيب للموكب ، يجر الخروف سبع مرات حول الحجرة ، وفي بعض الأحيان مع ركوب النساء عليه وغناء تعويذة خاصة ، ثم يذبح الخروف وتقوم المريضة والأخريات بتلطيف أنفسهن بالدماء ، ثم تقوم المريضة والكوديا والممسوسات الأخريات بشرب بعض الدماء وأكل اللحم النيء ^(٢) . وهناك طبقتان عرضة لخرافة الزار المريض الذي جرب الفقرا والأطباء ولم يتم شفاؤه ، والنساء غير المستقرات عقلياً ، أو النساء اللواتي يرغبن في الحصول على مصوغات ذهبية من أزواجهن كسياسة لضمان عدم تطليقهن . وهناك معارضة قوية من جانب الرجال ضد الزار ، ولكنها معارضة غير مؤثرة ليس على أساس أن الزار طقس وثني ، ولكن على اعتبار أنه حيلة من النساء ومحاولة لشفاء آخر غالي الثمن من مرض عضال . وتأخذ الكوديا جنيه يومياً لمدة سبعة أيام ، وقد يكون صعباً بالنسبة لمعظم الناس تقديم مثل هذا المبلغ ، ولكن لأن الطبول تغرى اللواتي يتلبسهن الزار من الجيران فإنهن يسهمن في دفع التكاليف .

ويسود اعتقاد في كل السودان بإمكانية تحول بعض الأشخاص إلى حيوانات ، ويعزى لسحرة معينين (يسمون في هذه الحالة بالسحارين) القدرة على تحويل أنفسهم بالليل إلى تماسيح أو أفراس نهر في المناطق النهرية ، أو إلى ضباع في دارفونج ووسط المساليت أو إلى أسود في دارفور ، وتتجول هذه الوحوش الأدمية المسوخة بحثاً عما تدمره ، ويعتقد أنهم يقيمون ولائم لأكل لحوم البشر ، ويفترض في دارفور أن كل قرى الفور تتحول بالليل إلى بعثات صيد ^(٣) . ومما يبرهن على أن هذا

(١) يجب أن نذكر أن الزار يُهدى فقط ولا يتم التخلص منه ، وتقول النساء إن فقرا بعينهم كانوا في الماضي لهم قوة التخلص من الزار ، ولكن تلك المهارة فقدت خلال حكم المهديّة .

(٢) يؤدي الزوج الذين تأسلموا في أم درمان طقساً مشابهاً في ليالي الخميس ، ويسمى الكاهن القائم بالطقس : شيخ الطمبورة « والطمبورة عبارة عن طبلية كبيرة تستخدم مع الربابة » ويرتدي الشيخ جلدًا مملوءًا بالحوافر المشقوقة وعصا طويلة ، ويزين نفسه بريش النعام ويربط الحوافر حول وسطه وينحن فوق عصاه ويهز الجزء الأسفل من جسمه لجعل الحوافر تخشخش ، ويتم أيضاً دعوة الآخرين الذين يعانون من «جماعة الطمبورة» كما يسمونهم ، ويتم إخراج الأرواح بالضرب المستمر للطبول والغناء والبخور والعزف على الربابة والتصفيق الذي له تأثير منوم على المريض الذي يذهب في غيبوبة ، ويستغرق هذا الطقس ليلة واحدة فقط ، ويقول الأم درمانيون أن هذا الطقس هو الذي دخل السودان الشمالي ومصر - وحظر أثناء المهديّة - ثم عاد مرة أخرى من مصر مع الزوائد الجديدة خاصة طريقة المصروفات . وينظر أيضاً سرد Bangala في

الكنفوق العليا J.H.Weeks, J.A.I.xl.425

(٣) ينظر : رواية التونسي Voyage au Darfour, p.358

الاعتقاد ليس مجرد خرافة هي تجربة المدير السابق لسكك حديد السودان الذي قال لى إنه كان عليه ذات مرة أن يرفع قارباً غرق في مصب نهر عطبرة ، وأنه وجد صعوبة في الحصول على عمالة من القرية المجاورة ، وعرف في آخر الأمر أن الفلاحين يخافون دخول الماء لاعتقادهم بأن رجلاً من القرية يعتقد أنه يملك القدرة على تحويل نفسه الى تمساح ، مما جعل الفلاحين يخافون دخول الماء ، كما أصدر كتشنر بعد إعادة الفتح أمراً بعدم إطلاق النار على التماسيح في بطن الحجر لاعتقاد السكان في مسح الكائنات . ويفرض « رجال الأسد » المعروفون في كردفان « بأهل العوايد » رسوماً على القرويين ، وهناك احترام في كل أنحاء السودان لمقدسات مثل الأشجار والآبار والحجارة ، وقد أعطيت اليوم بالطبع تلويناً إسلامياً . وقد يشاهد المرء في الأسواق ممارسات « ضرب الرمل » و« ضرب الودع » و« فتح الكتاب » وكلها تسير في خطى الأشكال الإسلامية المبنية على المصادر الأدبية ، أما ممارسة الاستخارة فهي عامة ، ويستخدم عادة كتاب ابن سيرين في تفسير الأحلام . أما كتاب « الديرى » فهو شائع بين الفقرا ، أما فتح المنديل فهو طريقة للتوصل إلى معرفة الأشياء المخبأة عن طريق وسيط روحى ، ويمارس الفلانة فتح المنديل في كل أنحاء السودان ، وتأخذ الطريقة الشكل التقليدى الذى تم وصفه دائماً^(١) ، وهو أن يقوم الساحر بإستخدام طفل وسيط ، بتتبع خاتم سليمان المرسوم على الأرض بأن يكتب كلمة فى الوسط ويقوم الطفل بالتحديق فى الرمل إلى أن يدخل فى غيبوبة وينادى الساحر على « ملك الشياطين » الذى يجيب على الأسئلة عن طريق الطفل الوسيط ، ويستخدم فى بعض الأحيان كويلاً أو مرآة أونقطة حبر .

وتوجد الممارسات الوثنية الفعلية وسط الزوج المسلمين اسمياً فى دارفونج ودارنوبا ودارفور ، ويعتبر الجديات وسط جبل كردفان وبحيرة الرهد أنهم يمتلكون قوى سحرية، وتوجد العرافات وصانعو المطر والأحجار المقدسة وسط الفور والزغاوة والميدوب . ويكتب ا. لا مبن عن الميدوب :

يبدو أن ديانتهم الجديدة والتي مازالت مترددة قد تركزت على ثلاث نقاط: التضحية والتعبد أمام الأحجار والأشجار المقدسة ، والاحتفال الكبير للحصاد واللجوء إلى امرأة حكيمة للسؤال عن أمر من أمور الغيب . وهناك شجرة عظيمة بالقرب من الملحا حولها سياج صغير كتبت أعتقد دائماً أنها شجرة مقدسة ، ولكن لا توجد عندي معلومات مؤكدة عنها أو عن غيرها . إن الأحجار المقدسة أكثر شيوعاً . وقد علمت أن هناك واحداً فى قومة بركان الملحا . كما شاهدت آخر فى الممر الضيق لواءى جلدونت ، وكان مغطى بأحجار صغيرة بأماكن المارين عليه طلباً للحظ السعيد . وهناك العديد من مثل هذه الأحجار وما تزال توجد النساء المقدسات أو التُدَى اللواتى اعتنن التنبؤ بضرب الودع ولا شك أنه مازالت

Lane, Modern Egyptians, i,348 ff

(١)

إستشارتهن سارية . وكل المندوب يخجلون من التحدث عن إيمانهم القديم
ويخجلون من تخلفهم فى ممارسة الشريعة المحمدية . ولكن لا شك أن الأغلبية
العظمى للقبيلة ما زالت أرواحية فى بخلتها .^(١)

ويكتب س. هالسون عن الداو قائلًا :

رغم أن التأثير العربى قد تخلصهم بشدة ورغم أنهم يتظاهرون بالإسلام اسمياً وبلا
مبالاة ، فإن الداو يحافظون على شعائر ذات طبيعة وثنية صرفة يتحد معها
الكجور بشكل خاص . وتوجد تحت مسئولية التوجونى (أو الكجور) مزارات
تعود إلى كالح الإله الأعلى للداو والذي يماثلونه بالله .^(٢)

وهناك عبادة حجر سوبا وسط همج جبال قولى ، وهم يدعون أن جدتهم العليا ملكة تدعى سوبا
وأن الحجر هو عرشها ، وما زال كرسى الملكة يلعب دوراً فى المراسم عندما يتولى المنجل
السلطة بالاحتفال بغسل قدميه على الحجر، ويلعب هذا الحجر وأحجار سوبا الأخرى دوراً فى
شعائهم مثل الرقص احتراماً للمرة الأولى التى تقوم فيه الوالدة بترك منزلها ، كما توضع
القرايين على الحجر عند أول جنى للحصول ، كما يتم التوسل لسوبا للشفاء من المرض .

كما يحتفظ معظم البجا الذين تأسلموا بشكل ناقص بالعديد من الممارسات الوثنية .
ويكتب ج. وموراى « ما زال للبشاريين صخور ومنحدرات صخرية مقدسة تؤدى لها
زيارات احتفالية ، وتقدم لها الخراف أضاحى ، ومن هذه الأماكن كنجر أويب « حجر
الهروب » فى وادى كجوج أحد روافد وادى أريب .^(٣)

٢- التأثيرات الوثنية على الحياة الاجتماعية والاسرية

أ- آثار النظام الأمومى

لقد أوضحنا فى السابق أن النوبيين والبجة - ومن المحتمل معظم القبائل
السودانية الأخرى - هم شعوب ذات أصل أمومى مثل العرب حتى زمن النبى ، ويقول
المقريزى عن البجة « وأنساب البجة من جهة النساء ، وهم يورثون ابن البنت وابن
الأخت دون ولد الصلب »^(٤)، وهذا هو النظام الذى احتال عليه العرب المهاجرون
ليصبحوا شيوخاً للقبائل ، وقد ظهر ذلك أيضاً بحقيقة أن تقاليد العديد من القبائل -
مثل الهدندوة وبطن المناصير - تعود إلى الجدات العليا .^(٥)

SNR.xi .60-1

viii. 63.4

G.W.Murray, p.157

(١)

(٢) نفسه

(٣)

(٤) الخطط ج ١ ص ١٩٤

(٥) تنسب العديد من الأحجية الرجل الى أمة (فلان ابن فلانه) ، ومع ذلك فقد قيل إن هذا راجع إلى ضرورة
الإشارة إلى الشخص الصحيح ، وإلا فإن الحجاب قد لا يكون له تأثير ويفسد بدلاً من أن يفيد ، وليس هناك
أى شك أو تساؤل عن أم الشخص .

ولا يوجد اليوم مثل هذا النظام فى الشريعة ، إذ إن الانحدار يأتى من النظام الأبوى ، ولكنه موجود فى عادات الناس ، حيث يذهب الزوج ليعيش مع زوجته فى حوش أسرتها ، ويبقى هناك تحت حكم أم العروس إلى أن يولد الطفل الأول وفى الغالب مدة أطول من ذلك ، وحتى بعدما تراخت العادة فإن المرأة تعود إلى أسرتها لتضع مولودها . ومن الغريب أن المرأة مستقلة عن زوجها - الذى ليست له فى العديد من مجالات الحياة والسيطرة فيما يتعلق بالجانب الداخلى للمنزل - حتى بعد أن تنتقل إلى منزله ، وتقاوم النساء عادة وبنجاح أى رغبة للزوج فى التحرك حتى ولو إلى جزء آخر من أم درمان رغم معرفتهن أن هذا يعنى فى الغالب أن له زوجة أخرى محلية ، كما كان التصاق الأبناء يكون أقوى مع أسرة الأم خاصة عندما يكون للزوج أكثر من زوجة . وعملياً ورغم عدم وجوده فى الشريعة فإن أسرة الزوجة - خاصة الخال - تمارس سلطة أكبر على الأطفال ، وتعود المرأة البقارية المطلقة إلى خالها وليس إلى أبويها ، ومن الأمور الشائعة جداً وسط العرب والبجة والنوبة والزنوج على حد سواء أن يخجل الرجل من حماته والمرأه من حماها ،^(١) ولذا يتجنب الرجل مقابلة الحماة ولا يتحدث إليها أو يأكل فى حضرتها أبداً . ويمكن للرجل أن يتحدث مع حماه ، ولكنه يتجنب الأكل من نفس الطبق ، ويذهب الرجل وسط الهدندوة إلى قرية المرأة التى سيتزوجها ويبقى هناك من عام إلى ثلاثة أعوام ، ومعظم معدات كوخ الزوجية يوفرها أقارب العروس ، كما يتجول أيضا مع قطعان حماه وعلاقتهما هى علاقة الابن والأب .

كما يوجد النظام الأمومى الخاص بالميراث والخلافة وسط الميذوب المسلمين اسماً فى شمال شرق دارفور ، إذ يخلف الملك ابن أخته ويقولون « إن العظم من الأم واللحم من الأب »^(٢).

ب- الاحتفالات والعادات الأسرية

قلنا إنه بينما تحكم الشريعة الإسلامية الأسرة والحياة الاجتماعية فإنها ترتبط بشكل أساسى بالشعائر الفطرية الخاصة بالانتقال من مرحلة لأخرى (شعائر التخرج)، وتوفر هذه الشعائر الحماية للفرد أثناء فترة مخاطر الانتقال من مرحلة حياتية لأخرى. «فالمشاهرة»^(٣) هو ذلك الاسم الذى يطلق على «الخطر المجهول» الذى يؤدى إلى المرض أو الكارثة المرتبطة بهذه الأزمات ، ويعتقد أن ذلك مرتبط مع القمر (الشهر)، والنكبة التى يسببها بعض الخلل فى أداء هذه الشعائر الوقائية (السبر)^(٤) كعدم

(١) ماكمايكل . مصدر سابق ج١ ص ١٠٦

(٢) نفسه ص ٥٩ وما بعدها. ويذكر أيضا آثار هذا النظام وسط سكان الحرازة فى كردفان (Tribes, p.91) ووسط الكبابيش منذ ثمانية أجيال مضت.

(٣) من الشهر أى القمر .

(٤) من المهم جداً التمييز بين «السبر» و«العادة» . فالسبر يدل على تلك الممارسات الاحتفالية العرفية ، أما العادة أو السوالف (كلمة عربية) ، ولكن البجة تستخدمها ، فهى العرف فى معناه الواسع .

إكمال لوازم الجيرتق أو زيارة النهر . ولإبطال المشاهدة يتم ارتداء الحلى والزينة ^(١) الخاصة بالجيرتق عند الزواج والختان ومنذ الشهر السابع للحمل حتى انتهاء الأربعين ، وفى الماضى عند تنصيب الملك .

العادات المرتبطة بالميلاد : وفى وسط الشعوب النهرية - أى الدناقلة وما يسمون بالقبائل العربية مثل الجعليين والرباطاب - عندما تكون المرأة فى الشهر السابع من الحمل يحضرون من الفكى « عقاد » تربطه الحامل حول وسطها ، وتلبس الزينة الخاصة بالجيرتق ، ويتم الوعد بتقديم الهبات وتحقيق لها كل نزواتها الغريبة ، ويجب وضع دولار ماريا تريزا تحت وسادة المرأة ، كل هذا لحماية الأم والطفل ، ويتم بعد ثلاثة أيام من ميلاد الطفل ذبح خروف يوزع لحمه نيئاً على الفقراء ويسمون ذلك « الحرارة » ، أما اليوم السابع فهو « السماية » التى تشمل حفلة كبيرة ، ومن المحتمل إقامة « الذكر » ويتم قص شعر رأس الوليد فى ذلك اليوم ويذبح خروف (يسمى عقيقة) ، وفى أم درمان رغم أنهم يذبحون خروفاً فى السماية فإنه نادراً ما يرتبط بفكرة « العقيقة » ، ويتم حلاقة عقيقة « الجاهل » بعد سبعة أشهر ، مع ترك بعض الخصلات . وبدأت تختفى من المدن عادة ترك الخصلات ، حيث لا يوجد نذر للعقيقة كما لا يوجد احتفال أيضاً ، وفى اليوم الأربعين تذهب الأم بعد غروب الشمس مع صديقاتها وقريباتها إلى النهر لأداء مراسم التطهير ، وتقوم الأم فى البداية بإلقاء قليل من « البلبلة » فى النهر ثم تغسل يديها وقدميها ووجه الطفل ^(٢) ، كما يتم أيضاً تفريغ براز الطفل الذى تم تجميعه خلال الأربعين ، كما تلتمس أن تمحو المياه آثار كل الشرور التى قد تكون علقت بها أو بطفلها ، وبعد أن تنتهى تقوم بقية الرقيقات بالاغتسال وأكل بقية « البلبلة » ، ويرسم أثناء الأربعين بالكحل صليباً على جبهة الطفل كحماية له ضد العين الشريرة ، وكما تبقى البجة النار مشتعلة بصفة مستمرة خلال هذه المدة .

الختان : ويسمى فى السودان « الطهور » وهو بالطبع شعيرة فطرية كانت تمارس قبل قدوم العرب إلى السودان ، وقد تم أسلمته على أساس أنه مقبول فى المجتمع الإسلامى ، ولكن هناك علاقة واضحة - فى الشعائر الإضافية المصاحبة له - مع المراسم الشعائرية ، ويرتدى الفتى مثل الفتاة ويلبس الجيرتق والحلى الذهبية لطرد الجن (كذلك سيف الرجل لحمايته ضد الجن) ، ويركب من حوله الرجال لحمايته من السقوط ، ويحرق الفحم واللبان والقرض والملح ، بالإضافة إلى الأذكار وتلاوة الأوراد وذبح الذبائح ، ويتم فى بعض الأحيان زيارة أحد الأضرحة ، وخلال الأسبوعين يمكنه أن يطلب الهدايا من أقاربه وأصدقائه ، كل ذلك لتجنب مخاطر « المشاهدة » وعين

(١) انظر عادات الزواج .

(٢) نقضى الكنيسة القبطية والأثيوبية بوجوب تعميد الأطفال الذكور فى اليوم الأربعين بعد الولادة .

الشیطان والأرواح الشريرة ، وتسمى المراسم فى بعض الأحيان « بالعرس » ، وهناك مثل يقول « العربى ملك يوم طهورته ويوم عرسه » ، ويعيش الاطفال - عند البجة - معاً مع « الطهار » فى عشة خاصة تشيد لهم ، ويظهر هذا مدى علاقته مع مراسم الشعائر البدائية .

ويتم ختان الأطفال فى مراحل عمرية مختلفة طبقاً للعرف القبلى أو حالة الأسرة المادية ، ويتم ختان الأغلبية ما بين سن ٨ و ١٠ سنوات ، وبعض البجة يجرونها بعد الولادة مباشرة على أن يجرى الاحتفال بعد سنوات .

وليس لختان الفتيات شعيرة من هذا النوع ، وتغطى بالطقوس السرية برغم وجود مراسم لبس الجيرتق . وهو يأخذ شكل الشعيرة القاسية (الطهارة الفرعونية)، وهى شعيرة حامية بشكل مميز تبناها العرب المهاجرون ^(١)، وقد قاومها لفترة طويلة البقارة الذين يمارسون ختان السنة . ولم تكن عامة فى دارفور ^(٢) فى زمن التونسى وبراون، وكانت المسيرية الشرقيون أول من تبناها ، وهى شائعة الآن تقريباً وسط البقارة ولا يتجشم الشماليون عناء تبرير هذه الممارسة . إنها عادة ، إلا أن القبائل مثل البقارة الذين تبناها مؤخراً يبررون الممارسة بقولهم يفترض أنها تحمى ضد الحمل المبكر (إذ للمرأة البقارية حرية كبيرة جداً) ، هذابالإضافة إلى اعتبارها أداة لتقديم الضحية بشكل أكثر جاذبية للرجل ، وهى ليست من المعتقد القويم ، كما يتم فى بعض الأحيان بذل جهود فائقة لشجبتها واستبدالها بالشكل القانونى المعتدل (الطهارة الشرعية) ، وقد فشلت هذه الجهود بسبب عدم مبالاة الرجال والمعارضة الشديدة من الحبوبيات ^(٣).

(١) ذكرها هيروبولت (ii.104) واسترابون (xiv.4,9) كما ذكر ابن سليم ممارستها وسط البجة .

(٢) ينظر ماكمايكل . مصدر سابق ج١ ص ١٠٧

(٣) موقف الإسلام التقليدى هو شجب الشكل المتطرف لبتن عضو من الأعضاء ، ولكن المدارس تتفاوت فى حكمها على الشكل القانونى المعتدل ، فهو واجب عند الشافعى ومستحب طبقاً لمالك ومعظم المدارس الأخرى . وفيما يلى فتوى من مفتي السودان حول ختان المرأة : لقد كتب الدكتور السيد عبد الهادى عرضاً كاملاً فى صحيفة النيل ١٩٣٩/٧/٢٥ حول شروختان المرأة فى السودان شارحاً مضارها الاجتماعية والبياثولوجية وآثارها الضارة على النساء فى كل مراحل حياتهن ، وقد لام - بحق - الطبقة المتعلمة ونوى المراكز الذين يجيزون استمرارية هذه الممارسة البربرية لختان المرأة الذى لا أصل له ، والذى لم يعرف أبداً فى العالم الإسلامى أو أى قطر آخر ، وفى هذا العرض الذى لا يحتاج لأى إضافة اقترح على أن أوضح تماماً حكم الشريعة فى هذه المسألة وإجابتي هى : إن ختان المرأة مستحب فقط أى ليس إجبارياً وهو يتألف من قطع جزء من البظر وأكثر من ذلك ممنوع طبقاً لرواية أم عطية ؟ يجب ألا يغلو الختان لأن هذا أفضل للمظهر ويعطى الزوج متعة أكبر .« هذا هو ختان المرأة المرغوب فى الإسلام ، أما الأشكال الأخرى مثل تلك المعروفة بيننا بالفرعونية فهو بتر والبتن ممنوع منعاً باتاً .» (النيل ١٩٣٩/٧/٢١) وقد تم مؤخراً إصدار تشريع ، ولكن من الطبيعى أن لاتأثير له على العادة المتأصلة بقوة، ويجب أن يسمح للسودانيين بأن يجدوا طريقة يتخلصون بها بشكل تدريجى وسلمى من الختان الفرعونى .

عادات الزواج :

نمط جيرتق الزواج ^(١) شائع في معظم السودان الشمالى وسط القبائل النهرية (المحس والداقله والجعلين والشايقية) ، وفى شمال وسط كردفان والنيلين الأزرق والأبيض والبنى عامر ، كما تبنته معظم قبائل البدو ملاك الإبل باستثناء الشكرية والبقارة والبجة المتحدثين بالبدائية، وكذلك النوبيين الكنوز والسكوت فى النوبة المصرية

إن مراسم الجيرتق هى واحد من العديد من المراسم المعقدة المرتبطة بالزواج ، وتتجه القبائل العربية نحو البساطة مقارنة بالقرويين وسكان المدن . والجيرتق الذى يلبس فى كل فترات الخطر مهم جداً ، ويلبس الجيرتق عند الزواج الأول فقط سواء بالنسبة للفتى أو الفتاة ، ويتكون الجيرتق الصحيح من الحرير الأحمر مشبوكاً فيه بخيط خرزة خضراء أو زرقاء وفقارة من فقارات ظهر السمك وشراشيب مدلاة من سوار ، ويتم هذا فى مراسم خاصة ، وتتضمن هذه المراسم لبس الرجل الجيرتق بالإضافة إلى كل الزينات النسوية الوقائية الأخرى ، ويكون التشديد فى الزواج على الأداء الصحيح للشعائر الوقائية ، وهناك شعائر أخرى لتعزيز الخصوبة ، ولا توجد ذروة لإتمام الدخول بالمرأه ، ومن المحتمل أن يكون مرجع ذلك ختان المرأة ، على عكس التأكيد على الدخلة فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وليس للدخلة وقت محدد ، وتؤخرها فى الغالب المطالب الحيوية للنقود ، وكثيراً ما تضمن إعداداً زائفاً من قبل قابلة .

ويحل « السنكاب » محل الجيرتق عند البجة ، نظراً لأنه يستخدم فقط عند الزواج الأول :

وهو مصنوع من الأوراق الغضة من قلب الدوم مربوط بصوف أسود وأبيض وبنى فى شكل « المنشة » إلى حد ما ، وملحق به صورة مصغرة من رسن الجمل وصنادل الأطفال ، وهذا السنكاب تجهزه النساء ويوضع فوق مدخل البيت ويبقى لمدة عامين أو أكثر إلى أن يبلى تماماً. ^(٢)

أما اليوم فإن العديد من عرائس وعرسان البجة يلبسون فقارة من ظهر سمكة على الرسغ عند الزواج الأول .

عادات الموت والحداد: تشبه هذه العادات نفس عادات البلاد الإسلامية الأخرى ومع ذلك فهى مليئة بشعائهم الخاصة مع خضوعها للعقائد المهمة للإسلام التقليدى،

(١) ينظر مقالات: J.W.Crowfoot, " Wedding customs of the Northern Sudan" SNR.V.I ff .

و S.Zenkowsky," Marriage Customs in Omdurman" SNR.xxvi.241.55
فيما يتعلق البدو الأباله . كذلك انظر : 4 - 120 pp. The Sudan from within

(٢) (W.T.Clark, " Mannars,customs and Beliets of Northern Beja" SNR. xxi.II)

وتُسكَلُ^(١) النساء عند وفاة إنسان ، ويتم غسل الجسد في الحال^(٢) ، وتولول النساء ويحثون على رؤوسهن الرماد ويقمن بضرب المناحة^(٣) ، وعند موت شخص ذي مكانة أو امرأة متزوجة صغيرة السن يتم وضع ملابس المتوفى في كومة على العنقريب وترقص النساء حوله ، ثم يرتدين تلك الملابس (أو يرتديها الرقيق في حالة شيخ القبيلة) ، ثم توهب هذه الملابس إلى الفقراء ، وقبل أخذ الجثمان إلى الدفن مباشرة (يتم الدفن خلال ساعات قليلة من الوفاة) هناك غسيل ثانٍ (شرعى) ، ويكفن ويعطر الجثمان ويغطى بغطاء نفيس ، ولا تصحب النساء العنقريب إلى المقابر حيث تؤدي عليه صلاة الجنازة .

وتسمى الفترة التي تعقب الدفن : أيام الفراش (أو أيام البكا) ؛ لأن أقارب المتوفى يقضون ما بين ثلاثة وسبعة أيام وليالٍ (أربعون يوماً بين البدو في بعض الأحيان) جالسين على البروش لتلقى العزاء من الأصدقاء والجيران ولا يتركون الحجرة أو الخيمة إلا للضرورة القصوى . وتعد إهانة عدم تقديم العزاء ، وتعانق المعزيات قريبات المتوفى ويبكين ، ويقرأ الرجال الفاتحة عند قدومهم وينتظرون إلى أن يسمح لهم بالمغادرة ، وواجب على الجيران والأصدقاء خدمة البيت وتقديم الطعام ، وتقام الصدقة في آخر أيام الفراش ، وهو ذبح خروف أو أكثر طبقاً لمواردهم المالية ، ويقولون إن هذا «يزيل التراب من فم المدفون» ، ويتم في هذا اليوم قراءة القرآن كله ، ويعمل في يوم الأربعين كرامة للفقراء فقط ، ويسمح للنساء بزيارة القبر ، ويوضع حجر أو جريد نخل عند رأس وقدم القبر الذي يحاط عادة بدائرة من الحجارة .

وليس للبجة فراش ولا يهتمون إلا قليلاً فيما يتعلق بطقوس الوفاة برغم أن الأصدقاء يأتون في بعض الأيام لتقديم التعازي ، ويستمر الحداد بالنسبة للنساء عاماً كاملاً لا يستخدمن خلاله الحنة أو العطور أو يمشطن شعورهن ، ويذبح العرب البدو خروفاً كل يوم ويعود ذلك إلى ضرورة تقديم الطعام للمعزين ، وتزور النساء المقابر في أمسيات الجمعة ، ويتم في يوم الجمعة الأخيرة في رمضان عمل «الرحمات» للميتين ، ويقوم الأطفال بالطواف على البيوت وأكله ويسمى «عشا الميتين» .

ج - عادات اجتماعية خطيرة أخرى

أوضحنا في الفصل السابق عدم فعالية الشريعة في مجال العادات القبلية (العادة والعرف) التي يبني عليها الشيوخ والمحاكم القبلية قراراتهم ، فوسط البجة مثلاً فإن

(١) السكلى يشبه الزغاريد التي تطلق فقط في المناسبات السعيدة .

(٢) يسمى « خروج الروح » .

(٣) تستخدم المناحة للجنازات فقط ، ويتم ذلك بوضع « قرع » مقلوب في « طشت » مملوء بالماء ، ويضرب « بشباشب » قديمة .

عقوبة الزنا هي دفع غرامة قدرها ثمانية جنيهات للزوج ، والإثبات المطلوب هو « دخول البيت » فقط ، وهو المصطلح المستخدم للزنا .

ولا تختلف مثل هذه العادات كثيراً وسط مختلف المجموعات العربية ، وتلك العادات التي تبني عليها قرارات الشيوخ ، وهي تلك التي جلبها العرب في الأساس ، ومن الطبيعي أن يقترب البعض من أحكام الشريعة لأن التشريع الملائم الذي وصفه النبي غالباً ما يتكون من عقوبات أو تغييرات طفيفة فقط في الأحكام العرفية لبلاد العرب الوثنية .

وتختلف تلك التي عند البجة بشكل أكبر ، ويرغم أنهم بدو فهناك شبه نسب بين عاداتهم وعادات العرب ، ومع ذلك فقرارات المحاكم القبلية تقترب أكثر فأكثر من تلك التي عند العرب ، فعرفهم الخاص بالميراث مختلف تماماً ، ومن غير المحتمل أن تعدل الشريعة هذا العرف لأنه مبني على إيمان البجة في عدم قابلية تحويل ملكية الأرض المملوكة للقبيلة .

وقد حافظت النساء على المراسم الاجتماعية الأخرى بما فيها استعمالات التقويم في الشمال وشعيرة اللبن وسط البجة واستهلال موسم الحصاد بالزعماء في دار فونج ودار فور وشعائر صنع المطر في وسط وغرب السودان .

وتحتفظ البجة والقبائل الحامية الأخرى مثل « الجالا » بشعيرة اللبن ، وللبن طهارة معينة لا تضيع فقط إذا ما أغفلت الشعيرة ، بل وقد تسبب الضرر للشخص الذي يشربها ، والحكم الأساسي هو : يجب أن يحلب اللبن الرجال فقط ، ولا يجب أن يشرب اللبن الرجل الذي حلبه حتى يقوم شخص آخر بالشرب منه ، ويجب حلب اللبن في قرعة أو أوعية من السلال ، ويجب ألا يتم غليه ، وقد يطهى فقط بطريقة معينة وقد لا يباع ، وقد يرش الشيخ أيضاً باللبن عند تنصيبه ، ويبدو أن شعيرة اللبن هذه نتاج شيء ما مقدس أو محرم السماح به للاستهلاك البشري .

وسرد اس. بيتون وصفاً لعبادات المطر عند الفور^(١) ، فوظيفة صناعة المطر وراثية وتتضمن الصلاة للمطر موجهة لأرواح الأسلاف التي اتحدت مع الثعابين المقدسة والحرايب والأشجار في موضع مقدس ، كما أُلح إلى شعيرة عبادة القضيب الرمزية من الجزء الذي يلعب به الاطفال في شعيرته التي بقيت من العبادة القديمة للخصوبة . فالشعيرة هنا تعبير عن روح القبيلة ، وإلى أن تصبح هذه الشعيرة منفصلة فإن مثل هذه القبيلة من الصعب أن تسمى مسلمة ، وبين المثال التالي الطريقة التي تأسلمت بها الشعائر الوثنية لطقوس المطر . يقول بيتون عند إشارته (لحالة جا Ja) : يحضر الناس طقوس المطر الوثنية ، حيث يتسلق الفكي شجرة ، ويقرأ فصولاً من القرآن

(١) SNR,xxii186 و اس بيتون في ملف مديرية دارفور . أما فيما يتعلق بالروايات الأخرى لعبادات الفور الوثنية ينظر : MacMichael, Hist.i.100-8

ويترك أوراق الكتاب تسقط واحدة تلو الأخرى كلما قرأ ، ويقوم بالتقاط الأوراق بعض القرويين الواقفين تحت الشجرة ، بينما يجلس بقية القرويين وهم يسبحون بسبحهم ومرة أخرى في حالة الكالو Kaalu ، فالإمام هو المسئول عن شعيرة المطر ، فبعد التسبيح وقراءة القرآن لعدة أيام يقوم الناس بجمع كومة كبيرة من الأحجار. وبينما يقوم الإمام بقراءة الصلوات للمطر يقومون جميعاً بنقل الأحجار حجراً حجراً، إلى أن يختفى الكوم ويتم شراء خروف بالمساهمة العامة ويذبح ويؤكل .

ولن نحتاج سوى لمجرد الإشارة الى القبائل السوداء المسلمة بالاسم في المنطقة الواقعة ما بين خطى ١٢ - ١٠ ، أى مختلف مجتمعات نوبا الفونج وقبائل دارفور . إن كل حياتهم تحكمها العادات الوثنية ، تلك الدراسة التي تنتمى بدقة إلى المجتمعات الوثنية (١) .

(١) عالجه سلجمان في كتابه Pagan Tribes of Nilotic Sudan

الطرق الدينية

١- تطور الصوفية فى الإسلام

سنحاول فى هذا الفصل عرض المكانة التى تمثلها الصوفية بالشكل الذى انتقلت به فى طرق الدراويش ، فى حياة المسلم فى السودان . لقد تم بحث الصوفية بتفاصيل كافية ؛ لذا فإن هذا القسم مجرد « اسكتش » للقارئ الذى لم يلم بهذه القصة .

احتوى الإسلام منذ أيامه الأولى على إدراك الاعتماد الكلى على الله والخضوع لإرادته ، لذا فبالنسبة للعديد من أرواح المخلصين، فإن إخضاع النفس لحياة الزهد يقدم الجهاد البديل لإخضاع الدنيا ، وليس للإسلام علاقة قوية مع التصوف على الرغم من المحاولات التى بذلت لقراءته داخل الإشارات الخفيفة فى القرآن .^(١) ولكن انتشار الإسلام إلى مصر وسوريا والعراق وإيران جلب إلى حظيرة الإسلام أعداداً سكانية مسيحية ضخمة ، جلبوا معهم بالطبع مواقفهم الدينية للحياة وعبروا عنها فى الأشكال الإسلامية ، وأثروا بشدة على نساك الإسلام من الداخل. وقد أخبرنا أن أحد صحابة الرسول - تميم الدارى الذى كان مسيحياً ، قضى الليل بطوله فى تدريبات دينية مكرراً آية واحدة من القرآن (سورة غافر الآية ٢٠)^(٢) ومن جهة أخرى تركت سياسة الإسلام للذميين الحرية الكاملة فيما يتعلق بالعبادة . لذا فقد كان من الصعب على المسلمين ألا يكونوا حسنى الإطلاع على الممارسة المسيحية .

قد نشأت الصوفية من الزهد فى القرن الأول الهجرى . وقد سُمى الزهاد المتجولون لأول مرة بالصوفية لأن عاداتهم - مثل زهاد المسيحية - كان لبس « الصوف » ، ومن ثم جاءت الكلمة لتعنى أولاً الزاهد ثم الصوفى^(٣) ، والكلمة العادية للباطنية هى التصوف . وبين ابن خلدون أن الصوفية كانت الزهد والتقشف خلال القرن الأول ، ويكتب :

(١) هذه الإشارات مثل « كل من عليها فان - ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (الرحمن . الآيات ٢٦ - ٢٧) و« كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (القصص . الآية ٨٨) ، وقد لعبت هذه العبارات دوراً حيوياً فى الصوفية المتأخر، ولم تفعل الكثير مع نقطة العامل الباطنى فى الإسلام .

(٢) الشعرانى . لواط الأنوار . القاهرة . دت ص ٢١

(٣) طبقاً للقشبرى . الرسالة (القاهرة ١٢٠٩ هـ ص ٧-٨) أصبح للكلمة الاستخدام العام خلال التحول من الزهد إلى الصوفية عند نهاية القرن الثانى للهجرة . وكان الجاحظ (توفى عام ٨٦٩ م) من أوائل الكتاب العرب الذين استخدموا المصطلح عندما تحدث عن « الصوفى بين النساك » ، وأصبح الصوف زياً فى القرن الحادى عشر الميلادى .

إن طريقة هؤلاء القوم (الصوفية) لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانتقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والافتراء عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقلون على العبادة باسم الصوفية. (١)

وخلال القرن الثاني كان هناك التطور من الزهد إلى الرضا ، وساند تطور ظروف العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وكانت الدوغمائية العقيمة والجمود معاً مع الطائفية المجذبة للفقهاء قد فشلت في ملء قلوب الجماهير الذين كانوا يحنون إلى توافق ليس من هذه الدنيا ، وكان العديد من تلك الجموع قد دخلت في الإسلام من المسيحية الشرقية . إن الحروب المدمرة والحكام الطغاة في العصر الأموي والعصر العباسي الذي تلاه بدنيويته المتألفة مع تياراته الشكوكية والعقلية أدت إلى أن يتحول العديد من المخلصين بعيداً عن الأشياء المادية إلى حياة الزهد والتصوف ، وقد اتصف هؤلاء الأشخاص بالوعى الشديد لمملكة الله والخضوع لإرادته مع الإفراط الديني الشديد الذي يقودهم إلى إدراك الحقائق السرمدية، ولم تتطور حياة جماعية منظمة في هذه الفترة ، كما لم تكن هناك أية محاولة نحو النظرية حتى الفترة الانتقالية عند نهاية القرن عندما بدأت نزعات جديدة في الظهور . إن معروف الكرخي (توفي عام ٨١٥ م) ورابعة العدوية (٧١٧ - ٨٠١ م) والحارث بن سعد المحاسبى (٧٨١ - ٨٥٧ م) أتوا بالتطور الجديد للانجذاب الصوفي الذي ميز المرحلة التالية ، لقد فكروا - من خلال طريقة الطهارة - أن يجعلوا كل تفكيرهم وأفعالهم في انسجام مع الإرادة الإلهية ، وأن ذلك سيؤدي إلى التحرر من الارتباطات الدنيوية وتولد عقيدة الاستنارة والحب الإلهي . ومعرف الكرخي هو أول من سجل تعريف الصوفية « إدراك الحقائق والزهد عما في أيدي مخلوقات الله » ، التعريف الذي يتعارض في بساطته مع التعريفات الأخيرة. وكان الزاهد - الصوفي الآخر لهذه الفترة هو ذو النون المصري (٧٩٦ - ٨٥٧ م) الذي كان نوبيا (٢)، وهو الذي أعطى النزعة الثيوصوفية للعقائد الصوفية ، وشكلت تعاليمه حول المعارف الصوفية تطوراً جديداً ، ودخلت الصوفية خلال القرن الثالث هذا التطور الجديد . إن الروح التصوفية التي ميزتها حتى الآن

(١) المقدمة (القاهرة) ص ٤٦٧

(٢) القشيري . الرسالة ص ٨

اكتسحتها النزعات التأملية والمذاهب القائلة بوحدة الوجود ، وتطور الزاهد إلى العارف ، وهذه نزعة الناشئة من خلال قوى متعددة الأشكال معاً تولدت من التأملات الأفلاطونية الجديدة التي انتقلت أساساً عن طريق المسيحيين المتحدثين بالسريانية أو النسطوريين أو اليعاقبة أو المنوفستيين ؛ لأن التصوف كان قد وصل إلى مرحلة متطورة جداً في الكنائس الشرقية ^(١) ، وقد جاءت أولاً عن طريق الاتصالات الشخصية ، وفيما بعد من خلال المصادر المكتوبة عندما تمت الترجمات من اليونانية لكتب مثل علم الكلام الأرسطي ^(٢) (ترجم عام ٨٤٠ م) ، وقام بهذه الترجمات مسيحيون من أمثال حنين بن اسحق وابنه ، وكان ابن مسرة القرطبي (٨٢٣ - ٩٣١ م) هو البشير لمدرسة (الإشراقى) هذه .

لقد توصل الصوفية بلا شك بشكل مستقل إلى نتيجة مؤداها أن الله هو الواحد المطلق ، وقد تأثرت بقوة تطور ومنهجية تجاربهم بالتأثيرات الخارجية من خلال الاحتكاك مع الحركة التوفيقية الشرقية ، لذا فقد أصبح التوحيد ^(٣) هو العقيدة المركزية في الإسلام ، وأصبح الله المتعال يظهر في كل المخلوقات ، وأصبح بالنسبة للصوفي ليس فقط أن لا إله إلا الله ، بل لا شئ سوى الله ، ووجد الصوفي نفسه الحق بفقدان وعيه الفردي في الانجذاب الصوفي ونكران الذات في الوحدة الإلهية .

وكانت المرحلة التالية في تطور الصوفية هي المرحلة التي كسبت فيها الاعتراف الرسمي . وبسبب العامل التأملى اعتبر المتصوفة شكاكين وحتى زنادقة ، ولكن عن طريق النفوذ غير العادى لرجل واحد تطهرت الصوفية من هذه النزعات وكسبت موقفاً ثابتاً ومؤكداً في النظام الدينى الإسلامى بإجماع المؤمنين ، ذلكم الرجل هو الغزالى

(١) كما لا ينكر أيضا نفوذ الأفلاطونية الجديدة اليهودية ، ولكن ليست المانوية كما كانت تعلن دائماً . حقيقة إن الصوفية كانت على اتصال بها ، ولكن لا يبدو أنه كان للمانوية تأثير يذكر عليها . إن مصطلح زنديق ، رغم أنه مشتق من « زاديقي » السرياني والذي أطلق على تلاميذمانى بمعنى الهرطيقى ، وذلك من قبل الفرس في العصر الساساني ، وقد استخدمه المسلمون أيضاً دائماً بالمعنى السيئ ليعنى « المانوي » « الملحد » وقد لا تكون الصوفية قد تأثرت « بالملاحدة » ونسبة لأن المصطلحات يفترض أنها تمت استعادتها من المانوية (المستمعون - المختار - القويم) ، ولكنها مستعارة في حقيقة الأمر من فئة المختار Oiekhektol بين المسيحيين النسطوريين ؛ لذا فقد أصبحت الصوفية متأثرة بشكل كبير بالمسيحية الفارسية ، كما تأثرت بالسريانية الغربية أو اليعقوبية ، وهذا حقيقى بشكل خاص بالنسبة للقسم العربى التقى للصوفية ، ذاك القسم غير المهم جداً عديداً .

(٢) إن ما يسمى بعلم الكلام الأرسطي هو ترجمة إلى العربية لتعليق Prophyry على تساعيات بلوتينوس En-neads of plotinus - ٦ و٥ .

(٣) التوحيد هو الاعتراف بالوحدة الإلهية وإنكار كل عل غير الواحد .

(توفى عام ١١١١ م) ^(١) الذى حث لقبول موقف الصوفى من خلال تجربته الشخصية بدمجه فى الإيمان القويم وإعطائه منزلة مؤكدة للمسلم التقى الساخط من الشككية - الذى تبع طريقته - معطياً معنى جديداً للإسلام نفسه .

وفى الحقيقة من الصعب اعتبار الغزالي صوفياً نموذجياً ، لقد بقى مسلماً تقليدياً فيما يتعلق برأيه فى طبيعة الله وفى احترامه للشريعة ، وأعلن أنه غير وارد فى الإسلام كل وحدة الوجود الصوفية « كالحلول » ^(٢) ، وإلغاء الشخصية الفردية بنتيجة يصبح معها هذا النوع من التفكير غير قويم ، وكان تأثير عمل الغزالي قد أحدث هدنة عن كونه توفيقاً بين العلماء والصوفية ، ولم يعق الصوفية خاصة فى إيران عن الوصول إلى أكثر الأشكال صرامة لوحدة الوجود المفرطة التى جاءت بالفعل بأفراد مثل الحلاج ليقعوا تحت إيدانة الإسلام التقليدى ، وهكذا أصبح هناك تطور إضافى .

كان ابن العربى (١١٦٥ - ١٢٤٠ م) أحد شخصياته المركزية الذى تسبب فى تمزق واضح بين الصوفية الحقيقية والتصوف الباطنى الذى تكون فيه الأرواح الورعة فى حاجة إلى منحها ديناً حياً داخل النظام الشكى . وهكذا - يقول د.ب.ماكدونالد - « أدت الحياة الورعة داخل النظام الإسلامى إلى نظرية وحدة الوجود التامة أكثر مما فعله الطغيان المسيحى » ^(٣) . وأصبحت الصوفية بابن العربى علماً خفياً لا يفشى سره إلا إلى دائرة المطلعين على الأسرار أو - كما يسميهم ماسينيون « أوكار الافيونيين فوق الطبيعيين » - وهم متسترون خلف هذه المعرفة المقصورة على فئة قليلة تظاهروا بالامتثال للقرآن ، ولكنهم فسروا كل شئ بشكل مجازى ^(٤) ، وكانوا شموليين يؤمنون بأن الله موجود فى الدين كله ، ونسبة لأن كل الأشياء مظهر من مظاهره ؛ لذا فيمكن عبادته فى نجم أو وثن ، وأدى تحررهم لأن يرقب الإسلام التقليدى بحذر عقائد الطرق الصوفية التى بدأت الآن فى دمج نفسها كأداة لبث هذه العقائد السرية .

لذا فالصوفية سواء فى شكلها التأملى والعاطفى أو المتجلى قد أوضحت استقلالية العقيدة الدينية للإسلام ، فهي مكبله كما كانت فى قيود الشككية وتركيز السلطة ، وقد كانت الصوفية ارتفاعاً مفاجئاً فى الإسلام الذى كانت روحه تصر على الحاجة للحياة الداخلية التى عاشت مع الله . إنها التربة التى ازدهر فيها الإسلام ولولاه لكان قد ذبل واضمحل .

(١) كان الطريق قد مهده أبو القاسم القشيري الذى حاول فى رسالته (١٠٤٥ م) التوفيق بين العقيدة الصوفية والشريعة الإسلامية .

(٢) يستخدم الغزالي الحلول بمعنى نزول الله إلى الإنسان فى كلمته القرآنية ، ويوجد أكثر النماذج الثيوصوفية فى كتبه الأخيرة التى تسبق نظام ابن العربى الخاص بوحدة الوجود .

(٣) The Religious Attitude and life in Islam, p.39

(٤) ينظر . تفسير ابن العربى .

٢- نشأة الطرق الدينية

ذكرنا لمحة موجزة عن أصل وتطور الصوفية ، ولكن هذا الشكل هو مظهر واحد من مظاهر دراسته . وللتجلى الصوفى الخالص تأثير فلسفى فقط ، ولكن الصوفية فى الممارسة - التى هى التصوف العاطفى - لا هى نظام فلسفى ولا هى فرقة ولكنها طريقة حياة - طريقة تطهير . ونحن الآن فى حاجة لدراسة هذا المظهر العملى أى الطريقة التى انتشر بها المذهب فى كل العالم الإسلامى عن طريق تطور الطرق الدينية التى كانت العامل الحقيقى لانتشار الإسلام المتحول ، ونجد فى هذا التطور الاختلاف الحقيقى للاتجاه ، وهناك مظهر آخر ، خلق سلطة جديدة - سلطة الأولياء - تلك السلطة التى عالجناها فى الفصل السابق . لقد كان الصوفى عادة ما يتجول وحيداً ، ولكن الخبرة لا يمكن أن تكون ابداً هى العزلة التامة ، إنها قد تكون خارجية المنشأ أيضاً ؛ لذا فالصوفية فى الممارسة ستكون من الإحساس أكثر من كونها معرفة ، وهناك سلسلة متوالية بالطبع تضم القدوة والتدريب ، زيادة على ذلك فقد تأصل فى المتصوفة الشعور بأنهم فى مخاطر من خلال تطور التجلى الصوفى الهرطقى ، وشعروا أنهم فى حاجة لهداية وتدريب ؛ لذا فقد طمحووا تدريجياً نحو طريقة صوفية يضعون فيها أنفسهم تحت هداية رجال الطريقة ، ولم تعلن الطريقة فى البداية أكثر من منهج مرحلى للصوفية التأملية ، تلاها بعد ذلك شخص له دعوة صوفية ، وتجمعت حلقات التلاميذ حول بعض الشيوخ المبجلين من أمثال الجنيد (توفى عام ٩٠٩ م) والسرى السقطى (توفى عام ٨٦٦ م) ، ثم تكونت الجماعة وكانت دائماً الجماعة متحركة ، ويتجول أعضاؤها فى الوطن تدعمهم الصدقات ، وغالباً ما كان يوجد مأوى (الخلوة أو الخانقاه أو الرباط) كمركز ، ولقد سمعنا عن مثل هذا المأوى فى دمشق فى حوالى عام ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وفى خراسان حوالى عام ٢٠٠ هـ (٨١٥ م)^(١) . وقد تطورت هذه المأوى إلى رُبط وأصبحت كثيرة جداً فى الشرق الأوسط خلال القرن الحادى عشر الميلادى . ويعود تطور الأديرة الحصينة (الربط الحصينة) التى لعبت دوراً مهماً فى الصوفية فى المغرب إلى تأسيس رباط المنستير فى عام ٧٩٦ م .

ومع ذلك فقد كانت هذه المدارس تمثل تعاليم الشيخ فقط ، وكان لها تأثير فلسفى محدود ، ولكنه شديد الرهافة ، لذا فلعدة قرون كانت هذه المجموعات تتفرق عند موت الشيخ ولم تكن كتلك الطرق المحددة التى نراها الآن ، ولكنها كانت مجرد مجموعات من التلاميذ تجتمع حول أستاذ محبوب ومحترم وتتفرق بعد موته . لقد كان رباط الولاء شخصياً ، فقد تجمعت حول الغزالى مثلاً مدرسة لم تعش بعد وفاته ، ولم تظهر حتى أوائل القرن الثالث عشر واحدة من هذه المدارس ، بينما تطورت القادرية - بعد

(١) D.B-MacDonald, Muslim Theology, Jurisprodence and Constitvtional Theary, p.177.

خمسين عاما من وفاة عبد القادر الجيلاني في عام ١١٦٦م - إلى طريقة لتخليد النفس صممت ليس فقط لمواصلة التدريس بل اسم ودستور الشيخ عبد القادر .

وقد ينسب ^(١) مريدون بارزون إلى زعيمهم ويدخلون الآخرين في الطريقة وكأنها من الشيخ المتوفى ، ويكف الشيخ عن تدريب مريديه مباشرة ، ومن ثم تتطور عبادة جديدة حول شخصه ، وهذا مظهر واحد من مظاهر التحول . أما المظهر الآخر فهو في قوام هيكل المواليين ، ويكرس الدراويش المريدين أنفسهم للزهد وواجبات الطريقة ، وتوسعت العضوية الآن لإعداد المريدين الذين أخذوا الطريقة من الشيخ أو خلفائه مع السماح لهم بمواصلة واجبات الحياة العادية ، وأصبحت الطريقة بهذا التوسع في العضوية نوعاً من الطائفة الدينية الخيرة .

وأصبحت مثل هذه الطائفة تسمى بالطريقة ، وهي الكلمة التي صارت تعنى فيما بعد النظام المحدد للتدريب الروحي المنسوب لمؤسس الطريقة ، ويفترض أن تكون كل طريقة قد انحدرت عن طريق سلسلة متصلة ، وبإمكان المريدين تقديم إسناد أو تابع روحي من النبي خلال على أو أبي بكر إلى الشيخ الحالي للطريقة ؛ لذا فالشيخ يعتبر أنه الوريث الروحي للمؤسس الأصلي ، ويستمد سلطته من جده المباشر ، ولا تقصد هذه الطرق أن تحل محل المنظمة الدينية الإسلامية التي يعتبرها المتصوفة بأنها رخصة ضرورية للضعف الإنساني ، كما أنها ليست طوائف لأنها تعتبر تقليدية وتختلف فقط في التنظيم والأسلوب والتدريب والشعيرة ، وليست في المذهب ، ولكنها مراكز للتطور الشديد للحياة الروحية تحت إرشاد شخص حظى بمواهب خاصة . وهم - مع ذلك - ألفوا جماعة سرية داخل الإسلام ، وأدخلوا نظاماً لتسلسل هرمي غريب عن الإسلام الفطري . إن السمة المميزة للدراويش هي الفقر الإرادي ، وتمضي حياة العزلة في الصلاة والتقشف ، غالباً في الحماسة التبشيرية ، ولكن ليست في كبح النفس عن الشهوات أو الطهارة ، وقد سار موازياً لهذا تطور عبادة الأولياء كدين للجماهير ، بينما استمالت الصوفية الخالصة المثقفين ، ومع ذلك لا يمكن رسم خط فاصل بين الاثنين . لقد قدمت الصوفية حياة فلسفية قامت الطرق بتبنيها لتناسب حياة الجماهير ، وتم تدريسهم بأن الله منح كل نفس إمكانية الاتحاد معه ، ولكن لأن ذلك لن يتحقق طبيعياً بغير هداية شخص أضيئ بنور المعرفة ، ويجب أن يلحق المريد نفسه بمثل هذا الشخص مرشداً أو شيخاً ، ويبدأ كتاب التيجانية « السر الأبحر » ب : سبحان الله الذي أعطى كل شيء مقصداً ، وجعل الشيخ وسيلة التوسط للاتحاد مع الله .

(١) انتسب أو إئتّم أو تسم.

وحتى القرن الثالث عشر لم تكن تلك المؤسسات قد ربطت نفسها مع الغرض المحدد لحمل اسم ونظام حياة المعلم ، ولكنها عندما بدأت قامت بتطوير حياة نشطة وتضاعفت بسرعة كبيرة ^(١) . وبرغم أن كل الطرق تدعى في الوقت الحاضر أنه قد أسسها المتصوفة الأوائل المشهورون من أمثال ابراهيم بن أدهم (توفي عام ١٦١هـ) وأبو زيد البسطامي (توفي عام ٢٦١هـ) وقد ألغيت هذه الأنساب فيما بعد ، أما الطرق المبكرة المؤكدة التي ما زالت باقية فهي القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦م) والرفاعية التي بدأت في البصرة بزعامه أحمد الرفاعي (توفي عام ١١٨٢م) والسهروردية المنسوبة إلى ضياء الدين نجيب السهروردي (توفي عام ١١٦٧م) وقد أسسها ابن أخيه شهاب الدين (توفي عام ١٢٣٤ / ١٢٣٥م) ، والبدوية لأحمد البدوي (توفي عام ١٢٧٦م) الذي يوجد مزاره في طنطا ، وهو واحد من أكثر الأولياء شعبية في مصر ، ونقشبندية تركستان التي أسسها محمد بهاء الدين النقشبندی (توفي عام ١٣٧٩م) والشاذلية المنسوبة إلى أبو الحسن الشاذلي (توفي عام ١٢٥٨م) والمولوية « الدراويش الدوارين » التي أسسها الشاعر الفارسي الشهير جلال الدين الرومي (توفي عام ١٢٧٣م) ، وقد انتشرت من آسيا إلى إفريقيا ، وتتغير أهدافها بشكل كبير على مر الأيام لتتلاءم مع احتياجات البربر والإسلام الإفريقي .

كما ميز هذه الفترة النمو الكبير للمراكز الصوفية غير المتخصصة . ويذكر المقرئزي قائمة طويلة للزوايا والربط والخوانق في مصر في زمن صلاح الدين الذي أسقط الإمبراطورية الفاطمية وخلفاءها وهي فترة تأثيرها الكبير ، وكان أول خانقاه في مصر هي دار سعيد السعادي ^(٢) الذي عين له وقفاً في عام ١١٧٤/٧٣م ، وقصده أنه أن يكون بيتاً لإقامة المتصوفة المغتربين ، ولكنه سرعان ما فقد صفته وتطور إلى مركز رئيسي للصوفية المصرية ، وكان رئيسه يحمل لقب شيخ الشيوخ ، ذلك الاسم الذي سرعان ما توسع ليطلق على رؤساء الخوانق . وقد وصف ابن بطوطة العديد من هذه الخوانق ونظمها في وقت زيارته لمصر في عام ١٣٢٦م ^(٣) ، وقال إن الفقهاء فيها إيرانيون في المقام الأول ، ولم تكن الخوانق قد خصصت حتى الآن لطرق بعينها وبقيت مستقلة حتى ظهور الشيخ البكري في عام ١٥٥٠م كرئيس لكل الطرق .

(١) إن التكوين المحدد للطرق هو مثال للطريقة التي تأسس بها الإسلام (أي السني) الذي استوعب العوامل الأخرى ، وهكذا تفادى الانقسام ، وتطورت الطرق الصوفية نتيجة لفشل الحركات الشيعية الاجتماعية مثل البويهيين في فارس في عام ١٠٥٥م والفاطميين في مصر عام ١١٧١م ، وامتصاص هذه الطرق لأية نظريات شيعية .

(٢) الخطط (طبعة ١٢٢٤هـ) ج ٤ ص ٢٧٣ - ٢٠٦ .

(٣) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٢٩م) ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ هناك أيضاً مراجع أخرى عديدة عن خوانق الصوفية في دمشق ، والزوايا في خسروان وكاورستان وظفر الحمود التي خصصت لشيوخ بعينهم .

ولن تبرز الآن ابدأعلى نحو محدد أية طريقة جديدة ، وسيتشاجر في الغالب أبناء أو خلفاء الولي بشأن الخلافة ويستقلون بأنفسهم ، ومن ثم تضعف الطريقة الأم وتصبح لامركزية ، وقد يبرز في بعض الأحيان ولي ذو مواهب بارزة من داخل الطريقة ويؤسس طريقة خاصة به بموافقة ومباركة شيخه القديم ، ثم يقوم بإرجاع نسبه إلى المؤسس الأصلي للطريقة ، وكما يقول أبو الفضل « إن أية روح مصطفاة - كانت في حالة تقشف روحى وكبح للشهوات ومتعبدة - قامت بإدخال محرك جديد للسلوك وقام أبناءها الروحيون على التعاقب بالمحافظة على مصباح العقيدة مضاء يتم الاعتراف بها كمؤسسة لخط جديد،،^(١)، ثم يصبح فرعه منظمة جديدة مستقلة ذات صلة روحية حميمة مع الطريقة الأم .

و تعاليم الطرق ليست مهمة جداً . إن أهم شئ هو الرباط بين الشيخ (أو المرشد) وبين المريد . بالنسبة للشيخ لا يوجد هناك ما يمنعه اذا ما أراد أن يأمر المريد بالكف عن الإيمان بالله . وتتشابه جداً تنظيمات الطرق ولكنها تختلف في التفاصيل الثانوية مثل المراتب والابتهالات والطقوس ، وفي بعض الأحيان في الإشراف والمسعى . ويوجد في القمة الشيخ ذو الكرامة الوراثة ، ويأتى بعده مباشرة الخليفة أو النائب ، ثم هناك في بعض الأحيان النقيب أو رئيس الذكر . ويوجد تحت كل خليفة إقليمي قادة محليون (مقدم في شمال إفريقيا ومرشد في إيران وشيخ في مصر) ، وهم الذين يسجلون ويدخلون الأعضاء الجدد وينهمكون في الدعاية والإدارة والذي يخضع لهم الدراويش^(٢) والإخوان الذين في طور الإعداد . إن الدراويش أو الإخوان المبتدئين غالباً ما يسمون في السودان بالفقرا والتلاميذ ، ويشكل هذا قسماً صغيراً فقط من عضوية الطريقة ، وتتفاوت مصطلحات وظائف المسؤولين بين مختلف الطرق ، ويمكن تسجيل كل طبقات العامة كإخوان في طور الإعداد أو كأعضاء منتسبين ، ويواصل هؤلاء حياتهم العادية وأسلوب حياتهم ، ولكن كلهم خاضعون لإرشاد الشيخ والخليفة ويتلقون تعليماتهم ويشاركون في الذكر . وبعض الطرق كانت تقبل النساء في عضويتها ولكنهن اليوم عضوات منتسبات فقط ، وتؤلف طبقات معينة أو نقابات أو إقليم أو قبائل طرق مستقلة ، وكان في السودان ميل لتشكيل مجموعات قبيلة .

٣- دخول الطرق السودان

لم يتأثر إسلام السودان خلال فترة الفونج من مصر فقط بل ومن الحجاز أيضاً، مما أعطاه اتجاهات مختلفاً استمر حتى اليوم . لقد كان من السهل الوصول إلى الأماكن المقدسة ، ولعب الحج دوراً بارزاً في عملية جذب السودانيين ليكونوا على اتصال مع مركز الإسلام ، وتم بعض العلماء ورجال دين من مكة بالهجرة إلى مملكة الفونج ، كما درس العديد من السودانيين في مكة والمدينة ، وقدم هؤلاء الرجال

Abu, I fadl Allami, A, in-i-Akbari, tr.H.S.Jarret, iii, 357

(١)

(٢) يعتقد أن كلمة درويش (دراويش) جاءت من الفارسية بمعنى : يبحث عن الأبواب ،،

للسودانيين المسلمين اسماً نوعاً من الإسلام يستطيعون فهمه واستيعابه ، كما جلبوا إلى الشعب البربري درجة مقبولة من الثقافة .

وكانت أهم نتيجة لهذا الاتصال مع الأماكن المقدسة أنه قدم للسودانيين ديناً حياً ذا مظهرين لعملية واحدة : تأليه الولي والطرق الدينية . ولم تنظم هذه الطرق بالمعنى الذي نعرفها به الآن ، إذ قدم إلى السودان أفراد من رجال الدين قاموا بتأسيس خلايا إسلامية وأصبحوا موضع احترام وسلوكوا أتباعهم في الطريقة الصوفية التي يتبعونها ، ولكن نسبة لأن صوفية ذلك الزمان كانت في أدنى درجات انحدارها ، لم تكن في أفضل أشكالها بل أكثر أشكالها انحطاطاً - فقد تجسدت في شكل عبادة قوى غامضة تأسلت الآن في شكل « البركة » ؛ لذا فقد كان إخلاص الشخص والتبجيل المذل للشيخ أهم شيء .

ورغم أن حشد الخرافة يأتي بنوع منحط من الصوفية فإنه أتى بتوهج وورع وحيوية أنجبت اتصالاً طويلاً للمريد مع الزعماء الروحيين في العراق والحجاز . وتساعدنا التراجع الغزيرة في الطبقات على فهمهم ، كيف أن تدريسهم وتفوذهم قد أثر على البلاد ، لقد وجدت تربة خصبة وسط القبائل المستقرة في السودان واكتسبت بسهولة قلوب الجماهير المتخلفة فكرياً بتعبدهم المتحمس والاتجار بالمعجزة ، بينما أصبح العديد من خلفائهم - سودانيين الآن - مرشدين ذوي نفوذ عند ملوك وأمراء الفونج ، ليس فقط في المسائل الروحية بل وفي الشؤون السياسية أيضاً . وطلب في الوقت ذاته عامة الناس شفاعتهم ليس فقط عند الله ، بل وعند حكامهم أيضاً ؛ لأنهم الوسائل التي بها تعبر الجماهير عن رأيها . وهم يتمتعون أثناء حياتهم بالعطف الملكي وتوقير الناس ويصبحون بعد موتهم شفعاء عند الله ، ومقابرهم أماكن يحج إليها الناس .

كانت هناك مرحلتان رئيستان لإدخال الطرق ، وتقول التقاليد المبكرة التي وصلتنا إن الشاذلية جاءت إلى السودان قبل سقوط مملكة علوة عن طريق صهر الجزولي المسمى شريف حمد أبو دنانه الذي استقر بضاحية بربر في عام ٨٤٩هـ (١٤٤٥م) ، واستمر خلفاؤه في ممارسة الخلافة حتى اليوم .

ويقال إن تاج الدين البهاري هو أول من أدخل القادرية (حوالي عام ١٥٥٠م) من مركز الطريقة في بغداد وعاش في وادي شعير في الجزيرة لمدة سبعة أعوام ، وقد عين عدداً من الخلفاء ، من بينهم محمد الأمين بن عبد الصادق مؤسس فرع صادق صديق السوكي وبيان النقا الضرير مؤسس اليعقوباب^(١) ، والشيخ عجيب عبدالله جماع نائب الملك في قرى وعبد الله دفع الله العركي مؤسس العركيين (الذين تحولوا فيما بعد إلى السمانية حوالي عام ١٨٠٠م) ، وكان هؤلاء الرجال زعماء دنيويين وروحيين لأسر ، واستمر خلفاؤهم يشغلون الوظائف في الجزيرة حتى اليوم . وهكذا ولد الأعضاء في

(١) يأخذون اسمهم من ابنه الأكبر يعقوب .

الطريقة ولم يتلقوا أى شعائر أو طقوس لدخولهم فى الطريقة ، وقد اعتبر أول شيخ فى المجموعة الولي الحامى لهم والذي انحدرت بركته إلى خلفائه .

كما أعلن المحسى إدريس بن الأرباب (١٥٠٧ - ١٦٥١ م) أنه أول خليفة للقادرية فى السودان ، ومن المحتمل أن تكون الفوضى قد جاءت من حقيقة أن عمل الطريقة لم يتمركز فى ذاك الوقت كما لم يتمركز الآن . وإدريس بن الأرباب هذا هو واحد من أشهر الأولياء فى السودان ، وتوجد قبته فى العليفون وهو مكان مهم للزيارة ، كما قدم فى عهد بادى بن رباط (١٦٥١ - ١٦٨٩ م) التلمسانى المغربى إلى الشيخ محمد ابن سوار الذهب وأدخله فى طريق الصوفية .^(١)

وحققت الشاذلية بعض النفوذ خلال عهد الفونج عن طريق خوجلى عبد الرحمن (توفى عام ١٧٤٣م) ، وهو محسى ولد بتوتى ، وكان فى بادئ الأمر قادرياً ، ولكنه انضم للشاذلية عندما ما كان فى مكة . ونقرأ فى الطبقات « أما أصل طريقته فالأساس قادري والأوراد شاذلية ؛ لأن شيخه كان تلميذ الشيخ محمد الناصر شاذلياً » (٢) ، ..

وبدأت فى الشمال الطريقة المجذوبية (منشقة عن الشاذلية) فى أوائل القرن الثامن عشر بمحمد بن المجذوب (١٦٩٣ - ١٧٧٦ م) الذى انضم إلى الشاذلية فى مكة ، وقد أصبحت أسرته قوية جدرة بالاعتبار فى منطقة الدامر .

ولم تكن هذه الطرق متماسكة - عدا المجذوبية - ، إذ كان القصد منها أنها مدارس دينية فقط ، وهذا ما نشاهده من روايات الطبقات . وكان التنظيم الدينى الإسلامى فى السودان فى هذا الوقت « مسامياً » ، وكانت زاوية الفكى نوعاً من الخلية الرهبانية ترعى الثقافة الإسلامية الجديدة فى بيئة وثنية ، وتم تدريس « الطريقة » بشكل مستقل بفقرا كثفوا عملهم فى الزاوية حيث أسرهم وعبيدهم وخدمهم وتلاميذهم ، وحيث يجد المسافر والحاج فى تلك الزاوية الراحة والضيافة ، وامتدت بعيداً جداً فى بعض الأحيان قداسة مؤسس الزاوية ، واحتشد الحجاج لتلقى بركته . وقد أدى هذا الارتباط برجال الدين إلى تجمع الموالين فى القرى^(٣) أو المناطق تحت خليفة أصبحت وظيفته وراثية ، رغم أنه ليس من الضرورى أن يكون منحدرًا من الابن الأكبر .

وقد ذهب فى بعض الأحيان السلطة الدنيوية إلى واحد من الأبناء ، والسلطة الروحية إلى ابن آخر . ويقوم فى الغالب زعيم الطريقة بتعيين الوريث قبل وفاته ،

(١) الطبقات . م ٤ ، ص ٥

(٢) نفسه . م ٧٤ ، ص ٧٧

(٣) جذبت تقوى إدريس بن الأرباب المحس من دنقلا إلى منزله فى العليفون التى أصبحت الآن من أكبر القرى فى مديرية النيل الأزرق .

ويؤدى فى الغالب الفشل فى ذلك إلى منازعات بين الورثة وانشقاق فى الطريقة ، وتعطينا ترجمة على النيل سرداً لمثل هذا العزل الوصائى :

ولما بنت الوفاة قيل له : من الخليفة بعدك ؟ قال : راعى البقر . يعنى الشيخ الجنيد ، وهو أمى لم يخط ولم يقرأ ، بلا رعاية البقر ما عنده شئ . ولده شرف الدين حاضِر وهو حافظ وعالم وأخوانه وأولاد محمد الشيخ الصافى ومصطفى حفظاً وعلماً قالوا : الشيخ على أعلمنا وأعرفنا بالله ، ان كان ما رأى فيه صلاح ما ولاه . وقال لهم : الولي يرشد مدير من الدنيا ومقبلاً جابوه له عصره على صدره وبطنه . وقال : يقعد فوق سجايتى ويمسك سبحتى العندى عنده .^(١)

وكان الشيوخ أقوياء فى الجزيرة فى عهد الفونج ، وتم احترامهم بشكل كبير ودعمهم ملوك الفونج ، والتمسوا الشفاعة منهم ومؤاخذتهم مع الإفلات من العقاب ، ونقرأ عن الشيخ ابن بان النقا (١٦٨١ - ١٧٧٣م) الذى أخبرنا أنه « ثالث الخلفاء الاوقدوا نار الشيخ عبد القادر الجيلانى فى بر الفونج » أى « شاطرته السلطة فى ديار البحر والمطر » ، وأنه « قسمها على الناس مثل الوليمة » ، وكذلك سلطة الشفاعة عند الملوك ، فنقرأ عن حمد بن المجذوب (توفى عام ١٧٧٦م) أنه « أعطاه الله القبول التام مع الخاص والعام كان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين ، وجعل لا ترد له شفاعة ومن رده يُنكب سريعاً ».^(٢)

كما منح بعض هؤلاء الشيوخ سلطة رموز الفونج ، ونقرأ عن دفع الله بن الشيخ محمد أبو ادريس :

فجاء الشيخ محمد ولد داوود الأغر من ود عجيب وجاب اليه الككارة^(٣) والرايات وجبه حبيب الله العجمي^(٤) وكوفيته وحر به عبد الله العركى ام كرشه التى فيها الاسماء وقال له : هذه الآله وضعوها عندى ابواتك ، وقالوا لى : اذا كبر دفع الله اعطيه اياهن . ذا الحين خذ أمانتك.^(٥)

وكانت المرحلة الثانية نتيجة لأحداث خارج السودان ، فالفترة الراكدة التى كان يمر بها العالم الإسلامى قد بدأت فى التغير ، وبدأت حياة جديدة مع مستهل القرن التاسع عشر ، وكانت هذه المرحلة أساساً رد فعل للتوسع السريع للدول الأوربية داخل

(١) الطبقات . م ١٢٤ ، ص ١٤٢ . قارن أيضاً قصة مدني الناطق بن عبد الرحمن وهو يتحدث من القبر ص ١٤١ أعلاه

(٢) الطبقات . م ٧ ، ص ٧٥

(٣) جمع ككر .

(٤) كان حبيب الله ابنا لتاج الدين البهارى

(٥) الطبقات . م ٨ ، ص ٨٧

الأراضى الإسلامية ، وكانت الوهابية فى الحجاز قد بدأت تشتد ، ومن خلال طهارتها وحركة العودة إلى الاسلام الأصلى قد كثفت الخلافات الدينية داخل الإسلام وعدم تحمل التدخل الخارجى . وهاجمت الوهابية تأليه الأولياء والخرافات وأدت إلى تأكيد الخلافات بين الطرق الدينية ، وبرزت إلى الوجود طرق جديدة مليئة بتجديد الحماس التبشيرى ، بينما فقدت الطرق القديمة - التى كان العديد منها قائماً فقط باسم المدارس الصوفية - قدرتها على الاحتمال وقدرتها على الإصلاح المعتاد ، وتحولت القادرية إلى قوة تبشيرية وفعالة فى كل أنحاء افريقيا ، ومع ذلك لم تحقق أبداً أى تماسك ، وأدخل الطريقة السمانية السودان عام ١٨٠٠م أحمد الطيب البشير الجموعى الذى كان يدرس فى المدينة عند محمد بن عبد الكريم السمانى ، وكسب فى وقت قصير مجموعة من الأتباع وسط الجموعية والكواهلة والحلاوين فى الجزيرة .

أما الرجل الذى أثر فى السودان أكثر من أى شخص آخر رغم عدم دخوله السودان أبداً فهو السيد أحمد بن إدريس المعروف بالفاسى (توفى عام ١٨٣٦م) ، وهو صوفى فذ ومصلح دينى ^(١) تأثر بالإصلاحات الوهابية ، وكانت النتيجة أن نشاطات أتباعه كانت ذات صفة تبشيرية وسط كل من السكان المسلمين والوثنيين . ورغم أنه أسس الطريقة الإدريسية التى ما زالت نشطة فى السودان فإنه أثر عليها أساساً لكونه معلم الرجال الآخرين الذين أسسوا أو أدخلوا الطرق إلى السودان ، وكان أهم هؤلاء الرجال :

١- محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦ - ١٨٣٢م) الحفيد العظيم لمؤسس المجذوبية ، وقد درس على أحمد بن إدريس عندما كان فى المنفى فى مكة ، وعند عودته الى السودان أعاد إحياء طريقته ووسعها فى الشرق وسط البجة .

٢- الشيخ إبراهيم الرشيدى (توفى عام ١٨٧٤م) وهو شايقى من أسرة مؤسس الطريقة الرشيدية الجزائرية ، وحمل تقاليد استاذة الداعية أحمد بن إدريس وأسس الطريقة الإدريسية فى السودان من بين أماكن أخرى.

٣- محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٢ - ١٨٥٣م) الذى قام بعدة رحلات تبشيرية فى السودان وأسس طريقته - الميرغنية أو الختمية - فى الشمال والشرق حيث انتشرت بسرعة عن طريق الأسرة الكبيرة لمؤسس الطريقة .

(١) يقول كاتب سيرته « لم يكن اهتمامه محصوراً فى الأوراد والذكر ، وفى حث الناس على إغلاق أنفسهم وعزلها عن الناس ، قد تكون مثل هذه الممارسات فى صالح التطور الشخصى للفرد ، ولكنها غير مناسبة بالنسبة للهدف الأسمى الذى يهدف اليه ، أى وحدة العالم الإسلامى وتوحيده فى رباط الإسلام . لقد صدم عندما رأى كيف : أنهم مختلفون فى آرائهم ، وكيف انفصمت عرى وحدتهم واضطربت شئونهم المشتركة . لقد أرسله الله مجدداً لهذا الدين الحنيف سالكاً طريق الحديث الشريف الذى رواه أبوداود فى سننه والإمام أحمد فى مسنده » يقوم على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة دينها . »

كما كانت الطريقة الأخرى التى دخلت من مصر إلى بربر قبل المهديّة بوقت قصير هى التيجانية التى جاء بها محمد بن المختار (توفى عام ١٨٨٢م) المعروف بـود العلية ، وقام فيما بعد أشخاص من غرب إفريقيا مثل عمر جانبو من الهوسا بنشر الطريقة فى دارفور وكردفان .

ونذكر شاتليه إن الطريقة السعادية ^(١) المصرية – السورية (فرع من الرفاعية) والرحمانية (فرع من الدرغاوية) وبدوية أحمد البدوى بطنطا والبرهامية أو دسوقية إبراهيم الدسوقى دخلت السودان خلال هذه الفترة ، وقام مؤسس الرحمانية محمد بن سعود بن عبد الرحمن (توفى عام ١٨٧٥ م) ببناء زاوية فى مكة ١٨٥٧م ، ثم قام فيما بعد بالتبشير على طول الساحل الجنوبى الغربى للبحر الاحمر من سواكن حتى مصوع حيث استقل خليفته أحمد الهجونى الغفرونى ، وأنشأ (الغفرونية) . وقد اختفت من السودان بعض هذه الطرق المصرية التى كانت مكونة من مجموعات صغيرة من الأتباع المصريين ساكنى المدن .

وكانت الطريقة الأخرى المولودة فى السودان – عدا المجذوبية – هى الطريقة الإسماعيلية التى أسسها إسماعيل بن عبد الله (١٧٩٣ – ١٨٦٣م) فى الأبيض بتصريح من شيخه محمد عثمان الميرغنى ، وقد انتشرت بشكل أساسى فى كردفان .

وقد كانت روح كل هذه الطرق متباينة ، وكانت الطقوس مجرد فعل أعمى للخضوع للشيخ ، وكان الهدف الأكبر هو زيادة سلطة الطرق بزيارة أعضائها وحركية التنظيم، وكان ذروة روح الرجعية فى السودان هى انفجار المهديّة .

وقد شجع محمد على هذه الطرق خاصة المصرية منها بعد الغزو التركى – المصرى، وتم الاعتراف بوجودها القانونى ^(٢)، وتم فى مصر وضع كل الطرق تحت إدارة شيخ الطرق برئاسة الشيخ البكرى ، ومن ثم تم وضعها تحت سيطرة مركزية ، وقد امتدت سلطة هذا الشيخ إلى السودان التى لم يكن لها شيخ طرق خاص بها ، كما هى الحال فى بقية أجراء الإمبراطورية التركية ، بل كان له نفوذ ضئيل على المجموعات التى تأسست ، التى كان كل همها منصبا على الولاء الشخصى لشيخ الطريقة . وعلى العكس من ذلك لم يكن شيخ الطريقة يعمل فى مصر فقط كوسيط بين السلطات والطرق فيما يتعلق بأمور مثل الأوقاف والمشاركة فى الإحتفالات القومية والعامّة، واستخدام المساجد ، ولكنه أصبح بالتدريج يدعى لنفسه السلطة العامة ^(٣) .

(١) Chatelier, l'Islam au xix^e s, ecle, p.90-1

قد تكون المهديّة أزالّت الطريقة من السودان ؛ لأننى لم أسمع أبداً عن أى عضو من أعضائها
(٢) يسرد على مبارك (الخطط الجديدة جـ ٢ ص ١٢٩) قائمة طويلة بالطرق التى كانت نشطة فى مصر فى عام ١٨٨٨م .

(٣) خلف السيد البكرى والده فى عام ١٩٤٠م، وهو خريج كمبريدج ، وله وجهة نظر غربية وكان والده من أنصار المدرسة القديمة .

وأدى اعتراف الحكومة الجديدة بهؤلاء الشيوخ لأن يصبحوا أثرياء وأعضاء محترمين في المجتمع وقادة ملائمين للشعب تحت الحكم الأجنبي ، ومن ثم فعندما رفع المهدي رايته في الجزيرة أبا قاموا كلهم - عدا المجذوبية - بمناصبته العداء في دعاواه التي أدركوا أنها تهاجم سلطتهم بعنف .

ولم يكن الناس في المناطق التي كانت فيها الطرق قوية على استعداد لقبول نوع من الإيمان يلغى إيمانهم الراسخ في الأولياء ، يستبدل به الإيمان بالله والمهدية فقط ، ولكن بمجرد أن تأكدت مهديته بنجاحاته العسكرية حولوا عن طيب خاطر إخلاصهم إليه . وكان أول تأثير لسيطرة المهدي هو أن كل الطرق الغيت لأن الزعماء أنكروا ادعاءاته ، فالشيوخ إما انضموا إلى المهدي أو عارضوه أو فروا من البلاد ، وكان المهدي نفسه في البداية شيخاً للسمانية ، ونفى كل ما اعتقد أنه يؤسس طريقة ، وذلك بتغيير اسم أتباعه ، ويستهل إدارته الجديدة بقوله «إن أنصاره مساوون للأولياء» ، ويكتب في رسالة إلى شيخ الإسلام «أبلغني النبي أن أصحابك كأصحابي ، وأن العامي التابع لي كرتبة عبد القادر الجيلاني» .^(١)

وبعد إعادة الفتح عاد شيوخ الطرق إلى السودان مع الاعتراف الرسمي ، وسرعان ما استعادوا ولاء الناس الذين كانوا على اتصال بهم عن طريق الولاء الشخصي ، عدا في أجزاء محددة في مديرتي النيل الأبيض والأزرق ، حيث تشبث العديد بالمعتقدات الخرافية في ابن المهدي .

وبرغم أن بعض الطرق مثل السمانية وبعض فروع التيجانية معادية للأوربيين فإن أكثر الطرق السودانية قوة كانت حتى وقت قريب محابية للحكومة الحالية . وهناك تنافس ومعارك كبيرة داخلية بين الطرق ، فزعماء الميرغنية يعارضون المهدي وساندوا بريطانيا بشكل كبير في إعادة الفتح ، وحتى الآن فالعداء بين الميرغنية والمهدية ما زال شديداً ، وهي لأسباب سياسية صرف وليست لأسباب دينية ، وتعتمد مواقف الطرق بشكل كلي على موقف الشيخ ، وبالطبع فإن الموقف المضمون لا يشجع على التعصب ، ورغم أن هذا الموقف يلهبه مصالحهم الخاصة ، وليست بسبب أي عطف على بريطانيا ، فقد كان ذا قيمة كبيرة لتطور استقرار الحكم في السودان .

وللطرق معقل قوى وسط الناس ، ومع ذلك فمن المحتمل أن يتناقص بدلاً من أن يزداد في الأهمية في المستقبل ؛ لأن التصورات الجديدة للإسلام إمالامبالية أو معادية لها ، ففي الدول التي كانت تحت النفوذ الغربي لمدة طويلة تناقصت هذه الطرق بشكل

Wingate, Mahdism, p.48

(١)

كبير . والعلماء التقليديون ليسوا أقل عداء لهذه الطرق من الأشخاص ذوى الآراء العصرية ، وليس من الحكمة أن تقلل من شأن قوتها لأنها - وليس الإسلام الرسمي - هو النصير المنظم للحياة الدينية السودانية .

٤- منهج التنظيم

هناك اختلافات بينة في تنظيم مختلف الطرق ، إذ إن المصطلحات الفنية والنفوذ وسلطة الموظفين تتباين بشكل كبير ، ولكن يمكن الإشارة إلى بعض الخطوط العامة ، فعلى رأس كل طريقة شيخ هو الوريث الروحي لمؤسس الطريقة ، وهو الذى انتقل إليه الوحي شخصياً وبشكل وراثي ، ويسمى شيخ السجادة ؛ لأنه يرث سجادة صلاة (فروة فى غالب الأمر) مؤسس الطريقة كرمز لسلطته ، وعادة ما يعيش حيث يوجد قبر مؤسس الطريقة . وهكذا فإن رئيس الطريقة القادرية واسعة الانتشار يعيش فى بغداد حارساً على قبر عبد القادر ، وقد تجزأت القادرية فى الوقت الحاضر إلى عدد كبير من الفروع ، وهم عملياً يؤدون له ولاءً إسمياً . والشيخ بالنسبة لأى قادري فى السودان هو الرئيس المحلى (عملياً الخليفة أو النائب) الذى يدعى الولاء المطلق له وليس لشخص منائى فى بغداد . وليست كل الطرق لا مركزية مثل القادرية ، ومن هذه الطرق هناك طرق سودانية خالصة ، فرئيس الطريقة الإسماعيلية يقيم فى الأبيض حيث دفن جده اسماعيل بن عبد الله ، كذلك البشير أحمد جلال الدين شيخ المجنوبية يقيم فى الدامر حيث قبر حمد بن محمد المجنوب ، كما يعيش دائماً واحد من الميرغنية فى الختمية إحدى ضواحي كسلا التى أسسها الحسن بن محمد عثمان ، والتى اكتسبت هبة كبيرة من الأعمال المعجزة لقبر الحسن .

وبما أن الخلافة هى خلافة روحية ، فقد أصبح من غير الضرورى أن يكون الشيخ من أسرة مؤسس الطريقة ، ولكن عملياً فإن المبدأ الوراثة شئ ثابت ، فالمؤسس عادة ما يسمى من يخلفه من بين أبنائه ، رغم أنه ليس من الضرورى أن يختار الابن الأكبر، وفى الميرغنية فكل رئيس إقليمي يعترف به شيخاً للسجادة ؛ لأن البركة تسكن فى كل منهم . إن مبدأ الوراثة سيئ فيما يتعلق بالتوجيه الروحي ، وغالباً مايؤدى إلى عدم الكفاءة فى التنظيم ، إذ تحيط به بطانة من المتملقين المترفين الذين لا يهمهم سوى ما يحصلون عليه ، ولكنه يؤدى مع ذلك لتماسك الطريقة . وفى السودان أدت هبة بعض الشيوخ لأن يصبحوا نوعاً من الشخصيات الملكية ، وأصبح تبجيل الناس الذى لا يرقى اليه الشك مبنياً على الادعاءات الضخمة التى صنعوها لأنفسهم بأنهم ورثة بركة (قداسة) مؤسس الطريقة . وهذه البركة التى انحدرت اليهم من النبى - كما رأينا - أكبر وأعظم من المباركة ، وهى تضم كل القوة الإعجازية والشفاعية للولى . ويحصل

العضو على نصيب في البركة عن طريق أخذ ورد^(١) الشيخ أو خليفته الذي يطلب في المقابل الولاء التام . ويلي الشيخ عدد من الخلفاء الذين قام بتعيينهم مباشرة لتولى المناطق الإقليمية التي منحها « الإجازة »^(٢) التي تمنح في بعض الطرق مع سلطات محددة ، ويمكن منح الورد بتفويض من الشيخ . ولخلفاء القادرية في السودان مزية مبدأ الوراثة ، أي أن تكون السلطة متصلة فيهم سواء تلقوها من الشيخ الفعلي أم لا ، ومن جهة أخرى لا يستطيع خلفاء الميرغنية منح الأوراد ، ومهمتهم تنحصر في إعداد الأعضاء المسئولين عن ترتيب المجموعة الصغيرة أو « الخلوة » ، وعلى كل عشرة أو نحو ذلك خليفة الخلفاء ، وأهم موظف في الطرق المركزية الكبيرة هو الرأس المنظمة – وكيل شيخ السجادة – الذي يدير أملاك الطريقة وينظم المهام الكبيرة ويرسل « فرق الجمع » التي تجمع الرسوم من الأتباع . وقد سببت هذه الفرق الكثير من المشاكل بسبب عدد من الطفيليات التي تربط نفسها بالطريقة للحصول على الضيافة المجانية .

ويتكون أعضاء الطريقة من مجموعتين : الأولى أقلية يفترض فيها أن تكون قد نذرت نفسها كلية للحياة الدينية ولاتباع « الطريق » تحت توجيه الشيخ ، وهؤلاء هم الدراويش المحترفون أو الحيران « في يده مسبحه وفي عيونه علامات الثمل »^(٣) وبعضهم رجال أخذوا الطريقة من الشيخ ودرسوا أوراده وتدريبوا على رعايته الروحية وعاشوا في زاويته وصاحبوه في أسفاره وساعدوا في تنشيط الذكر .

(١) إن أخذ ورد الشيخ فلان هي أخذ طريقته أي حكمه . والورد (مفرد أوراد) هو اصطلاح استخدم لصلوات يومية أو موسمية يقوم المريد الجديد بتكرارها ، والطريقة المعتادة بالإشارة إلى الشعائر أو الطقوس التي يتم بها إدخال الشخص هي « أخذ الطريقة » ، وإدخال الشخص هو « سلك الطريقة » والتلقين هو تعليم الأوراد.

(٢) هناك نوعان من « الإجازة » تمنح الأولى « للدرويش » وتسمح له بالممارسة باسم أستاذه ، والأخرى للخليفة أو « المقدم » وتعطيه سلطة منح الورد أي منح الآخرين حق الدخول في الطريقة ، وتأخذ الإجازة عادة هذا الشكل : " نشهد أن محمد أحمد بن (سلسلة النسب كاملة) الذي أخذ الطريقة من الخليفة مصطفى (ثم يتلو سلسلة الخلفاء حتى مؤسس الطريقة) قد وجد (طه بن ... مع سلسلة النسب) أن مهارته تؤهله لأن يكون مريداً للطريقة ؛ لذا فقد أعطى سلطة التصرف طبقاً لأحكام الطريقة وقد كشفت له كل أسرارها ، ويضع الخليفة ختمه على الوثيقة . ويسرد السير رتشارد بيرتن PilgrimigAppIII ترجمة كاملة لإجازة المرشد كما تقدم الطبقات (ص ٢١ - ٢٢ ، م ٢٢) جزءاً من إجازة منحها ابن جابر في عام ١٥٧٤م إلى واحد من تلاميذه كما يلي " الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين ، أما بعد إن الأخ الفقيه الشيخ المحترم المتأدب المتواضع الشيخ إبراهيم بن أم رابعه استحق السيادة والإمامة عندي فجعلته قطباً في مكانه ولساناً في عصره وترجماناً في أوانه مريباً للمريدين وقُدوةً للمستترشدين وملجأً للفقراء والمساكين ، مظهر شمس العارف بعد غروبها فأذنته في كل ما حققه ونقله وسمعه مني أن يفشييه ويعلمه الناس . وقد أذنت له بإشهار ما فيها وتشجيع ما أشرنا إليه ، ومن اطلع على ما فيها أو يلفه شيء من ذلك فليحذر كل الحذر من خراب الباطن . » .

(٣) الحريري . المقامة الدمشقية .

أما الدراويش الآخرون فلا يدينون بالولاء لطريقة بعينها أولشيخ حى . إن شيخهم ولى ميت كشف نفسه لهم فى رؤيا ، وضريحه متكرر الوجود . ومثل هذا الدراويش لا يسمى نفسه أبداً درويشاً بل تلميذ الشيخ الفلانى ، أو يقول « إن أبى هو الشيخ فلان » ، لذا فالناس يسمونه ببساطة « ود الشيخ » . وقال لى تلميذ للشيخ خوجلى إنه رأى طيف الشيخ خارج قبته ، حيث قدم له الشيخ بعض « الكسرة » وإن قبوله أكلها جعله تلميذه ، ويكثر مثل هؤلاء الرجال من التردد بجوار ضريح وليهم ، ويحملون الرمال من قبره ويضعونها فى يد المؤمنين الذين يأملون الحصول منهم على مكافأة ، كما تطلق كلمة درويش أيضاً بشكل عام على أى شخص أبله أو ساذج ، وعندما تحدثت فى إحدى المرات مع طفل ضعيف العقل وصفته أمه بقولها « إدروش » ، ولا يعرف أى من هؤلاء الدراويش المعينين ذاتياً أى شئ عن الصوفية ، وهم عادة بلهاء ، وهم وراء نطاق أى مستوى للإدراك ، ويعزى عدم اكتراثهم بالشرائع المألوفة للمسلم العادى والضعف الأخلاقى والفعلى لاستغراقهم فى الله ، وأن أجسادهم غير مسئولة عن أفعالهم . وهناك عدد قليل نسبياً من الدراويش فى السودان لأن الفقرا هم رجال الدين السودانيون المعتادون ، وبينما يحترمهم بعض الجهلاء فهم موضع سخرية ممن تلقوا تعليماً بسيطاً . وليس لبعض الطرق - كالمرغنية - أى دراويش محترفين على الإطلاق .

أما المجموعة الثانية وهى الأكثرية ، فهم جماهير الشعب الذين يحتفظون بأعمالهم العادية وأسلوب حياتهم ، وهم فى الوقت ذاته مخلصون لشيخوخهم ويعترفون بزعامتهم ويشجعون رغباتهم الدينية فى الذكر ، ويطلق على هؤلاء الأعضاء العاديين « أولاد الطريقة » - والخدام (فى الجزيرة) ، و الحيران فى المعنى التخصصى « أصحاب - انصار » ، ومن غير المألوف بالنسبة لهم أن يتحدثوا عن أنفسهم كما نتحدث عن أنفسنا بأننا أعضاء فى المجتمع ، وبشكل مخالف للدول الأخرى ، حيث هناك مجموعات محددة فقط أو طبقة من السكان يتبعون طريقة ، فإن كل المسلمين فى السودان لهم ارتباط بشخص أو بآخر . ومن المحتمل أن يكون مرجع ذلك مستوى المعيشة فى السودان وضعف الدين القويم ، وهناك مناطق أو قبائل معينة تفضل طرقاً بعينها . وتعود أهمية الطرق فى السودان إلى هذه العضوية العريضة وتنافس كل منها فى توسيع نفوذها ، ولا تدرس أى منها الطريقة الصوفية ، فالأعضاء يدرسون « ورد » أو « حزب » طريقتهم كشرط لقبولهم ، ويفترض تلاوته فى فترات محددة فى اليوم ويشتركون فى الذكر الجماعى . ولكل طريقة عدد من « التكايا » ، وليست هذه بالتنظيمات الكبيرة المرتبطة بهذه الكلمة فى الدول الأخرى ، ولكنها ببساطة مكان لتأمين راحة الدراويش والمسافرين ، وكلها تملك زوايا تمارس فيها الأذكار . ويعرف الرئيسى منها بأى الزوايا حيث يتصدرها شيخ الطريقة ، ويمثل هذا للإخوان نوعاً من المركز أو النادى الدينى للأعضاء العاديين . إن وصفها بالنسبة لهم أنها أكثر ذاتية عن المساجد المعتادة التى يدخلونها - إن دخلوها - لأداء صلاة الجمعة ، ويجب ذكر الخلوة أيضاً فيما يتعلق باستخدام الدراويش لها ، إذ إنها مساوية لتصبح « مأوى » ، ولكن أى مكان يكون فيه المرء وحده يسمى خلوة .

أخذ الطريقة : تختلف أساليب دخول الأعضاء فى التفاصيل فقط ، ويسمى الدخول فى الطريقة بـ « أخذ الطريقة » ويسمى فى بعض الأحيان « عهد » ، وفى معظمها ليست أكثر من مجرد البيعة والوعد بأن يكون مسلماً صالحاً وأن يؤدى الصلوات اليومية المفروضة (الأوراد) . إن محور الطقوس هو البيعة التى تعطى بالمصافحة من تحت كم الشيخ ، وهذا الدخول مهم لكل من يتولى منصباً ، ولكن عملياً فإن رباط إدخال الأعضاء ضعيف جداً فى الغالب . ومن النادر أخذ الطريقة ، فعندما يأخذ الأب الشاب طفله إلى الذكر فإن ذلك الطفل يشب فى الطريقة وهو لا يعتبر نفسه طفلاً روحياً لمؤسس الطريقة تماماً بنفس قدر إحساس أولئك الذين تلقوا الطريقة ، ولا هو ملزماً بالإسهام مادياً ، ولكنه يشعر بأنه ينتمى لتلك الطريقة ، وله الحق فى السؤال عن شفاعاة أوليائها وتلقى البركة منهم .^(١)

وقد يكون إدخال الدرويش فى الطريقة أكثر تعقيداً ، ويجب أن يقوم المريد نفسه إلى شيخه الذى يباشر اختيار الحالة الروحية بهدف اختبار ما إذا كان المريد أبله بما فيه الكفاية ليكون مطواعاً فى يده ، ثم يعطيه مبدئياً تعليمات أساسية : كن مع شيخك مثل الجثمان بين يدي مغسلة يقلبه عندما يغسله وهو ممثّل له تماماً^(٢) . وعند إدخاله يقسم بتسليم جسده وروحه للشيخ بمصافحة ملزمة ويرش الماء أو اللبن ويلبس خرقة أو « دلق » ، ويعطى كتاب الأوراد الذى يعد بتلاوته كما صرح له به الشيخ ، ثم يلحق بزاوية ليحيا طبقاً للقاعدة وليصلى ويصوم ويلزم الصمت ... إلخ وهذه هى بداية ونهاية تدريبه .

لا شك أن السبب الرئيسى الذى يدعو الرجل العادى لأن ينضم إلى الطريقة هى إنهاء جزء من إرثه الدينى ، وما يبقيه هناك هو الحياة الاجتماعية للإخاء والمظهر والقناعة التى تجلب لحياته بهذه الطريقة العاطفية - الذاتية طريقة العبادة فى المجتمع ، والأخوة حاجة ضرورية وسط شعب مجرد من الثقافة الفكرية والنقد الأساسى لطريقة العبادة ، أى بينما هى مشبعة ، فإنها ليست مجددة ، ولا تؤدى إلى تحول وتغير فى الحياة .

وتتظاهر أقلية يسيرة من ذوى التعليم الغربى بالاستخفاف بالطرق رغم أن أفرادها يتجنبون بصعوبة شديدة حضور حضرة تقام فى حوشهم .

هـ - المذاهب

إن هدفنا هو فهم الإسلام الحى ؛ لذا فلن نحاول التعامل مع المذاهب الصوفية سوى بالقدر الذى تؤكد فيه على الإسلام السودانى المجود الآن . إن المذهب الصوفى

(١) قيل لى إن العديدين لا « يأخذون البركة » ، لأنهم يخافون أن تقع عليهم اللعنة اذا ما فشلوا فى تنفيذ القواعد .

(٢) من مجموعة نصوص الختمية « منحة الأصحاب » ص ٧٥ . وقد استخدم الغزالي هذا التشبيه لأول مرة وتبنته كل الطرق .

وراء الطرق ، وإلا فإن وجوده سيكون نتيجة لا سبباً ، وهي الوسيلة التي بها تم تخصيص مظاهر حياة الصوفى لاحتياجات الرجل العادى . ومن الصعب استخلاص مبدأ (عقيدة) العديد من الطرق ، إذ لم يتم صياغتها فى صورة متماسكة من الأفكار والمبادئ ، وتتعامل « حقيقة الطريق » مع الاحكام الخاصة بالعلاقة ما بين الشيخ والأتباع ، والأتباع مع الأتباع وإدارة الزاوية والقواعد لتلاوة الذكر والأوراد ؛ لذا فالمبدأ يجب استخلاصه من هذه القواعد والأوراد والقصائد .

فأولاً : تدعى كل الطرق أنها قديمة ، ونظراً لأن علماء الدين التقليديين ينظرون إلى الصوفية بعين الشك ، فإن المقصد الأول لمؤسس الطريقة هو إثبات معتقده القويم وإلا فسيعتبر منشقاً ، ومع ذلك فهذا الأمر فى غاية البساطة ، ويمكن إبرازه على نحو زائف . فيكفى لتجنب الاتهام بالبدعة المساوية للزندقة اتباع طريق صوفى مشهور ، وعندئذ سيرجع كل تعاليمه إلى سلطة أستاذه ، وعلى أولئك الذين نقلوها له من النبى (ص) نفسه ، وهذا هو تسلسل المبدأ (العقيدة) والمستند الذى يسمى « بالسلسلة » ، زيادة على ذلك يدعون الشريعة كنقطة انطلاق للطريق الصوفى وكأساس للارتقاء بالحياة المستقيمة ، ويعبر عن ذلك فى الاقتباس التالى من كتيب الميرغنية الذى قد يماثل كل الطرق التقليدية :

تمسك ياأخى جيداً بالشرعية لأنك إن تقترب من الطريق سوى عن طريق الشرعية
وان إلى مشاهدة الربوبية سوى بواسطة الطريقة . الشرعية هى الجذر تصل
والطريقتهى الثمرة وإن تتوقع أن تجد الثمرة إلا بوجود الجذر والفرع ، وإن يوجد
الفرع سوى بوجود الجذر . من يخلص للشرعية لا يتبع طريق الفساد ومن يتبع
الطريق ولا يخلص للشرعية فهو زنديق . (١)

إن الصوفية - كما رأينا - جمعت خلال تاريخها فلسفة غريبة تماماً عن الإسلام . إن عقيدتها عن الله ومحمد والأولياء وعلاقة الانسان بهم لا يمكن توفيقها مع الإسلام القويم . إن الصوفى المعترف به هو عاشق الله ، لذا فإن علاقته بالله علاقة غير عادية ، فبإمكانه أن يفعل ويقول أشياء ستكون تجديفاً إن فعلها الآخرون . ولأن مؤسسى الطرق يعترفون بالمتصوفة فإن كتاباتهم مملوءة بالضرورة ، « بالطريق » الذى نشره كى يتبعه الآخرون ، وكانت النزعة الشخصية لمؤسس الطريقة هى ترسيخ اتجاهها وتأكيداها الذى قد يتراوح ما بين الزهد الصوفى المتطرف ووحدة الوجود .

إن دراسة هذه الكتابات التى تمنح الأسس العلمية للمؤسس والدروس التى تعطى للأتباع خاصة الأوراد والمدايح ، برغم أن البعض يضم دروساً دينية قديمة قد توضح

(١) احمد بن عبد الرحمن . منحة الأصحاب ص ٩٦

سبب إدانتهم من قبل العلماء ، ومن الصعب كما أوضح ر. انيكلسون ^(١) إدانتهم بالزندقة (البدعة) في الإسلام ، حيث يحاكم كل انسان بأفعاله فحسب على أساس التعاليم الفكرية شريطة أن يستمر ، عملياً الأساتذة والموالين في العمل مثل المسلمين العاديين بالعبادة جماعة ، وإذا أتوا ببدع جديدة في الشريعة الدينية ففي هذه الحالة فقط يمكن اتهامهم بالزندقة . ^(٢)

ومن الصعب في هذا المقام أن نقوم بمعالجة كاملة لتعاليم مختلف الطرق ، لذا فسنقوم بإجراء مجرد توضيح للقليل من الإتجاهات العامة ، وتجزم كل الطرق بأنها تملك نظاماً خفياً تم توارثه عن طريق « أهل السلسلة » ، ولكن في كل أنحاء السودان هناك جهل تام حتى بأبسط معانى المصطلحات الفنية للصوفية . ولكي يجعلوا طرقهم مقبولة للجماهير قام الشيوخ بحظر المذاهب التجريدية والتأكيد على الأشكال الصوفية للإخلاص والتدريب الصوفى والواجبات المادية والتدريبات الروحية ومعجزات الأولياء . ورغم ذلك فإن الإنسان قد يسمع في بعض الأحيان حديثاً عقوياً عن « مقامات » أن تكون عاشقاً لله وعن الفناء وأن الشيوخ أنفسهم غير قادرين الآن على فهم الصوفية الحق ، وأريد أنؤكد على أنه بسبب الروايات المبالغ فيها التي قيلت بخصوص تعاليم الطرق في الوقت الحاضر من أنها تماثل تماماً صوفية الماضى العظيمة ، وفي الوقت ذاته لا يمكن للمرء أن يتجاهل تماماً التعاليم ؛ لأن العديد من الأفكار التأملية للصوفية قد توجد في الوعي الفاسد الذى يؤثر على الحياة الدينية والفكرية الشعبية ^(٣) ، ويتصل هذا بالحاجات الخاصة لجماهير المسلمين .

لقد بينا أن التصوف - وهو يعمل ضمن النظام الإسلامى الخالص القائل بوحداية الله - أدى بالضرورة إلى اتجاهين كليهما وثيق الصلة بوحدة الوجود وعبادة الولي . ولأن إله الإسلام المتعال (الكائن فوق الوجود المادى) ، وفوق معرفة البشر ، فإنه لا يمكن أن يكون موضع عبادة البشر؛ لذا فقد تطور في الفكر التصوفى مبدأ اللوجوس الذى يوفر - دون أن يفسد الوحدة الإلهية - الأسس الفلسفية للحب الشديد العملى للنبي والولي الذى قد انبثق بالفعل من حاجة الناس .

Studies in Islamic Mysticism, p.57

(١)

(٢) حيثما يبدأ تأثير زعماء الطرق في أن يصبح مرجحاً عن تأثير العلماء في مكة يبدأ اتهامهم بالزندقة . فالسيد علي بن يعقوب بن المرشدى مؤسس الشاذلية اتهم بالزندقة عام ١٨٨٦م ، وكذلك الآخرون من أمثال الشيخ أحمد بن إدريس الذى أجبر على ترك بلاده ، بينما قام إبراهيم الرشيد بالدفاع عن نفسه ضد تهمة زندقة (حوالى عام ١٨٥٦م) .

(٣) هناك نسخ رخيصة وسيئة الطبع للكلاسيكيات الصوفية مثل ديوان ابن الفارض ، ويستخدم في الإنشاد الذى يقام في المناسبات الخاصة مثل حولية الولي ، ولا أحد يفهمها لأن معظمهم جهلة ، ولكنها تؤدي مفعولها عن طريق الكلمات والإيقاع الهادئ في عالم الأحلام ؛ لذا فإنها تستخدم بالمعنى السحري ، إذ تنزع الكلمات المبهمة نحو هذا الاتجاه ، أما الكلاسيكيات الأخرى فهي أقل صعوبة ، فهي في الغالب شعر هزلى وقصائد تستخدم قبل الذكر لتتناغم المجموعة في نوع من التوافق والانسجام .

ويقول ابن العربي إنه من خلال مبدأ وحدة الوجود «كانت كل الأشياء موجودة قبل الخلق في علم الله من حيث بعثها وعودتها في النهاية»^(١)، وجاء من هذا المبدأ مذهب الوجود المسبق لمحمد وهو مذهب «النور المحمدي»^(٢) الكينونة البدائية في صورة الله وهو أول شئ خلقها الله . إن الكون قد تجلى في ذلك الضوء : لقد تجسد في آدم وكل الأنبياء والقديسين ، كل منهم الانسان الكامل بدرجات مختلفة ، إلى أن تجلت في محمد الإنسان الكامل . ويكتب نيكلسون :

هذه بالطبع عقيدة لوجوس إسلامي تجعل محمداً من بعض الوجوه قريباً جداً من مسيح الإنجيل الرابع والرسالة الإنجيلية لبولس . ويرغم الشبه الكبير فهناك اختلاف - وتوحى بلهجة الرب والتجسيد والكفارة بالثراء اللامتناهي والشخصية المتجانسة حيث يتجه لوجوس محمد نحو اعتبار نفسه شيئاً واحداً مع المبدأ الفعال للظهور في الجوهر الالهي^(٣) .

ولما كان عمل مؤسسي الطريقة تخصيص الفلاسفة الصوفية لحاجات الرجل العادي ، لذا فمن خلال التدريس والكتيبات التعبدية الشعبية للطرق تم امتصاص هذه العقائد الثيوصوفية داخل الدين الشعبي للناس ، ولو بطريقة منحرفة ، ومثل هذه الأفكار أكثر وضوحاً في الإسلام الشرقي حيث أدت إلى الانشقاق ، وقد أتت إلى السودان مع قدوم المولد ، ونقرأ في مولد محمد عثمان الميرغني :

هذا ولما أراد الله أن يبرز هذه العوالم العلوية والسفلية قبض قبضة من نوره فكانت هي محمد بن عدنان . وقال أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر جواباً لمسئلته المحكية . وكنت نبياً وأدم بين الماء والطين عنه لقد بان . وقال صلى الله عليه وسلم لجبريل كم عمرت يا جبريل فقال لا أدرى رواية جلية . غير أن كوكباً يبدو في الحجاب الرابع يا معشر الإخوان . بعد كل سبعين ألف سنة مرة فهذه علامات اجتبائية . وقد رأيته اثنين وسبعين ألف مرة بلا نقصان . فقال صلى الله عليه وسلم تعريفاً بمقامه وأسراره المصطفوية : وعزة ربي أنا ذلك الكوكب الذي رأيته يا

(١) R.A.Nicholson, The legacy of Islam, p.224 لاحظ الأساس الثالوثي لطبيعة الإلهية في ابن العربي Tarjuman al-Ashwag, ed.Nicholson xii,4

(٢) إن مذهب الوجود المسبق لمحمد والذي يسمى أيضاً « الحقيقة المحمدية » قد أعلنت صحتها التقاليد السننية المبكرة (ابن سعد ج١ - ١ - ٩٥ . ابن حنبل ج٤ - ٦٦ - ١٢٧) ، كما يظهر في الكميث (توفي عام ٧٤٢) مع انتقالها إلى أسرة علي ، والحلاج الذي عنده أن المسيح هو الانسان الكامل : المجد له الذي ظهر بشريته وسر ألوهيته المجيدة ، ثم ظهر مرثياً لخلقه على شكل الواحد الذي يأكل ويشرب ؛ لذا فقد وعاه خلقه في رمشة عين .

يشير السطر الأول لآدم والبقية للمسيح ، ونجد أصل هذه العقيدة في نظرية اللوجس عند الأفلاطونية الحديثة .

(٣) Studies in Islamic Mysticism, p.87 ويجب ملاحظة أن مفهوم المسلم عن اللوجس يتجانس مع أريوس Arius الذي علم أن الله واحد ، ومن المستحيل بلوغه قد خلق اللوجس ليكون وسيطه في الخلق . إنه ليس كلمة الله الأبدية التي هي « بالله وكان الله » ، ولهذا السبب فمن الطيش عقد مقارنة بين المفهومين ، فاللوجس في الإسلام لا يمثل شيئاً سوى الضلال وليس عاملاً أساسياً للإيمان .

جبريل في حجاب المنان ، وغير ذلك مما لا تحصره الأقلام في الكتبية ، ولا يسعه في الحقيقة حفظ الكاتبان ^(١) .

ويمكن إدراك أن لهذا التصور أكثر من مجرد كونه إهتماماً أكاديمياً لأن الموالين يسمعون في كل تجمع للذكر ، وهو لا يعنى أن مكان « النور المحمدية » في نشأة الكون الشعبى وسط الناس الذين بالنسبة لهم جفاف وحدانية الله التى يقول بها أولئك الشديديو التمسك بالأساليب التقليدية أمر لا يمكن فهمه ، وهو أشبه باللوجس فى المسيحية . إن الخلق المسبق لمحمد فى كلمات من الواضح أنها مستعارة من إفادات يوحنا بشأن اللوجوس . وتنسب التقاليد إلى محمد مثل تلك الأقوال التى اقتبسها محمد عثمان « أول شئ خلقه الله كان نور النبى » ، وكذلك « أنا نور الله ، وكل الأشياء من نورى » ، ومن الصعب القول إن النبى قد يكون أول من شجب مثل هذه المعتقدات الهرطقية . إن المسيحيين قد دفعوا للاعتقاد بأن الطريق الوحيد الذى يحصلون به على النعمة الإلهية هو عن طريق شفاعته ؛ لذا فإن عقيدة محمد وخلق المسبق تدعيان السيطرة القوية على جماهير غير متعلمة وعن طريق هذه المدائح أساساً - وهى الجزء الأساسى المهم فى أى تجمع - انتشر هذا المفهوم المثالى عن محمد، وقد توحد مع الارتباط التام لعقيدة الإله الواحد . وحكم تمحور محمد هذا فى التصوف الإسلامى المتأخر على المسلمين بالجهل الروحى الحاسم لتطور الحياة الروحية ؛ لأنه حول التأكيد من الحقيقى الى غير الحقيقى .

وأصبح المفهوم أكثر اقتراباً بالنسبة للناس فى القطب ، ويشعر السودانى بالحاجة إلى المعرفة الشخصية لعالم الله ، ويأخذ محمد اللوجوس فى كل عهد شكل ولى حى أو القطب الذى يظهر نفسه للصوفيين الحقيقيين . محمد عثمان مثلاً كان قطب عصره ومن ثم مظهر « النور المحمدى » ^(٢) ، وهو يكمن خلف كل هذه التعليمات كما يلى : «توقع المريد فى المرحلة الأولى الحب ، ونظر إلى الشيخ كائنه الكل فى الكل وتصرف وتكلم وصلى مثل الشيخ وفكر فيه ملياً باستمرار ، وهكذا تحول روحياً بهذه العملية إلى الشيخ . لقد تم تقديم المريد إلى النبى . » ^(٣) . وهذا هو سبب تمركز الصوفية عملياً حول الشخصية المثالية للشيخ .

ويعكس بوضوح تطور مثل هذه النظرية فى الإسلام وانتشارها فى الدين الشعبى حاجة المسلم للتجسيد الحقيقى . إن الاختلاف بين المسيح والانسان الكامل هو

(١) مولد الميرغنى . الفصل الثانى . ويوجد هذا المفهوم فى كل الموالد المستخدمة فى السودان .
(٢) وتعزى سلالة هذه الادعاءات المتطرفة (قارن مدحة جعفر حيث يقول فيها أيضاً أنا أول من وجد) ، والتي يطابقون أنفسهم فيها ليس فقط مع مرتبة القطب الصوفى بل مع لوجوس القطب ؛ لذا فليس من المستغرب أن هؤلاء الزعماء يطلبون ويحصلون من أتباعهم على التبجيل الذى يماثل العبادة تقريباً ، ويكتب جيلى All عن هذا التناسخ فى الإنسان الكامل (نيكلسون . مصدر سابق ص ١٠٥) الإنسان الكامل هو القطب الذى تدور حوله دنيا الوجود من البداية إلى النهاية وهو الواحد أبداً وأبداً ، وله مظاهر مختلفة ويظهر فى أشكال جسدية متعددة : وفيما يتعلق بهذا فإن اسمه يعطى له ، أما فيما يتعلق بالآخر فلا يعطى له . إن اسمه الأصلى هو محمد ... ويحمل فى كل مرحلة عمرية اسماً مناسباً لـ (لباسه) فى ذاك العمر .

(٣) Moslim World, viii, 252-3

الاختلاف بين الحقيقة التي تجذب قلوب الناس إليها وتمنح القوة للفعل في إعادة الخلق والاستبدال التجريدي الذي يعجز تماماً في تأثيره على الحياة .

وبغض النظر عن هذا ، فهناك نوع غامض من وحدة الوجود تكمن خلف ممارسات الذكر كما يمارس في السودان ، ويعد الشخص الذي يصبح مجذوباً : قد فقد وعيه مؤقتاً في الاتحاد الإلهي ، كما تعبر القضية عن نفسها أيضاً في « الملامتية » : إن الرأي المستقيم بالضغط المستمر على كل أنواع التصوف الهرطقي تتأصل باستمرار بالضغط المتواصل لإرجاعها وحصرها في أضيق مجال ؛ لأن الشعب يمتص مثل هذه العوامل بإيمان صادق حقيقي من شيوخهم ، وليس هناك انحراف واع عن الرأي المستقيم . إن ما هو غير قويم هو علاقتهم بشيوخهم .

ويجب أن يفهم أن القيمة الفكرية لصوفية الطرق اليوم سطحية ، وأفكارها ليست بذات قيمة وليست بمستوى أفكارنا . إن محور الطرق ليس التدريس الذي يتم استيعابه بشكل غامض ، ولكنه الشيخ الذي يمتلك البركة المتأصلة فيه .

٦- الشعيرة والممارسة

الذكر : بدأ تطور ممارسة الطقوس في الصوفية في القرن الثاني الهجري وتمركز حول المصطلح الفني « الذكر »^(١) واستخدمت الكلمة في القرآن بمعنى عبادة الله ، ولكنها أصبحت تعني طريقة بعينها لعبادة الله للحصول على الوجد الروحي بالتكرار المستمر لاسمه إما « بالذكر الخفي » أو بالذكر « الجلي » . وللإسلام القويم صلاته التي يؤديها الصوفي إذا ما رغب في أن يعد من المجتمع الإسلامي ، ولكنه يؤمن أن الصلاة منحة لضعف الإنسان ، وأن الذكر هو المحور الحقيقي للممارسة الدينية ، وقد ارتكز علي الأمر القرآني « يأيتها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » (الاحزاب : ٤١) . ولكل طريقة نظامها الخاص للتلاوة والكتيبات التعبدية ، وهي شائعة جداً تعطى مختلف طرق ممارسة الذكر . وكانت الطريقة الصوفية دائماً ما تعتبر من قبل الصوفي الحقيقي بأنها سوقية وأكثر ملاحة لإدخال الأعضاء في الطريقة ، وهناك مجموعتان رئيسيتان للذكر الصامت « الذكر الخفي » المسمى ذكر العبادة الذي يمكن أن يؤديه أي شخص ، والمرحلة المتقدمة جداً لذكر الشخصية كلها ، وفي كليهما فإن الفكرة الصوفية هي بلا شك معاون ذو قيمة للتأمل . لقد انحط الذكر وكذلك الطرق ولكن السودان لا يمكنه أن يترك الطرق الصوفية لينضم إلى سياقات صوفية عقلية . إن الطريقة الصوفية ترضى حاجاته العاطفية وتزوده برباط إضافي أقوى مع العبادة العامة مع الآخرين^(٢) ، وهو يشترك في الذكر منذ صغره ، ويمكن رؤية الأطفال من سن العاشرة فما فوق في الحلقة يقلدون حركات من هم أكبر سناً ، ومع ذلك فإن النظم الهادئة قد مورست في السودان (التيجانية والإدرسية) ، وترضى قطاعات عديدة من السكان .

(١) مرتبطة بالكلمة السريانية (ذكران) التي استخدمها المسيحيون السريان بنفس المعنى .

(٢) حقيقي إن ذكر الأوقات يجب أن يتكرر بعد الصلوات الخمس ، ولكن هذه ميكانيكية مثل الصلاة ، والقليلون يقبلون على تكرارها لأكثر من مرتين في اليوم، وهي تتكون في القادرية من تكرار « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » ٣٣ مرة بمساعدة المسبحة .

وتشتمل الطقوس الدينية المنتظمة في الخلاوى على البدء أولاً بتلاوة « الوظيفة » التي ألفها مؤسس الطريقة ، وقد تتكون من الأوراد أو الأحزاب أو الراتب ^(١) أو المولد – ويعنى المولد هنا ليلة الذكر – ، ويقوم الميرغنية مرة كل عام مولداً بمناسبة ليلة الإسراء والمعراج (ليلة ٢٧ رجب) ، يتم فيه إنشاد قصة المعراج ، وأياً كانت مكونات « الوظيفة » فكلها موشاة بإنشاد أشعار روحية في تمجيد الله أو مدح الرسول أو أولياء الطريقة .

ويتكون الاستعداد الصحيح للذكر من تكرار صيغة « لا إله إلا الله » ، وكلمة الله وصفات معينة مثل « الله حي » ، وهناك اعتقاد قوى في القوة السحرية للكلمات ، ولكل طريقة أساليبها الغربية للترانيم للصلاة وخاصة الذكر . وقد طورت الطرق القديمة في السودان عناصر إفريقية مميزة في ترديد الأغاني والذكر الذي تعتبره الصوفية الشرقية بربرية بكل ما في الكلمة من معنى ، وتدرجياً مع تكرار وتناغم الحركات الإيقاعية يحدث شعور عاطفى قد يجد له مخرجاً في الحركات العنيفة التي تشتد أكثر فأكثر إلى أن تؤدي إلى قصف معربد للانجذاب الصوفى . وكثيراً ما يصاب الذاكرون بغيبوبة ، ويشار إليهم في هذه الحالة بالمجذوب ^(٢) ، ويعتبر السوداني البسيط مثل هذه الحالة الشاذة اتصالاً حقيقياً بالقدسى أو مع الشيخ مؤسس الطريقة ، ويكون الذاكر في حالة الانجذاب هذه بفعل أشياء غريبة كالممارسات التي ذكرها « لين » ، إلا أن الممارسات تعد شيئاً غريباً بالنسبة للسودانى ^(٣) .

ويصحب أداء الذكر ترديد أشعار ركيكة النظم ، والموضوع عادة هو النبى أو مؤسس الطريقة ، بالإضافة إلى موسيقى رتيبة ولكنها ذات طبيعة مثيرة وحادة . ويجب ان يكون مفهوماً تماماً أن الذكر بالنسبة للأغلبية العريضة لا يمكنه أن يفعل شيئاً مع التصوف الحقيقى ، إنه مجرد أسلوب نفسى : بدنى حماسى ، ينزع بالتكرار المركز والإيقاع والغناء ودق الطبول نحو تطوير عصاب دينى تحت أشكال مختلفة ، وهو ظاهرة هستيرية ترجمها الأفارقة كعمل للقوة الجديدة التي دخلت جسد الإنسان ،

(١) تستخدم كلمة حزب أيضاً مع نفس معنى الورد للصلاة الخاصة والأحزاب القرآنية لتلى في أوقات مختلفة في اليوم أو في أيام بعينها ، وهناك مجموعة مستخدمة في السودان تسمى « مجموع الأوراد والأحزاب والأدعية » ، وهي تشتمل على « أحزاب » العديد من الزعماء المشهورين من أمثال الشاذلى والنواوى والرفاعى والبيومى ، كما أن « دلائل الخيرات » للجزولى (١٤٦٤ م) ناشر الشاذلية في المغرب مكونة من مجموعة أدعية للنبي ووصف لقبره وأسمائه ومناقبه ، وتستخدم هذه المجموعة بشكل خاص الطرق القديمة ودراويش الشاذلية ، كما تستعمل التيجانية « الوظيفة » والإسماعيلية « الراتب » للدلالة على « الشعائر الخاصة بها » .

(٢) يستخدم المصطلح أيضاً للدرويش الذى يعيش في حالة تشبه الغيبوبة ، ويتكلم بشكل غريب أو غامض لا يمكن فهمه أو بشكل طفولى ، لذلك فالكلمة المستخدمة تعنى ضعيف العقل .

(٣) Lane, Modern Egyptian Everyman's-ed., pp.248. ff وتؤدي هذه الممارسات في السودان ، ولكن ليس عن طريق سودانيين ، واعتاد الرفاعية الذين كانوا في الجيش واستقروا في السودان القيام بهذا الأداء علناً في الخرطوم ، وجاء حيران أحمد البدوى إلى أم درمان ، وعرضوا حيلهم لتسلية السودانيين الذين نظروا إليها على أنها مجرد عرض .

وأصبحت مرادفة للمقدس ، وهذه هي التأثيرات التي تحاول بعض الطرق تقديمها وهي الهدف من العرض كله ، وبعض الزعماء الواعين بتلك يحافظون على وضع قيد قوى على التطرفات الزائدة . إن الانغماس الزائد في الأذكار مؤذ بالنسبة لأعضاء المجتمع العاديين ، إذ يعيشون في حالة نوم دائم وحالة من الكسل .

إن الذكر الصامت (الذكر الخفي) هو الشكل الحقيقي للابتهال ، ولكن الذكر الجماعي هو بصفة عامة الشكل المتسم بالقصف والعريضة الذي يتم فيه ابتلاع الروح في التأثيرات الجسدية والمادية ، وهذا هو السبب في أنه لا يخلق من جديد ولا تأثير له على الحياة الأخلاقية ؛ لأن التعبير الحقيقي يرتبط بشكل جوهري السلوك ، وتؤدي في بعض الأحيان إلى التفسخ الحقيقي ، إذ ليس من غير المؤلف زيارة عاهرة يليها الاشتراك في الذكر .

وأفضل تعليق على الصوفية السودانية ذلك النقد الذي كتبه أبو نصر السراج :

يعتقد البعض أن الصوفية أغنية ورقصة وقبول الدعوات والبحث عن الصحة ، ويضيعون الوقت في تناول الوجبات وسماع الشعر والانجذاب المزيف والرقص ومعرفة تأليف النغمات للأصوات الجيدة والألحان الحزينة وفن صناعة الشعر الغزلي الذي يشابه الشعر الصوفي الحقيقي . هذا خطأ لأن موسيقى ونشوة أي قلب تنفس بالدينيوى ، وأى روع اعتادت على القروير والطيش سيكون لها دافع خفي ومن ثم فإن قطعه مظهرى . إن الذى يعتقد أنه بتظاهره وخداعه ورغباته سيكون صوفياً حقيقياً أثناء الموسيقى والحركة والنشوة ... إلخ هو إنسان واهم ومخطئ . (١)

ولاستحالة وصف ممارسات الطرق تفصيلاً فإننا سنكتفى بوصف « ليلية » الطريقة الميرغنية .

ليلية الطريقة الميرغنية

تسمى الطقوس الدينية التي تقام بانتظام يومى الاثنين والجمعة باللييلة أو الحضرة^(٢) ، ويمكن عقدها فى المسجد أو الزاوية ، ولكنها تعقد عادة فى حوش الخليفة أو الشيخ أو فى حوش أحد الاعضاء أو حتى فى الطريق ، وبصرف النظر عن

(١) As-Sarraj, kitab al-Luma fi, l-Tasawwuf, ed. Nicholson p.419

(٢) الحضرة هي الاجتماع للعبادة ، ويقول الميرغنية أن النبي هو الذى يحضر لأن الله حاضر فى كل مكان ، وقد بنى هذا الاعتقاد على حلم رأى فيه مؤسس الطريقة النبي ، وإليك وصف للحادثة من مقدمة « مولده » [فأمرنى (النبي) كتابة قصيدة مقفاة فى الهاء والميم ، وقد فعلت ، وبشرنى أنه سيحضر عند تلاوتها ؛ لذا فقد كتبته ليتشرف هؤلاء الناس بقدمه عند تلاوتها . * *

* هكذا فى المتن والصحيح فى الهاء والنون . [المترجم]

* أما النص فهو « فأمرنى أن أصف مولداً واجعل إحدى قافيتيه هاء بهية ، والأخرى نونا كما فعلت لأنها نصف دائرة الأكوان ، وبشرنى أنه يحضر فى قراءته إذا قرئ فسطرت ليتشرف به كلما تلى حكاية نوعية » ينظر مولد النبي المسمى الأسرار الربانية للسيد محمد عثمان الميرغنى . المكتبة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٩٠ ، ص ١٢ - ١٣ [المترجم] .

«الحضرات» المنتظمة ، فقد يطلب أحد الأعضاء إقامة حضرة فى حوشه لأى مناسبة تقتضى الشكر كتسمية طفل (سمايه) ، أو ختان أو الإبلال من مرض أو العودة من الحج ، وفى سواكن وليس فى أى مكان آخر بمناسبة الزواج ، كما تقام الحضرات أيضا أثناء حولية أو سنوية الولي .

وتؤدى الطقوس دائماً تحت إشراف الخليفة الذى يوجهها ويحافظ على النظام ، وهو الذى يدعو الأعضاء المنتظمين الذين يدعمون جماعة الليلية (كإحضار أشياء مثل السكر والشاي والقهوة ... الخ) ، ولكن بإمكان أى عضو الانضمام إليها . ويتوقع من العضو الذى يحضر باستمرار الإسهام بأى شئ فى التكاليف ، ولا تقدم الأطعمة فى الحضرة المنتظمة (الدورية) ، ولكنها إذا أقيمت فى حوش خاص فإن صاحب الحوش يقوم باستضافة كل الحاضرين ، وينفخ الخليفة عادة بهدية مالية^(١) ، وإذا أقيمت الليلية فى منزل خاص فإنها تستهل « بالزفة » التى تبدأ من منزل الخليفة حيث تتجمع الصحبة . ويجب أن يكون الجميع طاهرين وأن يكونوا قد أدوا صلاة العشاء ، ولا تحمل الرايات إلا فى المناسبات الكبيرة ، ولون الطريقة الميرغنية هو اللون الأخضر ، ويقوم المنشدون بإنشاء القصيدة التى كتبها جعفر الميرغنى :

شربت كؤوس العلم فى عز مقصدي ونوديت بالترحيب من كل وهبة
سقانى محبوبى من العلم شربة أنا السيد المشهود فى كل غيبة
وحكمى ترى يا صاح فوق الخليفة أنا عمدة الأكوان من رب وهبة
أنا نسل أطهار وربى شاهد أنا كنز أنوار فى وسط الخليفة
أنا فخر أهل العصر يا صاح فأعلمن أنا نور مصباح بكرسى الغيومة
أنا منتقى الأخبار فوق العلية أنا باب فى كل المشارق سطوتى
أنا لمعة الأنوار فوق الخليفة الخ^(٢)

ويعد كل بيت من أبيات هذه القصيدة المسرفة فى التعبير عن العاطفة تقوم كل المجموعة بإنشاد : شى لله يا ميرغنى ، شى لله يا ميرغنى . المكى المدنى . وعند وصول الموكب إلى الحوش يجلسون القرفصاء فى دائرة ، والمبخرة وكل أحذيتهم فى وسط الدائرة ، ويجلس فى أحد الجوانب المنشدون الأربعة ، ويبدأ الخليفة بقراءة الفاتحة

(١) يتكون الطعام من الفتة المكونة من الكسرة والشورية والأرز واللحم وكذلك « اللقيمات » ، أما منطقة البحر الأحمر فتقدم " قهوة اللوز " (شاي باللبن واللوز المبشور) بدلاً من الشاي المعتاد بالنعناع .

(٢) قصة المعراج . ص ١٢٥ - ١٢٧

ويقوم الجميع بتلاوتها ثم ينشدون « التهليل » (لا إله إلا الله) مائة مرة ثم يبدأ المنشدون فى المدحة التى تسمى « المنبئية » التى يتضرعون بها الى الله . أما المرحلة الثانية فهى إنشاد « المولد النبوى » الذى كتبه مؤسس الطريقة محمد عثمان الميرغنى، وهو ينقسم إلى أربعة عشر فصلاً تسمى الألواح ، ويفتح بفصل حول تفرد الإسلام ثم يليه سرد لحلم مؤسس الطريقة الذى رأى فيه النبى ، وكيف أن الله خلق تلك المادة المضيئة « نور النبى » أول الخلق وميلاده ، مع سرد لنسبه وقصة الملائكة الذين أخرجوا قلبه وطهروه ، وقصة المعراج والدعوة النبوية ووصف لمظهره الجسمانى والأخلاقي ، ويقوم الخليفة بإنشاد الفصل الأول ، ثم يقوم بعد ذلك بالإشارة إلى المجموعة التى يود أن تستمر ، ورغم أن العديد منهم جهلاء فإنهم يحفظون بعض الفصول عن ظهر قلب . كما يقرأ الخليفة الفصل الخاص بميلاد الرسول وعندما يصل لكلمات « لقد ولد » ، يقوم الجميع بإنشاء المدحة ، وعندما يتم هذا اللوح تنشد قصيدة « تحية قدومه » وقوفاً ، بينما يتم إنشاد الباقي وهم جلوس ، وبعد الفصل الخاص بالمعراج يتم إنشاء قصيدة الشطرة الأولى منها من تأليف ابن العربى والثانية من تأليف محمد سر الختم (توفى عام ١٩١٥م) ، ويستمر المولد حوالى الساعتين ، ويتلو ذلك فصل إضافي ينشد فيه المنشدون قصيدة أو أكثر فى مدح الرسول (قصيدة المديح) ، ويتم خلالها تقديم الشاى بالنعناع إلى بقية الرفاق .

أما المرحلة الأخيرة فهى الذكر، وتبدأ هنا المحاولة الحقيقية لإظهار النتائج ، أما ما سبق فقد كان كله تمهيداً ، ويبدأ الذكر بطيئاً ، ويقف كل الذاكرين فى حلقة ويرددون عبارة « لا إله إلا الله » مائة مرة مصحوبة بإمالة الرأس والجسم بشكل متواتر أولاً نحو اليمين ثم نحو اليسار والأيدى مدلاة فى ارتخاء وينتظم التنفس مع رد الفعل والحركات – الأمر الهام جداً إذا ما أريد للنتائج أن تظهر، ثم تتسارع الدرجة – ، ويتم التأكيد على المقطع الأخير، وتتغير الحركات إلى الأرجحة إلى الإمام وإلى الخلف ، ومع كل تغيير يصبح الصوت أكثر خشونة إلى أن تصبح الكلمات – فى المرحلة الأخيرة المصاحبة للقفز صعوداً وهبوطاً – غير واضحة وغير مفهومة تقريباً ، وتلفظ كلمة «الله» بصوت كأنه السعال أو صوت منشار خشن ، ويشهق المقطع الأول ويزفر المقطع الثانى ثم تعكس العملية إلى زفير فشهيق ، ويسمى أحياناً هذا القسم المكون من عبارة واحدة بالدروب ، والدروب الأخرى ببساطة هى «الله» أو «هو» أو «حى قيوم» ، ويشكل إيراد كلمة أو عبارة جديدة سرعة جديدة للذكر . ويدور المنشدون باستمرار حول الدائرة لإثارة حماس الذاكرين ويصيحون فى بعض الأحيان «مدد، مدد، يا ميرغنى» وذلك عندما يسير الذكر بشكل جيد. ويختتم الذكر « بحزب » يسمى دعاء الطريقة الختمية – الدعاء للإنسانية والفاخرة ، ثم يرتاح الجميع ، وعندما يقرأون الفاتحة فإنهم يذكرون أسماء كل الاشخاص الذين يحتاجون الدعاء، وأخيراً يتم تقديم الطعام .

٧- القادرية

كانت القادرية هي أول طريقة إلى محددة تطورت لتخليد أحكام وتعاليم الشيخ، وتتضح في تطورها اللاحق إشارات إلى ضعف تنظيمها ، وعدم تماسك مذهبها وتنوعات ممارستها .

ومؤسس الطريقة هو عبد القادر الجيلاني (توفي عام ١١٦٦م) ، وكانت له مدرسة ورباط في بغداد ، ولم يخطط عبد القادر لإنشاء طريقة ، ولكن تعاليمه وتدريباته الصوفية شكلت الأساس لمجموعة الأحكام والمذاهب التي انتشرت عن طريق ذريته الكبيرة وأتباعه الذين استمروا في نسبة أنفسهم إليه ، وإدخال الأتباع في اسمه ، وأصبحت مناهجه مشهورة جداً ، ونشر أتباعه - في حياته - نظامه في سوريا ومصر واليمن ، ثم انتشر بعد ذلك في كل أنحاء العالم الاسلامي ، وأصبح منذ ذلك الحين أعظم ولي شعبي في الإسلام بلا استثناء ، ودرّس كل خليفة كما يهوى وتنوع الذكر والأوراد في كل بلد ، ويكتب Rinn :

بسبب انتشارها على امتداد كل العالم الاسلامي ، وكذلك بسبب صفتها العامة المتسمة بالتسامح والإحسان لم يكن للطريقة القادرية تجانس القوانين التي نجدها في الطوائف الأخرى التي يبدو أنها تشكل مذاهب صغيرة مقصورة على جماعة بعينها لا يوجد خلاص منها . إن الطريقة القادرية على العكس من ذلك مفتوحة للجميع^(١).

وقد تفاوتت التعاليم ما بين العبادة المفرطة لعبد القادر كشبه إله ، وموقف التبجيل لولي عظيم ، وكان للفروع الكثيرة ارتباط اسمي بالشيخ في بغداد ، وأصبح للبعض منهم تنظيم جديد وخط صارم ، ويقال إن أول من أوقد نار عبد القادر في السودان هو تاج الدين البهاري في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري ، « بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلاني » ، وقد جاء الاقتراح بزيارة السودان من داوود بن عبد الجليل محمد (حوالي عام ١٥٥٠م) تاجر الرقيق من أوبجي الذي التقى به في موسم الحج « في أول ملك الشيخ عجيب » (توفي عام ١٦٠٤م) ، وأصبح راعيه وسكن معه في وادي شعير ، وقد مكث في السودان سبع سنوات فقط ، ولكنه خلال الفترة مثله مثل كل المبشرين المسلمين تزوج من امرأة سودانية وسلك العديد في « الطريق » وترك خلفه في مختلف المناطق خلفاء مؤهلين ليسلكوا الآخرين في الطريقة^(٢) .

Marabouts et khouan , p.186

(١)

(٢) ينظر ترجمة تاج الدين في الطبقات . م ٤٢ - ٤٣ ، ص ٤٤ - ٤٥

وتروى القصة المشهورة جدا فى الجزيرة عن كيفية اختيار المجموعة الأولى التى قدمت ليدخلهم فى طريق الصوفية ، وتذكرها الطبقات كما يلى :

اجتمعت الناس عنده ليسلكهم طريق الصوفية خبالهم خبية

ادخل كُبَاشَة فى قطع وقال للناس اسلك وارشد وانجح وتموتوا على الايمان ، فلما الناس تفرقوا عنه إلا الشيخ محمد (الهميم) والد عبد الصادق فهو حينئذ شاب لابس قميصاً عَجْ ملصقاً وتوضاً وصلى ركعتين . وأدخله فى القطيع وسلكه ونجح أحد الكباشه وسال الدم من القطيع فظنوا أنه نجح ثم جاء الشيخ بان النقا وكان شيخاً كبيراً قال أنا ثورا كَمَل كراه (١) اخترت لقاء ربي . فتوضا وصلى ركعتين ودخل عليه وسلكه ونجح كبشاً آخر وسال الدم على الناس ، وقال للناس : تعالوا ، لا حسد ويخل . فامتنعوا وعد ذلك خرج الرجلين سالمين (٢) .

قلنا فيما سبق أن العديد من هؤلاء الخلفاء أصبحوا رؤساء روجيين - دنيويين للأسر التى استمرت فيها الوراثة حتى اليوم ، وهكذا أسس محمد الهميم صادقاً لمنطقة السوكى بين ودمدنى والقضارف ، أما بان النقا الضير الذى تقاعد من الخدمة الملكية ليخدم تاج الدين تلميذاً له ، والذي قبل عودته إلى الحجاز قلده برموز سلطة الفونج « الطاقية » والكر الذين مازالوا مع خليفة اليعقوبى حتى اليوم ، وكان بين الآخرين الذين سلكهم الطريق الشيخ عجيب الكبير المانجك القائد العظيم للعبدلاب (٣) . ويقال إنه سافر إلى تولى حيث :

سلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة ولما أراد السفر إلى الحجاز قال لجيرانه : أنا جيت من بغداد لأجل هذا الواد خلقتة فى مكانى مثل ما بتعاينولي عاينوا له واداء الاسما والصفات ومعرفة بخول الخلوات والرياضة وسافر وخلطهم متوجهين الى الله تعالى. (٤) هناك خلط واضح فى الطبقات يمكن ملاحظته حيث تقرأ مثلاً أن كلاً من على النيل وصالح بن بان النقا كان كلاهما ثالث الخلفاء ، الاوقدوا نار الشيخ عبد القادر (٥) . وهذا مرجعه أن كليهما ينتمى إلى طريقة مختلفة للخلافة من تاج الدين ، فصالح مثلاً كان خليفة الثالث منذ الشيخ إريس.

(١) أى أخذت نصيبى من هذه الدنيا ، وهو مشهور يضرب لنهاية كل شئ .
(٢) الطبقات . ترجمتان النقام ٣٣ ، ص ٢٥ . وهذه هى رواية اليعقوبى للقصة (Reid, Tribes of Blue Nile Province, pp.65-6-77-8) حيث ذكرت شخصان فقط، ولكن العركيين والآخرين يذكرون أن أربعة أشخاص هم الذين تظاهروا بالرغبة ، ولكن أحد الأربعة جبن عندما رأى اختفاء الثلاثة الآخرين . ويتغير اسمه طبقاً للجماعة التى ينتمى إليها الراوى .
(٣) عبد الله بن دفع الله العركى مؤسس العركيين قال أنه أحد أولئك الذين فشلوا فى اختبار تاج الدين ولكنه عندما رأى المعجزات التى أظهرها أتباع تاج الدين سافر إلى مكة ولكنه وجده قد توفى . ثم أدخله حبيب الله خليفة تاج الدين (الطبقات . م ١٥٠ - ١٠٦ ، ص ١١٢ - ١١٣) .
(٤) الطبقات . م ٤٢ - ٤٢ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .
(٥) الطبقات : م ١٢٣ ويا ٩ ، ص ١٤١ و ١٠٤ .

وأشهر كل الرجال الصالحين في هذه الفترة هو المحسى الشيخ إدريس بن الأرياب^(١) الذي قيل لنا إنه - بشهادة الشيخ خوجلى - «أول من أوقد نار عبد القادر»، ثم أظهر الخطوة الشيخ إدريس دون وساطة الشيخ ، ويقال إنه أخذها مباشرة من الرسول (ص) ، ويقول الآخرون إن رجلاً من الجزائر (المغرب) يسمى عبد الكافى سلكه فى الخطوة ، ويفترض أنه درس على الشيخ البندارى فى الحفاية . وينظر الدراويش بعين الريبة إلى كل شخص لم يتم إدخاله فى الطريقة بالشكل الصحيح وكما ينبغى ، ولكن النفوذ الشخصى للشيخ إدريس كان قوياً جداً ، وقد خلفه ابنه حمد رغم أننا نقرأ أيضاً عن الآخرين الذين ورثوا عنه ، فمثلاً يقول الشيخ خوجلى « نار الشيخ عبد القادر أوقدت بعد الشيخ إدريس عند الشيخ بدوى (ود أبو دليق المتوفى عام ١٧٠٦م) وقد تلاه صالح بن بان النقا (١٦٨١ - ١٧٥٣ م) الذى روى أن المدد الإلهى جاءه وسمح له بالنار مشتعلة بعد وفاة الشيخ بدوى فى عام ١٧٠٦م ، وتستمر الحكاية لتقول كيف أن ابنه الزين واصل إيقاد النار لتستمر بدورها بابنه .

وقد تحولت بعض مجموعات الخلفاء الوراثة هذه إلى طرق أخرى ، وهكذا أصبح خلفاء الشيخ إدريس ميرغنية ، كما تحول اليعقوباب والعركيون وأولاد الترابى إلى السمانية .

ويسمى القادرية فى بعض الأحيان بالجيلانية فى صفتها كطريقة القوم ، وهى قوية جداً فى الجزيرة حيث تعيش هذه القبائل مع الخلافة الوراثة ، ومع ذلك توجد المجموعات غير القبلىة فى كل أنحاء السودان ، ويتركز البادراب وهم قادرية فى أم ضبان التى أدخل مؤسسها محمد بدر (١٨١٠ - ١٨٨٤م) الطريقة على يد الشيخ عوض الجيد فى عفينه ، وهم يحافظون على مدرسة شهيرة حيث ينشد فيها الأولاد الحصول على تعليم دينى مبكر . ويدعى العديد من الشيوخ الدينيين والفقرا أنهم قادرية ، والمسلمية من أتباع القادرية الأقوياء ، لأنهم يدعون أن جدهم المسلم كان ابناً لأخت عبد القادر الجيلانى ، وكان القادرية نشطين فى دارفور عندما كان التونسى يعيش هناك (١٨٠٣ - ١٨١٣م) ؛ لأنه يكتب عن طريقة الذكر والمنافسة بين أتباع ضيف الله والشيخ يعقوب^(٢).

كما يدعى الأمرار - والعديد من أقسام البجة - بأن عبد القادر هو وليهم ، ومع ذلك فهم لا يعرفون إلا القليل ، أو لا يعرفون شيئاً عن العبادة . ويطلب أولئك الذين فى الشمال حمايته قبل أن يبدأوا فى رحلة أو فى مواجهة أزمات الحياة ومصاعبها فى «بيان» منسوب إليه بالقرب من حجارة أبو صير فى وادى حلفا .

(١) تقول The Sennar Chronicle التى لا يمكن الوثوق بها أنه عاش ١٤٧ سنة هجرية ٩١٢هـ (١٥٠٧م) حتى عام ١٠٦٠هـ (١٦٥٠م) ، وترجمته فى الطبقات غير كاملة ، ولكن هناك ذكر لتاريخ ٩٨١هـ .

Al-Tunisi, Voyage au Darfour, pp. 245-9

(٢)

وتعتبر الطريقة من الطرق قديمة المعتقد ، وبسبب محليتها أو صفتها البدوية التي تميزها ، فقد عدت قبلية ولم ترتبط بكسب المشايعين ، ويهتم القادري أساساً بعبادة ولي القبيلة .

وسنستدل من الروايات في الطبقات ^(١) أن تقليد منصب الخليفة في الجزيرة يتضمن أن يحلق رأسه من يقوم بإدخاله الطريقة ، وإنشاد الأناشيد والجلوس على ككر مؤسس الطريقة والتخلي عن ككارة الخلفاء السابقين ، ولبس العمة الخضراء والجبّة والفروة الخاصة بمؤسس الطريقة والعديد من خدمات الحيران .

كما تقلد بعض شيوخ الجزيرة برموز سلطة الفونج ، فبالإضافة إلى الككر هناك الحرية الحديدية أو الشعبة أو الصولجان ، ومن المحتمل أن تكون هذه مرتبطة بالسلطة الزمنية ؛ لأن تقليد المنصب بالككر يتضمن منح قطعة أرض ، ويحتفظ يعقوباب اليوم الذين أصبحوا سمانيه ^(٢) ومعظم المجموعات الأخرى بهذه الرموز في شعائريهم ، ويتم عرضها في الاحتفالات .

إن المثال البسيط لأخذ العهد اليوم لإدخال الأعضاء العاديين هو أن يتلو العضو ثلاث مرات « طلب المغفرة من الله العظيم » ولا إله إلا الله « والصلاة على النبي ، ثم يقوم بوضع يده في يد الشيخ ويردد خلفه « أقسم بالإخلاص لك في الإيمان والحقيقة والقانون ، لقد أصبحت مريداً للشيخ عبد القادر الجيلاني أنار الله قبره وقدس سره وفاتحته » ، ثم يتلو الاثنان معاً الفاتحة ، ويقبل العضو الجديد يد الشيخ ، وبذا تتم المراسم.

وتتكون الليلية التي تقام « للمقدم » تلاوة مولد البرزاني والذكر ^(٣) مصحوباً « بالتوبة » وإنشاد المديح قبل وأثناء الذكر ، وينشدون في الموكب « لا إله إلا الله » فقط، ويقيمون الذكر يوم الجمعة في المسجد بعد صلاة الجمعة ^(٤) . وأداؤهم ذو ميزة إفريقية

(١) الطبقات . م ٧٩ - ٨٠ ، ص ٨٦ - ٨٧ . وينظر أيضاً رواية محمد بن داود الأغر ص ١٥١
(٢) ويعود التغيير ببساطة لاختيارهم الشيخ هجو (توفي عام ١٩٣٠ م) الزاهد الذي عاش في جوف شجرة تبلدي وكان سمانياً - شيخاً لقبيلة بعد المهدية . ينظر ص ١٢٠٦ هـ أعلاه
(٣) مازالوا يستخدمون كلمة « الكريير » كما في الطبقات م ١٣٢ ، ص ١٣٩ ، وقفت في حلقة كيرير أولاد برى ... وكان الشيخ عبد الحليم ينشد في الحلقة ...
(٤) يفترض أن يتلو القادري الورد الصغير بعد كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهو يتكون من ترديد الأوراد التالية كل منها مائة مرة ، وذلك بمساعدة السبحة : التسبيح ، الحمد - الحوقلة ، البسملة - الاستغفار - التوبة - الصلاة - التهليل ، أما الورد الكبير فيتكون من التهليل الذي يكرر ٧٠ ألف مرة .

أكثر وضوحاً من أى طريقة أخرى . (١)

٨- الشاذلية

يمكن وصف هذه الطريقة بأنها مدرسة للمذهب الصوفي أكثر من كونها طريقة منظمة ، وقد وجدت في السودان كما في أى مكان آخر أساساً في العناصر المشتقة (الثانوية) مثل المجذوبية . وقد ولد مؤسسها أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلي في عام ١١٩٦م في الشاذلية بالقرب من زفران بتونس ، وقد درس في فاس حيث أصبح تحت التأثير الإشرافي للمدرسة الصوفية ، واضطهد لتعاليمه وشعبيته ، ولجأ إلى مصر حيث حقق شهرة عظيمة ليس فقط وسط العامة بل حتى وسط العلماء ، وقد اعتاد الذهاب إلى الحج كل عام ومات في صحراء عتباى أثناء عودته من إحدى هذه الحجّات في عام ١٢٥٨م . (٢)

وكان أبو الحسن شيخ طريقة جوالاً ، ولم يدخل تلاميذه في أى شعيرة أو طقوس دينية ، وقد واصل طريقه تلاميذه ، واعتبر أحد تلاميذه وهو أبو العباس المرسى (توفي عام ١٢٨٧م) الذي سكن الاسكندرية خليفته (٣) ، ولكن الطريقة لم توحد نفسها أبداً ربما بسبب أن مؤسسها لم يترك ابناً ليخلفه ، وقد جمع تلاميذه بقايا أعماله الأدبية القليلة (أساساً الأوراد) ، وواصلوا نشر تعاليمه في زوايا متفرقة ، ولم تكن لها سوى القليل من الروابط ، وفي أحيان أخرى دون أى رابط ولم يتطور أى نظام وراثي . ويقوم في بعض الأحيان شيوخ بارزون لمثل هذه الطوائف بتلقى الأمر بإذن خاص من النبي لتأسيس طرق جديدة من أمثال الشايقية والطيبية والجزولية والدرقاوية .

إن أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولي (توفي ما بين عامي ١٤٦٥ - ١٤٧٠م) هو الذي نشر الطريقة في المغرب ، وهو صاحب الكتاب المشهور «دلائل الخيرات» ، ويقال إن إحدى بناته تزوجت الشريف حمد أبو دنانة الذي سافر إلى السودان مع ابنه السيد بن الحسن البيتي الذي سكن سقادي غرب (تسمى الآن المحمية) في عام ٨٤٩ هـ (١٤٤٥م) ، وأدخل التعاليم الشاذلية في السودان ودفن في أبو دليق ، كما جاءت إلى السودان أيضاً الطقوس الشاذلية عن طريق فقرا تعلموها أثناء الحج ، ونقرأ عن

(١) قال ضابط جيش هندي في واد مدني بصفته قادرياً دعى لحضور ذكر أن العرض صدمه ، وأنه شجبهم لاستخدامهم اسم عبد القادر الجيلاني .

(٢) يدعى الهنديون بأنه وليهم ويقولون أن قبره موجود في «الهوس» ، ويدعى العليقات أن قبره موجود في عد الخشاب بين حلايب والدر ، وهناك قبر آخر في الجميزة بناه سلطان مملوكي (ينظر . ابن بطوطه ج ١ ص ٤٢ وبوركهارت . ص ٤٦٣) .

(٣) يوجد سرد لحياة وأقوال أبو الحسن وأبو العباس في «لطائف المنن» لتاج الدين بن عطاء الله السكندري الذي ألفه عام ١٢٨٤م (على حاشية لطائف المنن للشعراني) .

ولى الجزيرة توتى خوجلى بن عبد الرحمن (توفى عام ١٧٤٣م) ^(١) أنه رغم كونه قادرياً فى الأصل فإنه درس الشعائر الشاذلية :

وحج إلى بيت الله الحرام وسلك طريق القوم على الشيخ أحمد التتبتكتاوى الفلاتى القطب الريانى القاطن بالحرم المنى وأما أصل طريقته فالأساس قانرى والأوراد شاذلى وفى الحقيقة فإن شيخه كان تلميذاً لمحمد بن ناصر الشاذلى ^(٢) .

وكان فى حياته صورة طبق الأصل للعديد من الزعماء الدينيين المحدثين :

لقد تابع السادة الشاذلية فى أقوالهم وأفعالهم وكان يلبس الثياب الفاخرة مثل البصراوى الأخضر وعلى رأسه الطربوش الأحمر ويتعمم بالشيشان الفاخرة ويتقل الصرموجه ويتبخر بالعود الهندى ويتعطر بجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ويفعل ذلك اقتداءً بالشيخ أبو الحسن الشاذلى واطهاراً لنعمة الله تعالى وليحمده على ذلك ، وقيل له إن القادرية إنما يلبسون الجيب والمرقعات . قال ثيابى تقول لخلق أنا غنيه عنكم وثيابهم تقول أنا مفقره إليكم ^(٣)

وكان للشيخ خوجلى سمعة عريضة ومريدون كثر، وقد خلفه ابنه احمد الذى استمر خليفة لمدة ستين عاماً ، ولكن السمانية فازوا بأتباعه فى الجزيرة ، والمجنوبية بأولئك القاطنين حول الدامر ، والميرغنية بالآخرين شمال الخرطوم ^(٤)، وقد أثرت الشاذلية بشكل كبير على مذهب العديد من الطرق السودانية وتلاوة حزب البحر .

أما بالنسبة للذكر فتجلس مجموعة « البيتيه » إما فى حلقة أو يجلسون قبالة بعضهم صفين ، ويبدأون تلاوة « التهليل » (لا إله إلا الله) بصوت عالٍ يستمر حوالى ساعتين ، ثم يقوم الشيخ بإعطاء إشارة ، فيستمرون فى التلاوة فى صمت لمدة نصف ساعة ، ثم يكررون اسم الله لمدة نصف ساعة بصوت عالٍ يتلوه : هو-حق - حى - قيوم -قاهر، لمدة نصف ساعة أخرى ،ثم يختتم الذكر بتلاوة واحد أو أكثر من أدعية مجموعة « المفاخر العلية » ^(٥) ، أما مولد « البرزنجى » فلا يتلى إلا فى الاحتفالات فقط، أما أخذ العهد فبسيط جداً ، إذ يجلس المريد أمام الشيخ ويكرر خلفه العهد التالى :

(١) هناك سرد لحياته فى الطبقات . م ٧١ - ٧٧ ، ص ٧٤ - ٨٢ وقام ماكمايكل بترجمة مقتطفات منها فى كتابه : Hist.ii, 250-9

(٢) الطبقات . م ٧ ، ص ٧٤

(٣) نفسه : م ٧٢ ، ص ٧٦

(٤) ما زال يوجد خليفة الخوجلى فى الحلفاية ، ولكنه يعد نفسه قادرياً ، ويوجد فى سنار مجموعة تسمى نفسها شاذلية ، وكان الفكى سليمان محمد الشاذلى (توفى عام ١٩٢٤م) آخر خليفة يقوم بالتدريبات ، أما قرية الشاذلى بالقرب من سنار والتي ذكرها بروس فهى الآن أطلال (Travels, vi-384) ، كما أن العديد من الحضارمة وأهل جدة على ساحل البحر الأحمر شاذلية .

(٥) أحمد بن عبادة : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية (القاهرة ١٣٢٧هـ)

ياإله لقد ثبت إليك وقبلت تعاليم فلان الفلاني شيخاً لي في هذه الدنيا والآخرة
مرشداً قائداً لهدايتك ، وقائداً لطريقك وإن أخالفه لا قولاً ولا عملاً ولا بالإشارة ولا
في السر . قونى يا ربى في طاعته وفى طريقته فى هذه الدنيا والآخرة ، وفى
طريقة شيخ الشيوخ وإمام الأئمة قطب الشعب سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى
الله عنه .

وبعد العهد يقرأ الجميع الفاتحة والتهليل ، ويعقد الشيخ بانتظام « مجالس التربية »
حيث تتركز الدروس أساساً على الواجبات تجاه الله والإنسان ، ويعطى murid تدريجياً
الإذن بتلاوة مختلف الأوراد والأحزاب .

٩- المجذوبة

بدأت هذه الطريقة كطريقة محلية بواسطة الجعلى حمد بن محمد المجذوب الكبير
(١٦٩٣ - ١٧٧٦م) فى القرن الثامن عشر فى الدامر ، وكانت الأسرة قادرية ، ولكننا
نقرأ فى الطبقات أن حمد أصبح شاذلياً :

حفظ الكتاب على الفقيه حمد ابن الفقيه عبد الماجد وتفقه فى خليل والرسالة على
الفقيه مدنى بن محمد وعلى الفزارى وعلم الكلام على الحاج سعد وحج إلى بيت
الله الحرام وسلك الطريق على الشيخ الدراوى تلميذ سيدى أحمد بن ناصر
الشاذلى . وانتصب للتدريس فى جميع الفنون والفتاوى والأحكام والسلوك فى
طريق القوم والزهد والذكر وملازمة دلائل الخيرات والقيام بمصالح المسلمين .
وأعطاه الله القبول التام مع الخاص والعام . وكان كثير الشفاعة عند الملوك
والسلطين خاصة الجعليين ، لا ترد له شفاعته ومن رده ينكب سريعاً .^(١)

وأحرز حمد سمعة كبيرة ، وركز فى يديه حكم المنطقة ، وأصبحت الدامر المركز
الرئيسى للتعليم للقبائل النهرية ، الجعليين والشايقية والحسانية ... إلخ ، وأصبح شيوخ
الدامر - لكونهم مبجلين بشكل واسع - وسطاء مهمين فى المنازعات بين القبائل . إن
السرد الذى كتبه بوركهارت عن « الدولة السلطوية الصغيرة » لفقر الدامر يستحق
الاقتباس لإظهار شئ ما عن سمعة الدامر فيما يتعلق بالدراسة والاحترام والسلطة التى
تمتع بها رجال الدين من هذا الطراز فى السودان . ويكتب بوركهارت عن الدامر فى
عام ١٨١٤م تحت حكم محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦ - ١٨٣٢م) حفيد حمد قائلاً :

يسكنها عرب من قبيلة المجنوب التى ترجع أصولها إلى بلاد العرب . والجزء
الأكبر منهم فقرا أو رجال دين وليس لهم شيخ يتزعمهم ولكن فكى يسمونه الكبير
وهو الزعيم الفعلى ويفصل فى كل المنازعات . إن أسرة المجنوب التى أصبح هذا
المنصب وفقاً عليهم من قديم ولها سمعة تقديم السحرة والعرافين ولا شئ يخفى
عنهم ، ولا شئ يصمد أمام سحرهم . وتروى قصص لا حصر لها عن قوة
سحرهم ، منها أن عبد الله والد الفكى الحالى جعل خروفايثقو فى بطن لص كان

(١) الطبقات . م ٧٠ - ٧١ ، ص ٧٣ .

قد سرق الخروف وأكله ، ويحتكم القوم إلى الفكى فى كل الأحوال التى تتعلق بسرقة المال ، ولأن كل شخص يفكر فى الربح العظيم لطمه المفترض بكل شئ فقد أصبحت مهمته سهلة بشكل عام لممارسة معجزاته ، وإن لم أكن مخطئا فإن وظيفة الفكى الكبير وراثية ، وبالطبع يجب أن يكون الوريث رجل داهية وأن يكون متفقهاً فى الشريعة الإسلامية لأنها ضرورية لتمكينه من أداء وظيفته ، ومع ذلك فالشيخ الكبير ليس هو الشخص الوحيد الذى يمتلك القوة السحرية ، فهناك العديد من الفقرا الذين يتمتعون بسمعة مشابهة تناسب دائماً وقداستهم وتعاليمهم، وهكذا اكتسبت مدينة الدامر بأسرها سمعة عظيمة . وتوجد هنا مدارس عدة يتم فيها إعداد الشباب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء السودان الأخرى ليبرسوا الفقه دراسة تكفى لتمكينهم من أن يصبحوا من كبار الفقهاء فى بلادهم. (١)

وعبر حكم محمد المجذوب الصغير عن مرحلة جديدة فى تاريخ الطريقة ، فلقد قاوم المجاذيب غزو إسماعيل باشا ولكنهم سحقوا، وكننتيجة لقتل إسماعيل باشا على يد الملك نمر فى شندى تعرض كل الجعليين للانتقام شديد ، ودمرت الدامر وهرب محمد المجذوب إلى سواكن ، ومن هناك إلى مكة حيث سلك الطريقة الشاذلية على يد الشيخ محمد زاهر المدنى ووقع تحت تأثير الإحيائي أحمد بن إدريس ، وعاد إلى سواكن فى عام ١٨٢٠م مع أوراده الخاصة ، وكسب الأتباع فى تلك المنطقة وأصبح على دقنة عم عثمان دقنه - من بين آخرين - من خلفائه ، وفى عام ١٨٢٢م عندما حصل كل الجعليين على العفو عاد إلى الدامر ومات فى العام التالى .

إن المجاذيب الذين كانوا يؤمنون بأن المهدي سيأتى من الغرب ساندوا المهدي بحرارة ، وقام الخليفة الأصيل فى سواكن - الشيخ الطاهر المجذوب - بعمل مؤثر للخضوع لعثمان دقنه - أحد أتباعه - عندما وصل الأخير إلى سواكن مندوباً من المهدي مما أدى إلى استمالة كل المجاذيب إلى المهدي ، وبقي مسانداً قوياً ومتعصباً للمهدي ، وقتل العديد من أسرته فى معارك عثمان دقنه (٢) .

والطريقة المجذوبية هى المثال « لطريقة الأسرة » ويلقبون أنفسهم بشكل جماعى «بالمجاذيب» ، أما الأتباع الآخرون الذين سكنوا حول الدامر فغالباً ماتم امتصاصهم داخل القبيلة ، ويبلغ تعدادهم اليوم حوالى ٤ آلاف ، وكان الفتح المصرى قد شنت العديد منهم ، ولهم اليوم أنصار وسط قبائل البجة على شاطئ البحر الأحمر وفى سواكن حيث لهم مسجد فى كسلا والقضارف ووسط البشاريين عند نهر عطبرة ، كما انضم العديد من قبيلة الرشايذة التى جاءت من بلاد العرب عام ١٨٤٦م إلى المجذوبية؛ إذ كانوا شاذلية فى بلاد العرب .

Travels in Nubia, p.266

(١)

H.C.Jackson, Osman Digna, p.27

(٢)

وكل الأنصار يعتقدون اعتقاداً قوياً في تمركز بركة الأسرة في الدامر حيث دفن كل الأولياء (عدا مدني في كسلا وأحمد في القضارف) ، أما الشيخ الحالي للطريقة فهو الشيخ بشير أحمد جلال الدين .

(١- السمانية

السمانية فرع من الخلوتية^(١)، وقد أدخلها إلى السودان الجموعى الشيخ أحمد الطيب بن البشير خليفة الخلوة في أم مرحى (٢٥ ميلاً شمال أم درمان) الذى سلك الطريقة، وعين الخليفة عندما كان فى المدينة ، وربما الذى سلكه هو السمانى أو خليفته، وعاد إلى السودان فى حوالى ١٨٠٠م ، وتأثرت طريقته بالحركة الرجعية الجديدة فى الإسلام التى انتشرت بنشاط ، وقد غادر موطنه إلى الجزيرة فى محاولة لعلاج الوزير المشلول محمد أبو لكيلك ، ولم ينجح ولكنه منح هناك أراضٍ حيث أسس خلوة تسمى أم مرحى سعيد ، وانتشرت طريقته بسرعة وسط الجموعية والكواهلة والحاووين وحقق نجاحاً عظيماً عندما عين الشيخ التوم من عائلة بان النقا القادرية خليفة له ؛ لذا أصبح كل اليعقوباب سمانية ، وأدى تخطيه أتباع يوسف أبو شره من العركيين أن قام يوسف بزيارته إلى نتيجة مؤداها أن طلب الشيخ الطيب من الملك أن يسمح له بالعودة إلى وطنه فى أم مرحى حيث مات فى عام ١٨٢٣م.^(٢)

وكان للشيخ محمد شريف بن نور الدايم حفيد الشيخ الطيب تلميذ مشهور هو محمد أحمد الدنقلاوى الذى التحق فيما بعد بالشيخ القرشى الزين خليفة نور الدايم فى المسلمية ، ولم يعش الشيخ القرشى طويلاً ، وقد نال محمد أحمد خيراً كثيراً ببنائه قبره . وقد وجدت السمانية بقوة على طول ضفتى النيل الأبيض داخل فروع قبائلها العديدة ، والخط الأساسى - أسرة الشيخ الطيب - يمثلها الآن الشيخ الجبلى عبد المحمود نور الدين ، أما الشيخ القرشى فيمثله الشيخ الطيب فى طيبة ، ويعتبر سكان طابت أنفسهم أعلى منزلة من المهديين ، لأن جدّهم هو الذى سلك المهدى الطريق - كما

(١) كانت الطريقة الأصلية ضعيفة جداً فى السودان ، وكانت هناك مجموعة فى المولد بأم درمان عام ١٩٢٩م، ويسمى سكان السيد أنفسهم خلوتية . وهناك مرحلتان رئيسيتان فى تطورها ويعتبر عمر الخلوتى (توفى عام ١٢٩٨/٩٧) مؤسسها رغم أنه شيخ معلم من طراز قديم ، وانتشرت الطريقة بسرعة فى تركيا والحجاز والهند لبعض الوقت ثم تحللت . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة إحيائها وتوسعها فى إفريقيا ، وبدأ هذا عندما أرسل مصطفى بن كمال الدين البكرى (توفى عام ١١٢١ . ١٧٠٩م) إلى السودان الغربى أربع بعثات لنشر الإسلام وسط الوثنيين ، وقد تنازعت ثلاث من هذه البعثات على الخلافة بعد وفاة البكرى ، وشكلوا ثلاث مجموعات جديدة ، الحفناوية وأسسها محمد بن سليم الحفنىسى ، والشرقاوية وأسسها عبد الله الشرقاوى ، والسمانية وأسسها محمد بن عبد الكريم السمانى (١٧١٨ - ١٧٧٥م) . أما الشيخ الحالي للسمانية فهو السيد محمد الحسن السمانى الذى يعيش فى المدينة ، وقد قام بثلاث زيارات للسودان ، وقام لبعض الوقت بجمع الرسوم المستحقة .

(٢) تم بناء الضريح الحالى عام ١٩٠٦م فى هذه القرية التى تسمى الآن الشيخ الطيب .

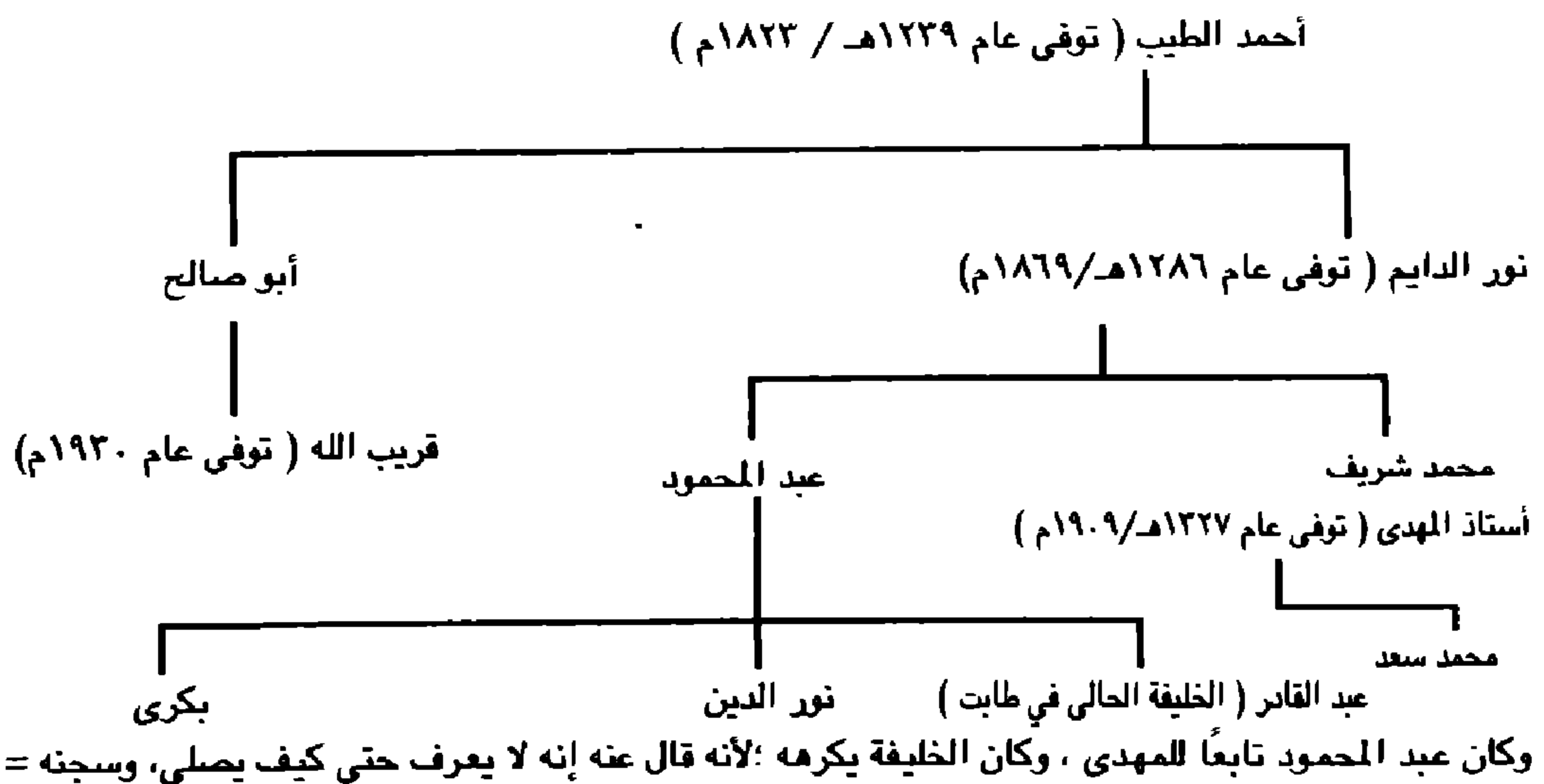
يؤمن سكان طيبة - بينما يتمسكون بطريقتهم بقداسة محمد أحمد المهدي . والسمانية هي الطريقة الأساسية لقبيلة حمر كردفان والفادنية شرق - القبيلة الفرعية من الجعليين ، ويتبعها بقارة سليم ، رغم أن المهدية أثرت فيهم بشكل قوى ، وكان أحد أعظم الزعماء الدينيين في الوقت الحاضر الشريف يوسف الهندي (توفي عام ١٩٤٣م) زعيماً لفرع بدأ يسمى نفسه الهندية أو الشريفية ، وأتباعه وهم كواهلة بالدرجة الأولى يبجلون خرافات مروية عنه . وهناك أربع مجموعات مثلت السمانية في المولد بأم درمان ، أهمها القريبة التي انحدرت من زاهد أم درمانى هو قريب الله صالح الذى توفي فى عام ١٩٣٠م ، وهذه المجموعة التى ما تزال تحت التأثير القوى لزعيمها الراحل على خلاف مع معظم الطرق التى تطلب من المريد أداء الصلاة والأوراد مع الشيخ بالإضافة إلى تلقى الدروس .^(١)

ويعين شيخ السجادة المساعدين من بين الذين يعيشون بينهم ، وعند الاحتفال بتقليد المنصب يقام الذكر ثم يقوم الشيخ بتنصيب المرشد بالعمة ، ويقرأ شهادة الإجازة ثم يهديه « ركوة » وعصاية وفروة ومصحف ، وهكذا يصبح للشيخ الذى تم تعيينه سلطة قبول المريدين .

١١- الأدرسية (الأحمديّة) والرشيديّة

لعب المؤسس - أحمد ابن ادريس الفاسى - دوراً مهماً فى الحركة الرجعية فى الإسلام فى بداية القرن الثامن عشر ، وقد هدف بصفته مصلحاً بالإضافة لكونه

(١) نضيف هنا سلسلة نسب تعطى أسماء ذات مغزى أكبر نسبة ، لأنها لم ترد فى تاريخ ماكمايكل :



صوفياً توحيد الاسلام ، وكان متعاطفاً مع الوهابية ، وكما أوضحنا فقد استهل طوراً جديداً في الحياة الدينية لكل السودان الأوسط والشرقي من خلال النشاطات التبشيرية لتلاميذه .

ولد الأديسي بالمغرب عام ١١٧٣هـ^(١) ١٧٦٠م ، وتدرّب بفاس حيث ألحقه عبد الوهاب التازي بالطريقة الشاذلية ، وبعد أن أدى فريضة الحج قام بالتدريس في القاهرة من عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م إلى أن ذهب الى مكة في عام ١٢٢٤هـ/١٨١٨م ، واستمر في الحجاز وسعى وراء الشيوخ إلى أن أمر بالانكباب على القرآن على وجه الحصر، ووجد هناك طريقه الخاص وتلقى الإرشاد لنشره ، وقال له النبي « لقد أعطيتك يا أحمد مفاتيح السموات والأرض ، وهذا توسل خاص لصلاة المجد وعمل المغفرة » ، وبعد أن ظهر كشيخ مستقل أصبح شخصية دينية بارزة في عصره ، وتجمع حوله عدد ضخم من التلاميذ . وقد أثارت شهرته حسد علماء المدينة مما جعلهم يوجهون له تهمة الزندقة ، وأجبر على الفرار طلباً للسلامة في عسير عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ، وتركه الوهابيون الذين كانوا آنذاك في تنافس مع المصريين في اليمن يعيش في أمان ؛ لأن الكثير من معتقداته الإصلاحية كانت تتفق مع معتقداتهم، ومات هناك في عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م .^(٢) إن التاريخ اللاحق لطريقته كانت تاريخاً من الخلاف والتنافر، فبعد وفاته تنافس على وراثته الروحية اثنان من تلاميذه المشهورين وهما محمد بن علي السنوسي ومحمد عثمان الميرغني ، مما أدى إلى انشقاق في الطريقة ، وأسس كلاهما زوايا في مكة ، ونظم البدو أنفسهم تحت قيادة السنوسي أقوى الاثنين شخصية ، بينما ساند العلماء و« الأشراف » محمد عثمان ، وبرغم أن كليهما مختلفان تمام الاختلاف ، فقد اعترف كل منهما في كتاباته بأنه مدين لأستاذه ، وسافر محمد عثمان بشكل واسع في السودان نيابة عن أستاذه اسما ، ولكن ارتباط السودانين كان بالطبع بالشيخ الذي عرفوه ، وبعد وفاة أحمد أرسل محمد عثمان ابنه لتنظيم أتباعه ، واعترف محمد بن أحمد بإبراهيم الرشيد - أحد تلاميذ أحمد - بأنه خليفة لوالده ، وأخلص له كل الأتباع في عسير والتحق عبد المتعال - ابن آخر لأحمد - في البداية بالسنوسي ، وأمضى بعض الوقت معه في الجغبوب ، ثم ذهب إلى دنقلا

=الخليفة وحكم عليه في آخر الأمر - مع آخرين - بالجلد مائة جلده ، وحفظته معجزة لدرجة حتى أن جلده لم يتمزق بالجلد ، ومازال أتباعه يحتفظون بسرّوالة الذي لم تمزقه السياط ، وقد كتب ثلاثة كتب أرخ فيها للمهدي والخليفة والتلاميذ المشهورين لأحمد الطيب ، وكلها محفوظة لدى خليفته عبد القادر في طابِت .

(١) يجب ألا تختلط هذه الطريقة مع طريقة أحمد البدوي في طنطا ، والتي سُمي البدوي في السودان حيث أتباعها مصريين بالدرجة الأولى عدا في أم درمان حيث جذبت سكان المدن الذين كانوا في الأصل من الرقيق .

(٢) هناك سرد موجز لحياته وتعاليمه ذكرها الرئيس الحالي شمس الدين بن محمد عبد المتعال في نسخة احمد بن إدريس « ورد العزم » اسمه « كنز السعادة والرشاد » (الخرطوم ١٩٢٩م) وكذلك في مجموعته أحزاب وأوراد ورسائل (القاهرة ١٩٤٠م).

فى محاولة لإعادة بناء طريقة أبيه هناك ، ولاقى نجاحاً لا بأس به، وحصل على العديد من أتباع ابن السيد احمد الحسن الميرغنى ، وقبره فى دنقلا العرضى مزار مشهور ويتم الاحتفال بحوليته (٢١ رجب) هناك ، وفى أم درمان حيث يوجد أفراد من الأسرة عادة ، وهذه الحولية من الأحداث الكبيرة التى يحضرها رؤساء الميرغنية والرشيديّة ، والزعيم الحالى هو حفيده شمس الدين بن محمد عبد المتعال .

كما أن رئيس فرع الجزيرة العربية - محمد بن على بن محمد بن أحمد إدريس (١٨٧٦ - ١٩٢٣م) - مؤسس الأسرة الإدريسية فى عسير ، كما كان له نفوذ كبير فى دنقلا حيث تزوج وكون نفسه حتى ذهابه إلى عسير فى عام ١٩٠٥م حيث استقرت أسرته لزمّن طويل ^(١)، لثرت الإمامة وتنازل لفترة طويلة بلا جدوى ضد الأتراك من أجل استقلال عسير ، وكان هو أول حاكم عربى ينضم إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م ، وتوفى عام ١٩٢٣م وأدت الخلافات بين أعضاء أسرته الى نشوب حرب أهلية فى النهاية ، وقام ابن سعود فى عام ١٩٣٠م بضمها بمعاهدة تعطيها صفة استقلالية ، أما فى دنقلا - حيث يحترمونه وييجلون به بشكل قوى - فإن محمد ابن على يعرف بمحمد الميرغنى .

وتدعى دائماً أسرة أحمد بن إدريس زعامة أتباع الميرغنية والسنوسية على أساس أن المؤسسين كانوا تلاميذاً لجدهم الأعلى ، ويؤكدون على تعاليم أحمد كمصلح موحد للمسلمين ، ولكن هذه الادعاءات لم تؤخذ بجديّة ، ويقال إن الميرغنية اليوم توسع من نفوذها فى دنقلا على حساب الأحمدية .

إن الاحمدية طريقة تطهيرية إلى حد ما مثل الوهابية ، وتعارض عبادة الأضرحة ، وقد بدأت تظهر الآن على الطريقة العديد من علامات التدهور ، ومع ذلك بقيت أذكارتهم وقوراً وجادة ، وهم يستخدمون ورد العزم لأحمد بن إدريس .

وتتضمن التعاليم الخاصة بوضع التلاوة أنه يجب أن تكون للذاكرين الجالسين فى الحلقة نية التقرب إلى الله ، وأن يستدعوا فى أذهانهم حضور النبى فى شكل شمائل نبوية ، وأن يتصرفوا بوقار بسبب ذاك الحضور ، مع يقظة القلب والإحساس، وأن يلفظوا بوضوح ، ويعطوا كل تعبير نطقه الكامل الصحيح .

الرشيديّة

لا تدعى هذه الطريقة أنها طريقة جديدة ، ولكنها الإدريسية الصحيحة المتوارثة بحق وصدق من أحمد بن إدريس ، ويعتبرها الآخرون فرعاً من الإدريسية وهى

(١) إن سكان عسير والقرى المحيطة هم من ذوى الدماء السودانية بشكل كبير ، وهم من الأرقاء الذين حرروا واعتقوا ومن المولدين .

بالتأكيد طريقة منفصلة ؛ لأن إبراهيم الرشيد لم يتلق الوحي المعتاد والإذن برؤية نبوية ليبدأ طريقة ، ولكنه واصل طريق أستاذه باستخدام أوامره وإعطاء الطريقة اسمه .

و ادعى إبراهيم الرشيد الدويحي ^(١) انتماءه لأسرة سيدى أحمد الرشيد (توفى عام ١٥٢٤م) مؤسس الرشيدية فى الجزائر ، وقد انضم إلى أحمد بن إدريس ، ورفض محمد بن أحمد خلافته بنفسه وأعلن أن والده قد عين إبراهيم خليفه له ، لذا فقد انضم لإبراهيم كل الأتباع ، وأعلن أعداء إبراهيم أنه يرجع إلى الشاذلية ، وذهب إلى مصر ليتجنب اشتراكه فى التنافس السنوسى - الميرغنى ، ولحاولة توسيع نفوذه الخاص، ونجح فى تأسيس زوايا فى الأقصر ووسط الشايقية فى دنقلا (مروي) حيث مكث لبعض الوقت ، ثم عاد إلى مكة حزينا لما أصابه من خيبة أمل ، وهناك إستأنف الادعاء بأنه الرئيس الشرعى للأحمدية ، وحصل بسرعة على الشهرة بسبب الهجوم عليه من كل الميرغنية وشيوخ مكة المرتبطين بأحمد ابن إدريس ، وكان عليه مواجهة تهمة زندقة (حوالى عام ١٢٧٢هـ) أمام محكمة العلماء ، ولكنه خرج من المحاكمات منتصراً وبسمعة معززة ، وتقاطر الحجاج الهنود بصفة خاصة إلى زاويته وأرسل له الحجاج الهنود هدية مكونة من ألف روبية ذهباً لتمكينه من بناء زاوية عظيمة ، ومات فى مكة فى عام ١٨٧٤م وخلفه ابن أخيه محمد صالح الذى توفى فى مكة فى عام ١٩١٩م، أما الخليفة الحالى فهو ابنه الرشيد ، ويسمى الزعماء المساعدون بالخلفاء أيضاً . إن أهمية استخدام مكة مركزاً للنفوذ يبرره حقيقة أن الطريقة انتشرت فى الهند وإريتريا وأرض الصومال وسوريا والحجاز والسودان .

والرشيدية فى السودان حيث يسمى أتباعها غالباً بالرشايدة ^(٢) نشطة بين الشايقية فى مروي وسلامة (شندى حيث الخليفة هو سعيد بن الأمين) ، وعلى النيل الأبيض حول الكوة حيث هناك زاوية (سيد احمد بن عبد الله الدفارى) وأم درمان حيث مسجد وزاوية (شريف محمد التلاوى) .

١٢- الميرغنية أو الختمية

كان محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٣م) واحداً من أشهر تلاميذ السيد أحمد بن إدريس فى الحجاز ، وكانت أسرته - الشريفة الأصل - قد استقرت فى تركستان ثم فى الهند فيما بعد ، ولكنها عادت إلى مكة . وكان جده عبدالله الميرغنى المجنوب (توفى عام ١٧٩٣/٢م) صوفياً مشهوراً ذكر كراماته الجبرتى (توفى عام ١٨٢١م) فى كتابه عجائب الآثار .

ويقال إن محمد عثمان كان ناضجاً عقلياً فى شبابه ، وملك بسرعة ناصية العلوم الدينية^(٢) ، ولكن الصوفية كانت مجاله الحقيقى ، وسلك طريقة وراء أخرى إلى أن سلك

(١)الدويح قسم من شايقية دنقلا .

(٢) يجب ألا يختلط الاسم مع القبيلة العربية التى بنفس الاسم .

طريقه الخاص ، وقد سلك في البداية النقشبندية على يد الشيخ أحمد محمد بنا ، ثم القادرية على يد سيد القدومي - المقدم في مكة - ، ثم النقشبندية الهندية على يد سيد عبدالرحمن مفتي زبيد، ثم الطريقة الجنيديّة - ميرغنية جده ، والشاذلية بأحمد بن إدريس. وكان أحمد بن إدريس هو شيخه المبجل الذي أرسله إلى شرق السودان وكيلاً للدعاية ، وأبحر محمد عثمان أولاً إلى سواكن ، ولكنه وجد الطريق البري خطراً بسبب الاضطرابات الداخلية ، لذا سلك طريق البحر الأحمر إلى القصير ثم صعد بالنيل حتى أسوان ، ولم تلاق بعثته في مصر أي نجاح ، أما طريقه وسط النوبيين من أسوان حتى دنقلا فقد كان سيراً مؤزراً ، إذ تقاطر النوبيون متأثرين بروعة حاشيته - لتقديم الولاء - وعبر من دنقلا الصحراء إلى كردفان حيث أقام لبعض الوقت محاولاً دون نجاح إدخال النوبا الوثنيين في الإسلام ، ثم تقدم إلى سنار . وتسجل مدونة تاريخ الفونج :

زار في عام ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) العالم المشهور والشريف التقى النبيل السيد محمد عثمان الميرغني المكي - سنار وقابل حكامها وناشد كل الرجال لاتباع طريقته ، ولكن عدداً قليلاً من الناس فعلوا ذلك . ولم يبال به الحكام ولكنهم رغبوا في اختباره بامتحان ، لذا أحضروا الفكي إبراهيم ود بقاى - أحد أنكى العلماء لامتحانه . وقدم الفكي إبراهيم إلى سنار بصداق مبرح وتزايد الالم حتى مات ، هذا قبل أن يقابل الشريف . لذا فقد ترك الشريف سنار وكان عمره آنذاك خمسة وعشرون عاماً. (٢)

وعلى الرغم من كرامته الخاصة هذه والروايات المبالغ فيها عن نجاحه ، يجب أن نستنتج أنه لم يحقق نجاحاً بشكل بارز في السودان ، ومع ذلك فقد وضع الأسس للمستقبل ، وكل المبشرين الإسلاميين خلق رباطاً دائماً مع السودان بالزواج من دنقلاوية بينما كان في كردفان وكان ابنها الحسن هو « الضمان » الذي به قيد هؤلاء الموالين والأفارقة إليه عندما نصب نفسه فيما بعد أستاذاً مستقلاً « لطريق » ، وعندما عاد إلى الحجاز استمر في خدمة أحمد بن إدريس وتبعه في المنفى ، حتى وفاة أحمد عام ١٨٣٧ م .

وواصل محمد عثمان ومحمد بن علي السنوسي معاً قيادة الطريقة ، وكانت النتيجة الانشقاق ، إذ إن كلا منهما نصب نفسه شيخاً مستقلاً ، ولأنه من الأشراف فقد استطاع محمد عثمان كسب مساندة أشراف مكة ضد السنوسي ، وأسس زاوية مركزية في دار الخيرزان وفروعاً في المدينة وجدة والطائف ، وعدل تماماً قاعدة أحمد بن إدريس ، وطور نظريته الخاصة بقدسية الوراثة المتميزة لأسرته ، وأرسل أولاده لنشر الدعوة في اقاليم أخرى ، وذهب ابنه الأكبر محمد سر الختم إلى اليمن وحضرموت وذهب الحسن الذي درس في مكة إلى سواكن حيث استمال قبائل البجة - البني عامر والحنقة والهباب التي كانت في السابق قد تأثرت بوالده ، ثم سافر إلى سنار وكردفان وشمالاً إلى دنقلا محاولاً تأسيس زواياه ، ولم يحقق سوى نجاح ضئيل في المناطق الوسطى ، ولكنه حقق نجاحاً عظيماً في شمالي كردفان ودنقلا خاصة وسط الدناقلة والشايقية .

وجر عليه نجاحه عداوة علماء مكة مما جعله يتقاعد في الطائف حيث مات في عام ١٨٥٣م تاركاً طريقته ، وقد تأسست بقوة في غربى وجنوبى عطبره وشمالى السودان . وبعد وفاته تم الاعتراف بابنه الأكبر محمد سر الختم شيخاً للطريقة ، وأدت وفاته بعد فترة وجيزة إلى بدء عصر من التنافس الذى كان السمة الغالبة لتاريخ الطريقة ، وتحطمت وحدة الطريقة ، وأصبحت سلالة محمد عثمان رؤساء العشائر الأصلية . لقد اهتمنا فقط بالطريقة فى السودان حيث بقى الحسن زعيماً إقليمياً عظيماً ، وقد استقر فى كسلا حيث أسس حى الختمية الذى استمر مركزاً للطريقة ، وتوفى هناك عام ١٨٦٩م . أتباع الميرغنية فى السودان يبجلونه اليوم أكثر من مؤسس الطريقة نفسه ، وأصبحت له بيانات عديدة فى كل أنحاء البلاد ، وأعظم قسم هو الذى يؤدى على قبره ، وقد خلفه ابنه محمد عثمان تاج السر ، وعند اندلاع ثورة المهدي ساندت الأسرة الحكومة المصرية وقادت البنى عامر والشكرية ضد الدراويش ، واضطر محمد عثمان فى آخر الأمر إلى الهرب إلى القاهرة حيث مات فى عام ١٨٨٦م ، وبعد إعادة فتح السودان عاد أبناؤه أحمد وعلى إلى كسلا وخلفاه فى إعادة تأسيس الطريقة بشكل كامل ، وقامت الحكومة بإعادة بناء مسجدهم فى كسلا الذى كان الدراويش قد دمروه ، وقامت الحكومة بتقليد على K.C.M.C,K.G.V.O وأحمد (توفى عام ١٩٢٨م) C.B.E. اعترافاً بمساندتهم وولائهم للحكومة .

ولم يتم الاعتراف بأى من الميرغنية رئيساً دائماً، وتم تنظيم الطريقة على أساس مجالات النفوذ الإقليمية ، فمناطق كسلا والقضارف والقلابات والشكرية والهندودة تحت رئاسة محمد ابن أحمد المذكور عاليه ، وكردفان والخرطوم وبربر ودنقلا وحلفا تحت رئاسة على ، وجبال البحر الأحمر تحت رئاسة الشريفة مريم الميرغنية ، واريتريا تحت رئاسة الشريفة علوية^(١) وجعفر بن البكرى ، وكلهم - مع ملاحظة أن المجموعة تضم امرأتين - متساوون فى المرتبة نظرياً نسبة لأن كلهم يملكون بركة الأسرة ، أما سياسياً فإن السيد السير على الميرغنى هو الأكبر أهمية .

والطريقة صارمة جداً فى الإصرار على القداسة البالغة للأسرة ؛ لذا ترفض السماح لأتباعها بالانضمام لأى طريقة أخرى أو حتى الاشتراك فى شعائرها^(٢) ، كما تعارض بشكل أكبر خاصة الإدرسية والمجذوبية ، وفى أفضل الأحوال فى منافسة سياسية مع المهدية .

(١) توفيت علوية الميرغنى فى أكتوبر ١٩٤٠م.

(٢) يجب تصحيح الرواية التالية التى كتبها د - ب ماك دونالد Aspects of Islam P.iss إذ كتب «أخبرنى رجل سورى مسيحى ورئيس تحرير أهم صحف القاهرة أن هناك جمعية الميرغنية المشهورة جداً فى السودان على استعداد تام بقبول المسيحيين ، وهم لا يضعون حاجزاً أمام طريقهم وأنه لا يوجد فى شعائرتهم ما يمنع المسيحى من استخدامها » . إن الميرغنية لاتقبل أبداً مسيحياً ، ولا يمكن لمسيحى أن يستخدم شعائرتهم دون أن ينكر دينه .

وقد تمت معالجة بعض الممارسات والعقائد فيما سبق^(١) ، ويقال إن محمد عثمان قد سلك عدة طرق ، وتظهر كتاباته العديدة تأثير الصوفية الشرقية ، وهو ينتمي إلى طبقة الزهاد المتصوفة ، ولم يتأثر سوى قليل بأحمد بن إدريس المذهبي الإصلاحى .

وعندما أصبح شيخاً للطريقة قام بصياغة منهاجه الخاص ، وتبنى صيغة نقشجم^(٢) كرمز «السلاسل» الروحية التى تركزت فى شخصه ، واسمها الشعبى هو الختمية ، والسلالة المباشرة لمؤسس الطريقة تحمل لقب «سر الختم» ، أى أنهم بصفتهم المطلقة الأمناء على القوة الغامضة التى أودعت فى الأسرة ؛ لذا فأتباعهم يعتبرونهم أنصاف آلهة ويضعون - أى الأتباع - أنفسهم وكل ما يملكون تحت تصرفهم .

١٣ - الإسماعيلية

مؤسس الطريقة هو إسماعيل الولى (٧٩٢ - ١٨٦٣م) بن عبد الله الكردفانى ، وكانت أسرته قد سكنت فى الأصل دنقلا (٣) ، وكان والده قد ذهب إلى كردفان فى تجارة وولد إسماعيل هناك ، وحفظ القرآن فى صغرة وبدأ فى التدريس فى الخلوة ، وعندما قدم محمد عثمان الميرغنى إلى كردفان ، وأصبح واحداً من أتباعه وسمع له شيخه بعد عودته من الحج (١٨٤٢م) بتشكيل فرعه الخاص الذى أصبح يعرف بالإسماعيلية وأصبح مشهوراً جداً لإحسانه ومعرفته وتأليفه لحوالى ٤٥ كتاباً^(٤) ، وخلف إسماعيل الولى ابنه الأكبر محمد المكى (توفى عام ١٩٠٦م) ، والذى كان واحداً من أوائل الموالين للمهدى فى كردفان كما وثق فيه الخليفة ، ومن جهة أخرى فابن إسماعيل الثانى - أحمد الأزهرى شيخ الإسلام فى غرب السودان الذى درس فى الأزهر لمدة ١٢ عاماً - اشتهر بمعارضته المهدى ، وكتب رسالة يفند فيها مزاعمه^(٥) ، وعندما عاد إلى القاهرة فى عام ١٨٨١م طلب منه رؤوف باشا الحاكم العام أن يصحب الحملة ضد المهدى سفيراً للتوفيق بين المهدى ورؤوف باشا ، ولكن الحملة أبيدت وقتل الأزهرى .

(١) ينظر ما سبق الفصول ٦.٥ - وينظر أيضاً «الرسالة الميرغنية ١٩٢٩م»، وهى مجموعة بحوث على العقيدة والممارسة كتبها مؤسس الطريقة وآخرون .

(٢) الحروف الأولى للطرق التى سلكها أى النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية . ينظر «منحة الأصحاب» ٧٨ - ٨٧ .

(٣) ادعى أنه ينتمي إلى الدهمشية أحد أقسام البديرية ومن ثم الجعليين ، ولكنه جزئياً من أصل تكرورى MacMichael, Tribes, p.70

(٤) طبع منها على الأقل سبعة كتب وهى : (١) ديوان الشطرات (٢) البراق (٣) الخيرة (٤) الموالد (٥) مشارق الأنوار الذى يعالج السموات السبع والأراضى السبع (٦) العهود وهو يقدم الأحكام وأسلوب الطريقة (٧) الأوراد

(٥) ذكرها شقير . مصدر سابق ج ٢ ص ٢٨٢-٢٩١ .

وبعد وفاة محمد المكي في عام ١٩٠٦م شب نزاع بين حفيده محمد ميرغني إسماعيل المكي الذي كان زعيماً للأسرة بالنسب وعم محمد ميرغني بخصوص منصب الرئاسة ، وكانت هناك مشاجرات من حين لآخر بين الموالين لمختلف الأطراف، أما اليوم فإن تأثير محمد ميرغني لا يذكر، وقد استقر بأمر درمان ويزور الأبيض مرتين في السنة تقريباً .

وبالرغم من أنها ناشئة من الميرغنية فإنها طريقة واضحة المعالم ، وذلك بسبب نفوذ إسماعيل الولي وترتيب الأحكام والأوراد وقد اقتصر نفوذها أساساً على كردفان ويتكون أتباعها من ناظر كل قبيلة البديرية تقريباً ومواطني الأبيض من الرقيق السابقين ، كما أن منصب الخليفة بقي في هذه القبيلة .

ولا يقرأ «المولد» الذي كتبه المؤسس قبل الذكر إلا مرة كل أسبوع بعد صلاة الجمعة ، ويتم في الحضرة التي تعقد مرتين أسبوعياً قراءة راتب^(١) المؤسس أولاً ، وتنشد القصائد ويذكرون لحوالي ساعتين ، ويتم قراءة القصائد والمدائح بصفة مستمرة أثناء الفواصل ، وعلى خلاف الميرغنية تستخدم النوبة في الذكر .

١٤ - التيجانية

تعد التيجانية واحدة من أكثر الطرق الإفريقية نشاطاً ، وكانت واحدة من أهم عوامل انتشار الإسلام في غرب إفريقيا ، وسافر كثيراً مؤسسها أحمد بن المختار التيجاني^(٢) (ولد عام ١٧٣٧م في عين مادي) ، وانضم إلى العديد من الطرق ، ولكن حتى عام ١٧٨١م لم يكن :

... الرسول قد سمح له بإبخال آخرين في الطريقة في الفترة التي تجنب فيها لقاء الناس وذلك مرجعه اهتمامه فقط بصلاحة الروحي ، ولم يكن يجرؤ بتسمية نفسه شيخاً حتى أنن له في حال اليقظة وليس الحلم بتدريب الناس عامة وكلية وأبان له الورد وبدأ في التدريس عام ١١٩٦هـ (١٧٨١م) ... وعندما سمح له بتأسيس الطريقة وتلقى الإلهام الإلهي عن طريق وساطة النبي ..قال له أنت لا تدين «بمنة» لأي شيخ طريقة لأنني وسيطك ومعيتك بكل صدق ، اترك كل ما أخذته فيما يتعلق بالطريق .^(٣)

لذا فقد طور التيجاني منهاجه الخاص على خطوط صارمة ، وتبنى سلسلة الخلوتية لورائته الصوفية رغم أن تعاليمه وفلسفته تبدو أنها تدين أكثر إلى الشاذلية ، وكانت الالتزامات الضرورية في الطرق التبشيرية بسيطة جداً ، ولا توجد كفارات مطولة ، كما

(١) ويوجد الراتب في كتاب الأحكام المسمى العهد الوفية ص ١٢

(٢) هناك سرد لحياته في «جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض الشيخ التيجاني» والمعروف، «بالكناسة» صنفه على حرازم بتوجيه من أحمد. يوجد على الهامش كتاب «الرماح» بقلم سعيد الفتوى . ويعد هذا الكتاب - القوام الأساسي لمذهب التيجاني .

(٣) جواهر المعاني (طبعة ١٩٢٩م) ص ٤٢

أن الشعائر الخاصة بالخلوة بسيطة ، وهو يشدد قبل كل شئ على الحاجة إلى الشفيع بين الله والإنسان، وأنه و خلفاءه هم الشفعاء ، وأتباعه ممنوعون تماماً من التوسل إلى أى ولى سوى أولئك الذين من طريقته .

وتجول التيجانى فى الغرب وأسس الزوايا ، وعين «المقدمين» ، وانتشرت الطريقة بسرعة فائقة ، واستقر فى فاس وتوفى هناك فى عام ١٨١٥م ، وعين فى وصيته «مقدم» الزاوية فى تماسم الحاج على بن عيسى (توفى عام ١٨٤٤م)، ليكون خليفته، وأمر بأن تكون الخلافة متعاقبة فى أسرته وأسرة الحاج على .

ولم يحدث أى انقسام كبير حتى عام ١٨٧٥م عندما انفصلت مجموعات فى عين مادي وتماسم بسبب النزاع حول الخلافة ، وليس لهذين المكانين الآن سوى سلطة محلية ، واستقلت المجموعات بنفسها فى كل أنحاء أفريقيا حيث هى الآن أوسع الطرق انتشاراً . وفى الوقت الحاضر ، فإن السيد محمد الحافظ الذى يعيش فى مصر ، وهو الشيخ الإقليمى لمصر والسودان الإنجليزى المصرى والشرق الأدنى .

وأدخل الطريقة إلى السودان الإنجليزى - المصرى سيدى محمد بن المختار بن عبد الرحمن الشنقيطى المعروف بـ «العلية»^(١)، وقد ولد فى تاشت بالجزائر ودرس على يد العديد من الزعماء رغم أنه نسب نفسه إلى محمد السقاف تلميذ المؤسس فى مصر، وأخذ إجازة المقدم من صالح ابن احمد بلقاسم فى المدينة عام ١٨٤٧م ، وسافر كثيراً متاجراً فى السودان ومصر ، وعمل سفيراً بين سلطان دار فور والباب العالى ، ويقال إنه أعطى الطريقة لسعيد باشا خديوى مصر .

ورغم أنه كان تاجراً موسراً يروى أنه كان يهرب فى بعض الأحيان من الترف والتنعيم، ويرتدى جبة مرقعة ويعمل سقا و«اجتاز مرة فى دارفور بعض القبور ورأى حالة سكانها، ورأى بالجوار مجموعة تعزف على الآلات الموسيقية وترقص ، وقهره الحال العويس فهمه فقام بتوزيع كل ثروته وحرر كل عبيده ومعظم نسائه وخر على الأرض ساجداً لمدة سبعين يوماً.^(٢) وعاش لبعض الوقت فى سواكن ، ثم ذهب إلى بربر مع زين العابدين الميرغنى ، وبعد وفاة الأخير - وبسبب بعض النزاع فى أسرته - ذهب للاستقرار وسط الجعليين فى جزيرة بالقرب من القوز حيث توفى عام ١٨٨٢م ، وكان قد تزوج بأكثر من ثلاثمائة زوجة ، ويقال إن سراريه بلا عدد، وأنه دفن أكثر من ستين ولداً .

(١) كان شقيقاً من الجهينيين ، ويقال إن أمه كانت امرأة متعلمة ، وهناك سرد لحياته وقائمة طويلة بتلاميذه فى السودان فى « الرسالة السادسة» التى أصدرتها جماعة الوحدة الإسلامية التيجانية . القاهرة ١٣٥٥ (١٩٣٩م) ص ١٧-٢٣ .

(٢) الرسالة السادسة ص ١٨ .

ودخل العديد من الأتباع فى الطريقة فى كل أنحاء السودان بما فيهم حسين سلطان دارفور والشيخ محمد البدوى الذى أصبح شيخ الاسلام فى الأيام الأولى للحكومة الحالية ، وقبره فى أم درمان مشهور ، وتوفى فى عام ١٨٨٢م بعد أن جهز قبره وكفنه . وكان سبب الوفاة «شدة المحبة» ، وترك ديواناً بالعربية (نشر) وآخر بالعامية السودانية «مولد الإنسان الكامل» (نشر) ، وكتاب «الوريدات» . وهناك دليل على أن التيجانية اضطهدت تحت الاحتلال المصرى منذ حياة المصرى عبد المنعم بن أحمد بن سلامة الذى قضى حياته فى السودان ، وعاش فى أم سعدون بالقرب من بارا فى عام ١٩٢٥م فى سن متقدمة جداً ، ونقرأ عن قدومه إلى الخرطوم «ألغى فى البداية طريقته وتظاهر بخدمة أولئك المهتمين بنشر الطرق الأخرى ، واضطهد بعض التيجانية وقتلوا ، ولكن إرادة الله حفظته» (١) .

كما تأثر السودان الإنجليزى - المصرى بالتيجانية من غرب السودان أيضاً ، وكان القوام الرئيسى لاتباعها من غرب إفريقيا ، ومنهم عمر جانبومن الهوسا تلميذ محمد الصغير بن علي التماسينى ، وقد عاش لفترة فى الفاشر تحت حكم على دينار الذى كان تيجانياً اسماً وقد اتهم عمر جانبو باستخدام السحر لجلب المرض للسكان مما جعله يفر ، وعاش فيما بعد فى الأبيض وأم درمان وتوفى فى مكة فى عام ١٩١٨م ، كما أن خليفة النوبا الذائع الصيت الشيخ الدرديرى محمد خليفة جبل حرازة كان قد أدخله فى الطريقة فكياً غرباويًا .

كما استقر فى عام ١٩٠٦م سلطان ماى يرنو ابن السلطان السابق لسكوتو فى الشيخ طلحه بالقرب من خزان سنار ، وتعرف به الآن مستوطنة الفلاتة - حوالى ١٠ آلاف - خليفة وولياً ، كما زار السودان ألفا هاشم مقدم الفلاتة التيجانية (٢) فى عام ١٩٢٥م ، ومنح الطريقة لعدد ضخم من سكان غرب إفريقيا ، وقبل حوالى ١٥ عاماً قدم عالم مغربى يسمى الشيخ الدرديرى (توفى عام ١٣٥٥ هـ) إلى السودان ومنح الطريقة لأناس شتى بينهم الشيخ مرزوق الذى بنى بالطوب الأحمر مكاناً للصلاة فى ودونوباوى شمال أم درمان .

ويسمح لمعظم المتقدمين بإدخال الآخرين فى الطريقة ، وعندما يطلب مرید الدخول فى الطريقة يتم إفهامه بأن المطلوب منه معرفة مبادئ وأحكام الطريقة وأداء أوراد معينة ليُسمح له بعدها بسلوك الطريقة ، وعندما يوافق المرید يقوم المقدم بسرد سلسلة سلطته، ويسلكه الطريقة بالمصافحة ، ويسلمه كتاب الأحكام (الفتح الربانى) ، ويأمره بأن يتلو بانتظام أوراداً معينة ، ثم يتم إعطاؤه أوراداً إضافية .

(١) المصدر السابق ص ٢٤

(٢) فر ألفا (أى حافظ) هاشم كلاجى سياسى من نيجيريا إلى المدينة فى عام ١٩٠٢م ، وتوفى عام ١٩٢٤م ويخلفه الآن ابنه ابراهيم .

ويقام الذكر بشكل جماعى مرة واحدة يوم الجمعة من كل أسبوع بعد صلاة المغرب، ويجلس فى الذكر المتعبدون فى دائرة ويتلون التعويذة لتطهير الجو من الجن والشياطين ، ويبدأون الذكر بلا إله إلا الله بعدد معين ، ويتم ذلك بصوت منخفض وملفوظ بوضوح، ولا يوجد إنشاد للمديح .

والتيجانية شعبية وسط المتعلمين فى أم درمان ، وقد يكون مرجع ذلك صوفيتها الفلسفية ولبراليتها ، ويتبناها بعض مدرسى المدارس الثانوية .

١٥ - طرق ثانوية

١ - السنوسية : قام محمد بن على السنوسى (١٧٩١ - ١٨٥٩م) بعد تركه مكة بتركيز طريقته فى سرنايكا (برقة) ، ولم يزر أبداً شرقى السودان ، كما لم يبعث بأى رسل إلى هناك ، كما لم يهتم خلفاؤه بنشر أية دعاية سوى فى دار فور ، وكانت روابطهم دائماً مع وسط السودان ، ويذكر أن محمد المهدي (١٨٤٤ - ١٩٠٢م) ابن وخليفة مؤسس الطريقة هو الذى كان المهدي قد دعاه ليصبح خليفته الثالث . تلك الدعوة التى احتقرها ؛ لأنه كان يعتبر نفسه المهدي .

وقد كتب محمد المهدي أو خليفته ثلاث مرات إلى السلطان على دينار طالبين تأسيس زاوية سودانية فى دار فور ، ولكن على دينار احتال للأمر حتى يكون بعيداً لبعض الوقت وحدث فى عام ١٩١١م تدفق اللاجئين الطوارق الهاربين من الفرنسيين إلى دار فور ، وكانوا سنوسية ، ولم يتم استقبالهم بشكل طيب ، ومازالوا مقيمين فى جنوب الفاشر مع الخليفة أبى بكر القدامسى . وفى بداية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨م أصبح على دينار على اتصال مع السنوسية ، وعندما قرر التمرد سمح بمؤسسته للسنوسية فى شمال جبل ميدوب . واليوم فإن مختلف مجموعات المهاجرين من الغرب مع عدد قليل من مجموعات التبو الزنجية (قرعان ويديات) الموجودة الآن فى السودان هم السنوسية الوحيدون ، كما أن تأثير الطريقة ضئيل جداً .

ب - العزمية : أسس هذه الطريقة فى السودان شيخ مصرى هو محمد أبو العزائم (١٨٧٠ - ١٩٣٦م) الذى كان مدرساً فى كلية غردون من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩١٥م عندما رحل إلى مصر بسبب مبادئه السياسية المنحازة ، وأسس مقره فى المطرية بمحافظة المنيا ، وقد خلفه ابنه أحمد، وكان محمد أبو العزائم شاذلياً فى الأصل وتأثر بشدة بالمبادئ الوهابية الإصلاحية ، وكان هدفه تحطيم النفوذ الموروث لشيوخ الدين . ودفع بقوة أن القداسة لاعلاقة لها بالوراثة ، وشجب تبجيل الشيوخ والتعبد فى

الأضرحة والحداد فى المآتم ، وبلغت الدعوة ذورتها فى السودان حيث كان أتباعها يسمون «العوازمة» فى عشرينيات هذا القرن ، لكنها تدهورت الآن نسبة ، لأن عبادة الولي هى جوهر الحياة الدينية السودانية ، ومع ذلك فقد حاول أن يكون إصلاحياً ، ولكنه لم ينجح فى الحقيقة فى تكوين طريقة أخرى . وفى عام ١٩١٥م وجه خلفاء الطرق الأخرى تهمة الزندقة إلى ممثله فى سواكن ، وقد كتب كتابين هما «المبادئ الأولى لاتباع النبي» و «الطريقة العزمية والإلهام السماوى» .

وتتكون السلطة من (١) الشيخ (٢) وكلائه الإقليميين ، واحدهم فى السودان ويعيش فى عطبره و (٣) الخلفاء ولهم الحق فى إدخال الأعضاء الجدد، ويسمى الأعضاء العاديون بالفقرا ، وهناك درجتان عليان «النقيب» و «النقيب» ، ولهما مهام خاصة فى الذكر.

ويبدأ الذكر - مع جلوس الذاكرين فى دائرة - بالتعويد (أعود بالله من الشيطان) ، ثم تتلى الأوراد مثل الله أكبر بلفظ واضح ، ثم يتلو المديح ، ويتم تكرار السطر الأول بترديد جماعى بين كل بيت وآخر من أبيات القصيدة ، وينتهى الذكر بالصلاة على النبي صلوات فردية وأخيراً فاتحة الكتاب.

ج- جماعة أبو جريد ^(١): أدخل عبد الله بن دفع الله العركي - الذى حج ٤٤ مرة - العديد من الأشراف من الحجاز إلى السودان ، وكان أحد هؤلاء شاذلياً يدعى محمود الغائب الذى تزوج امرأة من الجزيرة ، وأنجب ولداً أسماه أبا كر. وأبو كر هذا هو مؤسس الطائفة (أوائل القرن السابع عشر) التى عدت طائفة هرطقية وعرفت بالزبالعة ^(٢) (الغشاشين) والملة الخامسة ^(٣) ، وقد انضم أبو كر مع اثنين آخرين - أبو جريد وكرن الذى كان طبقاً لإحدى التقاليد أخاه - وأصبحت الطائفة متحدة مع اسم أبى جريد نسبة لأنه الزعيم المبشر.

ولا يعرف كيف تم اعتبارهم زنادقة ، ومن ثم فصلوا بشكل مميز عن الجمعيات الأخرى . وقد لا يكون بسبب اعتقاداتهم كالإدعاء بامتلاك التعاليم السرية ، ولا بسبب (شطحات أو حيوت) زعمائها ، حتى ولو كان أبو جريد قد وحد نفسه مع النبي أو مع الله ، وربما يكون الاتهام قد جاء من الممارسات التى تجعلهم يتجنبون أو يناون بأنفسهم عن المسلمين الآخرين . والاتهام الذى ينكرونه بأنهم يدعون أن أبا جريد مثل

(١) سرد هلسون طائفته فى : S.N.R., i. 176

(٢) زبلع : الشخص المخادع ، الغشاش . ينظر معجم دوزى ، مادة زبلع.

(٣) المذهب الخامس . أى ليسوا مسلمين.

النبي قد نشأ ببساطة لعدم سماحهم لأعضاء جدد بالانضمام إليهم بسهولة . وهم أنفسهم يضعون أبا جريد في درجة أدنى من أبي كر الذي يعد مستودع معرفتهم السرية ، ومن المحتمل أن الممارسات الخليفة التي كانت تأخذ مكانها في الذكر في الماضي ، والتي تم شجبها جعلت الطريقة تأخذ شكل المجتمع السري.

إن تنظيم الطائفة ليست لها أهمية عديدة ، إذ هي طريقة قبلية مقصورة ، ومع ذلك فإن مختلف المجموعات القبلية منضمة إليها ، وأهم مجموعة هي كنانة، ويتزوج الأتباع من داخل المجموعة فقط ويتجنبون الانضمام إلى الآخرين . وهناك ثلاثة خلفاء منحدرين من أبي كر (الأمين البساطي بحلة الجوزات في منطقة سنجه) وأبي جريد (أحمد النور ، منطقة سنجه) وكيران (بالقرب من كركوج) ، ويأتي المقاديم بعد الخلفاء ويسمى الأعضاء العاديون بالفقرا، ويقال إنهم يستخدمون في أذكاهم الصيغ الشاذلية العادية ، وعندما ينفجر المجذوب صايحاً في لغة تسمى «هبوت» ، يقال أنها هي اللغة التي علمتها الملائكة لأبي كر.

د- الطرق المصرية : جاءت الطرق المصرية أول الأمر مع الجعافرة ، ولقيت اعترافاً خاصاً أثناء الاحتلال المصري ، وهي اليوم موجودة في المدن فقط بين المصريين - المولدين ، وبعض الرقيق الذين لا طريقة لهم . وفيما يلي أنشط الطرق : الإبراهيمية (الدسوقية) والرفاعية والأحمدية (البدوية) التي لها أتباع أكثر في أم درمان ، والبيومية والنقشبندية.



الإسلام والسودان الوثني

١- الإسلام واتصاله بالسودان الوثني

إن السودان الإنجليزي المصري مثل السودان الفرنسي ، ميدان قتال بين الإسلام والأرواحية ، لقد كسب الإسلام بعض المناطق وتراجع في البعض الآخر . لقد أوضحنا في الفصل الثالث أن تأثير الشماليين المتحدثين بالعربية على زنوج السودان الجنوبي كان كارثة ، وأنه رغم أن كل المميزات كانت في صالحه ، فإن القبائل الوثنية جنوب خط عرض ١٠ تمسكت بمعتقداتها التي بنيت عليها الحياة القبلية ، أما أولئك الذين بين خطي عرض ١٠ و ٢٠ ، والذين كانوا على اتصال مبكر وأكثر استمرارية مع الإسلام فقد تأثروا بشكل أكبر برغم وجود العديد من القبائل في دار فور - جبال النوبا ودار فونج الذين - رغم إحاطة المسلمين بهم - بقوا وثنيين حتى اليوم ، وتبنى الآخرون في هذه المناطق الإسلام بنسب متفاوتة دون أن يتم خلع الأرواحية من وعيهم .

أ- قبائل شرقى النيل : هناك حاجز طبيعي على النيل الأبيض بين الإسلام والقبائل الوثنية في يانجانج (ثمانية عشر ميلاً جنوب الرنك) ، إذ تضيق الكثافة السكانية وتصبح مثل عنق زجاجة يمتد لثمانية أميال بعيداً على ضفتي النهر ، ويتحرك السود باستمرار في نطاق هذه المنطقة ؛ لذا فهي نقطة استراتيجية .

إن الاتصال الوحيد في هذه النقطة بين العرب والقبائل الوثنية هو اتصال البقارة ^(١) مع الدينكا والشك ورفاعة ^(٢) مع المابان ، ويضع المسلمون في الحكومة أعينهم على القيم الاستراتيجية ؛ لأنهم اقترحوا تحويل المنطقة كلها (ثمانية عشر ميلاً شمالاً في عشرة أميال جنوب الرنك) لتصبح تحت النفوذ الإسلامي . وهم يحاولون في الوقت الحاضر إنشاء مدرسة عربية في الرنك، ويجب ملاحظة أن الطرف الشمالي لأرض الدينكا على نقطة تبعد ثمانية عشر ميلاً جنوبي الرنك ، وأن هذا التحرك سيكشف أرض الدينكا أمام التغلغل الإسلامي الأكثر إصراراً . لقد بدأ استخدام العربية كلغة مشتركة في هذه المنطقة .

هناك أيضاً قرى «الملكية» في هذه المنطقة ، وهي من بقايا الحاميات التي كانت متمركزة هناك أثناء فترة المهديّة ، وهي مجموعات مختلطة من الزنوج المتحدثين بالعربية ويعتقدون بالإسلام ^(٣)، ويوجد إلى الشرق جنوبي الجزيرة بين النيلين الأبيض

(١) قبيلة سليم على الضفة اليسرى من الجبلين حتى كاكّا ، وعلى الضفة اليمنى من الجبلين حتى قرب الرنك . ويكتب ماكمايكل (Hist.i.246ff) «اختلطت بشكل كبير مع الدينكا ، ولأنهم غير مزارعين فإنهم يعتمدون عليهم وعلى الشك فيما يتعلق بإمدادات الحبوب» .

(٢) رفاعة الهوى على الضفة اليسرى بين قشيش والديسة .

(٣) هناك مستوطنات ملكية تتحدث العربية جنوباً حتى واو .

والأزرق سهل مسطح تكسره مجموعات من التلال ، وتشبه إلى حد ما بلاد النوبا . وتعيش هنا مجتمعات زنجية من الهمج والأنقسنا والتورنسى والبورون (المابان) والبرتا والأدوك والخما .

ويتكون همج تلال الفونج من خليط من السكان الزنوج الذين تعربوا (كما يشير الاسم العربى الهمج «الرعا ع») ، وهم يستخدمون العربية لغة مشتركة ، ولكنهم يحتفظون بلغتهم القديمة والعادات الوثنية ، وأصبحوا مسلمين اسماً خلال فترة الفونج، وعانوا كثيراً خلال المهديّة . وتوجد شرقى الروصيرص مجموعة زنجية صغيرة تسمى جوموس هاجرت مؤخراً من إقليم الحبشة ، وتتحدث العربية وتتظاهر بالإسلام ، كما دمرت المهديّة ازدهار البرتا وجردت بعض التلال من سكانها . أما تأثير الثقافة العربية فسطحي .

أما الأنقسنا فهم سكان جبال تابى ، ويقوا وثنيتين لأن حكم الفونج لم يطلهم ، وكانت بعض المجموعات مثل سكان جبل ككورعلى اتصال دائم مع العرب البدو الذين لم يكن لهم أى تأثير عليهم ؛ لأنهم لم يكونوا أبداً فى حاجة للحماية ، وأصبحوا الآن تحت التأثير الإسلامى القوى ، ويقال أنهم بدأوا فى تبني الأسماء العربية ، وتم دمج طريقة الدفن ورمضان والأعياد مع النظام الطقسى للكور^(١) . أما أغلبية الإنقسنا فلم تتأثر بالمرّة .

ومازال سكان مجموعة جبال تورنسى وثنيتين ، ولكنهم عانوا بشدة من هجمات الدراويش التى أدت الى تعطيل القوانين القبلية ، كما يعترف البورون (المابان) – المتأخمين للنوير جنوباً – بسيادة مانجل دار فونج ، وهم مزارعون يستخدمون القوس والسهم ويدهنون أنفسهم بدهان أحمر ، وقد انخفض عددهم بشكل ملحوظ بسبب غارات اصطياد الرقيق من الأحباش فى الشرق والبقارة فى الغرب ، وقد مال البعض منهم إلى الإسلام ، ولكن القليل منهم من يتحدث العربية .

كان التأثير العربى محدوداً جداً على هذه المجموعات الزنجية الجنوبية ، كما كانت الغارات تشن أيضاً على رفاة نفسها من قبل الأنقسنا والبورون والدينكا ، وتظهر هذه الشعوب صفات جسمانية وثقافية ذات صلة نسب مع مجموعات النوبا عن كونها ذات صلة بالنيليين . والزراعة هى أساس معيشتهم الاقتصادية ، وهم يربون الخنازير ولهم رؤساء دنيويون وروحيون .

ب- النوبا والتغلغل الإسلامى : تقدم القبائل التى تمثل جبال النوبا مشكلة مختلفة تماماً عن الدينكا مثلاً ، ولايوجد هناك تطور حديث للتأثير الإسلامى على النوبا ، ولكنه يعود إلى الماضى البعيد ، ويجب التأكيد على ذلك إذا ما أردنا فهم المشكلة .

seligman, Pagan Tribes, p.437

(١) ينظر -

سكن النوبا كردفان كلها قبل القرن السادس عشر ، وفي بداية القرن السادس عشر استقرت في كردفان بعض القبائل المسلمة – الأصلية في السودان – رغم ادعائها اليوم النسب العربي (الجديات والبديرية والجوامعة والجليدات والشواهيت)^(١) وتزاوجت مع قبائل النوبا^(٢)، ولم تحدث غارات شاملة خلال عهود النونج (أو الفور)، وذرع النوبا قطعاً كبيرة من الأراضي في السهول المحيطة بجبالهم ، وكان جبل تقلى – الذي بدأ اعتناقه الإسلام مع قدوم البعثة الجعلية – يدار في زمن بروس من دار فور وجبل داير من سنار التي كانت مملكتها مزودة بحامية ضخمة ، وذكر بروس أنه قابل في سنار كجور الوثنيين من كل مجموعات هذه الجبال^(٣).

وتدفق البقارة في اتجاه الشرق منذ ١٥٠ عاماً مضت ، واحتلت كل السهول والقرى ودفعوا بالنوبا إلى داخل الجبال التي شقوا على سفوحها مصاطب ، وقاموا بزراعتها، وأصبحوا ذوي ثقافات جبلية متحجرة ، وتم خلال الاحتلال المصري الهجوم على بعض مجموعات الجبال الشمالية وإخلائها من السكان^(٤). أما الجبال الأخرى (الدنج والكدر والكدر والغلفان) فقد دفعت جزية الرقيق وزودت الجيش بالمجندين ، بينما تركت الجبال الأخرى للبقارة الذين كانت لهم اليد المطلقة للعودة لاصطياد الرقيق.

كما هاجم الدراويش في عهد المهديّة كل الجبال ، وقام البعض (مثل النيمانج الذين كانوا مسلحين بالبنادق التي استولوا عليها من البقارة) بالصمود داخل الكهوف المحصنة بالحجارة . أما الآخرون (الغلفان) فقد تم احتلالهم بالقوة، بينما الآخرون (الميرى) فقد أخذوا غيلة وغدراً ، وتم ترحيل كل سكان الغلفان وديرى وأجزاء من كاديرو إلى أم درمان ، وأعيدوا مسلمين بعد معركة أم درمان، وساعدت الهيمنة السياسية وتجارة الرقيق خلال هذه الفترات بشكل أساسي على انتشار الإسلام . إذ

(١) ينظر MacMichel, Tribes, p.6 وشجرة النسب الخيالية ص ٧١

(٢) ينظر : وما كمايكل (Hish. 34) «دخلت العناصر العربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي من اتجاهين . جاء البدو في المقام الأول من اتجاه الدناقلة ، وسرعان ما حققوا التفوق في السهول الواقعة شمال منطقة كاجا حيث يحتل الجبال الكبيرة في الوقت الحاضر النوبا الذين تتراوح سماتهم ما بين الزنجية والعربية المنحطة والصفات السطحية للدناقلة، وقامت في القرن السادس عشر القوات المتحالفة من الفونج والعرب بعد أن استولت على سوبا وقرى من العنج أو النوبة بتأسيس مملكة سنار ، ثم بدأوا بالضغط في اتجاه الشمال والغرب وفرضوا عند منتصف القرن التالي سلطتهم على وسط كردفان، ومازال سكان تلك المناطق من النوبا على الأرجح».

(٢) بروس مصدر سابق ج ، ص ٣٧٣ – ٣٩١.

(٣) ينظر Pallme Travels in Kordofan pp.306 الذي كان في الأبيض في عام ١٨٣٨-١٨٣٩ م. وقد وصف التوسع في اصطياد الرقيق ، وكان يطلق على المغيرين لاصطياد الرقيق من الجبال «بالهادة»، أما المغيرون من النهر فهم «البحارة».

من جهة بينما اتجهت نحو توحيد المقاومة لدرجة أن شعب مثل النيمانج لم يتأثر بالإسلام والتأثير الأجنبي ، كما أبيدت مجموعات أخرى ، أو تم تشتيتها أو امتصاصها كالتجمعات شبه القبلية ، وقد تبنى الإسلام كل الأرقاء وإذا ما عادوا إلى القبيلة فليس من الضروري التخلي عن إسلامهم الاسمي.

وأدت الأحوال المستقرة في الوقت الحاضر إلى اتساع تعريب وأسلمة النوبا (١) . إذ إن العملية تسير بشكل سلمي الآن لأن مقاومة النوبا أضعفتها عوامل أخرى . وقد أدى استقرار الأمن العام لخروج النوبا من جبالهم للزراعة في السهول ، كما حملت الهجرة بحثاً عن العمل والتجنيد في الجيش أعداداً كبيرة منهم للعيش لسنوات طويلة وسط مناخ إسلامي ، كما تم فتح الطرق أمام جمال العرب أو شاحنات الجعليين التي تحمل البضائع بالإضافة إلى إقامة العديد من الأسواق المنتظمة على طول المنطقة وعرضها ، كما أدى تنوع لغات النوبا لأن تصبح العربية هي اللغة المشتركة ، وارتبطت المنطقة كلها اقتصادياً وإدارياً مع الشمال المسلم ، وأصبح النوبا والعرب يعتمد كل منهم على الآخر. فالنوبا ينتجون والعرب ينقلون ، ولا يمكن تجاهل هذه العوامل القوية.

هذا هو الوضع في الوقت الحاضر ، وهناك عدد من الجبال في منطقة شمال كردفان يسكنها النوبا (٢) وقد تعرب هؤلاء النوبا تماماً فيما عدا الخرافات المعتمدة ، وقد تميزوا تماماً عن نوبا الجنوب ، وكان لهم حتى وقت قريب ناظرهم الخاص ، ولكنهم الآن يتبعون ناظر الكبابيش، وهذه إشارة إلى ما قد يحدث إن أجلاً أو عاجلاً في جبال النوبا.

(١) الاتجاه الرسمي لاعتبار هذه العملية عمليتين هو أمر مضلل ، إنها عملية ثقافية ، فكل منطقة وثنية تتعرب بشكل دائم تصبح متأسلمة بشكل دائم.

(٢) نوبا جبال الحراز وأم برق وأبو حديد وكتل وكاجا . وكتب Broun, Travels in Africa App.11 في عام ١٧٩٩م «إن سكان الحرازة عبدة أوثان نوو بشرة مختلطة يغلب عليهم اللون الأحمر ، وهم لاعرب ولا مسلمين وقد أدخلهم في الإسلام الدناقلة (الركابية) الذين استقروا هناك ، وتعربوا الآن تماماً ويتزوجهم مع الدناقلة - خاصة أولئك الذين في جبل الحرازة - ينحدرون من نوبا جنوب كردفان . (ينظر : D.New bol, SNRm vii, 38) ، وهم مازالوا مسلمين فقط لدى المسؤولين في حكومة السودان فيما يتعلق بالإيمان المعلن والأسماء العربية ، وقد تدهوروا وفقوا الخصائص التي تحبب النوبا الوثنيين إلى أولئك الذين عاشوا بينهم . ويقول ما كما يكل عنهم (Hist,i.34) «يبدو أنهم بعد أجيال قليلة تميزوا عن السكان المستقرين في وسط كردفان» . ويلاحظ البروفيسور سليجمان (Pagan Tribes, p448) أن سكان جبل كاجا رغم قولهم إن الأمطار تأتي من الله ، فإن الاحتفال يتم على شرف واسترضاء لأبي على - الجد العظيم وصانع المطر الذي لم يمت ولكنه اختفى والذي مازالت روحه تحوز المشاركة في الاحتفال . كما أن أبا على شعبان ضخم ، وهو معروف في بعض قري كاجا بهذا الشكل فقط ، ولم يشاهد منذ عهد المهدي ، ويتم إجراء احتفال سنوي في أو أمام كوخ خاص بني بجانب صدع عميق على الجبل المقدس مقر سكنه ، ويتم ذبح شاة ، وتلطيخ الصخور بدمها ويطبخ لحمها على نار يتم إشعالها حديثاً بعصي النار ، ويأكلها أولئك الذين شاركوا في الاحتفال ، والذين تملكهم أبو على ، والذي يصفونه بأنه «ركبهم».

إن مدن (الدانج وكادقلي وتالودي ورشاد) بمستعمراتها غير النوباوية والموظفين الزنوج الحاميين والتجار والعمال الآخرين كلهم مسلمون ، ويشكلون قسماً كبيراً من السكان . إن سكان جبال هذه المدن شبه مسلمين ، أما السهول فتعج بالبقارة المتجولين وبعض النوبا المتعربين المستقرين . أما في سفوح بعض الجبال الجنوبية (الليرى وتالودي) فهناك مجموعات من النوبا شبه القبلية يطلقون على أنفسهم عرباً دون الإدعاء باللقب الذى أخذوه عندما كانوا عبيداً لدى قبائل الحوازمة والكواهلة ، أما جبال الداير وكتم وتقلي وكدرو وتاجوى وداجو وقدير وميرى فكل سكانها مسلمون أو شبه مسلمين ، وقد تغيرت عاداتهم ذات النزعة الإسلامية ، بينما بدأت تضعف القوانين القبلية، ويتنوع بشكل جوهري إسلام هذه المجتمعات ، فمن جهة هناك تقلي التي تأسلت بالكامل ، ومن جهة أخرى فالكدرو مازالت طقوسها الإسلامية في حدها الأدنى وتحتفظ بكل قوانينها القبلية ^(١) . أما الداجو «فمرتدون وفاسقون ويرثون كل الرذائل ، وليست لديهم أى من الفضائل العربية». ويتظاهر بعض الزعماء بالولاء للإسلام بينما بقيت شعوبهم وثنية بالكامل ، ومع ذلك فيجب أن يفهم تماماً أن شعوب مجتمعات النوبا باقية على وثنياتها .

ج- القبائل النيلية الوثنية : تشكل القبائل النيلية الكبرى الدينكا والشك والنوير عنصراً حتمياً في مستقبل السودان ، وهى شعوب رعوية لها كبرياء عرقى ، ولا تتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وجزء كبير من المنطقة التى يسكنونها مستنقعات ، ولا يمكن الوصول إليهم أثناء موسم الأمطار الذى يستمر حوالى ستة أشهر . وقد استطاعوا بهذين العاملين الصمود فى وجه هجمات الدراويش، ورغم أنهم عانوا الكثير ، فلم يتعرضوا للتفسخ والتحلل القبلى ، وحافظوا على نظامهم الاجتماعى سليماً .

وينقسم الدينكا (٧٥٠ ألفاً) إلى عدد من القبائل المنفصلة التى تغطى مساحة واسعة ، ويوجدون على النيل الأبيض شمالاً حتى الرنك وجنوباً حتى بور وملكال، ويحتل فرع كبير منهم حوض بحر العرب حيث أصبحوا على اتصال مع البقارة الرزيقات والهبانية يقيمون مستوطناتهم بالقرب من النهر فى موسم الجفاف ، ويعيشون فى الداخل فى مساكن مكدسة خلال موسم الأمطار. وقد أجبر العديد منهم الانضمام إلى الإسلام أثناء المهديّة ، ولكنهم ارتدوا بعد سقوط المهديّة. ويختلط بقارة سليم مع الدينكا الذين يعتمدون عليهم فى الحصول على الحبوب ، ولكن لانفوذ إسلامى لهم على الدينكا . وقد ذكر سليجمان أن العديد من الريك يختنون، الآن وقد تعلموا هذه العادة

S.F. Nadel, "The Hill Tribes of Kadera" (SNR, xxi 3) ff.

(١)

من العرب في الأعوام القليلة الماضية ^(١). ولا يظهر إلا القليلون جداً ممن سافروا شمالاً كرقيق ، أو خدموا في الجندية أى إشارة على مجاهرتهم بإسلامهم.

ويعيش الشك (٤٠ ألفاً) على طول الحافة الضيقة للأرض كثيفة السكان على الضفة الغربية للنيل من كاكّا حتى بحيرة نو ونهر السوياط ^(٢) ، ولهم ملك هو الزعيم الروحي والزمني لكل الشك ، وينتمى إلى الطبقة الحاكمة التي تعرف بـ «الملوك المقدسون» ، وقاوم الشك الدراويش بضراوة أشد من أى شعب آخر ، وقد انهزموا في النهاية وعانوا كثيراً لدرجة أصبحت معها كل المناطق خالية من سكانها تقريباً ، ولم ينسوا حتى الآن تلك الأيام القاسية ولا التاجر الدنقلاوى الذى جاءهم بمرض الزهري عندما كان يتاجر فى الدعارة.

أما النوير (٤٣٠ ألفاً) فهم مشتتون فى الإقليم الواقع فى السوياط الأعلى ومنطقة بيبور والزراف . وهناك ثلاثة أقسام رئيسية (١) نوير الزراف ، (٢) نوير الريل غربى بحر الجبل ، (٣) نوير الدوك ، وهى قبائل مولعة بالحرب ومستقلة معتدة بنفسها ويقاومون غارات الدينكا . ويوجد شرقى منطقتهم مركز الناصر التجارى حيث مستعمرة المسلمين الشماليين الذين يسمون محلياً «بالعرب» الذين يمارسون بشكل دقيق صلواتهم ، ولهذا الأمر بعض التأثير على النوير ، ولكن الاتجاه الطبيعى لمقاومة التغير وكبريائهم جعل هذا الشعب مجتمعاً مغلقاً بشكل مميز ضد التأثير الخارجى.

إن الأعداد القليلة من القبائل النيلية التى اتجهت شمالاً داخل البيئة المسلمة بحثاً عن العمل ، والتجنيد فى الجيش تم ختانهم وأصبحوا مسلمين أسماء ، ولكنهم عندما عادوا إلى قبائلهم فإن بيئتهم الفعلية والاجتماعية احتوتهم تماماً ، ومع ذلك فإن الرادع القبلى قد لا يعنى الكثير بالنسبة لهم .

وعلى العكس من قبائل نوبا الفونج التى سبقت مناقشتهم فإن الاسلام لم يكن له المميزات الاجتماعية والحماية التى قد تغرى القبائل النيلية بالدخول فى نظامه.

٢- الدعاية الإسلامية وسط الوثنيين

بينما كيف كانت عملية أسلمة القبائل الوثنية نشطه فى المنطقة الواقعة ما بين خط ١٢ حتى خط ١٠ بين القبائل الصغيرة المتحدثة بلغات عدة ، والتى كانت عرضة للتأثير لزمان طويل ، أما القبائل النيلية الكبيرة والقبائل الموجودة جنوباً فلم تتأثر أبداً .

(١) Pagan Tribes, p.172 .

(٢) وقد توسعوا فى زمن براون (١٧٩٨م) على طول النهر شمالاً حتى مدينة الكوة الحالية Africa, pp.452-3 ، وأقصتهم من الدويم قبيلة الجعافرة المصرية خلال حكم الفونج ، كما عانوا الكثير فى عام ١٨٩١م عندما اجتاحت أراضيهم بقارة سليم بقيادة الفكي محمد خير ، وقام السيد صمويل بيكر فى عام ١٨٦٥م بتشكيل معسكر قوامه ألف رجل فى فاشودة لمنع تجارة الرقيق ، واحتل المصريون أرضهم فى عام ١٨٧١م.

إذاً فالإسلام لم يذهب لأبعد من حدود معينة ، ويجب أن نستقصى لماذا لم يضغط جنوباً بسرعة أكبر.

إن السبب الأكثر أهمية هو الكبرياء الطبيعى والاتجاه نحو مقاومة التغير من جانب النيليين ، وطبيعة نظامهم الاجتماعى ، إلى جانب الروادع القبلية التى تقاوم بشدة أى شئ خارجى قد ينهى النظام ، ويتركهم أفراداً بلا عشيرة وضعفاء تحت رحمة المخاطر المجهولة . إنهم آمنون داخل نظامهم ، وحسن هذا النظام هم «العرافون» الذين يملكون فى ذواتهم التقاليد القبلية ، ويقاومون التعديات الأجنبية . إن سياسة الحماية التى تتبعها الحكومة لها تأثير قوى لأنها تمنع الجلاية المتجولين والفقرا والخلوى ، إلى جانب أن سياستها اللغوية هى منع تبنى اللغة العربية لغة رسمية . ومرة أخرى فإن خبرة هذه القبائل مع المسلمين لم تكن سارة ، فتجارة الرقيق وقسوة المصريين والمهدين وتعديات التجار المسلمين لم يتم نسيانه ، وستختفى هذه الذكريات بلا شك مع مرور الزمن ، ولكن سيكون هناك وقت طويل قبل أن تتوقف الأوامر القبلية عن أن تصبح قانوناً يحكم الناس . ويمكن للإسلام أن يتقدم من خلال التفسخ القبلى ، كما تقدم صورة مختلفة تلك المجموعات القبلية الصغيرة القاطنة بين خطى عرض ١٠ و ١٢، والتى تحتل بالدرجة الأولى التلال الداخلية شرق وغرب النيل . لقد بينا كيف يقعون تحت الضغط الإسلامى المتواصل ، ومالم يتحرك أى عامل غير متوقع تماماً مثل بعثة تبشيرية «تامة» تمثل هذه المناطق فلاشئ يمنع من امتصاصهم النهائى داخل حظيرة الإسلام.

دعنا الآن ننظر بإيجاز للعملية . لقد بينا فى الفصل الثالث كيف انتشر الإسلام فى إفريقيا الوثنية ليس عن طريق العرب الحقيقيين ، ولكن عن طريق الشعوب الحامية الإفريقية التى ادعت أولاً ولاعها ، زيادة على ذلك جاء الإسلام إلى الشعوب الزنجية عن طريق أولئك الغزاة الحاميين أو التجار ، ليس كدين ، وإنما كحضارة لشعوب إفريقية أرسنقراطية لاتعرف التفرقة العرقية ، بالاضافة إلى أنها كانت قادرة على التزاوج معهم وأن تحيا حياة اجتماعية مشتركة وتصبح سوداء مثلهم . إن الإسلام الأفريقى يختلف عن الإسلام الآسيوى حيث رُكّب فوق الحضارات القديمة ، وتم امتصاصه داخلها ، وحل الأولياء المسلمون محل الآلهة ، هذا حقيقى فى إفريقيا الشمال فقط . لقد وجد فى السودان - فى دنقلا - حيث تقع أضرحة الأولياء ، وغالباً فوق المقابر النبوية أو المواقع المسيحية ، ولكنها ليست كذلك فى إفريقيا الوثنية . ان الاسلام بالنسبة للوثنيين أتى - ليس كدين - وإنما كنظام مناخ فرض نفسه على الثقافات الإفريقية ، أو بالأحرى كان هناك تحول تدريجى وانصهار ثقافى أنتج وحدة جديدة .

إن الحضارة الجديدة - الاسلام - تم فهمها فهماً جيداً وأصبحت فطرية ، كما أن العامل الدينى كان ثانوياً . إن المطالب الأخلاقية للإسلام ليست شديدة ، ولا تؤثر أبداً فى قبوله ، لأن الإسلام تأسس لآجال قبل أن يعرف الافارقة ما هو الوازع وما هو غير الوازع .

كما يرجع انتشار الاسلام وسط السود بدرجة أقل إلى العامل التبشيري الشخصى للتاجر والفكى الذى بالغ فى تأكيده كُتاب من أمثال ت.و. أرنولد عن كونه اتصالاً ثقافياً وتجارياً للسود مع الإسلام الذى تبنى الحياة الاجتماعية الإفريقية . إن خاصية الإسلام الإفريقى كبيرة لدرجة أن قبوله لا يسبب سوى اضطراب بسيط للإنسان العادى ولحياته الاجتماعية وعاداته ؛ لأن الاسلام يتبنى الملامح المركزية للوثنية عن طريق التوفيق بين المعتقدات الدينية المعارضة ، ويتم الاحتفاظ بالعادات الوثنية بينما تضع روح العادة .

زيادة على ذلك فالإسلام فى تنافس مع البعثات التبشيرية المسيحية التى يديرها الأوربيون . وحتى عندما يكون الحكام مسيحيين ، فما زال الانتشار مستمراً ؛ لأن عروضه أكثر فهماً بالنسبة للقيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية عن المسيحية الغربية التى تسمح فقط لأتباعها بالمساواة الدينية وليست الاجتماعية . وفى المناطق الحدودية فإن القيم الاجتماعية والاقتصادية للارتباط بالاسلام واضحة جداً لأن الدولة مسلمة .

إن الاتصال الثقافى والاقتصادى من أقوى عوامل انتشاره . لقد انتشر الاسلام دائماً على طول خطوط التجارة ، أى حيثما وجد السود أنفسهم على اتصال بالبند والتجار والفقرا . وليست لدى القبائل المستقرة ذات الحاجات ولا نفس العادات ، وهى تقاوم بشدة الأسلحة طالما بقيت المجموعة سليمة ومتماسكة ، ولكن عندما تنهار المؤسسات القبلية - كما حدث فى الماضى عن طريق الغزو أو تجارة الرقيق أو عن طريق التسرب الآن - فإن الهيبة الاجتماعية الأعلى للمسلم الإفريقى - الذى لا يملك سواها لتتشفع له - بدأت فى شد الانتباه .

ويؤثر الإسلام فى مشاعر العديد من زعماء النوبا الذين مطمعهم الأساسى هو الحصول على المركز الاجتماعى الأعلى للمسلم - وهو سبب كاف للدخول فى الاسلام - بالإضافة إلى ذلك إغراء التحالف مع الدين الرسمى ؛ لأن الحاكم الإقليمى يعتبر نفسه شيئاً واحداً مع الموظفين المسلمين كلهم . وهناك كتبه مسلمون عند بعض مكوك جبال النوبا.

وهناك تحالف وثيق بين الإسلام والتجار . إن تحول الامكانيات التجارية تحت النظام الحالى هو الذى فتح الطريق الجديد للتغلغل ، ومن مصلحة التاجر المسلم أن

يدعو ويهدى للدين بشكل أسهل فى الأسواق وفى القرى، من خلال نقاط الاتصال مع المسلمين المنعزلين هناك . إذاً فمن الحتمى أن كل المراكز الجديدة التى تطورت قد تأسست وانتشرت تأثيرها وطوقت الجبال المحيطة ^(١).

ويبقى فى الخلفية العامل الإسلامى الخالص ، ولا يظهر بشكل واضح إلا بعد أن يكون الإسلام قد تأسس منذ زمن طويل . وهناك حقيقة أن الدعاية أقل مباشرة ، ولكنها بطيئة ومستمرة وقائمة على الإيمان ، وليس على القدوة وتقليد الادعاءات الشعائرية . وأينما وجدت مجموعة صغيرة من المسلمين فإنها تقوم بالحصول على زريبة تجهزها كمكان للصلاة ، ويظهر الفكى وهو يدير «خلوة» تحت شجرة فى القرية . وللطرق الصوفية تأثير ضئيل على السود عدا عندما تكون على اتصال دائم ، وهى مؤثرة فقط فى المراكز الدينية حيث تمنح مقراً دينياً للتأهين ^(٢).

ومع ذلك فإن العامل الدينى موجود ، والإسلام الإفريقى يمكنه أن يمارس تأثيراً دينياً قوياً . إن الإيمان القوى بالله الذى تم استيعابه دون تعلمه هو إيمان جذاب وفى المتناول . إنه المفهوم الإفريقى لله بأنه القوة العظمى الذى يمكنه منح قوى سحرية أقوى من قوى الأرواح المحلية التى تحمى الداخل فى الدين عندما تضعف الجزاءات القبلية، كما أن فكرة الحياة الآخرة تجذبهم أيضاً . ويمكن إدراك ذلك ؛ لأن رغبة المهتدى الدنيوية وما يتعلق بالنعيم قد تشبع بالآمال الجديدة فى الإيمان بالجنة ، وهذا هو الذى جعل فكرة المهدي تتغلغل بقوة وسط المسلمين الأفارقة .

وبينما يملك الإسلام قوة يقينية المطلق ليكون إيماناً حقيقياً ، فإنه ليس ثورياً، فهو لم يقهر روح الأرواحى ؛ لأنه كيف نفسه مع الحياة الروحية للأرواحى، وكانت نتيجة الصفة التوفيقية للإسلام هى أنها لم تساعد على التطور الدينى الأعلى للأفارقة .

لقد انتشر الاسلام فقط عن طريقة اختراق النظام العشائرى ، واتجه بصفة عامة نحو خلق مجموعات جديدة صمدت كمجموعات أرسنقراطية مستقلة واستخدم الكبرياء

(١) نجد هنا مثلاً للتغلغل فى منطقة النوبا . إن محمد توتو - أهم مك نشط للمورو - مسلم ويقوم بالصيام بعد رمضان الأمر الذى يفتن شيعه . وهناك أربعة جلايه مفوضون وسط المورو وثلاث وسط الكرنجو وهناك سوقان وأربعة أيام أسبوعياً ، يسمح فيها للجلايه بالذهاب إلى أماكن محددة . إن الطريقة غير المباشرة للدعاية يتم توظيفها عندما يقومون بفرش بروش الصلاة أمام حوالى ٤٠٠ شخص . ويقوم جلابي واحد على الأقل بالدعاية للدخول فى الدين ، ويأتى البقارة لهذه الأسواق ، وقد يستقر البعض منهم . إنهم لا يهدون للدخول فى الدين ، ولكنهم يبيعون الأحجبة ويتجول الفقراء فى التلال ، وهم ممنوعون من ذلك، ولكن من الصعب اكتشافهم وإبعادهم نسبة لأن الزعماء يدعونهم فى الغالب ، ويقومون باخفائهم والمثال على الطريقة المباشرة هى أن المأمور السابق لدامى الذى ذهب إلى الحج عاد متحمساً لنشر دينه ، وقام ببناء مسجد ، وقد اعتاد على جمع النوبا للذكر والصوم ، وأدخل فى الدين الإسلامى بعض الزعماء (ديلامى وكوبري) اللذين قاما بجعل شعبيهما يصومان رمضان ويختنان الأولاد.

(٢) وجد فى الدنج مثلاً الميرغنية والقادرية والإسماعيلية وبعض التيجانية.

العرقي رغم أن مايسمون بالعرب يشبهون تماماً النوبا ، وظلت المجموعات المسلمة مثل نوبا الميري محتفظة ببقائها إلا أن انحلال الجزاءات القبلية لن تضمن في أن تظل كذلك ، وكان دائماً ماتعنى الأسلمة في شرقي السودان الامتصاص التام داخل النظام القبلي العربي . إن المجموعات التي أضعفت التشنت القبلي دائماً مايصحب قبيلة عربية ما إما كأعضاء تابعين أو فعليين .وهكذا فإن معظم القبائل المستقرة في الجزيرة وكردفان ودارفور - ذات الدماء العربية القليلة - يدعون ذلك ، والعملية طبيعية ؛ لأنها تقدم الحماية ، ويمكن رؤيتها في التقدم في جبال النوبا حيث تدعى المسيرية سيادتها على بعض الجبال الشرقية والحوازمة على منطقة كادوقلي^(١).

إن نتيجة هذا التغلغل السلمي هي أن النوبا ومختلف المجموعات شرقي النيل أصبحت الآن أسرع أسلمة من تلك الأيام التي كانت تشن فيها عليهم الغارات ، وعندما ساعدت المقاومة في الحفاظ على تضامن المجموعة ، و لا تظهر عملية التحول أية إشارات على أنها سريعة إلا أنها مؤكدة.

(١) يجب أن نوضح أن العناصر العرقية الإفريقية غالبية في الحوازمة وهم خليط عربي - بديري - نوباي - تكوري . ينظر Mac Michael, Hist..l.280-4.

تأثير التغريب * على السودان

١- أثر الاحتلال البريطاني

نهدف فى هذا الفصل ، لاهتمامنا بالحياة الثقافية للسودانيين - محاولة رؤية بعض التغيرات التى حدثت فى حياتهم بتأثير الحضارة الحديثة ، وصدى الحياة والفكر الإسلامى الذى تم عرضه فى مكان آخر من هذا الكتاب .

فعندما ثبت البريطانيون بقوة حكمهم فى السودان ، كانت هى المرة الأولى فى التاريخ التى تعرف فيه البلاد تنظيماً حكومياً واحداً يعنى برفاهية الشعب ، إذ كان دائماً هدف القوى الأخرى التى حكمتها هو استغلاله كمصدر من مصادر توفير أدوات الرفاهية مثل الرقيق والعاج والذهب ، كما أن الحكم البريطانى أمنه من قلق الانشقاقات الداخلية والعدوان والاستغلال من الخارج ، وبدأت البلاد عن طريق الاتصال بالحضارة الغربية فى التكيف مع الاقتصاد والفكر ومجالات الحياة الاجتماعية الأخرى..

وكانت قوى التغريب فى السودان هى نفسها التى فى البلاد الإسلامية الأخرى ، ويمكننا الآن تمييز الفروق المهمة بالتفصيل بين السودان والدول الأخرى التى نشأت من الاختلاف العرقى والبيئة التى تعمل فيها هذه القوى.

ومنذ أيام الهمجية التى استمرت حتى هذا القرن ، كان هناك تخلف فى التطور مقارنة مع البلاد الإسلامية الأخرى، وفقط بعد معركة أم درمان بدأت المرحلة الانتقالية من فوضى المهدية إلى بدء الحكومة المنظمة حاملة معها تطوير الحياة الاقتصادية المنتظمة ، وتبنى مختلف مفاهيم الحضارة الغربية . وقد حدد نسبة هذا التطور الوضع الجغرافى غير المبشر ، وفقر مصادر البلاد الطبيعية ، كما حدده أيضاً شكل ومدى ومجال التأثير الغربى والدرجة التى تحولت بها الجماهير ، كما كانت صفة الشعب نفسه هى أهم العوامل ؛ لأن التغريب معناه التدريب على الانضباط والمبادرة والاستجابة التى تراوحت ما بين مختلف الأعراق وبين المزارعين والبدو؛ لذا فبعض أقسام السكان (أى الجعليين - الدناقلة) فاقت الأقسام الأخرى (أى مزارعى الجزيرة - كردفان) ؛ لذا فيجب وضع كل هذه العوامل فى الاعتبار.

كان موقف البريطانيين منذ البداية اعتبار السودانين شعباً مستغلاً متخلفاً ، بدلاً من اعتباره شعباً وضيعاً ، وبصفتهم حكامهم فقد فكروا بدءاً فى تأسيس مجرد حكم لتطوير الحياة الاقتصادية ، وحثهم بقدر الإمكان - من خلال مؤسساتهم

القائمة - ، وكان الهدف النظرى «للحكم غير المباشر» كما ترجم فى السودان ليس الحفاظ تماماً على الجماعات فى شكلها القديم- مثل تبنى المؤسسات القبلية القائمة- لتلائم الظروف المتغيرة وانتظام معدل واتجاه التغير ، واتجه الحكم غير المباشر فى التطبيق العملى فى السودان المسلم نحو الوقاية والاندماج ، إذ لم يعد الحكام بعد المهديّة يواجهون بأى انقطاع للمؤسسات الأهلية ، مقارنة مع تلك الموجودة فى المجتمعات الوثنية التى على اتصال مع الاستغراب فى الأجزاء الأخرى من إفريقيا . ومع ذلك فإن الحكم الإقليمى والبلدى والمجالس المركزية بدأت فى تحويل النظام السابق للإدارة الأهلية والحكم غير المباشر لزعماء القبائل إلى حكومة محلية على أسس تقليدية وديمقراطية معطية بذلك للسودانيين العاديين نصيباً فى إدارة شئونهم الخاصة . وقد دعم الحكام الجدد أهم عاملين جلبهما العرب إلى السودان - مفهوم التكافل الإسلامى والنظام القبلى العربى - ، وكان يرقد تحته الإرث الذى بقى منذ ما قبل الإسلام ، ولم يكن للتغريب سوى تأثير ضئيل ، وقد وضعت هذه الأشياء قيداً ثقيلاً على التحول الاجتماعى والثقافى ، وكانت التأثيرات السطحية هى التحول فى البيئة الاقتصادية.

إن المسئول البريطانى المعاصر - لكونه تربى فى بيئة اجتماعية تم التشديد فيها على الجانب المادى للحياة - كانت لديه رؤية مشوهة عن التغير الاجتماعى ، واعتقد وفكر أن نشر الأسلوب المادى الغربى على السودانين معناه تحويلهم إلى مدنيته الغربية ، ولكن بدلاً من هذا الانتشار فإن الحياة الداخلية للسودانيين بقيت صحيحة كما كانت أبداً ، وكان تأثير التغريب على السودانين هو فرض تنمية لا متوازنة . إن إصلاح جوهر سلوكهم الأخلاقى الذى تحجر كان قابلاً للنقل بسهولة ، ومن ثم امتصوه بسرعة إذ فى الجو الثقافى كان دائماً الشكل وليس ذلك الجوهر الذى قبلوه. ^(١) والسودانيون يواجهون بالنظام الدنيوى الذى - منذ قدومه من مصر - كان له منذ البداية مسحة إسلامية ، وقبلوه بشغف عندما شعروا أنه سيكون مفيداً ، وهو الآن لا يعوق الوضع الراهن للدين ولا يضر النظام، والنتيجة هى أن المثقف - فى محاولة لوراثة عالمين متناقضين - لم يحرز سوى تشويش واختلاط عقلى وروحى .

٢- تطور التعليم

مارست المجموعة الصغيرة الصغيرة من الإداريين السياسيين الأوائل حكماً استبدادياً ذاتياً صرفاً ، ولم يفرق السودانيون فى البداية بين الإنجليز والأتراك ، وكان التقدم الإدارى بطيئاً بالضرورة ، ولم يكن هناك سودانيون متعلمين ؛ لذا فقد تم تزويد الإدارة العامة

(١) ظهر هذا بوضوح فى كلمة إبراهيم أحمد إبراهيم عند افتتاح كلية غردون كمعهد للدراسات العليا فى ١٩٤٥/٢/٢٠م عندما قال «إن الثقافة التى ستلبي حاجتنا هى توليفة من الثقافة الشرقية تستمد روحها من (ال) دين الحقيقى والثقافة الغربية التى ستساعدنا فى السير نحو التفكير العلمى والإنجاز العلمى » وقد حذفت أداة التعريف (ال) من الترجمة الإنجليزية.

واحتياجات البلاد ثم تدريبهم ، ومن ثم فقد بدأ الأفندية السودانيون في الظهور . وفي بلاد مثل السودان - لديه الأحوال نفسها التي كانت سائدة في القرن الماضي - لم يكن هناك سوى حافز بسيط لتفكر الحكومة في تنمية البلاد عن طريق طاقات السودانيين ، وكان تطور التعليم لضرورات إدارية بحتة ؛ وذلك لتوفير الموظفين السودانيين ، ومن ثم تخفيض العمالة المستوردة المكلفة . ومن أوائل أعمال اللورد كتشنر ، طلبه الأموال اللازمة لتمويل كلية غردون التي تم افتتاحها في عام ١٩٠٢م

لقد بدأ التعليم بهدف استعماري صرف ، وكان مرماه محدداً منذ البداية كما يلي :

١- خلق طبقة حرفية كافية .

٢- نشر التعليم وسط جماهير الشعب لتمكينه من فهم الآلة الحكومية خاصة فيما يتعلق بعدالة وإنصاف الإدارة الاستعمارية.

٣- خلق طبقة إدارية صغيرة قادرة على ملء العديد من الوظائف الحكومية ، البعض منهم إداريون والبعض الآخر ذوو طبيعة فنية^(١) .

وتزايدت الحاجة إلى الوظائف مع القرار بتطوير الجزيرة ، وماتلاه من الازدهار الاقتصادي لما بعد الحرب ، ومن ثم فإن كل طلبة الكلية استوعبتهم الإدارة أو الخدمات الأخرى ، وأصبح التعليم مترادفاً مع الحصول على الوظيفة الحكومة ، وكانت الإدارة التعليمية في واقع الأمر جزءاً من الخدمة السياسية ، وقد تدرب فيها موظفوها ، ولكن بدءاً من عام ١٩٢٠م لم تعد الحكومة قادرة على توفير العمل لأكثر من نسبة محددة من الأولاد ؛ لذا فقد كان عليها إيجاد توازن بين الإنتاج والاستهلاك.

وقد فكرت السلطات التعليمية - التي وجدت نفسها معاقة بالتأسيس المبكر لكلية غردون - في إيجاد حل لسنوات التعليم التي تؤدي إليها ، وخططت لنظام التعليم الأولي لمجرد تغذية المدارس العليا ، وحتى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨م «كان هناك مبدأً محدد واحد في كل مكان ، ألا وهو تناسق الجهد التعليمي مع تنفيذ البرنامج الاقتصادي المحدد طويل المدى المجسد لسياسة الحكومة الجماعية وملحق بها»^(٢).

وأشار تقرير لجنة ملنر (١٩٢٠م) إلى أن الحكومة لا ترغب في تكرار الخطأ الذي ارتكب في مصر بتقديم نظام يناسب التلاميذ لتأهيلهم فقط لتولي وظائف كتابية وإدارية صغرى ، وخلق قوام لطموحات مفرطة للوظيفة الحكومية ، ومع ذلك لم يتم أية محاولة لتبني نظام صمم بشكل خاص ، لتجنب النظام الذي تمت إدانته ، حتى فرضت الضرورة مثل هذا التبني على الحكومة .

(١) Sir James Cume, "The Educational Experiment in the Anglo-Egyptian Sudan, 1900-33", J.Afr.Soc., 1934 p.364.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٨.

وكانت إحدى نتائج اغتيال السير لى ستاك فى عام ١٩٢٤م ، هى سحب العديد من الموظفين المصريين الذين تم استبدال السودانيين بهم ؛ لذا فإن خريجى كلية غردون والمدارس الوسطى تم امتصاصهم فى الوقت نفسه ، ولكن عند حدوث الأزمة الاقتصادية وتخفيض النفقات عام ١٩٣٠م مع تطور الحكم غير المباشر ، ونتيجة لتزايد خريجى كلية غردون - رغم انخفاض أعداد الخريجين - فقد كان العدد أكبر من الحاجة .

وتم فى عام ١٩٣٢م تشكيل لجنة لدراسة مشكلة التعليم ، وأوصت هذه اللجنة بتوسيع قاعدة التعليم الأولى وتعديل التعليم الثانوى ليلائم الظروف الحالية للبلاد^(١) ، وأدى هذا إلى تحولات كبيرة فى التعليم فى السودان بما فى ذلك إنشاء مؤسسة لتدريب معلمى الأولية فى بخت الرضا بالقرب من الدويم فى عام ١٩٣٤م ، وقد خلق ذلك ارتباطاً وثيقاً بين مصلحة التعليم والسلطات المحلية التى لم تكن راضية عن أهداف التعليم.

وزارت السودان فى عام ١٩٣٧م بعثة ديلاوار التعليمية ، وكتبت تقريراً تأسس عليه تقدم التعليم للفترة ١٩٣٨-١٩٤٦م ، وكانت أهم التوصيات :

- ١- توفير الأموال اللازمة للحاجة المتزايدة للتعليم.
- ٢- التعجيل فى التوسع التعليمى مع التحسين المستمر للتعليم الأولى للبنين.
- ٣- التعجيل فى التوسع فى التعليم الأولى للبنات.
- ٤- تحسين وتوسيع المدارس الوسطى للبنين.
- ٥- تحسين التعليم الثانوى.
- ٦- التسليم بأن الهدف النهائى لسياسة التعليم العالى هو إنشاء جامعة فى الخرطوم^(٢).

وأعاقت الحرب التطور الكامل للبرنامج التعليمى ، ومع ذلك تم تقدم مهم، وكانت المشكلة هى صعوبة توفير معلمين مدربين بشكل جيد ؛ لأن مركز بخت الرضا ركز على النوعية وليست الكمية ، وعلى ذلك فقد تطور المركز من كلية لتدريب معلمين للمدارس الأولية إلى معهد للتعليم لكل المراحل بنفس الأهداف - إصلاح التعليم ؛ لذا فقد كان قريب الصلة بالحياة اليومية للتلميذ ، وتدريب المعلمين بالطرق الحديثة.

(١) Sudan Annual Report, 1933, p.11

(٢) ينظر «مذكرة مدير التعليم حول خطة الحكومة لتطوير التعليم فى السودان الشمالى للسنوات العشر القادمة»، والتى قدمت فى الجلسة الخامسة للمجلس الاستشارى للسودان الشمالى فى إبريل ١٩٤٦م.

وبرزت فى عام ١٩٤٥م إلى الوجود مختلف مدارس التعليم العالى (القانون والآداب والعلوم والهندسة والزراعة والبيطرة) لتشكّل نواة كلية المستقبل الجامعية ، وتم تحويل المدرسة الثانوية التى كانت تعرف باسم «كلية غردون التذكارية» إلى المؤسسة الجديدة ، وارتفع خلال فترة السنوات الثمانى هذه الإنفاق على التعليم من ١٥٠ ألفاً فى عام ١٩٣٨م إلى حوالى ٤٥٠ ألف جنيه فى عام ١٩٤٦م.

لقد أعطت فترة الحرب - مع تنامى الشعور القومى - زخماً إضافياً لحاجات السودانين لتسهيلات تعليمية أكبر : وقام مدير التعليم فى عام ١٩٤٦م بوضع خطة مهمة للتطوير التعليمى لفترة السنوات العشر التالية تلبي هذه الاحتياجات ، ويكتب المدير «إن العزم المعلن للحكومة هو تقدم البلاد على طول الطريق المؤدية إلى الحكم الذاتى بأسرع ما يمكن ، ولهذا الغرض تم وضع خطة لتدريب السودانين بأسرع ما يمكن لملء الوظائف ذات المسئولية فى الخدمة المحلية والمركزية»، وبالتالى فقد تم وضع اهتمام كبير لبرامج التعليم الثانوى والأوسط ، وتدريب المعلمين والمشتغلين بالثقافة والعلوم ، بينما يتم التركيز على إعداد البنين لتدريب مهنى أكبر؛ لتأهيلهم فى الوقت ذاته ليلعبوا دورهم فى الحياة الاجتماعية السودانية .

كما تم اقتراح مؤسسة تدريبية إضافية لمعلمى المدارس الأولية ، واعتمد على أنه حتى نهاية فترة السنوات العشر ، فإن ٥٦٪ من البنين فى المناطق الحضرية و ٢٩٪ فى المناطق الريفية سيجدون تسهيلات للتعليم فى المرحلة الأدنى (مجرد معرفة القراءة والكتابة) والمدارس الأولية . إن أهم ملامح البرنامج هو الاقتراح بمتابعة هؤلاء الأولاد عن طريق تعليم الكبار وتطوير مراكز المجتمع الريفى ، وتكوين مكتب النشر ، وسيوفر هذا الأخير مطبوعات جيدة مبسطة من الأدب العربى ، ويمكن بذلك مساعدتهم حتى لا يعودوا إلى الجهل.

٢- التحول الفكرى والاجتماعى

إن الموقع الجغرافى والطبيعة الصحراوية للسودان عزلته عن أى اتصال ثقافى واقتصادى مباشر مع أوروبا ، وكان هذا معناه أن اتصاله بمصر كان مهماً جداً ، ومن ثم فقد أدى استمرار كل العناصر الثقافية الجديدة إلى تطوير دولة «عربية» ، وسدت مصر بطريقة ما الفجوة ما بين الفقر الفكرى والاجتماعى الذى ورثه السودانى المسلم وبين الحياة الأوروبية .

والسودان بلد أدى الاستغراب فيه بدرجة ما إلى تكوين «بوليتاريا فكرية» (الأفندية)، وبدايات الصراع للمشاركة فى توجيه الدولة . ومن الخطأ إطلاق كلمة «طبقة» على الأفندية . إنهم مجرد «نزعة» ، إذ لا مكان لهم فى المخطط الاجتماعى التقليدى ، إذ هم من كل الطبقات . ولا يوجد حتى الآن أى تغيير فى الحياة الاجتماعية،

ولم ينفصل الأفندى عن أسرته ، ولكن هذه النزعة أو أى تغير فى الاتجاه الفكرى والحياة الاقتصادية سيؤدى إلى التغير الاجتماعى .

والأفندية هم أولئك السودانيون الذين تلقوا التعليم العصرى ، ويرتدون الملابس الغربية ، ويعانون التمزق الثقافى والحياة الدينية . وقد جاؤا بشكل أساسى من قبائل الدناقلة – الجعليين النهرين الذين لديهم مستو عال من الذكاء ، وروح استغلالية أكبر من خلال غياب طبقة العبيد ، وهم أكثر تطوراً نحو الروح الاجتماعية مقارنة مع الروح الفردية للعرب. والأفندية متساوون فى التدريب والوظيفة ، فكلهم تلقوا تعليمهم فى السودان ، إما فى المدرسة الوسطى أو فى المدرسة الثانوية .إن أسلوب ومحتوى التدريب فيما عدا الدين هو الأسلوب والتدريب الغربى ، وتأثيره تأثير ممزق ، فضلاً عن كونه تأثيراً موحداً . لقد عرض عقولهم لدمار دائم ، ولكنه ترك أرواحهم جائعة ، وقد تعلموا كيفية أداء العمل الكتابى أو الفنى ، وليس كيف يعيشون.

إن البيئة الاجتماعية للأفندى تقيده بشكل كلى، وقد تم جره الآن إلى استشراف أوسع مما جعله يدرك أنها تكبله وتتركه عرضة لصراع الولاءات والغايات ، وقد صنف الناظر السابق لكلية غردون (الأولاد الذين هجروا) المدرسة فى ثلاثة نماذج فكرية:

١- أولئك الذين رفضوا الأفكار العصرية وأساليب الحياة وأصبحوا مسلمين متعصبين.

٢- أقلية أصبحت غير مؤمنة سراً ، والتصقت بالنظام الاجتماعى ، ولكن لاتأثير للدين على حياتها.

٣- أغلبية احتفظت بأفكارها العصرية والدينية فى أقسام منفصلة ، مما أدى إلى الشخصية المنفصمة.

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار حقيقة أن للمدرسة تأثيرات تربوية على السودانيين ، أما العوامل الأخرى فهى الصحافة والسينما والإذاعة ، وقبل كل شئ العمل فى مكاتب الحكومة والورش والمزارع والمستشفيات التى توظف مختلف درجات القيم بدءاً من بيئته المعتادة التى تؤثر فيه بشكل طبيعى.

وسنشير إلى كل من تلقى مبادئ القراءة والكتابة بالمتعلم (غير الأمى) ، ولكن هل كلهم كذلك ؟ ، إن كل خريجى المدارس الأولية هم فقط الذين يمكن أن نطلق عليهم شبه متعلمين ، إذ إن هذه هى طبيعة اللغة العربية والتدريب عليها ، وهم لا يستطيعون قراءة الصحف بسهولة ، ولعدم وجود صفوف مدرسية أخرى أو فصول محو الأمية فإن الأغلبية لا يستطيعون القراءة أبداً مرة أخرى ، ولكن يجب أن نستمر . إن أولئك الذين

لا يستطيعون القراءة بذكاء وفهم ، والذين يطلق عليهم « الأمية الوظيفية » ينطبق على معظم خريجي المدارس الوسطى والثانوية الذين توجد بينهم الأمية الاجتماعية والسياسية والدينية . إن الصعوبة في هذه الحالة ليست كبيرة كما هي الحال بالنسبة للغة ، لأن عقلية المسلم وتيار فكره الدخيل جاء من التقليد والمحاكاة من مصر المسلمة .

قلنا إن القاهرة هي مكة الفكر بالنسبة للسوداني ، إنها تصب سبيلاً من الصحف والمجلات والمطبوعات الدينية والعصرية ، ويمكننا أن نلمس في مقاهي أم درمان تصارع التيارات الفكرية وتفسخها والتعديلات التي يسببها تأثير الفكر الغربي على الأفكار الاجتماعية والسياسية . إن كتاب محمد حسين هيكل « حياة محمد » وأعمال طه حسين والمصريين الآخرين تمت قراعتها كلها بشغف ، وابتعد الكثيرون عن إيمانهم التقليدي ، وأصبحوا كقطيع بلا راع .

ولا تتعمق مع ذلك دنيوية الأفندي كثيراً ، إذ يظهر في وقت الأزمات تأثير سنوات تكوينه الأولى التي عاشها في الحوش مشرباً بالخرافة ، فهو ينشد العلاج الطبي العصري ، ولكنه لن يقاوم لفترة طويلة حث الأسرة له على زيارة الفكي ، وسيظهر موقفاً لا أدرياً مع أصدقائه في يوم ، ومدافعاً عن الإسلام في اليوم التالي في حشد من الناس ، وسيستمع في أسبوع لمحاضرة في النادي الثقافي حول وضع المرأة ، والأسبوع الذي يليه سيكون عريساً مزيناً معطوناً « بالدهن » . كما أن لديه غرفه لأصدقائه مفروشة على الطراز الأوربي ، وفي الجانب الآخر تعيش زوجته في القذارة المعتادة . إنه مثقف جبان لا يجروء سوى على نقد الطرق القديمة في محيطه الخاص ، لأنه يخشى لوم من هم أكبر منه سناً . ولخوفه فهو لا يملك أبداً موقفاً عقلياً علمياً تجاه الإسلام كعقيدة أو كنظام اجتماعي ، ولا يكتفئ إيمانه لبرنامج حياته الجديدة ، وهو يتشبث بياس بالنظام كموقف تجاه العالم الغربي الذي يعارضه الإسلام شاعراً بأنها الوسيلة الوحيدة لأمنه . وينشأ عدم استقرار سلوكه الأخلاقي من حقيقة أن تدريبه الديني المبكر لم يعلمه أن لدى الدين كل شيء إزاء أخلاق الحياة اليومية ، وخطأً بالنسبة له - كما بالنسبة لأي ريفي - ماتحرمه الشريعة ، وصحيح كل ما يبعده عن تلك المحرمات .

زيادة على ذلك فالأفندية متساوون في الوظيفة . إن هدف التعليم بالنسبة لهم - وكل طموحهم في الحياة - أن يصبحوا موظفين حكوميين ، سيتقاضون معاشاً في المستقبل . إن التعليم يعنى للأفندي نوعاً من التدريب على التجارة . إنها وسيلة تجعله من بين المحترمين المهابين ؛ لذا فأى ثقافة يحصلون عليها هي مجرد ثقافة ظاهرية وسطحية ، ويكمن هنا الخطر في أن التدريب الغربي الذي تلقاه - منفصلاً عن التعليم الأخلاقي - لا يؤدي إلى استقامة الخلق أو تطور روح المساعدة ، هذا هو السبب في لماذا لا يتعلم المسؤولية ، وأن إشراف الأوربيين ضروري دائماً إذا ما أردنا الإبقاء على المستويات الأوربية . فعقله يعمل كعقل الفلاح ، وبإمكانه التقليد والمحاكاة ، وأداء كل

ما يأمره به رئيسه ، ولكنه عاجز تماماً عن الاتصال بالمعرفة ، ولا يمكنه رؤية الأشياء ككل ، والأكثر خطورة هم أولئك الذين تلقوا تعليماً بسيطاً للحصول على منصب جيد ، ولم تستطع الإدارة أو التجارة استيعابهم كلهم ، وتم لفظ غير الصالحين والأقل ملاءمة ليعيشوا حياة غير مستقرة متطفلة على أسرهم أو على وظائف زهيدة الراتب . ولهؤلاء وجود اجتماعي كئيب ، ونضالهم من أجل العيش في مستوى حياة جيدة بمرتب منخفض لهو أمر محزن ، مما يؤدي إلى السخط وعدم الرضا .

لا شيء يوقف انتشار روح الأفندية ، وتريد الحكومة في الأساس الكتبة ، ولأنها وضعت عملية الإنتاج في حركة فقد وجدت نفسها في مأزق قاسم بابا في قصة «على بابا والأربعين حرامي» الذي عرف العبارة التي يدخل بها الكهف ، ولكنه لم يعرف بقية العبارة التي تخرجه من الكهف . إن الشكوى المرة للأفندي هي أن الحكومة تحاول تقييد التعليم العالي مفتاح الثراء والشرف ، وإذا لم توفره الحكومة فإنهم سيتجهون نحو توفيره لأنفسهم مفترضين أنه إذا كان هناك رجال مدربون فإن الحكومة ستخلق الكراسي المطلوبة للمكتب^(١) .

قد يكون الأفندي مخطئين في مفهومهم عن أهداف ومفاهيم التعليم ، ولكن لا يمكن تجاهلهم ، لأن مستقبل البلاد يعتمد عليهم . إن المستقبل كئيب جداً أمامهم دون إعادة تكييف رוחي عميق ، وهم في حاجة إلى توجيه لدمج الدنيا الجديدة للعلوم والتقنيات مع الأخلاق والدين الذي سيعيد لأرواحهم المشوهة الصفاء ، كما سيرضى كل الناس .

ولا يوجد حتى الآن ردود فعل عميقة تقف في طريق التحول الاجتماعي ، والقليل الموجود - رغم أنه يؤثر على رجل الإدارة - يبدو ظاهرياً . إن «الاستغراب» في دولة إسلامية - بسبب طبيعة النظام الاجتماعي للإسلام - لا تأثير كبير له على الحياة الاجتماعية ، كما هو الحال في المجتمعات الإفريقية الوثنية . وللإسلام مناعة تامة ضد أي مخاطر من نظام المدنية الغربية أساساً ؛ لأن المدنية قدمت للمسلمين مجردة من هذه العوامل الروحية التي تقدم وحدها مشروعيتها ، والتي يعارضها بلا هوادة . ومن جهة أخرى فإن الإسلام نفسه لا يغير شكله الاجتماعي ؛ لأنه لا يسمح بالتطبيق الاجتماعي الحر ، ويمكن القول إنه ليس لديه الأسس ، إذ التزم بتثبيت الأحكام ؛ لذا فإن أي تكيف (انسجام) للأفندي مع المقاييس والمعايير الغربية هو مجرد تكيف ظاهري ، وليس حقيقياً .

لقد بينا أن الأفندي - مثل المسلمين في أي مكان - مازال يحيا حياة ذات شقين . فحياة أسرته منفصلة تماماً عن الحياة التي يعيشها في مكتبه ، ومع أصدقائه في

(١) بدأت المدارس الأهلية الوسطي التي أدارتها هيئة من السودانيين أولاً في أم برمان والأبيض ، كما خطط لمدرسة أخرى بالفاشر ، وإحدى أشهر هذه المدارس أسسها بابكر بدري - وهو رجل عصامي علم نفسه بنفسه - ، وقد بدأت كل هذه المدارس فصولاً ثانوية في عام ١٩٤٢-١٩٤٤م .

المقاهى والنوادي . لقد كان موجوداً دائماً التمييز الاجتماعي الذي ارتكز على السلالة ، ولكن هناك الآن اشارات بسيطة ، وذلك على أساس الوظيفة والثقافة والثروة ، وقد يبدى الأفندي غروراً وتكبراً ، ولكنه مايزال واحداً من الأسرة.

لن نتوقع الكثير من الذي قيل قبل أن نجد أي إحساس حقيقي للقومية في السودان الشمالي ، رغم وجود ثقافة مشتركة وإرث ديني^(١)، كما أن الوطنية بالمفهوم الذي نعرفه غير موجودة ايضاً ، وقد حل محلها ذلك الإحساس الغامض بوحدة المؤمنين ضد العالم الغربي.

ولانتشر الجماهير التي كانت دائماً خاضعة بأي تغير سياسي حقيقي تحت الإدارة المباشرة السابقة على النظام الحالي ، عدا إحساسها بالأمان من المجاعة والجيران المعادين ، ومنذ ذلك الحين أصبح هناك تنازل تدريجي من السلطة عن طريق الإدارات المحلية لقبيلتهم القديمة أو للرؤساء الأبويين ، وقنعت الجماهير بنتيجة القرعة السياسية ، وفي الوقت ذاته قدم النظام الحالي الأفندية الذين - من خلال تدريبهم على أسس التعليم الغربي وعملهم في إدارة واحدة - نمواً إحساساً بالتضامن السوداني، وأصبحوا ملتحمين معاً بالمصالح المشتركة والطموحات التي وجدوها في الصراع مع السياسة التنازلية للحكومة ، مع دعم السلطة التي لايفضلونها . وقد أدى هذا إلى التعبيرات القومية الوليدة عن طريق مؤتمر نادي الخريجين الذي رغم أنه بدأ من عام ١٩٢٤م تم التعبير عنه لأول مرة في بداية الحرب عام ١٩٤٠م ، وقد أدى إلى النقد السلبي لما تفعله ومالا تفعله الحكومة ، ومازال ضعيفاً ؛ لأنه لم يكسب لا ود السودانين حسنى الإطلاع ولا سكان الريف . إنه تعبير عن إيقاظ فردية الانتلجنسيا الذين حجب عقولهم النظام الغربي ، وأثارتهم صحافة القاهرة عن التغيير والحديث المتسم بالتقليد والمحاكاة حول أفكار الحرية التي ليست لهم خلفية للإحساس بها ، وأثارهم لرد الفعل السياسي لمصلحة طبقتهم ، ويدركون في الوقت نفسه أكثر فأكثر مغزى الأحداث السياسية الخارجية - خاصة أي حدث مثل العلاقة بين السودان ومصر، والحرب الإيطالية الحبشية والحرب الحالية وميثاق الأطلنطى - التي قد تكون لها علاقة بمستقبلهم .

الإحساس السياسي في السودان كأي شئ آخر لايمكن فهمه دون أخذ الدين في الاعتبار . لقد انقسم نادي الخريجين - الذي بدأ أساساً كنادٍ للأفندية الذين تلقوا تعليماً في المدرسة الوسطى في عام ١٩٣٢م إلى طائفتين (مهديين وميرغنيين) عند انتخاب الرئيس . وهاتان الطائفتان هما الآن الحزبان الرئيسيان : الأمة والأشقاء . إن

(١) عندما تسأل أي شخص «جنسك إيه» سيجيب : جعلي أو سكوتي أو بشاري أو شايقي ، وليس سودانياً . وقد تبني الأفندية هذا المفهوم الواسع عن المسئولين البريطانيين ، ويستخدمونه الآن للتعبير عن طموحاتهم السياسية.

هذه «الحركة القومية» هي خطوة نحو بلوغ سن الرشد ، وقادتها الحكومة بحكمة نحو القنوات التي تؤدي إلى التقدم ، وتمهد الطريق من خلال الحكومة المحلية والمجالس الإقليمية نحو مستوى أعلى لتقرير المصير.

وكانت نتيجة التحول لدى المزارعين هي أن القرى بدأت تدريجياً ، وخاصة منذ تطور النقل بالسيارات في التعلم والفهم ، ودخلت الإمكانيات الجديدة حياتهم ، وبدأوا في كسب مفهوم أوسع عن العالم ، وأصبح المزارعون على اتصال وثيق بالمراكز الكبيرة ، وأصبح لبعض القرى مدارس أولية ، كما يذهب بعض الأطفال إلى المدرسة أو يعملون في المدن ، ولم تغز بعد المقاهي ووسائل «الإثارة» الأخرى القرى عدا تلك التي على طريق التجارة ، رغم انتشار أنماط المغامرة الغريبة ، ومازال الفكي محترماً ومبجلاً كناظر للمدرسة ووسيطاً روحياً . وهناك أذواق بعينها لم تتغير عن طريق الازدهار الكبير والحصول على وسائل جديدة من وسائل الراحة كالشاي والسكر اللذين أصبحا من ضرورات الحياة ، وصارت بعض العادات القديمة مهجورة مع الحقائق الاقتصادية الجديدة ، ولكن لاتوجد إشارات تقود إلى تطور نظام اجتماعي جديد . وكان للخدمة الطبية الحكومية والمستوصفات والقابلات تأثير كبير على الصحة ، فالبلهارسيا - الوباء الذي تعاني منه مصر - والأمراض الأخرى قد تمت مراجعتها ، كما أن الحكومة مدركة بشكل جيد أهمية الطب الوقائي ؛ لذا فقد أعدت مشاريع لتطويره بعد الحرب . إن الأحوال المخيفة التي يتم فيها تنشئة الأطفال ، والانتشار الكبير للأمراض كالزهرى والملاريا تقل بشكل كبير من طاقة وكفاءة الفرد . إن المشكلة هي أن العلاج الطبي هو مجرد مسكن مالم يتم تغيير البيئة ، كما أن الضعف هو الوضع الذي تعيش فيه الأسرة المسلمة ، ويبدو بلا جدوى مثلاً علاج الأمراض التناسلية طالما المريض يعود بعد أسابيع قليلة بشكل أسوأ عما كان عليه في السابق.

وهناك بعض التقدم تجاه القوانين والأحوال الاجتماعية المناوئة ، ففي السابق لم يكن لأي سوداني مفهوم عن القانون كشئ ذي قيمة متأصلة وبالتالي فهو شئ يجب أن يطيعه الجميع . وهم يعتبرون القوانين قوانين استبدادية فرضها أولئك الذين بيدهم السلطة ، وهم بالتالي سيحاولون التهرب منها بكل الوسائل الممكنة كتقديم رشوة للحاكم ، وتتولى المحاكم الأهلية المسئولة أمام الحكومة المركزية لتحقيق العدالة وحفظ النظام ، وأهميتها المتزايدة لفرض العقوبات الرادعة بدلاً من تطبيق العرف . كل ذلك أدى إلى وجود إحساس جديد بالقانون ، وفي الوقت ذاته يجب التأكيد على أن المجالس القبلية والقروية مازالت تركز في قراراتها بشكل كبير على العادات القديمة، وأن التغيير بالنسبة للفرد مازال مجرد رضا متزايد في إمكانية الحصول على العدالة.

لقد تبدل إيقاع حياة المزارع ، حقيقة «أن لا أحد يستحم في النهر نفسه مرتين»، لذا ولأسباب عملية للاستحمام يبقى النهر نفسه ، ومن ثم فإن «روح» حياة القرية لم

يتغير رغم أن جريان النهر قد يكون أسرع ، وأن أشياء غريبة جديدة ترى طافية . إن التحولات التي جلبها الغرب غير متصلة بجوهر روح مجتمع القرية ، وهذا ليس خطأ الفقر ، فالمزارع في حال أفضل عما كان عليه في السابق، وقد ذهب الخوف من المجاعة ، ربما يعود الخطأ جزئياً لمشكلة تدريس لغة «الكتاب» الذي حتى عندما يعرف الإنسان كيف يقرأه يتركه غريباً عن تبادل الأفكار ، ولكن السبب الرئيسي هو أن كسل القروى حددته البيئة العقلية والجغرافية التي ورثها ، والتي تجعله يتشبث بيأس بالحياة التي يعرفها .

إن أساس المشكلة بالنسبة لأولئك الذين يخططون لمستقبل السودانيين المستقرين هو الاستمرار بكل ذلك في انسجام جوهرى مع حياة أولئك الذين يجب أن يبقوا زراعيين ، ومن ثم شغلهم بشئ جديد وحيوى يؤثر بشكل قوى على حياتهم الداخلية لدرجة تجعلهم متحركين وليسوا جامدين . ويقدر اهتمام الإداريين بحاجة المزارعين فهناك بعد نظر فيما يتعلق بالموارد المالية الريفية التي تم توجيهها نحو القيم الثابتة ، بعكس الموارد المالية الحضرية والمكاسب العاجلة ، وسيأتى التقدم الحقيقى من الحرية - عدم التراخى فى المعنى الأصلى لتعبير e.ducere ، لذا فبرغم أنهم مازالوا مقيدين ببيئتهم الطبيعية فإن حياتهم العقلية والشخصية قد تكون مفعمة بالحيوية والنشاط.

وكان تأثير الحكومة المستقرة على البدو موجهاً نحو الدمج أو الاستقرار ، وكان الكثير من البدو دائماً على استعداد لانتهاز أية فرصة للهروب من عدم الاستقرار والزراعة إما بالانضمام إلى قبائل أكبر أو التحول إلى شبه البدو ؛ لذا فإننا نجد فى السودان بدواً فى مختلف مراحل التحول . إن الأحوال المعيشية للبقارة مثلاً ، قد تعدل عن طريق إدخال زراعة القطن ، رغم أن المكاسب مازالت فى الماشية ، وتسير بسرعة وسط البجة «عملية التوحيد تحت حكم الحكام المحليين ، كما تجذب التجمعات القبلية مثل اللقاءات الرياضية والسباقات فى هذه المناسبات الرغبة الشديدة لتصفية الضغائن والعداوات وحل النزاعات والخلافات عن طريق الاتحاد».

٤- التحول الاقتصادى

السودان فى وضع اقتصادى غير سار ، فامتداد الصحراء وطبيعة التربة والحاجة للرى المناسب لبعض المناطق بعينها وصعوبات المواصلات كل ذلك يمنع أى تنمية واسعة ، ولايوجد أى مجال من مجالات الحياة قد تغير ، كما هو الحال بالنسبة للحياة الاقتصادية . إن تأثير الحكومة الغربية - جالبة معها الأمن والاصلاح الادارى وتسهيلات النقل - أدى إلى التغلغل الاقتصادى بشكل أكثر أو أقل إلى كل قطاعات الفلاح والبدوى، وأصبح للنشاط الاقتصادى تأثير بعيد المدى على حياة الناس.

(١) تقرير الحاكم العام عن السودان ١٩٣٠م.

ويسود السودان ثلاثة نماذج للتنظيم الاقتصادي من خمسة نماذج ذكرها لورد هيلي في African Survey^(١).

١- حيث يوفر الأوروبيون رأس المال والإدارة الفنية والنقل والتسويق ، ويكون الأهالي مسئولين - تحت نوع من الرقابة - عن الإنتاج الزراعي . وقد وجد هذا النموذج في مشروع الجزيرة ، وهو تعاونية ثلاثية بين المزارع والقطاع الخاص والدولة^(٢) . وتؤجر الدولة الأرض ، وتعطي الرقابة على الزراعة والتسويق إلى النقابة ، ويقوم المستأجرون وهم أصحاب الحق الأصليون في الأرض بزراعة وجنى القطن ، ويتلقون نصيباً محدداً ، كما يمنحون قطعاً من الأرض لزراعتها بما يحتاجونه من المحاصيل المعيشية الأخرى.

٢- حيث يتولى «السكان المحليون تمويل الإنتاج الزراعي دون أية استشارة أجنبية ثابتة ، ودون أى أعمال أجنبية مقصورة على تسويق ونقل المنتجات» ، كما في زراعة القطن في جبال النوبا ، ومشاريع الطلبات التعاونية في دنقلا .

٣- اقتصاد الزراعة البدائية السائد في أغلب أجزاء السودان ، وأصبح العديد من المزارعين في مناطق زراعة القطن في الجزيرة والقاش وطوكر مرتبطين بالاقتصاد الأوروبى ، ومن ثم الاعتماد على مصانع تقع خارج نطاق سيطرتهم ، وقد اتخذ المشروع الإجراءات الوقائية ضد مخاطر هبوط الأسعار في منطقة كبيرة كمشروع الجزيرة يعتمد على محصول واحد ، وتم بقدر الإمكان توفير الاستقرار للمزارعين ، بالإضافة إلى التدبير الكامل لزراعة الذرة لتوفير الطعام للبلاد كلها ، ونمت قرى بجاوية جديدة على طول ضفاف قنوات منطقة زراعة القطن في القاش وبركة ، حيث يؤثر ازدهارهم على حياة القبائل البدوية.

وقد شهد السودان تحت الحكم الحالى تحولاً بسيطاً في السكان مقارنة مع ماكان عليه في عهد المهديّة ، وهناك زيادة كبيرة في توظيف العمالة الموسمية ، كما هاجر شرقاً الغرابة (الدارفوريين والفلاتة) والنوبا للعمل في الجزيرة ، وقد نجحت قليلاً المحاولات التى بذلت لتحسين الوسائل البدائية في الزراعة المتعلقة بالمحاصيل المعيشية، حتى وإن كان المزارعون يعملون في الوقت نفسه في محاصيل مثل القطن تحت ظروف جديدة ، وتلاشت الصناعات الوطنية ، ولكن التأثير الغربى لايلام على ذلك ، إذ إنها تلاشت قبل إعادة الفتح . فالدمورية مثلاً انخفض إنتاجها بسبب استيراد الأقمشة الرخيصة ، ومع ذلك فقد أدت الحرب لأن تشجع الحكومة إحياء الغزل

ينظر . African Survey p.i. 360.

(١)

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥٢-١٠٥٥.

والنسيج كماتركزت الثورة الاقتصادية فى المناطق الريفية حول الأسواق ، ففى السابق، وبسبب مخاطر السفر كان رجال القبائل مقيدين بحدود قبائلهم ، أما الآن فإن مد السكك الحديدية والطرق وتطور النقل بالسيارات والسفر الآمن نمت الأسواق الريفية وربطها بشكل أوثق مع المدن ، وزالت الأسواق الكبيرة السابقة ، وتطورت أسواق جديدة أخرى لموقعها على طول الطرق المؤدية إلى أسواق المدن ، واستقلت السودان تجارياً عن مصر وذلك بمد السكك الحديدية إلى بور سودان وتمركزت التجارة فى الخرطوم وأم درمان وبور سودان، وكانت النتيجة تلاشى مراكز الأسواق القديمة (بربر والدامر وشندى والمتمة) ، وتطورت مراكز جديدة (أم درمان وعطبره ووادى حلفا وكريمة ووادمنى).

وبينما تعتمد الأغلبية السكانية على الأرض فإن نمو الاقتصاد المتركز فى المدن جذب الكثيرين للاعتماد على الاقتصاد غير المرتكز على الأرض ، كما أن إيقاع الحياة فى المدن سريع وأكثر إمتاعاً ، كما يمكن شراء وسائل اللهو والهيبة الاجتماعية ؛ لذا فالخوافز الاقتصادية الجديدة – المبنية على الرغبات الجديدة – استحوذت على العديد من فلاحى الطريق لإشباعها .

هناك شئ واحد يجب التأكيد عليه وهو أنه بينما يقع مركز الجاذبية الاقتصادية بالنسبة للكثيرين خارج المنطقة التى ولدوا فيها ، فإنه لم يؤد لأن يحاول الأفراد تحرير أنفسهم من الروابط العائلية ، فمازالت الأسرة تمسك كما السابق بقوة ، ويتم رعاية أولئك المعدمين من أفراد الأسرة .

ومن الطبيعى أن يكون هناك تفاوت كبير بين الأحوال الاقتصادية لسكان الريف والحضر ، ومع ذلك فهناك القليل من ملاك الأرض الأثرياء (عدا الزعماء الدينيين) كما فى مصر يعيشون مباشرة على عمل المزارعين ، زيادة على ذلك فإن المجموعات التى تبيع منتجات الفلاحين (عدا القطن) إلى الأسواق الخارجية ، وتستورد السلع المصنعة هم الأجانب ، يونانيون وسوريون وأرمن . إن تفاوت الثروة وسط السودانين أنفسهم هو أساساً بين المنتج الزراعى والأفندى الذى لا يمكن القول بعد أنه أصبح عضواً فى الطبقة الجديدة ؛ لأن ارتباطه بقريته لم ينفصم ، وقد نجده هناك خلال الإجازة يعيش حياة الفلاحين ، ويمكن القول عموماً إن المنتج السودانى قد منح فرصة عادلة التدريب والإشراف وتسويق إنتاجه ؛ لذا فإن مستقبله الاقتصادى من خلال حدوده الضيقة التى فرضتها البيئة محمية ومصانة .

هـ - المرأة والتحول الاجتماعي

بينما أنه بينما تحكم العادة الحياة الاجتماعية ، فإن الشريعة هي التي تحكم العلاقات الأسرية ؛ لذا فإمكانيات تطور المرأة في بيئة كئيبة السودان محدودة جداً ، ومن الواضح إن تدريب الفتيات أمر حيوي بسبب ما يمكن أن يقمن به لسعادة المنزل والمجتمع . إن تدريب أم المستقبل مهم بشكل خاص في بلد يركز نظامه الاجتماعي على أنانية الرجال ، حيث لا مكان للمرأة في تأسيس وبناء النظام ، وارتباطها مع الماضي مبني على العادة والخرافة.

وللإرساليات الريادة في تعليم المرأة ، وتلتها الحكومة التي قامت بافتتاح كلية لتدريب المعلمات في أم درمان عام ١٩٢١م ، وفي عام ١٩٢٣م كان هناك ٢٢ مدرسة ابتدائية بها ٢٢٠٢ تلميذة وفي عام ١٩٢٨م أصبح هناك ٣٥ مدرسة تضم ٣٤١١ تلميذة ، وكانت الطالبات يتعلمن القراءة والكتابة والحساب وقراءة القرآن ، أما بقية الدراسة فقد صممت لتكون ذات فائدة للحياة المنزلية كالعادات الصحية ورعاية الأمومة وأشغال الإبرة والطبخ . وتم افتتاح مدرسة وسطى للبنات في أم درمان عام ١٩٢٩م . وقد أكدت بعثة ديلاوار في عام ١٩٢٨م على الحاجة للتوسع في تعليم البنات ، ومد فترة الدراسة وتوفير وسائل أكثر لتدريب المعلمات ، وكان التقدم بطيئاً جداً ، وكانت معظم هذه المدارس في المدن ؛ لذا فلم تمس سوى نسبة ضئيلة من النساء ، وقام العديد من أولياء الأمور بإخراج بناتهم من المدارس في سن الحادية عشر أو الثانية عشر ليسجن خلف أسوار الحوش حتى الزواج ، وقد اختلفت سريعاً الآراء المعارضة لتعليم المرأة - ذلك الأمر الذي تغلبت عليه الإرساليات في عملها الريادي - لدرجة أن القبائل البدوية طالبت بالمعلمات للفتيات . ويقول تقرير الحاكم العام لعام ١٩٣٠م:

في الاجتماع الأخير لقبيلة الأمراء دافع الناظر بشدة عن تعليم المرأة ، وكانت أسبابه لدعم تعليم المرأة شيقاً إذ قال أليست الفتيات هن اللاتي ينهضن بعبء معظم المشاجرات والمعارك، وكيف يستطيع الزوج الغائب الاتصال بمن تشاركه أسراره في المنازل إذا لم تعرف فتياتنا كيف يقرآن ويكتبن^(١).

وكان العلاج الطبي يلقي معارضة الحبوبيات والفقرا ، وحتى اليوم يتم في المدن إحضار المريضات إلى المستشفيات بعد أن تفشل معالجة الفكي . وتم في عام ١٩٢١م افتتاح مدرسة تدريب الدايات في أم درمان ، وتوجد اليوم دايات مؤهلات في المناطق الريفية النائية . إن التأثير العام للمدرسة والأعمال الطبية في المدن أدى لأن يصبح العديد من الأطفال أنظف وأفضل رعاية ؛ لأن النساء تعلمن حكمة زيارة المستوصفات ومراكز الرعاية والمستشفيات . إن تدريب فتاة القرية من الأمور المهمة جداً ، ولا توجد حركة نسائية كما هو الحال في مصر ودول الشرق الأدنى الأخرى .

Report on the Sudan , 1930, pp.12.13.

(١)

ولم تتأثر جذور الحياة بالمرّة ، ولا يوجد تنوير فيما يتعلق بقيود العادة والخرافة ، وحتى المتعلمون من الرجال لا يظهرون أى إشارات لإدراك وضع واحتياجات المرأة ، وفيما يتعلق بالبحث عن المتعلمة لاتخاذها زوجة تتجاذب الأفندي طريقان ، وليس أمامه من خيار فيما يتعلق بالزوجة ، فهو يخشى أن تطالبه الزوجة المتعلمة بحياة جديدة ، وأن تصبح متحررة أكثر مما ينبغي ، وفي الوقت ذاته يحب الزوجة التي يمكنها التحدث في أشياء غير أحاديث القيل والقال ، والملاطفة المتبادلة والمشادة بشأن حلية جديدة ، كما تعاني الزوجة المتعلمة السجن ذاته مثل الأخريات ، وعموماً فكل ما ينشده الأفندي هو زوجة ألعوبة وأماً تلد له الأطفال .

٦- الصحافة

الصحافة مهمة جداً في الحياة العصرية للدولة المسلمة ولا يمكن تجاهلها في هذا المسح ، لأنها برهان آخر لتضامن النظام الإسلامى . إن الفكر السائد في الافتتاحيات هو الفكر الإسلامى ، وهذا أمر طبيعى لأن الصحفيتين اليومييتين (النيل وصوت السودان) يملكهما زعيما الطائفتين الدينيتين (المهدية والميرغنية) ، وتعكس توجهاتهما، ولكن في الواقع بسبب وجود الشئ نفسه في الدول الإسلامية الأخرى بالإضافة الى الدينين ، فإن الانحياز الإسلامى مرجعه هيمنة الإسلام على كل مناحى الحياة ، ومع ذلك فقد أدت هذه الملكية الدينية لأن تصبح هذه الصحف أقل حرية عما هي عليه في الدول الإسلامية الأخرى . وقد جلبت الصحافة في الوقت ذاته طوفاناً من الأفكار الجديدة التي لاوجود لها في النظام التقليدى ، وبرغم ذلك فقد تمت مثلاً مناقشة وضع المرأة بكل حرص.

وكانت للصحافة مكانة بارزة في السودان عما هي عليه في البلاد الإسلامية الأخرى ، ولم تزد نسبة من يعرفون القراءة والكتابة عن ٢٪، وأقل من هذه النسبة ينفقون يومياً قرشاً واحداً لشراء الصحف^(١) . كما أن هناك قراءة للصحف بصوت عال في المقاهى^(٢) ، ومن ناحية أخرى فإن الصحافة هي مؤشر لتيارات الأفكار التي يتم تداولها في المقاهى والنوادي ، برغم أن صحافة السودان تعتمد بشكل كبير على مصر فيما يتعلق بالأخبار واتجاهات الرأي.

(١) أرقام التوزيع اليومية هي : النيل ١٢٠٠ نسخة وصوت السودان ٨٠٠ نسخة (١٩٤٢م) ، والأرقام الحكومية لمن يعرفون القراءة والكتابة هي ٢.٢٪ عام ١٩٣٧م و ٤٪ عام ١٩٤٢م.

(٢) كان لتطور الحرب الحالية وإذاعة الأنباء بالإذاعة تأثير أكبر.

فهرس أسماء الأعلام والأماكن والبلدان والقبائل

أ

أبو دليق	أبا ، الجزيرة
أبو زيد	إبراهيم باشا
أبو سرور الفضلى	إبراهيم ، سلطان دارفور
أبو شريعة	إبراهيم بن آدم
أبو صالح	إبراهيم البولاد
	إبراهيم الدسوقي
أبو عبد الله بن سليمان (انظر الجزولى)	إبراهيم الرشيد
أبو العباس المرسى	إبراهيم ولد أم رابعة
أبو الفضل علامى	الإبراهيمية
أبو القاسم احمد هاشم	إبريم (بريمس)
أبو القاسم القشبرى	ابن ابى زيد القيروانى
أبو كر اسماعيل	ابن بطوطه
أبو المكارم هبة الله	ابن تومرت
أبو نصر السراج	ابن جنبلان
أبو اليزيد البسطامى	ابن خلدون
أبى عمر	
أبيون	ابن سعد
أتىكا	
اثنا تيوس	ابن سعيد
أثيوبيا	ابن سليم الأسوانى
الاحامدة	
أحمد الازهرى	ابن مسعود
أحمد البدوى	ابن سيرين
	ابن طولون
أحمد بوكر	ابن عبد الحكم
أحمد بن خوجلى	ابن العربى
أحمد بن ادريس الفاسى	ابن الفارض
	ابن سره
أحمد بن المختار التيجانى	ابو بكر
أحمد الرفاعى	ابو جريد
الاحمدية	ابو الحسن الشاذلى
أحمد الطيب بن البشير	
أحمد المقر	أبو حمد ١٢
أحمد الهجونى الغفرونى	أبو حنيفة

أوديسيوس
أورليان
أورفيوس
أولاد حامد (قبيلة)

إيزيس ، معبد
(ب)

بادراب
بادي بن رباط
بادي الثاني ابو دقن
بادي الرابع
بادي (قبيلة)

باجرمي
بالم ، ل.
بالمر ، السير ، ر
بان النقا
البجه ١٢ ، ٤ ، ١٥ ،

بخاري
بدج ، والس
بدوي بن ابو دليق
بدوي الشيخ
البدوية
بديات (قبيلة)

بديرية (قبيلة)

بروان ، و.ج
برتا (قبيلة)
برنى (قبيلة)

بربر
برزاني
برقد (قبيلة)

أحمد المهدي
أحمد ود الطريفي
أحمس الاول
الأخضري
آدم محمد البرقاوي
إدريس بن الأرباب

الإدرسية
إدريس المجذوب
الإدريسى
ارتيقة (قبيلة)
ارجاميد

أركل ، ا.ج
أرنولد ، السير ن.ج
أريوس
الزاندی

إسماعيل باشا
إسماعيل بن عبد القادر
إسماعيل بن عبد الله
إسماعيل المكي الدقلاشى
الاسماعيلية

اشور بانيبال
الاصطخرى ، ابو اسحق
العشماوى
اللعر ، الشيخ
الفا هاشم

الفاريز
أكسوم
أم درمان

الأمراء
أمون أمون تاريت
أندوكا
أنقسنا (قبيلة)

الأيوبيون

برقو	بنى سليم
برهامية	بنى عامر (قبيلة)
برسكس	
بروس ، جيمس	
بريمس (أنظر ابريم)	بنى هلال
بريكوبيوس قيسارية	بوركهارت
البشاريين (قبيلة)	برنو (قبيلة)
	البوصيرى
	البويهيون
	بيبرس، ركن الدين
	بيبتون ا.س
	البيضاوى
	بيقو (قبيلة)
	بيكر، السير صمويل
	بيكر ، س.هـ
	اليومية
	(ت)
	تاج الدين البهارى
	تانوت امانى
	تبو (قبيلة)
	ترر امانى
	تشاد ، بحيرة
	تشرشل ، ونستون
	تعاشه
	تقازة (عطبره)
	تقلى
	تكرودى
	التلمسانى
	تلميس
	تمبكتو
	تميم الدارى
	تورنسى
	التونسى
	التيجانية
بطلمية	
بطليموس	
بطن الحجر	
بطن المناصير	
بعنخى	
البقارة (قبيلة) ٨١.٨،	
بقط	
البكرى ، الشيخ	
بكرى بن عبد الله	
بكرى الشيخ	
بكرى ود ادريس	
البلاذرى	
بلانه	
بلال الشيب بن الطالب	
بلو (قبيلة ارتيرية)	
بلوتو	
البليميون	
بنيامين	
بنو جعفر	
بنو كنز	
بنو هلبه (قبيلة)	

جموعيه (قبيلة)	تيجرى
جنزير ، الشيخ	تيراب
الجنيد	
الجنيدية	(ث)
جهينة	ثيودورا
جورج ، ملك مقرة	ثيودور ، اسقف طيبة
جوش	ثيودور ، بطريك بنوقسيته الاسكندرية
جولد تسهر	
جوليان	ثيودوزيوس الأول ، الأكبر
جوليانوس	ثيودوزيوس الثانى.
	(جـ)
جون ابوت البكلارمى	جابر الانصارى
الجيلانى (انظر عبد القادر الجيلانى)	جبل البركل
(ح)	جبل سقادى
الحباب الحارث بن اسد المحاسبى	جبل قولى
الأحباش	جبل ماسا
الحبشة	جبل مرة ١١
	جبل موييا
حبيب الله العجمى	جبل ميدوب
الحجاز	جديات (قبيلة)
	الجرمنت
حجازى بن ابى زيد	جريجورى الاكبر ، البابا
الحاكم بأمر الله الفاطمى	جريفث ، ف
الحدارية	الجزرى
الحرازة	الجزولية
حرحور	الجزيرة
الحسانية حسن بن محمد عثمان الميرغنى	جستنيان الاول
حسن ود حسونه	جستنيان الثانى
الحفناوية	جعافرة
الحلاج	جعز
الحلاوين	جعفر الميرغنى
الحنقة	جلال الدين الرومى
حمد ابو دنانة	الجعليين
حمد بن الشيخ ادريس	جماعة ابو جريد
حمد بن محمد المجنوب	جمع (قبيلة)
	جميعاب (قبيلة)

دفع الله العركي بن أبو ادريس
دقلال
دليل بحر
الديناقلة ١٤. ١٦

دقلديان
الدواليب
دونى ، شارلز
دوديكا شيون
ديرابي
ديلاتور
ديلاوار
دينكا ١١

(ذ)

ذو النون المصرى

(ر)

رابعة العدوية
الرباطاب
ربيعة
الرحمانية
الرحراح
الرشايدة
الرشيدية
رفاعة
الرفاعية
الرزىقات
رؤوف باشا
الرومان
رن ، ل
ريزنر ، ج.ل

(ز)

زالنجى
الزبالعه
الزاندى ١١
الزبير باشا
الزغاوة

حمد النحلان
حمد ود الترابى
حمد وراب
حمر
الحنفى ، المذهب
حنك

حنين بن اسحق
الحوازمة

(خ)

خاسه
الختمية
الخرازى
الخضر ، النبى
خليل بن اسحاق
الخلوتية
الخمه

خوجلى بن عبد الرحمن
خوالده

(د)

داجو
دار حامد
دار رونجا
دار فرتيت
دارفور ١١

دار فونج

دار محارب
دار مسيرية
داو
داوود

داود بن عبد الجليل
الدرقاوية
الدسوقية
دشين ، القاضى
دفع الله القرقان

الشايقية	الزنافج
شاو دورشيد	زكريا
شباكا	الزنج
شرتاي	زنكوفسكى
شرف الدين ود برى	زهلار
الشرقاوية	الزين بن صغيرون
شقيقير ، نعوم	(س)
الشرعية	سامورى
الشكرية	ساندر ، ج. ا. ر. ،
شكندة	ستاك ، السير لى
شلك ١١ ،	سترابو
شمامون	سكوت ١٤
شمس الدولة توران شاه	سلاطين
شنخاب	سلكو
شهاب الدين السهروردى	سلمان الطوالى
الشواهيت	سليجمان ، س. ج. ١٤ .
شيشنق	سليمان سولونج
(ص)	سليم الاول
صادقاب	سليم (قبيلة)
صالح بن بان النقا	السعدية
صلاح الدين ، السلطان	سعيد باشا
(ض)	السمانية
ضياء الدين السير وردى	سنار
(ع)	سنو
عايداب	سنوسرت الثالث
عائشة بنت ابو دليق	السنوسية
عالياب	السهروردية
العبادة	سوبيا
العباسية ، الدولة	(ش)
عبد لاب	الشاذلية
عبد الله بن دفع الله العركى	الشاطبى
عبد الله بن سعد	الشافعى
عبد الله بن سليم الأسوانى (انتظر ابن سليم)	الشانثيراب
	الشايب

العزمية
علوة

علوية الميرغنى
على بن ابى طالب
على بن يعقوب بن المرشدى
على الجويرى
على دينار بن زكريا
على اللبدي
على مبارك
على الميرغنى
على النيل
على ود حلو
على ود عشيب
على ود موج
عمارة دنقس
العمراب
عمر بن الخطاب
عمر جنبو
عمر الحاج
عمر الخلوتى
عمرو بن العاص
العمري، ابن فضل الله
عقبة بن نافع
العلاقى عووضه بن عمر
عيزانا
عيسى ، النبى
(غ)
الغرابية (انظر فلاته)
غردون ، الجنرال
غز
الغزالي
غلام الله بن عابد
(ف)
الفاطمية ، الدولة
فاليران

عبد الله بن سنيو
عبد الله بن على الحلنقى
عبد الله التعايشى ١٠،

عبد الله الحمال
عبد الله الشرقاوى
عبد الله الميرغنى
عبد الرازق ابوقرون
عبد الرازق ود عويضة
عبد الرحمن بن اسيد
عبد الرحمن بن جابر
عبد الرحمن الرشيد
عبد الرحمن بن المهدي

عبد القادر الاول
عبد القادر بن ادريس
عبد القادر الجيلانى

عبد الكريم الجامع
عبد الماجد بن عمر
عبد المتعال احمد بن ادريس
عبد المجيد بن محمد
عبد المحمود بن نور الدايم
عتباى ام ناجى
عثمان دقنه
عجيب المانجك او الكافوتى
عدلان الثانى
العرب

العركيين

القلقشندی	فان جنب
القواسمه	فديجة ١٦،
قيرقي بن زكريا	فرتيت
(ك)	فرح ود تكتوك
كاتسينا	فريمنتوس
كاسو ، مروى	الفرس
كاشتا	فزازه
الكاملاب	فزان
كانم	فلاته ١٤،
كانو	فلاته مللى
كانورى	الفلانى
الكبابيش	فولى
كتشنر ، اللورد	فونج
كرمبس	
كزموس	
كرمة	
كروفوت	الفور
كرومر ، اللورد	
كزماس إنركوبليستس	فيله
كزمس	(ق)
الكشاف	القادرية
الكعبة	قبطى
كلواجى	القرشى ، الشيخ
كلمنت	القشيري
الكميت	القرآن
كميلاب	القرطبي
كنانة	قرعان
كنجارة	قرى
كنز الدولة	
الكنوز ١٥،	قريب الله
كنون	قسطنطين الأكبر
الكواهلة	القسطنطينية
كوار بن سرور	القصر
كورسكو	قطر مير
كوش (كاش)	القفرونية
كوكر (جبال تابى)	قلاوون السلطان
كيت ، السير آرثر	قليديرون

كيرا
كيروان ، ل.ب

(ل)

لامبن ، ج.د
لامبن ، ١
لتمان ، ١
الليبيون
لين ، او
لونجينوس

(م)

مابان
ماسبيرو ، ج
ماسينيون
ماكدونالد ، وب
ماكمايكل ، ه.ا

مالك ابن انس
المالكي ، المذهب
مالي
المأمون ، الخليفة
ماي احمد
ماي يرنو
ماير ، أ
ماينهوف
المتوكل ، الخليفة
المتوكية ١٦
المجاذيب (انظر المجذوبية)
المجذوبية

محمد ، النبي
محمد أبو لكيلك
محمد أحمد بن عبد الله المهدي

محمد أحمد بن عبد الله بن مرت

محمد بحر الدين
محمد بدر
محمد بن داود الأغر
محمد بن سالم الحنفي
محمد سر الختم
محمد شريف ، خليفة المهدي
محمد شريف بن نور الدايم
محمد بن الريده
محمد بن عبد الصادق
محمد بن عبد الكريم السمانى
محمد بن عدلان
محمد بن على بن احمد ادريس
محمد بن على السنوسى
محمد بن المختار
محمد بن مسعود بن عبد الرحمن
محمد البدوى
محمد التوم
محمد التويم
محمد السن السمانى
محمد خير
محمد بك الدفتردار
محمد بن قدم
محمد زاهر المدنى
محمد عثمان ابو قرجة
محمد عثمان الميرغنى
محمد على باشا
محمد قبلى
محمد ماضى ابو العزايم
محمد المجذوب الصغير
محمد المهدي السنوسى
محمد النصرى الشاذلى
محمد النقشبندى
محمد الهميم
محمد ود عيسى سوار الذهب
المحس ١٤ ، ١٦ ،

المنوفستية

المهدى المنتظر
موراي ، حـد

موسى بن ابراهيم
موسى بن يعقوب
المولاوية
الميدوب
الميرغنية، الطريقة

ميشيل السورى
ميما

(ن)

نباتا (نبته)
الناصر محمد بن قلاوون
نبتاب
نتريا (دير وادى النطرون)
نرسييس
النقشبندية ، الطريقة
نكلسون .. ر.ا
النوبا ١١

النوبه ، النوبيون ١٣ . ١٤ . ١٥ . ١٦

النوير
نيرون
نيمانج

(هـ)

هامبورجر
الهاب
الهانية
هجا بن عبد المطلب
هجو عبد القادر المسى
الهندوة ١٤ ،

محمود أبو شيبه
محمود العركى
محمود المصرى
مدنى الناطق
المرابطين
مرجليوت ، د.س
مريس . ١٦ ،
مريم الميرغنية
مروى
المروية، اللغة
المساليث
المسبعات
المسعودى
المسلمى الصغير
المسلمية
المسيرية
مصر ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ،

مصطفى بن كمال الدين البكرى
مصوع
المضوى
المعاليا
المعز لدين الله الفاطمى
معروف الكرخى
المعهد العلمى

مقرة

المقريزى

مكسيمنس ، الجنرال
الملكانية
مليكاب
الممالك

هرقل
هشام بن عبد الملك
هكس، الجنرال
الهكسوس
هالسون
الهمج
الحواره
الهوسا
هيروودوت

(و)

ود أم مريوم
ودان
وداي
ود ضيف الله

ود عجيب
ورش
وستنفيلد
وسترمان ، د
ونجت ، السيرريجنالد هـ ١٣ ،
ونسك ، ا.ج
الوهابية

(ى)

ياقوت
اليقوياب
اليقوبي
يوحنا افسس
يوسف ابو شريعة
يوسف الهندي
يوسيبوس قيسارية
يوليا نوس هلكار نسوس
يوليا نوس ، امليا نوس
اليمنيين

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو يانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريستكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الانطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأرنؤى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن الموين
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوذة وألف خوذة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - منكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو يانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصّة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / محمود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت - نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد براءة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر - ن . نوقاليس وستيقن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرdash
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجنون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحيرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الفنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أولئ القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ - السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ - نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية	أنثريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ - العولة: النظرية الاجتماعية والثقافة للكيفية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ - شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم القمري
٨١ - الجماعات المتخيلة	بنديكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ - مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ - مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاي	ت : عبد الرزاق بركات
٨٦ - طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ - نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ - الابتلاء بالتقرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ - الطريق الثالث	أنقونى جينز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ - وسم السيف (قصص)	نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح	كارلوس ميغل	ت : نادية جمال الدين
الإسبانيون أمريكي المعاصر	مايك فينرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٣ - محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٤ - الحب الأول والصحبة	أنطونيو بويرو بايخو	ت : مري محمد محمد عبد اللطيف
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٦ - ثلاث زبقات ووردة	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	ديفيد رويغسون	ت : إبراهيم قنديل
٩٩ - تاريخ السينما العالمية	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠٠ - مساعاة العولة	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج)	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٢ - السياسة والتسامح	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء	يرتوات بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٤ - أويرا ماهوجنى	جيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعور
١٠٦ - الأدب الأندلسى	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
١٠٧ - صورة الفنان فى الشعر الأمريكى للعاصر		

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماركليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات كونيوس وسكان المستقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سميرة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتلة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظم العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - إمبراطورية العشائرية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنابولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ - فعل القراءة	فولفغانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعي
١٢٨ - الأنثى المقارن	سوزان باسنيث	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الأسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أنثريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الصلة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيغلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريسيفال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التطوير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليس	ت : علي عبد الرؤوف البعبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فانتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوبيت فيرمو	ت : مى التلمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز يقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الشعب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصانفة
١٦٦ - العلاقات بين المذنبين والطحانين في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاعور	رايتترات طاعور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أنبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميفيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرائك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصه إبراهيم منيف
١٧٨ - مضاربات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تقام	هانز ايندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات فيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُرَّجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الألب	اللين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دي مان	ت : سعيد القانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مقترحات من نقد الأدب - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس الطماء شبلى التعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندواى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شارازر	ت : أحمد محمود هويدي
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلابك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسنديز	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثويات حكيم سناتى	سناتى الفرزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فريفتان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدي عبد القنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصرقة قوميلين حتى رجل عد القصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنقونى جينز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سيلحت نامه إبراهيم بيك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - عولة السياسة العالمية	جون بايلس وستيث سميث	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على متوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كارلو ايشجورد	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية في الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابتر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارشيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	بيفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البريرى
٢٢٧ - المسرح الإيماني في القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مئزق البطل الوحيد	نورمان كيغان	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ - عن القباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سينسر تريمينجهام	ت : فؤاد محمد عكود

رقم الإيجاع ١٠٢١٧ / ٢٠٠١
مطابع المجلس الأعلى للآثار

